د. محمد فوزى رحيل

نهاية الصليبيين

(فتح عكا ٦٤٨ ــ ٦٩٠ هـ/ ١٢٥٠ ــ ١٢٩١م)

مكتبة المهتدين الإسلامية

د. محمد فوزى رحيل

نهاية الصليبيين

(فتح عكا ٦٤٨ — ٦٩٠ هـ/ ١٢٥٠ — ١٢٩١م)

للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

Bibliotheca Alexandrina
0943844

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

نهاية الصليبيين

(فتح عكا ٦٤٨-٦٩٠هـ/ ١٢٥٠-١٢٩١م)

دكتور

محمد فوزى مصرى رحيل

الطبعة الأولى

٢٠٠٩م

عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

al-maktabeh
www. .com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . قاسم عبده قاسم

المشرف العام :

د. قاسم عبده قاسم

المدير التنفيذى :

عمرو قاسم

مدير الانتاج :

جمال عابد

تصميم الغلاف: عمرو قاسم

بطاقة فهرسة

رحيل ، محمد فوزى مصرى .

نهاية الصليبيين : (فتح عكا ٦٤٨ -٦٩٠هـ / ١٢٥٠-١٢٩١م) محمد فوزى مصرى رحيل .- ط١ - القاهرة : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٩ .

٣٨٢ صفحة ؛ ١٧×٢٤سم

تدمك ٨ ٢٦٠ ٣٢٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الحروب الصليبية فى فلسطين والشام

٢- التاريخ الاسلامى

حقوق النشر محفوظة ©

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع. تليفون وفاكس ٣٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

web site: WWW.Dar-Ein.com / E-mail : dar_Ein@hotmail.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

إهـــداء

إلي أستاذي الدكتور / أحمد رمضان

عرفاناً ووفاءً جزاك الله عني خيراً..

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

طلب مني تلميذي الدكتور محمد فوزي رحيل، تقديم كتابه الذي نحن بـصدده، وقـد عرف الدكتور محمد بأنه دؤوب، فلا يشرع في عمل إلا وأتى عليه، كما وأن كتابه اختص بفترة إحدىوأربعين عاماً من عمر مملكة عكا الصليبية، وهي فترة لم يتناولها باحث أكـاديمي بالاهتمام. وحسنة الباحث تأصيله لموضوع بحثه على وجه يعز علي الكثيرين، من بـاحثي الحروب الصليبية، فقد ضم ملاحق كثيرة جلها نقل للعربية للمرة الأولى، كما وأن هـذا الكتاب هو باكورة أبحاثه في تاريخ الحرب الصليبية وهذا يحسب له. .

وما يلي هذا الاستهلال توقف القاريء الجاد أمام شح المادة العلمية إلي جانب قـصر الفترة التاريخية موضوع الدراسة، فهي صالحة لبحث وليس لكتاب، وأول ما يتبـادر إلى الذهن هو الإطالة والاستطراد إلا أن مؤلف هذا الكتاب لم يركن لأيهما فكان سبيله العبرة بالمقاصد والمعانى لا بالألفاظ والمبانى، إلا أنه عزف على أوتار الشجن وذلك يحق له لتعرضه لتاريخ نهاية التواجد الصليبي المقيت من بلاد الشام بعد أن جـثم علـى صـدر الـشرق الإسلامي قرابة قرنين إستنار بهما الغرب الأوربي من الإظلام، إلي حداثـة مـستنيرة، وأن كانت ظاهرية، وليست باطنية، وذلك لإضمار الغرب فكـرة النيـل مـن الـشرق، في العصرالحديث بالاستعمار، تارة وبحماية تارة أخرى، والاستعمار الاقتصادي تارة ثالثة، وهو الأنكى والأمر، وهو ما نعانيه في أيامنا هذه ناهيك عن الجسم السرطاني الإسرائيلي الـذي زرعوه في مكانهم الصليبي ليقف حجر عقبة أمام الوحدة الإسـلامية وبـالأحرى الوحـدة العربية .

ويحدوني في هذا المقام أن أشير أن المؤلف اتبع خطة رصينة مكنته من الإحاطة بموضوع بحثه محللاً ضعف الوجود الصليبي أو عدم التجانس الديموغرافي كما أبان المؤلـف أسـباب ضعف فكرة الحروب الصليبية، وأن الغلبة المملوكية على مملكة عكا الصليبية ليس مجـرد صراع عسكري انتهى بالنصرالمملوكي الشهير ولكن كان صراعاً اقتصاديا إلي جانب النزاع والتخاصم بين صليبي عكا.

http://www.al-maktabeh.com

وأخلص إلى أن هذا الكتاب قد أثرى المكتبة العربية إذ جاء في وقت يكـــاد أن يكـــون مشابهاً لزمن الحرب الصليبية، وأنني أكاد أن أجزم أن النصر المملوكي على صليبي عكـــا لم يكن من الخارج بل سبقه انهيار داخلي. وحسب المؤلف أن تقوم دار نشر يشار إليها بالبنان " دار عين" بنشر مؤلفه الأول ، والله ولي التوفيق.

أ.د. أحمد رمضان احمد

مكتبة المهتدين الإسلامية

المقدمـــة

باسم الله الذي بنعمته تتم الصالحات، ونصلي ونسلم على خير خلق الله، سيدنا محمد – صلي الله عليه وسلم– وبعد. فقد مثل النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي فصل الختام في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية، التي اصطلح علي تسميتها منذ مطلع القرن الثالث عشر بمملكة عكا؛ نتيجة لما ألم بالصليبيين في الساحل الشامي من تقلص رقعة مملكتهم علي يد السلطان صلاح الدين عقب معركة حطين ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، وفشل الحملة الصليبية الثالثة ٥٨٧-٥٨٨هـ (١١٩١-١١٩٢م) في استعادة القدس، وإن نجحت في انتزاع المنطقة الساحلية من يافا إلي صور بما فيها عكا، التي وقع عليها الاختيار لتكون عاصمة للمملكة بشكل مؤقت، لحين تمكن القوي الأوربية من إرسال حملة صليبية تتمكن من استعادة القدس، وبالرغم من تمكن فردريك الثاني بالوسائل الدبلوماسية من استعادة القدس عام ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) إلا أن العاصمة لم تعد إليها في ظل الاتفاق الذي ابقي المدينة بلا تحصينات تدافع عنها، ثم استرداد الصالح نجم الدين أيوب لها عام ٦٤٣هـ (١٢٤٤م)؛ وهو ما ثبت عكا عاصمة للمملكة الصليبية، فصار من المألوف بين الباحثين أن يطلقوا على مملكة بيت المقدس اسم مملكة عكا.

وإذا كان النصف الثاني من القرن الثالث عشر قد شهد تهاوي مدن وحصون مملكة عكا، فلم يكن ذلك من فراغ، بل نتاج لظروف داخلية أدت إلي ضعف وانهيار المملكة من الداخل، وأخري خارجية أدت إلي نجاح سلطنة المماليك في الإجهاز عليها من الخارج، تلك الظروف التي تطورت منذ عهد طويل حتى تبلورت وبلغت ذروتها بشكل صارخ في الفترة المذكورة، وعليه فإن أطروحتنا التي تحمل عنوان : " مملكة عكا الصليبية دراسة لعوامل الانهيار والسقوط (٦٤٨-٦٩٠هـ / ١٢٥٠-١٢٩١م)" تهدف إلي دراسة تاريخ مملكة عكا الصليبية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، بغرض الوصول إلي العوامل والظروف التي أدت إلي زوال هذا الكيان من الساحل الشامي، بعد أن جثم علي صدر المنطقة العربية قرابة القرنين من الزمان.

http://www.al-maktabeh.com

ومن أهم الأسباب التي دفعت الباحث إلي الاهتمام بهذا الموضوع، أن الدراسات العربية والأجنبية الحديثة – علي حد علمي– لتاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية، التي أصطلح علي تسميتها بمملكة عكا في القرن الثالث عشر، إن كانت قد درست تاريخ تواجد المملكة من عدة زوايا تركزت بصورة أساسية علي النواح السياسية، وإن تعرضت أحيانا لنواح اجتماعية أو اقتصادية، لكن لم تخصص إحداها لدراسة أسباب انهيار هذا الكيان في إطار كلي، بما يعطي صورة متكاملة توضح الظاهرة في إطار فلسفي مدعم بالأدلة العملية من الأحداث التاريخية، وإن أشارت عرضا إلي هذه الأسباب لكن في سياق مقتضب لا يشفي الغليل. ومن ثم وضع الباحث نصب عينيه أهدافا محددة أهمها تشريح أحوال مملكة عكا من الداخل للوصول إلي مصادر الخلل التي أدت إلي ضعفها، تلك المصادر التي كانت سببا في وهن المملكة، بجانب التعرف علي أصل تلك المصادر وهل كان مبدأها فجائيا أم هي نتاج لظواهر تطورت منذ عهد بعيد ولم تتبلور إلا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر.

كذلك لم يكتف الباحث بهدف تشريح المملكة من الداخل بل تعداه إلي دراسة المتغيرات الدولية التي حدثت في فترة الدراسة ؛ للتعرف علي أسباب تخلي أوربا عن دعم الكيان الصليبي بالشكل الكاف، وظهور قوة المغول وفشل مشروع تحالفهم مع الغرب الأوربي بالرغم من وحدة الهدف، وأخيرا ظهور دولة المماليك، ومصادر القوة التي تمتعوا بها ومكنتهم من تصفية المملكة ككل بحلول عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م).

أما عن حظ الموضوع من الدراسات السابقة، فكما أشرت لم تهتم دراسة بعينها بموضوع البحث، ولكن تناثرت الإشارات إلي أسباب انهيار الكيانات الصليبية بصفة عامة دون تخصيص لمملكة عكا، في عدد من الدراسات الأجنبية والعربية في معرض حديثها عن تاريخ التواجد الصليبي في المنطقة مثل كتاب "تاريخ الحروب الصليبية" للمؤرخ الإنجليزي رنسيمان، ومؤلفي جروسيه الفرنسي، وماير الألماني، الذين يدرسان نفس الموضوع، ومن الدراسات العربية "الحركة الصليبية" للأستاذ الدكتور سعيد عاشور، و"ماهية الحركة الصليبية" للأستاذ الدكتور قاسم، والحروب الصليبية للأستاذ الدكتور محمد مؤنس أيضا ألمح الدكتور عادل هلال في رسالته لنيل درجة الماجستير التي حملت عنوان Sultan Al-Mansour Qalawun's Policy with the Latin States of Syria 1279-90 and the

مكتبة المهتدين الإسلامية

"Fall of Acre" إلي عدد من الجوانب التي أدت إلي انهيار الإمارات الصليبية بصفة عامة دون تخصيص مملكة عكا بالتفصيل.

أما عن مشكلات الدراسة، فقد تعددت وتنوعت كالتالي:

المشكلة الأولي: قصر فترة الدراسة الزمنية، التي لم تتجاوز الواحد والأربعين عاماً، وندرة ما دونته المصادر عن أحوال مملكة عكا الداخلية خلال هذه الفترة، فقد افتقدت المملكة في تلك الفترة المؤرخ الذي يجيد تدوين تاريخها بالشكل اللائق ويفصل ما جري وما قد كان كما فعل وليم الصوري مع مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر، وما دونه جاء مقتصرا مقتضبا، في إطار التذييل علي كتاب ليم الصوري، لكن مدوني تلك الذيول لم تصل قامتهم بأي حال من الأحوال لقامة وليم الصوري، خاصة أن كلهم مجهولون، ولم يكن أحد منهم يوماً قريباً من موقع صنع القرار، ولم يجيدوا العربية، فيما عدا داوي صور المجهول، وبالتالي غمض عليهم تفسير كثير من الظواهر.

المشكلة الثانية: تمحور المدونات التاريخية حول أمور سياسية، مغفلة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية، وهي أمور ذات دور فعال في التأثير علي الكيانات السياسية في حالي القوة والضعف، وهو ما مثل مشكلة في تتبع دوري الاقتصاد والمجتمع في انهيار المملكة من الداخل.

المشكلة الثالثة: الدور البارز للعوامل الخارجية والتغيرات الدولية في سقوط المملكة وهو ما ألجئنا إلي تتبع هذه العوامل في مصادر التواريخ الأوربية سواء في فرنسا أو انجلترا أو لدي البابوية والمدن الإيطالية، بالإضافة إلي مصادر تاريخ الأرمن والمغول.

المشكلة الرابعة، النطاق الجغرافي: فبرغم من صغر النطاق الجغرافي لرقعة المملكة في فترة الدراسة، إلا أن نطاق الدراسة كان أوسع بكثير، فقد اتسع ليشمل بلاطات البابوية وملوك فرنسا وانجلترا وألمانيا والإمبراطورية البيزنطية، ودولة المغول وما تمخض عن تفتتها من مغول الإلخان والقفجاق والجغطائيين، وأتباعها من حكام الأرمن، ولكل منطقة مصادرها الخاصة، وهو ما احتاج إلي مهارة خاصة في انتقاء ما يخدم الدراسة في مدونات تواريخ هذه المناطق دون غيرها.

http://www.al-maktabeh.com

المشكلة الخامسة: أن المصادر الإسلامية المعاصرة، وإن أفادت في إلقاء الضوء علي تتابع الفتوح المملوكية للمعاقل الصليبية، لم تهتم كثيرا بأحوال الصليبيين الداخلية، وإن لم تغفلها بصورة تامة، ومن ثم كان علينا تتبع الظواهر في مصادر الجانبين الصليبي والإسلامي لتأصيل كثير منها.

المشكلة السادسة: الطابع الرسمي لمصادر تاريخ مملكة عكا، ففي فترة الدراسة مثل كثير من الفترات، ما دون هو تاريخ الحكام، وما ورد في المصادر عن عناصر مملكة عكا، لا يتجاوز كلمات متناثرة هنا أو هناك، وهو ما كان يحتاج إلي جهد كبير في سبيل تجميع تلك المتناثرت، واستخدام المنهج المقارن في سبيل رسم صورة أقرب إلي الواقع عن دور مشكلات المجتمع في ضعف المملكة.

المشكلة السابعة: ذكورية التاريخ، وهي مشكلة عامة تشترك فيها جُل الدراسات التاريخية، فقد غلب ذكر الرجل علي المدونات التاريخية بحكم كونه المدون الأول لها، وفيما يخص موضوع البحث قلم تتعرض المصادر لدور المرأة إلا في سياق مشكلة توريث عرش المملكة، وفيما عدا ذلك فلا ذكر لها، وقد صمتت المصادر صمتا تاما حيال موقفها من تردي حال المملكة في فترة الدراسة، بالرغم من أنها كانت عنصراً فعالاً موجوداً مؤثرا في أحوال المجتمع، وهو ما أشار يعقوب الفتري إلي بعض جوانبه، كما أشار داوي صور المجهول إلي نتف عنه في مرثيته لفتح عكا.

وفيما يتعلق بمنهج الدراسة، فيقوم علي محورين، المحور الأول دراسة العوامل الداخلية لانهيار المملكة من الداخل، أما المحور الثاني فيهتم بدراسة العوامل الخارجية التي ساعدت علي إسقاطها من الخارج، وفي سبيل تحقيق هذين الغرضين، اتبع الباحث طريقة غير معتادة في الدراسات التاريخية، وهذه الطريقة تتمثل في إتباع طريقة المنطقيين في تحديد المشكلة، ثم وضع عدة فروض لحلها، ثم دراسة هذه الفروض ومدي مطابقتها للواقع،بخلاف الدراسات التاريخية التي ألفت تتبع أحداث العصر والتحليل المتتابع لهذه الأحداث بصورة متوالية كل في .موضعه ثم التحدث عن النتائج في النهاية. أما عن مشكلتنا فهي الإجابة علي تساؤل طرح نفسه وهو لماذا انهارت مملكة عكا الصليبية أمام الاجتياح المملوكي في النصف الثاني .من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)؟ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

أما فروض حل المشكلة فهي وجود عوامل داخلية تتعلق بنظام الحكم ومشاكل في الاقتصاد وصراعات داخلية ومشكلات في البنية الاجتماعية، بجانب متغيرات دولية ساهمت من قريب أو بعيد في سقوط تلك المملكة. وفي سبيل إنجاز هذه الأهداف استخدم الباحث عدة مناهج متنوعة: منها المنهج الاستقرائي، في سبيل استنطاق النصوص واستخراج ما سكتت عنه حروف المصادر، والمنهج الكمي الذي ساعد علي الوصول إلي كثير من النتائج الجديدة من خلال استخدام النماذج البيانية والوسائل الكمية، بالإضافة إلي منهجي المقارنة، والوصف السردي. كما لجأ الباحث في كثير من الأحيان إلي استخدام طريقة الرجع التاريخي لتأصيل كثير من أسباب انهيار المملكة خاصة ما تميز منها بالتأصل في جسد التواجد الصليبي منذ البداية وبالأخص الأمراض الاجتماعية والجرائم الخطيرة.

وقد تم تقسيم الدراسة إلي ستة فصول، مسبوقة بمقدمة ودراسة نقدية لأهم المصادر والمراجع التي استقيت منها مادة البحث، وتمهيد، وتعقبهم الخاتمة والملاحق وقائمة المصادر والمراجع، تناولت في التمهيد ظروف انتقال عاصمة مملكة بيت المقدس من القدس إلي عكا، وعوامل فشل حملة لويس التاسع علي مصر باعتبارها أخر الحملات الصليبية الكبرى التي سعت لإنقاذ مملكة عكا من الهاوية المندفعة إليها، وأخيرا الخريطة السياسية لمصر والشام عام بدء الدراسة.

أما عن الفصل الأول، فيحمل عنوان " مشاكل توريث عرش المملكة " ويدرس نظام وراثة العرش في المملكة، وآثار هذا النظام في انهيار المملكة من الداخل مما يسر مهمة المماليك في إسقاطها من الخارج، وتناولت فيه إطلالة سريعة علي نظام توريث العرش في المملكة الصليبية قبل ٦٤٨هـ (١٢٥٠م)، ثم تعرضت لظروف صار فيها لويس التاسع ملكا غير متوج على عرش مملكة عكا،ثم ما نتج عن رحيله من فراغ سياسي في ظل غياب صاحب الحق الشرعي وهو كونراد بن فردريك الثاني، ثم ولده كونرادين، وهو ما أفسح المجال للصراع بين نبلاء المملكة علي الوصاية علي العرش فآل إلي ملك قبرص هيو الثاني تحت وصاية أمه، باعتباره الأقرب نسبا من الملك الغائب في أوربا، ثم تعرضنا للمنعطف الذي دخلت فيه المملكة من جراء أعدام كونرادين عام ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) وما تمخض عن إعدامه من صراع علي عرش المملكة، بين هيو الثالث ملك قبرص وماري الأنطاكية، وما أسفر عنه هذا الصراع من نجاح هيو الثالث في تولي العرش بمساندة المحكمة العليا في

http://www.al-maktabeh.com

عكا، ولجوء ماري إلي روما لعرض قضيتها أمام البابوية، تلا ذلك الظروف التي أدت إلي ضعف سلطة الملك هيو الثالث في مملكة عكا وما نتج عنه من يأسه من المملكة ومغادرته لها، وتمكن نائب شارل أنجو من الحصول علي اعتراف قطاع كبير من قوي المملكة بشرعية حكم شارل لها بحكم تنازل ماري عن حقها بسعاية جريجوري العاشر حتى يحول نظر شارل أنجو عن أطماعه في الإمبراطورية البيزنطية، ثم ظروف عودة حكم آل لوزجنان مرة أخري إلي عكا كنتيجة طبيعية لانهيار مملكة شارل أنجو، وفقدان أمل الشرق اللاتيني في وصول أي عون من الغرب فلم تجد المملكة بد من العودة إلي الخضوع الاسمي لحكام قبرص علي أمل أن يكونوا آخر طوق نجاة لها، وأخيرا أثر مشاكل وراثة العرش في مملكة عكا علي استقرارها، وتيسير مهمة سلاطين المماليك في كتابة الفصل الختامي من تاريخ المملكة وتاريخ الصليبيين في الشرق.

وحمل الفصل الثاني عنوان " التراجع الاقتصادي ودوره في انهيار المملكة "، ويدرس هذا الفصل ظروف تراجع وتدهور قطاعات الاقتصاد الصليبي وأثر هذا التراجع في تضعضع كيان المملكة من الداخل نتيجة لتراجع إمكانيات المملكة الزراعية، وتدهور الصناعة نتيجة لقلة الخامات واضطراب الأمن وقلة الأيدي العاملة، وأخيرا تقلص عائدات التجارة في ظل ظروف الحروب الأهلية في المملكة و الغزو المغولي وأثره في خطوط التجارة العالمية وجهود مصر لتنمية القطاع التجاري فيها بالطبع علي حساب التجارة في مواني مملكة عكا.

في حين عنون الفصل الثالث باسم " الصراعات الداخلية وأثرها علي انهيار المملكة "، تعرضت فيه لأهم الصراعات الداخلية التي اشتعلت في المملكة، وأهمها الصراعات بين التنظيمات الدينية من اسبتارية وداوية وتيوتون، تلك الصراعات التي أظهرت انحراف هذه الهيئات عما أعلنته حال قيامها من الدفاع عن المملكة ضد المسلمين المتربصين بها الدوائر، في حين أنها تصارعت فيما بينها للحصول علي مكاسب دنيوية بحتة.

أما الصراع الثاني فتمثل فيما دار بين الجاليات الإيطالية في مدن ومواني المملكة في ظل سبقها المحموم بغية الانفراد بالسيطرة علي مواني المملكة، وما أفضت إليه هذه الصراعات من حرب أهلية تركت المملكة عاجزة عن الدفاع عن نفسها في وقت كانت دولة المماليك فيها قد استقرت أحوالها واستعدت للإجهاز عليها، وأخيرا الصراع الذي دار بين نبلاء المملكة المسيطرين علي المحكمة العليا وبين أصحاب السلطة الشرعية سواء من آل

مكتبة المهتدين الإسلامية

هوهنشتافون أو من آل لوزجنان، بغية بقائهم أحرار بلا قيد ولا كابح بحيث يدبرون أمورهم بما يتوافق مع مصالحهم بصرف النظر عن النتائج، وأخيرا أثر هذه الصراعات في تدهور أوضاع المملكة في مواجهة دولة المماليك.

أما الفصل الرابع فيدرس أبرز " مشكلات المجتمع الصليبي " وعلي رأسها عدم التجانس السكاني، والتناقص المستمر في أعداد السكان، وما أدت إليه الطبقية من مشاكل، ثم التعصب ورفض الآخر، ويشمل موقف التعصب ضد المسلمين المعتدي عليهم المنهوبة أرضهم أو ضد بعضهم البعض بحيث صارت مملكة عكا ممالك تتصارع فيما بينها كل يبحث عن مصلحته بصرف النظر عن صالح المملكة العام، ويشمل كذلك مفاسد رجال كنيسة التي وجهت إليها كثير من النقد حتى من قبل رجال الدين أنفسهم، ثم ارتفاع معدلات الجريمة، وأخيرا آثار ذلك كله علي بناء المملكة الداخلي.

الفصل الخامس، دار حول " الاعتماد علي أوربا " عرضت فيه لأحوال القوي الأوربية الكبرى في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، تلك الأحوال التي منعت خروج حملات صليبية كبري لمساندة مملكة عكا، وباقي الكيانات الصليبية في الساحل الشامي، مما تركهم جميعا بلا دعم في مواجهة قوة سلطنة المماليك الفتية، التي أرادت إثبات وجودها علي الساحة باعتبارها درع الإسلام والمسلمين، ذلك الدرع الذي يدعمه التصدي للمغول وتصفية الوجود الصليبي في المنطقة. كما درست فيه أسباب ضعف أيديولوجية الحروب الصليبية، وأخيرا استجابة أوربا للتحديات التي واجهت مملكة عكا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر.

وشمل الفصل السادس والأخير الذي حمل عنوان " فشل مشروع التحالف الصليبي المغولي وصعود دولة المماليك البحرية " محورين: المحور الأول درس مراحل مشروع التحالف الصليبي المغولي مع التركيز علي عوامل فشل المشروع في مرحلتيه واثر ذلك علي مملكة عكا. أما المحور الثاني فقد تعرض لصعود قوة دولة المماليك البحرية، ومصادر قوتها البارزة، ثم وسائل تصفية معاقل مملكة عكا الصليبية، التي لم تقتصر علي القوة العسكرية بل شملت أيضا الدبلوماسية المملوكية.

وأخيرا فإنني أحمد الله عز وجل، الذي مكنني من إنهاء هذا العمل، ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتوجه بخالص شكري وتقديري وعظيم امتناني إلي الأب الرحيم والأستاذ

http://www.al-maktabeh.com

الجليل، الأستاذ الدكتور/ أحمد رمضان أحمد، الأستاذ المتفرغ بقسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة عين شمس، الذي شرفت بالتتلمذ علي يديه في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، فكان له الفضل الأكبر في تكويني العلمي، ووضعي علي أول طريق البحث العلمي في مجال الدراسات التاريخية، وأبداً لم يبخل بالنصح والإرشاد في كل مراحل إعداد الرسالة، فكان نعم الأستاذ وخير الموجه، ولا أملك إلا أن أقول له :"جزاك الله عني وعن زملائي كل خير، وجعله في ميزان حسناتك".

كما أتوجه بعظيم تقديري، إلي الأستاذ الدكتور/ محمد مؤنس عوض، أستاذ تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب جامعة عين شمس، وكلية الآداب و العلوم بالشارقة، الذي رشح لي موضوع هذه الدراسة، وأشرف علي طوال عامين كاملين قبل سفره إلي الخارج، وبالرغم من سفره هذا إلا أنه ذو أياد بيضاء علي هذا العمل بدء من إمداد الباحث بكثير من الكتب من مكتبته العامرة، وانتهاء بالنصح والإرشاد والتوجيه.

وخالص الشكر إلي أستاذ أساتذة العصور الوسطى الأستاذ الدكتور/ اسحق عبيد تاوضروس الذي تفضل بالموافقة علي تقييم عملي المتواضع ومناقشته بالرغم من مشاغله الجمة ومهامه العديدة، وأيضا شكري وتقديري إلي لأخ العزيز الدكتور أسامة سيد علي أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بكلية الآداب جامعة قناة السويس، الذي جمع بيني وبينه التتلمذ علي يد الأستاذ الدكتور أحمد رمضان، علي مشاركته في تقييم ومناقشة هذه الرسالة فله مني كل الشكر وعظيم الامتنان.

كما أتوجه بخالص الشكر إلي عدد من الأساتذة والزملاء، من بينهم الدكتور/ الأمين أبو سعدة- الدكتور/ حاتم الطحاوي – الدكتور/ حجازي عبد المنعم – الدكتورة/ زينب عبد المجيد – الدكتور عبد العزيز رمضان- الدكتورة/ عفاف سيد صبره – الدكتور/ عاصم عطية علي- الدكتور/ علي السيد علي – الدكتور/ علي أحمد السيد – الدكتور/ يحيى العباسي- الدكتور/ محمد صادق الكاشف- والأب/ منصور مستريح، الأستاذ أحمد عبد الله، والأستاذ/ سليمان قنديل، والأستاذة هنادي السيد محمود.

وعظيم شكري وامتناني لعدد من السادة العاملين بمكتبات الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وفي مقدمتهم الأستاذ/ عماد عبده حنا كبير الأخصائيين بالمكتبة، الذي بذل جهداً كبيراً في

مكتبة المهتدين الإسلامية

سبيل الحصول علي عدد كبير من الدراسات والأبحاث الغير متوفرة في مصر، والأستاذ/ يسري عبد العظيم خبير التصنيف بالمكتبة والمترجم القدير، الذي تفضل بمراجعة ملاحق الرسالة المترجمة عن الإنجليزية ، وكذلك شكري للعاملين بمكتبات دير الآباء الفرنسيسكان ودير الآباء الدومنيكان الذين قدموا لي خدمات جليلة أثناء جمع المادة العلمية، ومكتبة كلية الآداب، والمكتبة المركزية بجامعة عين شمس، وكذلك المكتبة المركزية بجامعة القاهرة. وعدد من المكتبات الأجنبية التي قبلت إعارتي عدداً من الأبحاث والدراسات التي تعذر علي الوصول إليها في مصر من بينها المكتبة الوطنية باستراليا National Library of Australia، ومكتبة فان بلت Van Pelt Library بجامعة بنسلفانيا University of Pennsylvania، ومكتبة جامعة مينسوتا University of Minnesota ومكتبة جامعة ميتشجان University of Michigan.

وبعد، فتلك ثمرة جهدي المتواضع، وقدرتي المحدودة، فإن أصبت فمن الله، ثم مما تعهدني به أستاذي الغالي من رعاية وتوجيه وتقويم، ولي أجر المجتهدين المصيبين: أجر الاجتهاد وأجر الاصابة، وإن قصرت، فحسبي أجر الاجتهاد، " وفوق كل ذي علم عليم".

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

تمهيـــد

- انتقال حاضرة بيت المقدس إلى عكا.
- عوامل فشل حملة لويس التاسع علي مصر.
- الخريطة السياسية لمصر والشام ٦٤٨هـــ (١٢٥٠م).
- القوي الإسلامية.
- الكيانات الصليبية.

وقفت أوربا قاطبة خلف المشروع الصليبي منذ الدعوة إليه في نهايـــة القـــرن الخـــامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ،وحتى تمام نضجه بظهور الكيانات الصليبية في بلاد الشام، وتولته بالرعاية والدعم، فلما سقطت آخر هذه الكيانات في نهاية القرن الـــسابع الهجـــري (الثالث عشر الميلادي) حزنت عليه وبكته طويلاً، وترســـب في العقـــل الأوربي ضـــرورة استعادته من جديد، وطالما سطرت الدراسات والأبحاث في الجامعات الأوربية حول هـــذه التجربة الاستعمارية في العصور الوسطى، حتى ظهرت الموجة الاستعمارية في مطلع العصور الحديثة محاولة اقتفاء أثر الحروب الصليبية لتحقيق أغراضها الاستعمارية في ثوب جديد.

وفي هذا التمهيد سوف نتعرض لأمور ثلاثة، لا مندوحـــة عنـــها كمـــدخل لموضـــوع دراستنا حول عوامل انهيار مملكة عكا الصليبية وسقوطها في النصف الثـــاني مـــن القـــرن الثالث عشر الميلادي، و هذه الأمور هي: الظروف التي انتقلـــت فيهـــا حاضـــرة مملكـــة بيت المقـــدس إلى مدينـــة عكـــا[1]. ثم الظـــروف الـــتي أدت إلى فـــشل حملـــة لـــويس

---

(١) عكا: بفتح العين المهملة وتشديد الكاف المفتوحة وألف في الآخر، وتكتب عكا وعكة، تقع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، إلى الجنوب من صور، شمال غرب طبرية، وتمتد في خليج يافا على شكل شبه جزيرة، يحدها البحر من الجنوب والغرب، وكانت المدينة مشيدة فوق مرتفع من الأرض خشية لأن تغرقها مياه السيول، وكانت تطل من جهة البر على سهل فسيح غني بمنتجاته الزراعية، يحميه عدد من التلال المرتفعة من الـــشمال والـــشرق والجنوب، وميناؤها يشبه الإسطبل، ولها حائطان داخلان في البحر، ولها مدخل مفتوح طوله خمسون ذراعاً، ومدخل الميناء محمي بسلسلة تغلق وتفتح، وكانت المدينة محاطة بسور ضخم من جهتي الشرق والشمال، وكان من الـــسهل السير فوقه نظراً لاتساعه الذي كان يتسع لاثنين من العربات متجاورتين، وكان له عدة أبوب كل منـــها محـــاط ببرجين. لمزيد من التفاصيل عن موقع عكا وتحصيناتها انظر:

http://www.al-maktabeh.com

التاسع[١] الصليبية المعروفة اصطلاحاً بالحملة الصليبية السابعة[٢]. وأخيراً إطلالة على الخريطة السياسية لمصر والشام حال فشل حملة لويس التاسع عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) وهو عام بدء الدراسة.

فمن المعروف أن الحملة الصليبية الأولى استطاعت أن تؤسس أربعة كيانات صليبية هي بترتيب النشأة: إمارة الرها ٤٩٢هـ (١٠٩٨م)، ثم إمارة أنطاكية في العام نفسه، ثم مملكة بيت المقدس ٤٩٣هـ (١٠٩٩م)، ثم إمارة طرابلس ٥٠٢هـ (١١٠٩م)[٣] وذلك في

= ناصر خسرو، سفر نامه، ترجمة، يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٦١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٥٢. انظر أيضاً

Burchard of Mount Sion , P.9; Ludolph Von Suchems, Description of the Holy Land, pp.50-51. Cf. also, Jacoby (David), "Acre", in The Crusades An Encyclopedia, Oxford, 2006, pp.9-11.

وأيضاً: لطيفة البوعنين، الحياة الاقتصادية في عكا زمن الحروب الصليبية، ٤٩١-٦٩٠هـ (١٠٩٧-١٢٩١م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب بالدمام، ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م)، ص٢٧-٣٢.

(١) لويس التاسع Louis IX: ولد عام٦١٢ هـ (١٢١٥م) في مدينة بويسي Poissy قرب باريس، ابن لويس الثامن Louis VIII وبلانش القشتالية Blanche of Castille. توفي والده وهو ابن أحد عشر عاماً فصارت أمه وصية عليه منذ ٦٢٤هـ (١٢٢٦م) حتى ٦٣٢هـ (١٢٣٤م)، تزوج من مارجريت البروفنسالية Marguerite of provence التي ولدت له أحد عشر ولداً. وقد تمكن لويس من قلب الميزان السياسي بين إنجلترا وفرنسا لصالح بلاده، كما قام بحملتين صليبيتين الأولى على مصر والثانية على تونس التي توفي على أثرها عام٦٦٩هـ (١٢٧٠م)، فضلاً عن قيامه بعدة إصلاحات تشريعية وتعليمية وترك عدة منشآت معمارية، وعد منذ عام ٦٩٧هـ (١٢٩٧م) في عداد القديسين. حول سيرة لويس التاسع انظر: جوانفيل، القديس لويس. انظر أيضاً:

Guillaume de Saint-Pathus, Vie de Sainte Louis, par H. Francois Delaboroe , Paris, 1899. Cf also, Attwater (donald), The Penguin Dictionary of Saints, London, 1983, pp.213-214; Jones (J. Sydney), The Crusades Biographies, ed. By Marica Merryaman and neil Schlager, London, 2005, pp. 139-146; Goyad (Gorge), St. Lous, trans. by Paul T. Crowly, in C.E., on: http//:www.newadvent.org.

(٢) هناك فريق من مؤرخي الحروب الصليبية الحديثين يرون أن ترقيم حملة لويس على مصر والشام برقم ستة، نظراً لاعتبارهم حملة فردريك الثاني عام ٦٢٥هـ (١٢٢٨م) حملة غير صليبية، نظراً لأنها خرجت والإمبراطور فردريك محروم من قبل البابوية. حول تلك النظرة راجع على سبيل المثال لا الحصر:

King, The Knights Hospitallers , p240.

(٣) حول الحملة الصليبية الأولى وتكوين الإمارات الصليبية انظر من المصادر الأوربية:، مجهول، أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ترجمة د.حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٨م؛ ريموندا جيل، تاريخ

مكتبة المهتدين الإسلامية

ظل التمزق السياسي والصراعات العرقية والمذهبية التي شملت شتى أنحاء العالم الإسلامي[١]، لكن مع نمو روح الجهاد الإسلامي ظهرت زعامات إسلامية جديدة بذلت جهوداً مضنية للقضاء على الاحتلال الصليبي، وعلى رأسهم عماد الدين زنكي[٢] الذي تمكن عام (٥٣٩هـ)١١٤٤م من القضاء على إمارة الرها[٣]، ثم حمل لواء الجهاد من بعده ولده نور

=الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة د.حسين عطية، الإسكندرية، ١٩٨٩م؛ وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج١ ترجمة د.حسن حبشي، القاهرة، ١٩٩١م؛ بطرس توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة د.حسين عطية، الإسكندرية، ١٩٩٨م؛ فوشيه الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ترجمة وتعليق د.قاسم عبده قاسم، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٧٧-١٥٢. انظر أيضا:

Annnales de Terre Saint, p 429-430.

ومن المصادر العربية راجع: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، دار صادر، بيروت، ٢٨١-٤٧٠؛ الحريري، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٢٣، تحقيق د.سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٥م، ص٣١٨-٣٢١.

(١) حول أحوال العالم الإسلامي إبان الغزو الصليبي انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧١م، ٤٠-١٠٠؛ علية الجنزوري، الحروب الصليبية، المقدمات السياسية، القاهرة، ١٩٩٩م؛ ص ٧٧- ٢٤٤؛ محمد فوزي رحيل، إمارة بني مزيد أمراء الحلة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٣م.

(٢) عماد الدين زنكي: فهو عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله آل ترغان: من قبيلة ساب يو التركية، حظي والده آق سنقر بمكانة سامية عند السلطان بركياروق فولاه حلب، لكنه لقي مصرعه عقب هزيمة على يد تتش بن ألب أرسلان عام ٤٨٧هـ(١٠٩٤م) وهو ما جعل السلطان بركياروق يتعهد زنكي بن آق سنقر بالحماية والرعاية منذ أن توفي والده، وهو في العاشرة من عمره وقد نشأ زنكي نشأة عسكرية في رعاية عدد من قادة السلطان بركياروق وقد شارك زنكي مودود في جميع معاركه مع الصليبيين ودخل في خدمة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاة، وشارك آق سنقر البرسقي في معاركه مع الأمير " دبيس الثاني " كما شارك الأمير مودود في حملاته على الصليبيين واظهر فيها بسالة، كل ذلك أهله لأن يوليه السلطان محمد بن ملكشاة حكم الموصل عام ٥١٦هـ(١١٢٢م) وبعدها تركزت جهوده في توحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الصليبيين التي كللت بفتح الرها. عنه انظر: ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، جـ٩، حيدر أباد، الهند، ١٣٥٨هـ، ص ٧٦، ٧٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ١٠، ص٢٣٢ - ٢٣٣. راجع أيضا:

عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي، بيروت، ١٩٧١م؛ علية الجنزوري، إمارة الرها الصليبية، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٢٦٦-٢٦٧؛ محمد فوزي رحيل، المرجع السابق، ص١٨٣-١٨٤.

(٣) حول فتح عماد الدين زنكي للرها انظر: وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٣، ص٢٣٨-٢٤٠؛ ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص ٨٦؛ علية الجنزوري، إمارة الرها، ص٣٠٠- ٣١٤.

http://www.al-maktabeh.com

الدين محمود[١] ليسرع من خطى الوحدة، و توفي ودولته تضم خمس عواصم في آن واحد هي: دمشق والرها وحلب والموصل و أخيراً القاهرة [٢] ليواصل صلاح الدين الأيوبي الطريق من بعده موحداً لمصر والشام ومحققاً حلماً طالما راود المسلمين، ألا وهو فتح بيت المقدس في ٢٧من رجب ٥٨٣هـ (١٢من أكتوبر ١١٨٧م)[٣] بعد النصر المظفر في حطين يوم ٢٤ من ربيع الثاني ٥٨٣هـ (٤ من يوليو ١١٨٧) تلك المعركة التي فقدت فيها مملكة بيت المقدس زهرة جيوشها وخيرة شبابها، فقد دمر الجيش الصليبي بالكامل، ليس هذا فحسب بل أسر ملك بيت المقدس جاي لوزجنان Guy of Lusignan [٤]وكبار بارونات

---

(١) نور الدين محمود: هو ابن عماد الدين زنكي وخليفته في قيادة المقاومة الإسلامية في مواجهة الصليبيين، ولد عام ٥١١هـ وعزز ورسخ جهود أبيه في توحيد الجبهة الإسلامية استطاع ضم دمشق إلى الجبهة الإسلامية كما استغل مشاكل مصر وتدخل في شئونها الداخلية بإرساله أسد الدين شيركوه الذي تولي الوزارة الفاطمية وتوفي وخلفه ابن أخيه صلاح الدين الذي قضي على الخلافة الفاطمية عام ٥٦٧هـ (١١٧١م) أحس نور الدين بخطره أوشك الوضع على المواجهة بين القائد وتابعه لولا أن وافاه المنية نور الدين محمود عام ٥٦٩هـ (١١٧٤م) فحمل صلاح الدين اللواء من بعده. حول نور الدين محمود ودوره في المقاومة الإسلامية.عنه انظر:

ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٥، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ١٩٦٨م، ص١٨٤-١٨٩؛ حسن حبشي، نور الدين والصليبيون، القاهرة، ١٩٤٨م؛ محمد مؤنس، في الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

(٢) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١٤٥.

(٣) حول فتح القدس على يد صلاح الدين انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ١١، ص٥٣٩- ٥٤١؛ العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ١٢٢-١٣٦؛ مجهول، ذيل وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٠٦-١٣٠.

(٤) جاي لوز جنان: نبيل من اصل فرنسي تزوج من سيبلا بنت الملك عموري الأول، وصار ملكاً على مملكة بيت المقدس عام ٥٨٢هـ (١١٨٦م) ووقع في الأسر يوم حطين، وبعد وفاة زوجته دخل في صراع على العرش مع كونراد مونتفرات Conrad of Montferrat، ثم تخلى عن عرش بيت المقدس في مقابل ملكيته على قبرص. انظر:

مجهول، ذيل وليم الصوري، متفرق. وانظر أيضا:

Ernoul, Chronique d'Ernoul, pp.172-186, Cf. also, Mas Latrie, Histoire de l'île de Chypre Sous le regne des princes de la maison de Lusignan ,tom. 1 , Paris, 1861, PP. 1-42.

راجع أيضا، سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٢١-٣٥.

مكتبة المهتدين الإسلامية

المملكة[1]، وبعده تمكن صلاح الدين من فتح جُل مدن مملكة بيت المقدس وقلاعها، ولم يتبق بعد حطين وتوابعها في يد الصليبيين سوى صور وأنطاكية وطرابلس وبعض الحصون المتناثرة في بر الشام[2]، ومن بين المدن التي فتحها صلاح الدين كانت عكا التي فتحها يوم ١٠ مـن يوليو ١١٨٧م [3].

غير أن أوروبا جاء رد فعلها في صورة الحملة الصليبية الثالثة، التي قادها ثلاثة من كبـار ملوك أوربا، وهم: الإمبراطور الألماني فردريك بارباروسا Ferderick I Barbarossa [4]، و

---

(١) حول معركة حطين انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٥٣٩-٥٤١ ؛ ابن شداد، سـيرة صلاح الدين، دار بن خلدون الإسكندرية، د. ت، ص ٥٩- ٦٢؛ العماد الأصفهاني، الفتح القـسي، ص ٥٩-٨٤، مجهول، ذيل وليم الصوري، ٨٩.

L'Estoire de Eracles , P 65 ; Amadi, Chronique D'amadi , Publiees par De Mas Latrie, Paris, 1861, p. 58 f. Cf. also, Nicolle (David), Hattin 1187 Saladin Greatest Victory, Oxford, 2005; King , The Knights Hospitallers , p 128.

راجع أيضا: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٨٠٦-٨٠٩؛ ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الدين غانم، طرابلس – ليبيا، ١٩٩٠م، ص ١٨١-١٨٣

(٢) قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية، ص ١٤٨.

(٣) الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٨٨-٩١ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٢٤٣-٢٤٤، المقريـزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١،ق١، ص١، ٩٥؛ سعيد عاشور: المرجع السابق، ج ٢، ص ٨١٣.

King, The Knights Hospitallers , p 129

(٤) فردريك باربا‌روسا: ملك ألمانيا وإمبراطور الرومان بن فردريك السوابي ولد عام٥١٧هـ (١١٢٣م) وشارك عمه كونراد الثالث في الحملة الصليبية الثانية٥٤٣هـ (١١٤٨م)، وتـولي الحكـم عـام٥٤٧هـ (١١٥٢م) ودخل في صراع طويل مع البابوية من أجل توسيع دائرة نفوذه ورقعة بلاده عقب وفاة البابا اوربـان الثالث عام ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، ومن ثم تيسر له الاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة فحمل الصليبي عام٥٨٤هـ (١١٨٨م) وفي طريقه نحو فلسطين نزل ليستحم في أحد أنهار أسيا الصغرى فغرق في ٥٨٦هـ (١٠ يونيـو ١١٩٠م)، عنه انظر: أتو أسقف فريزنج، ماورد لدي أتو أسقف فريزنج عن الحروب الصليبية، ترجمة د.سـهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٢٨، دمشق، ١٩٩٧م، ص٣٤٥-٣٦١؛ مجهول، ذيـل ولـيم الـصوري، ص١٦٣-١٧٤ راجع أيضا: رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٠-٣٣، سعيد عاشور، أوربـا العـصور الوسطى، ج ١، القاهرة، ١٩٩١م، ص٣٧٥-٣٨٧؛ مايز، تاريخ الحملات الصليبية، ج ١، ص ١٤٩-١٥١.

راجع أيضا :

Hauck, Friedrich Barbarossa als Kirchenpolitiker ,Leipzig, 1898; WOLFRAM, Friedrich I. und das Wormser Konkordat ,Marburg, 1883;

Kampers, Frederick I Barbarossa , in CE, http://www.newadvent.org /cathen /04543c / htm/cathen/06252b.htm.

http://www.al-maktabeh.com

ريتشارد الأول ملك إنجلترا Richard I the Lion Heart (١) وفيليب أوغسطس Philip II Augustus (٢) ملك فرنسا، وبرغم ضخامة الحملة إلا أن الإنجاز الوحيد الذي حققته هو الاستيلاء على عكا والشريط الساحلي حتى يافا، فضلاً عن جزيرة قبرص(٣)، وانتهت الحملة بتوقيع صلح الرملة مع صلاح الدين ٥٨٨هـ (١١٩٢م)(٤). ونتج عن الحملة

---

(١) ريتشارد قلب الأسد: هو ابن هنري الثاني ووريثه في حكم إنجلترا، اعتلي سدة الحكم في ١١٨٩م وما لبث أن خرج للمشاركة في الحملة الصليبية الثالثة، وبعد عودته من الشرق دخل في حرب طويلة مع فرنسا للمحافظة على أملاكه الأوربية حتى توفي على أثر جرح بالغ وتوفي عام ١١٩٩م عنه انظر:

امبرويز، صليبية ريتشارد قلب الأسد، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٣٢؛ ترجمة د.سهيل زكار، دمشق،١٩٨٩م؛ تواريخ آل بلانتجنت، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٣٠، ترجمة د.سهيل زكار، دمشق،١٩٨٩م، ص٢١٧-٢٨٠؛ ملحمة ريتشارد قلب الأسد، ترجمة د.سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٩،دمشق، ١٩٩٣م؛ ص٢٨٨. انظر أيضا:

Gervas (The Monk of Canterbury), The Gesta Regum with its Continuation, ed. William Stubbs, R.S., vol. 73., pt.2, London, 1965, pp.86-91. Cf. also: Round (J. H), "Some English Crusaders of Richard I", in E.H.R., vol. 18, no.71 (Jul., 1903), pp. 475-781; Jones, The Crusades Biographies, pp 171-182; Nicolle (David), The Third Crusades 1191:Ricahrd the Lion heart, Saladin and the Straggle for Jerusalem , Oxford, 2006.

راجع أيضا، سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، ج ١، ص ٤٧٢.

(٢) فيليب الثاني أغسطس: ابن لويس السابع ملك فرنس وخليفته ولد عام٥٦١هـ (١١٦٥م) وتولي الحكم عام ٥٧٦هـ (١١٨٠م) وشارك في الحملة الصليبية الثالثة، حكم لمدة طويلة وصلت إلى ٤٤ عاماً، إذ توفي عام ٦٢٠هـ (١٢٢٣م)، بعد أن رسخ نفوذ ملوك فرنسا ووسع نفوذهم مستغلا الحروب ضد الهراطقة المعروفة بالألبجينسية بمباركة البابوية، ولم يتوفى حتى صارت فرنسا قوة عظمي في أوربا. عنه انظر:

Walker, On the increase of royal power in France under Philip Augustus , London, 1888; Hutton, Philip Augustus, London, 1896 ; Goyau , "Philip II Augustus", in C.E. http://www.newadvent.org /cathen/04543c.htm/ cathen / 12001a.html

وراجع أيضا: سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، ج ١، ص٢٦١-٢٧٤.

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج ٣، ص ١٤٥؛ محمد مؤنس، الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٢٤٦.

(٤) حول صلح الرملة انظر الأصفهاني، الفتح القسي، ص ٦٠٥؛ ابن شداد، سيرة صلاح الدين، ص ٢٨٢؛ مجهول، ذيل وليم الصوري، ص ٢٣٨. وانظر أيضا.

Richard of Devizes, Chronicle , trans. By J.A. Giles , Cambridge , 2000 , p59 ; Itinerium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi, ed. william Stubbs ,R. S. , vol. VI, London , 1864, pp 27-28. Cf also: Grousset, Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem , vol 3 , pris 1946 , P118-119.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الصليبية الثالثة ظهور ما عرف بمملكة بيت المقدس الثانية. ونتيجة لضياع القدس من يد الصليبيين فقد بحث الصليبيون عن عاصمة بديلة، فلم يجدوا خيراً من عكا.

ولا شك أن اختيار عكا لم يكن أمراً اعتباطيا، وإنما جاء بعد تفكير عميق من قبل زعماء الصليبيين، ومسوغ ذلك أن عكا هي أغنى مدن الساحل على الإطلاق، نتيجة النشاط التجاري، وكونها ميناء المملكة الأول، وموطأ قدم كل وافد جديد من أوربا، زائراً كان أو تاجراً أو حتى محارباً[١]، زد على ذلك حصانة موقع عكا من الناحية الطبيعية وقوة تحصيناتها من الناحية البشرية، بالإضافة إلى أنها رأس الطريق نحو القدس، ومن ثم اتخذها ملوك بيت المقدس حاضرة لهم أملاً في استرداد بيت المقدس ثانية يوماً ما فتعود إليها القيادة ثانية[٢].

وإذا دام وجود الكيان الصليبي لمدة مائة عام أخرى بعد صلح الرملة، فذلك لا يرجع إلى قوة الصليبيين بقدر ما يرجع إلى تمزق دولة صلاح الدين والتناحر بين بني أيوب[٣]، مما أفسح المجال أمام الصليبيين لينعموا بالبقاء في الشرق تلك السنين المائة، لكن بصورة عامة كان منحنى الهبوط قد بدأ يتضح للعيان وبخاصة مع فشل الحملات الصليبية التالية في إنجاز شيء وفي مقدمتها الحملة الصليبية السابعة التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا.

=راجع أيضا: رنسيمان، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٣٨-٩؛ سعيد عاشور، المرجع السابق، ج ٣، ص ٨٩٦-٨٩٩؛ مصطفى الكناني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي ١١٧١-١٢٩١م/٥٦٧-٦٩٠هـ، الإسكندرية، ١٩٨١م، ص ٢٠٣.

(١) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، جـ١، ترجمة أحمد محمد رضا، مراجعة د. عز الدين فودة، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٣٢٤؛ مولرو فيتز، القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمد وليد الجلاد وسعيد طيان، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٢٤؛ لطيفة أحمد شاهين، الحياة الاقتصادية في عكا، ص ٣١

(٢) حول تحصينات عكا وأهميتها التجارية انظر: أحمد عبد الله، التجارة في الساحل الشامي في القرنين ١٢، ١٣م/٦، ٧ هـ، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٦م، ص٨٦-٨٨.

(٣) حول صراعات البيت الأيوبي انظر سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٧٣-١٣٦. وانظر أيضا:

Ayybids of Damas , 1193-1250, Hemphery (Stephen), From Saladin to Mongols the Michigan, 2004, p 125 - 346

http://www.al-maktabeh.com

ولا ريب في أن فشل حملة لويس التاسع أمر يستحق الدراسة لسببين: أولهما أن العام الذي فشلت فيه الحملة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) هو العام الذي تبدأ به دراستنا لعوامل انهيار وسقوط مملكة بيت المقدس الثانية المعروفة بمملكة عكا. أما الثاني فهو أن فشل هذه الحملة سوف يؤكد العديد من الفرضيات التي فرضناها حول أسباب انهيار وسقوط مملكة عكا الصليبية.

ومن المسلم به أن حملة لويس التاسع كانت تمثل ذروة النشاط الصليبي في مواجهة المسلمين الراغبين في تحرير أراضيهم من نير الاحتلال، كما أنها في الوقت ذاته بداية الانحدار الواضح للحركة الصليبية ككل، فهي الذروة من حيث كونها أكثر الحملات الصليبية تنظيماً، فقد وكلت قيادة الحملة العامة إلى قائد واحد وهو لويس التاسع، ومن ثم فقد وجدت الحملة قيادة موحدة افتقدتها الحملات الصليبية السابقة[١]، زد على ذلك أنها جاءت بمباركة من البابوية في روما، ومن ثم حظيت بتأييد شعبي وسياسي واضح من جل جهات أوربا، وقد يسر هذا التأييد عملية تمويل الحملة، وجمع النفقات اللازمة للمشاركين فيها، ومن ثم فإنها عدت آخر جهد متحمس من أوربا في سبيل استعادة الأراضي المقدسة أو على الأقل تثبيت الكيانات الموجودة في الساحل الشامي[٢].

وبرغم كل ما رصد لحملة لويس على مصر من إمكانيات بشرية ومادية فإنها تعرضت للفشل، فقد بلغ إجمالى نفقات الحملة نحو ١,٣ مليون ليرة تورينية[٣] حسبما قدرت الخزانة الملكية الفرنسية في القرن الرابع عشر الميلادي[٤]، وتعادل هذه النفقة دخل ملك فرنسا

---

(١) لم تشهد جميع الحملات الصليبية قيادات موحدة فيما عدا الحملة الصليبية السادسة التي جاءت بقيادة الإمبراطور فردريك الثاني لكنه كان محروماً حين جاء إلى الشرق ومن ثم اعتبرها كثير من المؤرخين حملة غير صليبية، أما الحملة السابعة فقد كانت الحملة الوحيدة التي كتب لها وجود قيادة موحدة ترضى عنها البابوية.

(٢) Strayer, "The crusades of Louis IX", in: Setton, The History of the Crusades, vol. 2, Madison, 1969, p 487.

(٣) الليرة التورينية: أو الجنيه التوريني، واحدة من العملات الذهبية التي انتشرت في فرنسا في العصور الوسطى. لمزيد من التفاصيل عنها انظر:

Livre Tournois, in The Free Encyclopedia, on: http://enwikipedia.org/wiki/Livres.

(٤) ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٧٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

خلال خمس سنوات، إذ كان متوسط دخل الخزانة الملكية الفرنسية يتراوح بين ٢٤٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠٠ ليرة تورينية سنوياً(١). هذا من الناحية المادية. أما من البشرية فضخامة عدد المشاركين في الحملة أمر لا جدال فيه، و الرقم المحدد لم تتفق عليه المصادر، فما قدمته المصادر الصليبية يجنح إلى التخمين(٢). أما ما قدمته المصادر العربية فيميل إلى تضخيم العدد لإظهار قدر الإنجاز الذي أحرزه المسلمون في التصدي لهذه الحملة، فقد قدر أبو الفدا(٣) جيش لويس بما يزيد عن خمسين ألف مقاتل.

ويمكن القول بصفة عامة إن عدد الجيش النظامي الذي تجمع في قبرص تراوح بين ١٥٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ مقاتل(٤) كان من بينهم ٢٨٠٠ فارس حسبما ذكر جوانفيل(٥)، وما يمكن تأكيده أن عدد كبير من غير الفرنسيين قد شارك في الحملة سواء انضموا إليها في قبرص أو لحقوا بها فيما بعد، ناهيك عما لحق بلويس من الفرنسيين بعد استيلائه على دمياط(٦)، فقد انضم إلى الحملة في قبرص جماعات من الألمان والنرويجيين والإنجليز والاسكتلنديين، بالإضافة إلى قوات ملك قبرص، و قوات التنظيمات الدينية من داوية وإسبتارية، وقوات بارونات بلاد الشام الصليبيين(٧).

مجمل القول أن الجيش الذي تجمع مع لويس في دمياط كان الأضخم من نوعه الذي وصل إلى الصليبيين في الساحل الشامي لإنقاذه خلال القرن الثالث عشر برمته، وأن ما أنفق على الحملة كان الأكبر من نوعه في الفترة نفسها، ومع كل ما حشد إلا أن الحملة فشلت، فما هي أسباب هذا الفشل؟.

---

(١) Strayer, op. cit , p 491.

(٢) Ibid, p 493 .

(٣) تاريخ أبي الفداء، جـ٢، ص ٢٨٤.

(٤) ماير، الحرب الصليبية، ص ٣٧٦-٣٧٧.

Read, The Templars, London , 2000 , P 221.

(٥) سيرة القديس لويس، ص ٩١.

(٦) Strayer, "The crusades of Louis IX", 497.

(٧) نفسه، ص ٧٥-٧٦.

http://www.al-maktabeh.com

وإذا بحثنا في عوامل فشل حملة لويس نجد أنها متشابكة مع بعضها، وأول هذه العوامل هو عدم تجانس جيش لويس، حقيقة أن معظم قوات الحملة كانت من الفرنسيين، بيد أن أعداداً كبيرة من باقي العرقيات الأوربية قد انضمت إلى الحملة، ولو أخذنا بتقدير أبي الفدا لعدد المشاركين في الحملة لأدركنا أن عدد غير الفرنسيين ربما يعادل عدد الفرنسيين، حقيقة أن الحملة كانت فرنسية الطابع بحكم أن القائد العام فرنسياً، ولم يوجد في الجيش من يناظره في المقام، كما أن جل القادة كانوا فرنسيين لكن ذلك لا يحتم أن يكون جل المشاركين من الفرنسيين، خصوصا العامة من الصليبيين. ومهما يكن من أمر، فقد شارك في الحملة جماعة من قوات التنظيمات الدينية ممثلين في الداوية[١] الذين جاءوا بقيادة وليم سوناك William Sonnac[٢]، والاسبتارية[٣] بقيادة جون روني John de

---

(١) هيئة الفرسان الداوية: هي هيئة دينية حربية، تأسست في عام٥١٢هـ (١١١٨م)، على يد فارس يسمي هيو باينHugh de Payns، واعترف بهم الملك بلدوين الثاني في نفس العام، ومنحهم جناح من القصر الملكي بالقدس بالقرب من المسجد الأقصى ليكون مقرا لهم، وحصلوا على اعتراف من البابا هونوريوس الثاني عام ٥٢٢هـ (١١٢٨م)، ثم اعتراف آخر بهم كهيئة نظامية عام ٥٤١هـ (١١٤٦م) على يد البابا يوجين الثالث، وكان زيهم أردية بيضاء عليها صليب أحمر، ولنتيجة أهدافها المعلنة من حماية الحجاج والزود عن الصليبيين، فقد تدفقت عليهم المنح والهبات حتى صارت هذه الهيئة من أكبر وأغنى الهيئات الدينية العسكرية، وشيئا فشيئا صارت مستقلة تماما عن مملكة بيت المقدس، وامتلكوا العديد من القلاع في شتى أنحاء بلاد الشام، وفي ظل ضخامة الثروات التي جمعوها شاركوا مشاركة كبيرة في العمليات المالية في المملكة، واشتهروا بالجشع والأنانية في ظل القروض ذوات الفوائد العالية التي كانوا يقرضونها لمن يطلبها، وكانوا أشد الصليبيين ضراوة في قتال المسمين ومن ثم كان موقعهم في تنظيم الجيش الصليبي دائما في المقدمة. عنهم انظر:

وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص٣٤٥-٣٤٦.

Esq (Addison), The Knights Templars, London, 1852; Read, The templar; Marin (Sean), The Knights Templar, Wales, 1988.

إبراهيم خميس، جماعة الفرسان الداوية، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، صفاء عثمان، مملكة بيت المقدس في عهد الملك بلدوين الثاني في الفترة ٥١٢-٥٢٥هـ (١١١٨-١١٣١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٥م، ص١٥١-١٥٣.

(٢) وليم سوناك: المقدم الأعلى للداوية، تولى منصبه في الفترة من ٦٤٥هـ/١٢٤٧م حتى٦٤٨هـ (١٢٥٠م) حين لقي مصرعه على إثر الجراح التي أصابته في معركة المنصورة، عنه انظر:

Read, op.cit. , p p 221-224.

(٣) هيئة الفرسان الإسبتارية: هي أقدم الهيئات الدينية العسكرية التي تأسست في الساحل الشامي إبان الاغتصاب الصليبي، ويري وليم الصوري أن تاريخ هذه الهيئة يعود إلى فترة طويلة تسبق التواجد الصليبي في صورة

مكتبة المهتدين الإسلامية

Ronay[١] نائب المقدم، كما شارك الملك هنري ٦٤٢- ٦٥١هـ(١٢٤٤- ١٢٥٣ م) King Henry[٢] ملك قبرص يصحبه جمع كبير من قواته وكبار موظفيه، وجماعة من عساكر الإنجليز بقيادة وليم لونجيسبي William Longuespee وإيرل سالسبوري وروبرت دي فيرا Robert de vere، وعدد من أعيان الإنجليز[٣]، زد على ذلك قوات بارونات مملكة بيت المقدس التي بلغت ألف فارس وقوات الجاليات الإيطالية في المملكة[٤].

=مستشفي أسسه عدد من تجار أمالفي في القدس لعلاج الحجاج المسيحيين، ومع الاحتلال الصليبي للقدس تطورت تلك الهيئة بصورة تدريجية، بفضل الخدمات الصحية التي قدمها أعضاء الهيئة للمشاركين في الحملة الصليبية الأولى ومن ثم حين عادوا إلى أوطانهم أغدقوا المنح والهبات على الهيئة التي صار لها العديد من الفروع في جل البلدان الأوربية، غير أنها لم تظهر في صورة الهيئة العسكرية قبل٥٢٠هـ (١١٢٦م)، وبحلول عام ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) صار الدور العسكري للجماعة ملحوظ للجميع ومن ثم تدخل البابا ألكسندر الرابع Alexander IV وحدد لهم زيا خاصا بهم لا يرتديه غيرهم وهو عباءة سوداء ومعطف عليه صليب مثمن الأطراف. وقد توالت الهبات على هذه الهيئة حتى صارت تتحكم في عدة قلاع وتحوز عدة إقطاعات في شتى أنحاء المستعمرات الصليبية. وفي ظل تراكم الثروات تغلب الدافع الاقتصادي على الدافع الديني لدي فرسان الهيئة، وفي القرن الثالث عشر في ظل ضعف المملكة استطاع الاسبتارية الاستيلاء على مزيد من الاقطاعات بل والمدن الكاملة التي تنازل عنها أصحابها في ظل عجزهم عن الدفاع عنها أمام قوة المسلمين المتنامية خاصة بعد قيام دولة المماليك. عنهم أنظر:

Cartulaire Genera de l'Ordre des Hospitaliers St. Jean de Jerusalem, 4 tomes, Paris, 1894-1906; Xorduim Hospitalairiorum, in R.H.C-O.cc., vol. V, pp.401-435; Cf. also, King, The knights Hospitallers; Nicolle (David), Knight Hospitallers, Uxbridge, 2001.

راجع أيضا: محمود الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٥٦-٦٥؛ رايلي سميث، الإسبتارية فرسان القديس يوحنا، ترجمة صبحي الجابي، دمشق، ١٩٨٤م؛مصطفي الحناوي، الفرسان الاسبتارية، ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي، الرياض، ٢٠٠٥م.

(١) King, The Knight Hospitallers , p 242.

(٢) الملك هنري الأول: تولي حكم قبرص، وضم إليه الوصاية على عرش مملكة بيت المقدس بتكليف من زوجته أليس بحكم قرابتها من الملك الشرعي للمملكة كونراد هوهنشتاوفن بن فردريك الثاني، لمزيد من التفاصيل عنه انظر.

Mas Latrie, Histoire de l'ile de Chypre, tom. I , PP.333-362 ; Hill, op. cit,vol II, Pp. 138-147.

(٣) Matthew Paris , English History , vol. II p. 311.

(٤) Guillaume de Nangis, Chronique , introduction et des notes par M. Guizot , in Collection des Memoires relatifs A l'Histoire de France , Paris , 1825.,P 157. Cf.also: Hill, op. cit , vol II , p. 144-145.

http://www.al-maktabeh.com

ويمكن إضافة عدد غير محدود من السوقة ودهماء الأوربيين الـذين ألفنـا مـصاحبتهم للحملات الصليبية، ويؤيد ذلك ما أشيع من تقوى لويس التي تجعله لا يرد سـاع إلى قـبر المسيح، ويؤيد ذلك أن لويس لم يكن بالقائد المحنك الذي يقدر للحـروب حـق قـدرها، ويحسب كل صغيرة وكبيرة فيمنع هؤلاء من مـصاحبته حـتى لا يكونـون عبـأ علـى الجيش.

وهذا الزخم من القادة و الزعماء غير الفرنسيين بالإضافة إلى عدد كـبير مـن نـبلاء فرنسا[١]، كان من المحتم أن تدب بينهم الخلافات والحزازات الشخصية والعرقية، وكل قد جاء بمشاكله وأحقاده، فالإنجليز والفرنسيون بينهم عداء تاريخي[٢]، لم يستطيعا التخلص منه، حتى في أشد لحظات الحملة حرجاً[٣]، والداوية و الإسبتارية كانا على طـرفي نقـيض[٤]، والجاليات الإيطالية المشاركة بينها عداء لا مجال لزواله[٥].

ويتمثل العامل الثاني في رفض لويس استخدام الدبلوماسـية كـأداة في إدارة الـصراع الإسلامي الصليبي، إذ أبى ألا يكون غير السيف حكماً في هذا الأمر، وربما رجـع ذلـك الصلف إلى الحماسة الدينية التي اشتهر بها لويس، وإن شكك فيها البعض[٦]، ممـا جعلـه يرفض التفاهم السلمي مع المسلمين، أو اغترار من لويس بقوته وضخامة جيشه، و حـين حاول بارونات مملكة بيت المقدس إقناعه باستخدام الوسائل الدبلوماسية لزيادة الشُقة بـين حكام المسلمين المتنازعين – لتحقيق مكاسب لا شوكة فيها– رفض الأمر برمته معتـبراً أن

---

(١) من نبلاء فرنسا المشاركين في الحملة هيو دوق برجنديا، وليم كونت الفلاندرز، الكونت هيج دي سانت بول، جان دي جوانفيل بالإضافة إلى عدد من أخوة الملك لويس مثل روبرت ارتوا وشارل أنجو. جوانفيل، سيرة القديس لويس، ص ٧٥-٧٦. وانظر أيضا:

Chronique de Guillaume de Nangis , p 160.

(٢) حول ذلك العداء انظر الفصل الخامس ص٢٧٨.

(٣) حول الخلافات بين الداوية الإسبتارية انظر الفصل الثالث، ص ١٦٦.

(٤) جوانفيل، المرجع السابق، ص ١٨٤.

(٥) حول الخلافات بين الجاليات الإيطالية انظر الفصل الثالث، ص ١٧٨.

(٦) محمد مؤنس، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٣٠٥-٣٠٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ذلك نوعاً من الدونية التي لا تليق به[١]، وربما رأى أنه سوف يتمكن من تلافي أخطاء الحملة الصليبية الخامسة، و من ثم يتحقق له النصر.

ومهما يكن من أمر فقد أضاع لويس فرصة تحقيق نصر باستخدام الوسائل الدبلوماسية يفوق ما حققه فردريك الثاني Frederick II[٢]، وبخاصة أنه خرج من أوربا بمباركة البابوية، ومن ثم كل ما سوف ينجزه سيعترف به، وتبقى حملته في عداد الحملات الصليبية الكبرى المعترف بها، ولم يدرك لويس خسارته الفادحة برفض الوسائل الدبلوماسية إلا بعد أن خسر كل شيء، وحين لجأ إلى التفاهم الدبلوماسي - بعد سلسلة هزائمه المتتالية في المنصورة- كان الأمر قد خرج من يده، ولم يعد هناك خيارٌ سوى التسليم[٣].

---

(١) محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٦٥.

Hindley (Geoffrey), The Crusades , A history of Armed Pilgrimage and Holy war , London , 2003 P.198 ; Armstrong (Karen), Holy war , the Crusades and their impacts on today's world , London , 1995 , P 442

(٢) فردريك الثاني: خلف والده هنري السادس في حكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م بمباركة البابوية في روما، لكنه دخل في صراع معها بسبب الخلافات السياسية ومماطلته في الخروج في حملة صليبية مما أدي إلى حرمانه من قبل بابا روما وحين خرج في الحملة الصليبية السادسة حقق نجاحاً لم تحققه اكبر الحملات الصليبية دون إراقة قطرة دم واحدة باسترجاع القدس للصليبيين بعد مفاوضات مع الملك الكامل الأيوبي، توفي عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠). عنه انظر:

فليب دي نوفارا، حروب فردريك الثاني ضد الأبلينيين في سورية وقبرص، ضمن: الموسوعة الشامية، جـ٣٤، ترجمة د.سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٨، ص٥-٢٩٩. انظر أيضا:

Wiegler, The Infidel Emperor and his Straggles Against the Pope, London, 1931. Cf. also, Kington, Life Frederick II Emperor of Romans , 2 vols., London, 1862; Kantorowicz (Ernst), Fredrick the Second 1194-1250, translated by E. O. Lorimer, New York, 1957; Jones, The Crusades Biographies, pp. 93-102.

راجع أيضا، سعيد عاشور، الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي، المجلة التاريخية المصرية، مجلد١١، ١٩٦٣، ص١٩٥-٢١٣؛ وأيضا، أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص٣٩٠- ٤٠٣.

(٣) جوانفيل، سيرة القديس لويس، ص ١٤٤؛ مجهول، تتمة كتاب وليم الصوري، ص ١٨٩، ١٩٩، ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٦، ص ١٢٦. انظر أيضا:

Armstrong , Holy war , P 444.

http://www.al-maktabeh.com

أما العامل الثالث فهو اختيار دمياط كموطئ قدم للحملة الصليبية السابعة، بالرغم من أن هذا المكان قد أثبت عدم صلاحيته كمدخل لغزو مصر منذ الحملة الصليبية الخامسة، وهو ما يضع علامة استفهام كبيرة حول دوافعه للسير في طريق ثبت فشله. ولعل ما قدمه الدكتور زيادة[١] من مبرر يمثل جانباً من الحقيقة، فقد فسر الأمر بأنه جاء نتيجة لضغوط المدن الإيطالية التي فضلت دمياط؛ حتى تعود إلى بيوتها التجارية التي أنشأتها في دمياط في عهد الحملة الصليبية الخامسة.

ولكن ذلك ليس كافيا، فلو تم الاستيلاء على الإسكندرية بدلاً من دمياط لكان الكسب أكبر لكون الإسكندرية ميناء مصر الأول، ونشاطها التجاري أكبر من مثيله في دمياط بكثير، بدليل الاتفاقيات التجارية المتجددة بين المدن الإيطالية والحكومة المصرية[٢]. لكن يبدو أن لويس أراد أن يسير في طريق مطروق علمت مخاطره بدلاً من طريق ما زال مجهولاً ربما يكون أخطر بكثير، وفي التحليل الأخير هو تأكيد لقصور المعلومات الجغرافية لدى قائد الحملة الصليبية السابعة، بجانب قصور الفكر العسكري لديه، وعجزه عن القيادة الميدانية وإن كان ذا قدرة عالية على إعداد الجيوش.

ويُعد عدم تأمين خطوط إمداد الجيش الصليبي وتأمينه رابع أسباب فشل الحملة، فحين تقدم لويس جنوباً نحو المنصورة فإنه اعتمد على خط إمداد واحد، وهو مجرى النيل غير متحسب لإمكانية قطع هذا الخط، ولم يبحث عن خط إمداد وتموين بديل على سبيل الاحتياط، أو حتى نشر قوات فرنسية على ساحل النيل حتى يمنع أي محاولة من قبل المصريين للاستيلاء على السفن المحملة بالمؤن والإمدادات، وكان هذا الخطأ قاتلاً؛ إذ قرر تورانشاه[٣]

(١) حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، القاهرة، ١٩٦١م، ص١٢٤.

(٢) مصطفى الكناني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي، ص٢٢٩- ٢٨٣.

(٣) تورانشاه: هو ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب الملقب بالسلطان المعظم، آخر ملوك بني أيوب بمصر، تسلم مقاليد السلطنة بعد وفاة أبيه بنحو من أربعة أشهر ونصف، وبقيادته تم النصر على الحملة الصليبية السابعة، لكنه لم يعمر طويلاً فقد أجهز عليه كبار قادة المماليك بعدما ظهر منه من نية الغدر بهم فقتلوه يوم الاثنين ١٧ محرم ٦٤٨هـ (١٢٥٠م)، عنه انظر الصفدي، الوافي بالوافيات، جـ٩، شتوتجارت، ١٩٩١م، ص ١٤٨٠؛ ابن أيبك، كنز الدرر؛ جـ٧، ص ٣٧٥-٣٨٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ٦، ص٣٦٤-٣٧١؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص٣٥١-٣٦١؛ الخطط، جـ١، ص ٢٢٣.

مكتبة المهتدين الإسلامية

- ابن السلطان الصالح ووريثه - فور وصوله إلى مصر وتوليه أمر البلاد إدارة المعركة بنفسه، وكانت أول خطوة قام بها هي قطع خط الإمداد والتموين الصليبي بإرسال سفن مفككة وتجميعها شمال المعسكر الصليبي، تلك السفن التي أخذت تكمن على جانبي النيل حتى إذا جاءت أي مراكب صليبية استولت عليها بمن فيها من الرجال والعتاد وبقي لويس فترة لا يعلم سر تأخر المدد، والصليبيون في دمياط يواصلون إرسال السفن بالمؤن ظناً منهم أنها تصل إلى لويس، وتتأخر عنده حتى أفلت مركب صغير من يد المصريين ليفضي إلى لويس بالفاجعة التي حدثت[١]. ومن ثم غدا لويس محصوراً في المنصورة لا يستطيع التقدم جنوباً نحو القاهرة، ولا يستطيع التراجع شمالاً نحو دمياط، ناهيك عن تفشي المجاعة في المعسكر الصليبي، وما ارتبط بها من انتشار الأوبئة، وفي التحليل الأخير أن لويس التاسع لم يكن يصلح كقائد ميداني بأية حال.

ولم تكن هذه العوامل السابقة وحدها الواقفة وراء فشل حملة لويس، بل هناك عامل آخر، ألا وهو انتشار الأوبئة بدءاً من نزولهم في دمياط "بسبب الحر الشديد وكثرة الذباب والبراغيث كبيرة الحجم التي كانت تهاجم المعسكر"[٢] .أما في المنصورة فقد ساعد على تفشي الوباء بين جنود الجيش الفرنسي كثرة جثث القتلى، وتلوث الماء من جراء ما ألقي في النيل من جثث المصريين والفرنسيين، بالإضافة إلى حرارة الصيف التي ساعدت بجانب سرعة تحلل الجثث وانحراف مزاج جنود الصليبيين بسبب اختلاف طقس مصر عن طقس أوربا.

وزاد الأمر سوءاً نقص الأقوات وارتفاع الأسعار في المعسكر الصليبي مما اضطر كثير منهم إلى الاعتماد على أكل الثعابين النيلية التي تغذت على جثث القتلى مما أدى إلى تفشي الوباء بين أغلب جند الجيش وقليل من نجا منه[٣]، حتى أن الملك لويس نفسه قد أصيب بالدوسنتاريا مما جعل ركوبه أمراً صعباً[٤]، وساعد على تفشي المرض تخلف الطب لدى

---

(١) مجهول، تتمة كتاب وليم الصوري، ص ١٨٦؛ جوانفيل، سيرة القديس لويس، ص ١٤١؛ المقريزي، السلوك، جـ١ ق٢، ٣٥٣؛ الخطط المقريزية، جـ١، ص ٢٢٣.

(٢) مجهول، تتمة كتاب وليم الصوري، ص ١٦١

(٣) جوانفيل، سيرة القديس لويس، ص ١٤٠-١٤١؛ مجهول، تتمة كتاب وليم الصوري، ص ١٨٧.

راجع أيضا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٤٦٤.

(٤) جوانفيل، المصدر السابق، ص ١٤٦.

http://www.al-maktabeh.com

الصليبيين مما حال دون علاج جل المصابين من جراء الوباء، وكان من تظهر عليه علامات المرض يوقن بالموت وينوح عليه أصدقائه وأحبابه، حتى جوانفيل نفسه قد أصيب بالوباء وأيقن بالموت، وهو في أسر المسلمين وجزع رفاقه، حتى جاءه أحد الفرسان المسلمين بدواء أذهب عنه المرض[1].

ولم تتوقف عوامل فشل حملة لويس علي مشكلات الجانب الصليبي، بل هناك كثير من العوامل الإيجابية في الجانب الإسلامي المدافع لا مجال لتفصيل الحديث عنها هنا.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت هذه هي أبرز عوامل فشل هذه الحملة – من الجانب الصليبي– التي كانت بحق آخر الجهود الكبرى لإنقاذ الكيان الصليبي المتداعي، كما سيتضح لنا من الفصول التالية، لكن قبل أن ننتقل إلى الفصل الأول، يجدر بنا التعرف على الخريطة السياسية لمصر والشام حال فشل حملة لويس التاسع على مصر ٦٤٨هـ (١٢٥٠م)، سواء على الجانب الإسلامي، أو على الجانب الصليبي؛ تمهيداً لدراسة عوامل انهيار وسقوط مملكة بيت المقدس الثانية المعروفة بمملكة عكا الصليبية.

فعلى الجانب الإسلامي كان ذلك العام عاماً حاسماً في تاريخ مصر والشام، ذلك أنه شهد إجهاز المماليك – الذين اشتراهم ورباهم الملك الصالح نجم الدين أيوب[2] ورفعهم من رق العبودية إلى الإمارة والسيادة – على ابن سيدهم ووريثة توران شاه، ولم يكن ذلك كفران بنعمة سيدهم، لكن الأمر صار مسألة مصير بعدما ظهرت دلائل غدر توران شاه بهم، وتنكره لما قاموا به من جهود للمحافظة على البلاد في ظل تلك الظروف الحرجة حتى عاد من حصن كيفا، حيث أبعده أبوه لطيشه ونزقه، ومن ثم لما لم يجدوا للتفاهم معه سبيلاً

= King , The Knights Hospitallers , P 247.

(١) جوانفيل، سيرة القديس لويس، ص١٥٣.

(٢)الصالح نجم الدين أيوب: هو أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، ولد عام ٦٠٣هـ، تولي حكم مصر عام ٦٣٦هـ، وتوفي عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) عنه انظر ابن واصل مفرج الكروب، جـ٥ متفرق؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص٢٩٦-٣٥١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، في وقائع الدهور، جـ١، ق١، ١٩٨٢م، ص٢٨٦؛ محمد محمد أمين، الصالح نجم الدين أيوب، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦٨.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أجهزوا عليه[١]، وقرروا أن تتولى شجر الدر[٢] تدبير أمور مصر، واستمر ذلك ثمانين يوماً حتى أنكر الخليفة العباسي أن تتولى امرأة حكم مصر، فاضطرت للزواج من عز الدين أيبك[٣] ليكون أول سلاطين المماليك، إيذاناً بنهاية حكم الأيوبيين في مصر إلى غير رجعه، وحدوث تغير جذري في الخريطة السياسية على الجانب الإسلامي، فبعد أن كانت مصر والشام في يد ملوك بني أيوب يتنازعونهما فيما بينهم، صارت كل منهما في يد قوة مستقلة، وكل يحاول أن يطغى على الطرف الآخر[٤].

وكانت الشام منذ عهد صلاح الدين تابعة لمصر، وعلى هذا الأساس قام توران شاه في طريق عودته إلى مصر بتثبيت جمال الدين بن اليغمور[٥] في نيابة السلطنة بدمشق[٦]، فلما تولت شجر الدر شئون الملك، رفض أمراء الشام الأمر، وانتشرت الفوضى في كل مكان وأجهز كل قادر من بني أيوب على ما يليه من بلاد، فقام الملك السعيد بن العزيز عثمان[٧] بالاستيلاء على

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ٩، ص ١٤٨٠.

(٢) عن شجر الدر انظر: ابن واصل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ٥، تحقيق د.حسنين ربيع، ص ٢٤٠، المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص٣٦١-٣٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٣٧٣-٣٧٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، في وقائع الدهور، جـ١، ق١، ص٢٨٦. وانظر أيضا:

Schregle (Gotz), Die Sultanin von Egypten Sagarat Ad-Dur, Wiesbaden, 1961; Jones , The Crusades Biographies , pp.193-202.

(٣)عز الدين أيبك: هو عز الدين أيبك بن عبد الله الصالحي النجمي التركماني، كان من مماليك الصالح نجم الدين أيوب المقربين، ترقي إلى الإمارة وصار من أكابر المماليك ولما قتل تورانشاه تولت شجر الدر الأمر ولما رفض الخليفة العباسي ولاية امرأة تزوجت أيبك الذي عد أول سلاطين المماليك بمصر واليه يرجع الفضل في صمود دولتهم أمام التحدي الأيوبي، وفي ٦٥٥هـ(١٢٥٧م) أمرت شجر الدر بقتله في حمام القلعة. عنه انظر: أبو الفداء، المختصر، جـ٢، ص ٣٠٠، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ٢٢١؛ المقريزي، المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص ص٣٦٨-٤٠٤؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، جـ٧، ص ١-١٥.

(٤) انظر الملحق رقم ٤، ص ٣٨٣.

(٥) جمال الدين بن اليغمور: هو جمال الدين بن يغمور بن جلدك بن بليمان، ولد ٥٩٩هـ (١٢٠٢م) في قوص بمصر، تولي كثير من العمال في دولتي الايوبيين والمماليك مثل نيابة السلطنة بالقاهرة ودمشق، توفي في أول شعبان ٦٦٣هـ (١٢٦٤م) عنه انظر:ابن تغري بردي، المصدر السابق، جـ٧، ص ٢١٨-٢١٩.

(٦) المقريزي،المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص ٣٥٢.

(٧) الملك السعيد: هو الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل أبي بكر بن أيوب، كان حاكما لقاعة الصبيبة، ولما اقترب المغول من بلاد الشام كتب إلى هولاكو ودخل في طاعته وحصل منه على تقليد بما في يده من

http://www.al-maktabeh.com

الصبيبة[١]، أما الكـــرك[٢] والشوبك[٣] فقد صارتا إلى الملك المغيث عمر الأيوبي[٤]، بوصاية من الطواشي بدر الدين لؤلؤ. أما دمشق فقد صارت في يد حاكم حلب الناصر يوسف الأيـوبي[٥]، بدعوة المماليك القميرية[٦]وابن اليغمور[٧]، بجانب بعض الحصون التي سيطر عليهـا الإسماعيليـة الشيعة[٨].

=بلاد الصبيبة وأعمالها، وفي معركة عين جالوت وقف في صف المغول، فلما تمكن المظفر من هزيمتهم، وقع الملـك السعيد في الأسر فامر السلطان قطز بقتله. انظر: المقريزي، السلوك، جـ١، ص ٣٦٦؛ العيني، عقـد الجمـان، جـ١، ص ٢٤٤.

(١) الصبيبة: اسم لقلعة بانياس التي كانت من الحصون المنيعة والتي عرفت أيضا بقلعة نمرود وتقع في الشعاب الجنوبية لجبال لبنان الشرقية، شمال بانياس مباشرة، تحتل جرف صخري يطل على هضبة عالية ترتفع تدريجيا نحـو الشمال. عنه انظر: أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٢٤؛.مولر، القلاع، ص٥٢.

(٢) الكرك: قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء بين ايلة وخليج العقبة، على جبل عال تحيط بها الأودية من كل الجهات عدا جهة الربض. عنه انظر: ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ٥١٤؛ مولر، المرجع السابق، ص ٥٥

(٣) الشوبك: قلعة حصينة في طرف الشام بين عمان وأيلة والعقبة والكرك. انظر: ياقوت، معجم البلـدان، جـ٣، ص ٤٢٠.

(٤) الملك المغيث: هو فتح الدين عمر بن الملك العادل أبي بكر بن الملك الكامل، حبسه الملك الـصالح نجـم الدين في قلعة الجبل حتى أخرجه تورانشاه إلى الشوبك حيث حبس حتى وصل خبر مصرع تورانشاه فاطلقه بـدر الدين لؤلؤ وولاه الإمارة في الكرك و الشوبك تحت وصايته. أبو الفدا، المختصر، جـ٢، ص ٢٨٩؛ ابن أيبـك، كنز الدرر، جـ٧، ص ٣٨٥.

(٥) الناصر يوسف الأيوبي: هو الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن الناصر صلاح الدين تولي حكم حلب عام ٦٣٤هـ(١٢٣٦م) وجرت وقائع بينه وبين الملك الصالح نجـم الـدين ولمـا تسلطنت شجر الدر وسع دائرة نفوذه وضم دمشق، وحاول غزو مصر لكنه هزم في العباسة وعـاد إلى الـشام وتصالح مع الملك المعز وظل في حكم حلب ودمشق وغيرهما حتى جـاء التتـار وسـلبوا ملكـه وقتلـوه عـام ٦٥٩هـ(١٢٦٠ م). حول الناصر وصراعاته انظر: أبو الفدا، المختصر، جـــ٢، ص٢٦٠- ٣٢٣؛ المقريـزي السلوك، جـ١ ،ق ١،ص٤٣١-٤٣٤.

(٦) المماليك القميرية: هم طائفة من المماليك من أصل كردي ينتسبون إلى قلعة قيمر بين الموصل وخلاط، وقد اخلصوا لبني أيوب بحكم اشتراكهما في الأصل الكردي، انظر: جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام، الإسكندرية، ١٩٨٤م، ص ١٤١-١٤٢، وحاشية ٢، ص١٤١؛ سعيد عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص ١٨٥، حاشية٢٦.

(٧) المقريزي، السلوك، جـ١، ص ٣٦٦. وأيضاً:

Humphreys , From Saladin to the Mongols , p 309.

(٨) المقريزي، المصدر السابق، جـ١، ص ٣٦٧ ؛ أبو الفدا، المختصر، جـ٢، ص ٢٨٩؛ سعيد عاشـور، المرجع السابق، ص ١٨٥-١٨٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وفي عام ٦٤٩هـ/ ١٢٥٣م وبوساطة من الخليفة العباسي المستعصم[١] تم الاتفاق بين السلطان عز الدين أيبك، والناصر يوسف على ترسيم الحدود بين مصر والشام، بحيث تكون مصر وغزة والقدس حتى نهر الأردن في يد المماليك. أما باقي بلاد الشام فتكون من أملاك الناصر يوسف وملوك بني أيوب[٢].

هذا عن الخريطة السياسية للجانب الإسلامي، ومما لا شك فيه أن هذا التمزق الذي أصاب مصر والشام في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) كان له دور كبير في إطالة عمر الإمارات الصليبية، كما سيتضح في ثنايا الدراسة.

= الإسماعيلية: هي إحدى فرق الشيعة، نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وإليها ينتسب الخلفاء الفاطميون في مصر، تعرضت هذه الطائفة للانشقاق عقب وفاة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي إلى مؤيدي لنزار بن المستعلي الابن الأصغر الذي تولي الخلافة، وبين مؤيدي المستعلي الابن الأكبر المحروم من ولاية العهد، الذين فروا من مصر إلى الشام، وسيطروا على عدد من الحصون، كما أسسوا دولة لهم في الموت على يد الحسن الصباح، تلك الدولة التي نشرت الرعب في سائر بلاد الإسلام، من جراء التهديد بالقتل لكل من يقف في طرق أطماعها، وقد بدأ دورهم في الظهور في بلاد الشام منذ عهد رضوان بن تتش ٤٨٨ – ٥٠٧هـ(١٠٩٥ – ١١١٣ م) على يد الحكيم المنجم، وانتشروا في حلب ودمشق وعدد من مدن الشام، وكانوا غصة في حلق المقاومة الإسلامية للصليبيين، وفي ظل مقاومة حكام المدن الشامية لوجودهم، هربوا منها وتجمعوا حول راشد الدين سنان حوالي عام ٥٥٨هـ (١١٦٣م)، فبني لهم عدة حصون قرب طرابلس عرفت بحصون الدعوة، وظلوا أشد عداوة للمقاومة الإسلامية السنية للصليبيين، حتى قام الظاهر بيبرس بالاستيلاء على ما تبقي من حصونهم عام ٦٧٠هـ (١٢٧٢م). عنهم انظر: أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٧٧، ص٦٨-٧٦؛ عصام الدين عبد الرءوف، الدول الإسلامية المستقلة في المشرق، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٢٨٦-٢٩٧؛ محمد مؤنس، الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ٢٠٠٧م.

(١) الخليفة المستعصم: هو أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله، آخر خلفاء بني العباس تولي الخلافة عام ٦٠٤هـ (١٢٠٧ م) حتى استولي المغول على بغداد بقيادة هولاكو سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨ م) فقتلوه. عنه انظر: ابن القطقا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت، د.ت، ص ٣٣١-٣٣٦؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، د.ت.، ص٤٦٤-٤٧٦.

(٢) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، جـ٢، ص ٢٩٣؛ ابن كثير البداية والنهاية، جـ١٣، ص ٢٠٩.

وراجع أيضا، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٤٧٧؛ سعيد عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص١٨٩. وانظر أيضا:

Humphreys, From Saladin to the Mongols , p 309.

http://www.al-maktabeh.com

أما على الجانب الصليبي فقد اقتصر النفوذ الصليبي على شريط ساحلي ضيق[١]، بجانب بعض القلاع الداخلية التي خضعت للتنظيمات الدينية: داوية كانت، أم إسبتارية، أو تيوتونية[٢]، وقد شمل الشريط الساحلي إمارة إنطاكية متمتعة بمنفذ على البحر متمثل في ميناء السويدية[٣]، وخضعت لحكم بوهمند الخامس. أما في الجنوب منها فوجدت إمارة طرابلس التي كانت أيضاً في يد بوهمند أمير أنطاكية، وكانت تمتد من الشاطئ المتوسطي حتى العمق وصولاً إلى قلعة عكار[٤] وحصن الأكراد[٥] وجانبي سهل البقاع[٦]،ويفصل هذه

(١) انظر الخريطة رقم (١)، ص ٤٢٦.

(٢) هيئة الفرسان التيوتون: تأسست عام ٥٣٣هـ (١١٢٨م) على يد أحد الحجاج الألمان، وكانت تحت إشراف الإسبتارية حتى استقلت عنهم عام ٥٣٨ (١١٤٣م)، وعقب فتح صلاح الدين للقدس انتقل مقرهـا إلى عكا، غير أن الهيئة لم يرتفع شأنها إلا بعد عام ٦١٩هـ (١٢٢٢م) حين تولى الإمبراطور فردريك الثاني رعاية هذه الهيئة، حيث اتسع نفوذها واستولت على عدد من الحصون المهمة وعلى رأسها حصن القرين، ونظراً لتدهور أحوال الصليبيين في بلاد الشام فقد اتجه التيوتون إلى مد نشاطهم إلى منطقة بحر البلطيق لنشر المسيحية، ومع تنامي حركة الاسترداد الإسلامي للممتلكات الصليبية فإنهم فقدوا أملاكهم بصورة متتابعة ومن ثم صارت سواحل البلطيق مستقرهم بعد فتح المسلمين عكا عام ٦٩٠هـ (١٢٩٠م). انظر عنهم: محمود الحويري، الأوضاع الحضارية، ص٦٩-٧١؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة، الإسكندرية، ١٩٨٩م. وأيضاً:

King, The knight Hospitallers, p.305, Nickel (Helmut), Some Heraldic Fragment Found at Castle Montfort/ Starkenberg in 1926, and the Arms of Grand Master of the Teutonic Knights, in M.M.J, vol. 24, (1989), pp.35-46.

(٣) السويدية: ميناء على الساحل السوري كان يعد المنفذ الوحيد لأنطاكية على البحر المتوسط. حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية، ص ١٠٨.

(٤) حصن عكار: حصن صغير شمال لبنان إلى الشمال من طرابلس بنحو ٢٥ ميلاً، كانت جزء من الدفاعات الشمالية المارة طرابلس الصليبية. انظر: مولر، القلاع الصليبية، ص ٦٠.

(٥) حصن الأكراد: يعرف أيضاً بقلعة الحصن وكان من أكبر قلاع بلاد الشام، وواحداً من الأمثلة القليلة الباقية على العمارة الحربية الصليبية. تقع على مسافة صغيرة من حمص بالقرب من الحدود اللبنانية في شعاب جبال النصيرية، فوق قمة مرتفعة تبلغ ٢١٠٠ قدم أقامها الصليبيون وسيطروا عليها في الفترة ما بين ٥٣٧-٦٧٠هـ (١١٤٢-١٢٧١م)، حينما حررها المماليك بقيادة الظاهر بيبرس. أنظر: مولر، القلاع، ص ٧٦. وانظر موقع دمشق على الانترنت:

http://www.damascus-online.com

(٦) سهل البقاع: هو سهل يقع بين جبال لبنان الشرقية وجبال لبنان الغربية ممتداً من الشمال إلى الجنوب طوله ١٤٠كم وعرضه من ٣٠-٢٥ كم. راجع: محمد خميس الزوكة، جغرافية العالم العربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٦م، ص٧٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

البلاد عن بعضها منطقة سيطر عليها المسلمون تضم موانئ جبلة[١] واللاذقية[٢] حيث قلاع الإسماعيلية في جنوب جبل النصيرية[٣]. أما مملكة بيت المقدس فمنذ عام ٦٤١هـ/١٢٤٣م وهي محصورة في نطاق ضيق من الساحل يمتد من عسقلان[٤] حتى بيروت، ولم يعد لها أي وجود في العمق الداخلي بعد استيلاء الخوارزمية عليها باسم الصالح أيوب[٥].

ومن الناحية القانونية كانت مملكة بيت المقدس تحت حكم كونراد بن فردريك الثاني هوهنشتاوفن[٦]، ولكن نظراً لأن كونراد لم يذهب أبداً إلى الشرق فقد قرر نبلاء المملكة وضعها تحت وصاية هنري الأول ملك قبرص مع الأخذ في الاعتبار حقوق كونراد[٧].

كانت هذه إطلالة على الخريطة السياسية لمصر والشام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م)، وبها تم التمهيد.الذي اتضحت منه الظروف التي انتقلت فيها حاضرة مملكة بيت المقدس.من القدس إلى عكا، وأسباب فشل حملة لويس التاسع على مصر، والخريطة السياسية لمصر والشام عام بدء الدراسة، وننتقل الآن إلى الفصل الأول.

---

(١) جبلة: مدينة مشهورة في ساحل الشام من أعمال حلب جنوب اللاذقية على مسافة ٢٨ كم. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٤، تحقيق، فريد عبد العزيز، بيروت، ١٩٩٠م، ص١٢٢.

(٢) اللاذقية: مدينة على ساحل البحر المتوسط من أعمال حلب غربي جبلة، بينهما ستة فراسخ. انظر: ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٦.

(٣) جبال النصيرية: هي امتداد لسلاسل جبال الأمانوس الفاصلة بين بلاد الشام وآسيا الصغرى، والتي تحمل هذا الاسم قبالة اللاذقية، وتتميز جبال النصيرية بأوديتها العميقة، وبعضها شديد الوعورة، وغيرها شديد الارتفاع ومن ثم كانت مأوى أمين لطائفة الإسماعيلية. انظر: أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص ١٦.

(٤) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين ومن أهم موانيها على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٤، ص١٢٠.

(٥) رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ١٤٦.وأيضاً:

Runciman , "The Crusader State" , in Setton, A History of the Crusades, vol. II, P 558.

(٦) كونراد بن فردريك الثاني: لمزيد من التفاصيل عنه انظر الفصل الأول، ص ٦٢.

(٧) Runciman , op. cit ,p 559.

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفصل الأول

- مشاكل توريث عرش المملكة
- توريث العرش في مملكة عكا حتى ٦٤٨هـ (١٢٥٠م).
- لويس التاسع ملكاً غير متوج في عكا ٦٤٨- ٦٥٢هـ (١٢٥٠- ١٢٥٤م).
- مصرع كونرادين و أثره على مملكة عكا.
- مملكة عكا بين ضعف سلطة الملك هيو الثالث وبين مطامع شارل أنجو.
- أثر مشاكل وراثة العرش على استقرار المملكة.

هذا الفصل سوف يتعرض الباحث لدراسة نظام توريث العرش في مملكة عكا الصليبية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) وأثره على انهيار المملكة وسقوطها، وحتى تتضح الصورة، فسوف يعرض الباحث في شيء من الإيجاز لذلك الأمر في مملكة بيت المقدس الأولى ٤٩٣- ٥٨٣هـ(١٠٩٩- ١١٨٧م) وفي مملكة عكا ٥٨٦- ٦٤٨هـ(١١٩٠-١٢٥٠م) بصورة عامة مقتضبة التفاصيل، لأمرين: يتمثل أولهما في محاولة التعرف على أثر ذلك الأمر على المملكة من حيث الاستقرار من عدمه، والتعرف على نظام توريث العرش فيهما يمثل مبتدئاً لما جرى عليه الأمر(العرف) في القرن الثالث عشر، أم أن ثمة اختلاف بينهما. أما الأمر الثاني فيتمثل في صعوبة فهم نظام توريث العرش - في النصف الثاني من القرن الثالث عشر - بمعزل عن نظيره في الفترة السابقة عليه في ظل تشابك الأحداث وشجرة نسب الحكام.

وإذا ما نظرنا إلى توريث العرش في مملكة بيت المقدس الأولى نجد أن عدد ملوكها قد بلغوا تسعة ملوك، توفي خمسة منهم بلا وريث هم: جودفري Godfrey de Bouillon ٤٩٣- ٤٩٤هـ (١٠٩٩-١١٠٠م)[1]، والملك بلدوين الأول Baldwin I ٤٩٤-

---

(١) حول جودفري انظر: مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس؛ فوشيه الشارتري، الاستيطان الصليبي، ص١٥٠-١٥٢؛ وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٢، ص١٤٣- ١٤٩. انظر أيضا:

http://www.al-maktabeh.com

٥١٢ هـ(١١٠٠-١١١٨)[1]، والملك بلدوين الثالث Baldwin III ٥٣٩-٥٨٨هـ (١١٤٤-١١٦٢ م)[2]، والملك بلدوين الرابع Baldwin IV ٥٧٠-٥٨١هـ (١١٧٤-١١٨٥م)[3]، والملك بلدوين الخامس Baldwin V ٥٨١هـ (١١٨٥م) [4]. أما جاي لوز جنان Guy de Lusignan الذي تولي عام٥٨٢هـ (١١٨٦م)، فقد حرم من عرشه بعد أسره في حطين ٥٨٣هـ (١١٨٧م) وظل هائما حتى منحه ريتشارد قلب الأسد قبرص ٥٨٨هـ (١١٩٢م)[5]. إذن لم يكن لجل ملوك بيت المقدس الأولى ورثة من

=Annales des Terre Sainte, p.430. Cf. also. Grousset, Histoire des Croisades, I, P170 ; Michaud Histoire des Croisades, II, pp.5-20 ; Jones, The Crusades Biographies, pp. 103-112.

راجع أيضا: سعيد عاشور، الحركة الصليبية؛ جـ١، ص ١٩٧-١٩٨؛ محمد مؤنس، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٨٩-٩٥.

(١) حول بلدوين الأول انظر: فوشيه الشارتري، الاستيطان الصليبي، ص ص١٥٣-٢٣٧؛ وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٢، ص١٩٠-٣٣٠. انظر أيضاً:

Albert de Aix, Historia Hierodolymitana ,in RHC. Occ, Vol II, p.526; Annales des Terre Sainte, p.431. Cf. also: Grousset, Histoire des Croisades, I, p.201; Michaud, Histoire des Croisades, II, P21-66 ; King, The Knights Hospitallers, pp.16-31;

وأيضاً: سيد علي الحريري، كتاب الأخبار السنية في الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩١١م، ص ٤٦؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية؛ جـ١، ص٢٤٧-٣٤٠، بجانب الدراسة العربية الأولى المتخصصة عنه: هنادي السيد محمود، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد بلدوين الأول ١١٠٠-١١١٨ م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٦م.

(٢) وليم الصوري، المصدر السابق، جـ٣، ص ٢٢٩. وأيضاً:

Annales des Terre Sainte, p431; Cf. also., Grousset, Histoire des Croisades, tome II, p169; Michaud, Op. Cit., vol. II, pp.120 -141; King, Op. Cit., p.43.

راجع أيضاً: سعيد عاشور، الحركة الصليبية؛ جـ٢، ص٤٦٥. انظر أيضاً الدراسة العربية المتخصصة عن بلدوين الثالث: عبد اللطيف عبد الهادي السيد، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الثالث (١١٤٦- ١١٦٣م) رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٩٠م.

(٣) بلدوين الرابع: هو ابن ووريث الملك عموري الأول، أصيب بالجذام ولم يتزوج، توفي عام ٥٨١هـ (١١٨٥م) تاركا ابن اخته بلدوين الخامس الطفل ولياً لعهده. انظر وليم الصوري، المصدر السابق، جـ٤، ص ١٦٩-٣٤٧؛ مجهول ذيل وليم الصوري، ص ٢١.

(٤) بلدوين الخامس: ابن سبيل ابنة عموري الأول، نصبه خاله بلدوين الرابع ولياً لعهده، وتولي رسمياً بعد وفاته حكم مملكة بيت المقدس وهو بعد طفل في السادسة تحت وصاية ريموند الثالث Raymond III Count of Tripolis غير أنه توفي بعد تسعة شهور من تنصيبه. عنه انظر: مجهول: ذيل وليم الصوري، ص ٢٥، ٤١.

(٥) مجهول، ذيل وليم الصوري، ص٢٢٤-٢٢٧ ؛ مجهول الحملة الصليبية الثالثة، جـ٢، ص ١٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أصلابهم، كما لم ينجب منهم إناثا ســوى فولــك الانجــوي Fulk of Anjou ١١٣٠-١١٤٣م [١]، في حين أنجــب عمـــوري الأول ٥٥٨-٥٦٩هـــ (١١٦٣-١١٧٤م) Amaury I [٢] ذكورا وإناثا [٣].

وقد تدرج نظام توريث الحكم في المملكة الأولى من الانتخاب إلى التوريــث في ظــل تفضيل الصليبيين لنمط الملكية الوراثية الإقطاعية التي كانت سائدة في أوربا آنذاك، كما لا يجب إغفال الدور القوي للنساء في حكم المملكة [٤]. ولا شك أن عــدم اســتقرار نظــام

=Ernoul, Le Chronique d'Ernoul, p267; Annales des Terre Sainte, p434. Cf. also, Grousset, Histoire des Croisades, vol. II, pp1-69; Nickerson, the Crusader States1192-1243, in Setton, A History Of Crusades, Vol. II, London, 1969, p522.

راجع أيضا: ريشار، تكوين مملكة بيت المقدس وبنيتها، ضمن ندوة "الصراع الإسلامي الفرنجي علي فلســطين في القرون الوسطى، تحرير هادية دجاني وشكيل برهان دجاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٤م، ص ١٥٢؛ لطيفة أحمد شاهين البوعنين، الحياة الاقتصادية في عكا، ص٩٣؛ محمد المقدم، الاغتيــالات، ص١٨٩-١٩٧.

(١) عن فولك الأنجوي انظر: وليم الصوري، المصدر السابق، جــ٣، ص٩٢-٩٣. وأيضاً:

Ernoul, Le Chromique d'Ernoul, pp.10 – 13 ; Annales des Terre Sainte, P431. Cf. also: Grousset, Histoire des Croisades, tome. II, P1-24 ; Michaud, Histoire des Croisades, tome. II, p.10-119 ; King, The Knights Hospitallers, pp.16-104; Mayer, "Studies in the history of queen Melisend of Jerusalem", in D. O., vol. XXVI, 1972, p.99. Also "The Succession to Baldwin II of Jerusalem: English Impact on the East", in D.O. no.93, 1985, p.140 f.

راجع أيضاً: سرور عبد المنعم، السياسة الداخلية والخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد فولك الأجوي رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس، ٢٠٠٠م، سهير محمد مليجي، المرأة الصليبية في بلاد الشام (١٠٩٨-١٢٦٠) رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس ٢٠٠٢م، ص ٢٤-٢٥.

(٢) عن عموري الأول انظر: وليم الصوري، الحروب الصليبية، جــ٤، ص١٥؛ ســعيد عاشــور الحركــة الصليبية؛ جــ٢، ص٦٧٨.

Annales des Terre Sainte, pp431- 432 ; Grousset, Histoire des Croisades, tome. II, p436 ; Michaud, Histoire des Croisades, tome. II., p264.

راجع أيضاً الدراسة العربية الأولى المتخصصة عن عموري الأول: حجازي عبد المنعم، السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري الأول (١١٦٣-١١٧٤م/٥٥٨-٥٦٩هــ)، رسالة دكتوراه غير منــشورة، كلية الآداب، جامعة المنوفية، ٢٠٠٦م.

(٣) انظر شكل رقم (١)، ص ٣٤٩.

(٤) عبد الحفيظ محمد علي، مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها علي تاريخ الحركة الصليبية ١١٣١-١١٨٧، القاهرة ١٩٨٤م، ص ١٣-١٤.

http://www.al-maktabeh.com

توريث الحكم في المملكة الأولى قد ترك أثراً بالغاً عليها، في ظـل تـصاعد روح المقاومـة الإسلامية، حتى كلل الأمر بتولي ملك غير مناسب – جاي لوزجنان – في وقت غير مناسب – للصليبيين– فكانت نهاية المملكة على يد صلاح الدين الأيوبي.

أما إذا ما نظرنا إلى توريث العرش في مملكة بيت المقدس التي جرى الاصـطلاح علـى تسميتها بمملكة عكا منذ فشل الحملة الصليبية الثالثة، وحتى ٦٤٨هـ (١٢٥٠م)، فسوف نجد أن الخطب أفدح والخسائر أشد؛ ذلك أنه عقب إطلاق سراح جاي لوزجنان من أسـر صلاح الدين لم يجد ملجأ يذهب إليه سوى صور، لكن كـونراد مـونتفرات Conrad of Monferrat[1] الذي استطاع الصمود في وجه صلاح الدين رفض السماح له بالـدخول؛ ذلك أن جاي فقد ملكه في حطين، وهو يحكم صور نيابة عن الملوك الحاضرين من الغـرب لإنقاذ المملكة التي أضاعها، ودعم موقفه بالزواج من إيزابيل بنت عموري وريثة المملكة[2]،

---

(١) كونراد مونتفرات: ولد عام ٥٣٥هـ (١١٤٠م) وهو ابن وليم الخامس ماركيز مونتفرات، وكان يمت بصلة قرابة إلى فردريك الأول بارباروسا إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا، وقد جاء إلى مملكـة بيـت المقدس عام ٥٨٣هـ (١١٨٧م) واستطاع بعد هزيمة الصليبيين في حطين، أن يقود صور نحو الصمود أمام صلاح الدين، وتزوج من إيزابيل بنت الملك عموري الأول، وطالب بالاعتراف به ملك علي بيت المقدس مما قـاده إلى الاصطدام بالملك جاي لوزجنان بعد إطلاق سراحه من الأسر، وأمام تصاعد الخلاف بينهما فقد عقد مؤتمر صليبي تقرر فيه الاعتراف بكونراد حاكماً على بقايا مملكة بيت المقدس وعوض ريتشارد قلب الأسد جاي بقبرص، لكنه لم يهنأ طويلاً، فقد صرعه أحد الإسماعيلية في صور سنة ٥٨٨هـ (٢٨من إبريل١١٩٢م). لمزيد من التفاصيل عنـد انظر: مجهول، ذيل وليم الصوري، ص ٩٧ وما بعدها؛ مجهول، الحرب الصليبية الثالثة، ترجمة د. حـسن حبـشي، جزءان، القاهرة، ٢٠٠٠م. انظر أيضاً: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص٨٢٨-٨٨٦؛ محمد المقـدم، الاغتيالات، ص ١٨٩-١٩٦؛ ومادة كونراد مونتفرات في دائرة المعارف الإلكترونية علـي الانترنـت علـى الموقع: en.wikipedia.org//http.

(٢) كانت إيزابيل بنت عموري الأول وماريا كومنينا متزوجة من قبل من همفروا حاكم تبنين، ونظراً لقـوة معارضة نبلاء المملكة لجاي لوزجنان فإنهم قرروا تتويجه ملكاً بعد وفاة بلدوين الخامس الطفل، لكنه فر منهم خوفاً من المسئولية واسترضى الملكة سيبل ومن يومها كرهه النبلاء، ولضعف في همته وغواية من كـونراد مـونتفرات قررت أمها الملكة ماريا زوجة عموري طلاقها منه بعد أن صارت إيزابيل هي الوريثة الشرعية للمملكة بعـد أن عدمت أسرة بويون الرجال، ووفاة الملكة سيبل وابنتيها عام ٥٨٦هـ (١١٩٠م)، وعضدها في ذلك ممثل البابـا في الشرق أسقف بوفيه لصداقته لكونراد مونتفرات القوي، بجانب عدم صلاحية همفروا لتولي عرش المملكة، وتم الطلاق ومن ثم تزوج كونراد ايزابيل وصار صاحب الحق الشرعي في تولي الملك في مملكة الـصليبيين المتداعيـة. انظر: وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٤، ص٢٥٣ وما بعدها؛ مجهول، ذيل وليم الصوري، ص١٨٧ وما بعدها. وأيضاً:

مكتبة المهتدين الإسلامية

في وقت توفيت فيه الملكة سيبل زوجة جاي وابنتيه، ولم يعد له حــق في عــرش اكتــسبه بالزواج، كما اتصل كونراد بصلاح الدين لتدعيم موقفه، ولما جاء ريتشارد قلب الأسد مع ملك فرنسا لم ينجزا شيئا سوى فتح عكا.

وانقسم المعسكر الصليبي إلى فريقين: فريق يؤيد جاي لوزجنان يدعمه ريتشارد قلــب الأسد، وفريق يؤيد كونراد يدعمه فيلب أوغسطس، ولما رجحت كفة كــونراد في المــؤتمر الذي عقد قبيل رحيل ريتشارد للنظر في الخلاف بين المتنازعين، تقرر أن يكون عرش بيت المقدس لكونراد مونتفرات في حين باع ريتشارد قبرص لجاي تعويضا عن ملكه الضائع، لكن قبل أن يتوج كونراد مونتفرات ملكاً على بيت المقدس تعرض للاغتيال على يد الحــشاشية في يوم الاثنين الثاني عشر من جماد الآخر من سنة ٥٨٨هــ(٢٧ مــن إبريــل ١١٩٢)، وهناك اتجاه قوي بضلوع ريتشارد وجاي في التحريض على اغتيال كونراد[1] ،وهذا أمــر غير مستبعد، لكن الأدلة لا تكفي للجزم به.

ومرة أخرى صار عرش بيت المقدس شاغراً، فتم البحث عن زوج لوريثة العرش إيزابيل، فلم يجد نبلاء المملكة خير من هنري الشمباني Henry of Champagne [2]، وتم الــزواج

= Ernoul, Le Chromique d'Ernoul,p.267.

وانظر أيضاً: سهير المليجي، المرأة الصليبية، ص٥٠-٥٥.

(١) مجهول، ذيل وليم الصوري، ص٢٢٤-٢٢٧ ؛ مجهول الحملة الصليبية الثالثة، جـــ٢، ص ١٦.

Ernoul, Le Chronique d'Ernoul, p267; Annales des Terre Sainte, p434. Cf. also, Grousset, Histoire des Croisades, tome. III, pp1-69; Nickerson, the Crusader State, p522.

(٢) هنري الشمباني: ينتمي إلى أسرة عريقة فوالده هو هنري الأول الشمباني وأمه هي ماريا الشمبانية ابنــة لويس السابع ملك فرنسا، ولد في ٥٦٢هــــ(٢٩ يوليــو١١٦٦م)، تــولى منــصب كونــت شــامبني عــام ٥٧٧هــ(١١٨١م) حتى ٥٩٤هــ(١١٩٧م) جاء إلى الشرق عام ٥٨٦هــــ(١١٩٠م) مــع عمــه فليــب أغسطس ملك فرنسا، وعقب مصرع كونراد مونتفرات تم اختياره زوجاً لإيزابيل بنت عموري ليكون ملكاً علي بيت المقدس، غير أنه لم يتوج أبداً حتى لقي مصرعه علي إثر سقوطه من نافذة قصره في عكا يوم ٥٩٤هــ(١٠من سبتمبر ١١٩٧م). لمزيد من التفاصيل انظر: مجهول، ذيل تاريخ وليم الصوري، ترجمة: د.سهيل ذكــار، ضــمن الموسوعة الشامية، جــ٨، دمشق، ١٩٩٨، ص٤٢٢-٥١٦.وأيضاً: سعيد عاشور، الحركة الــصليبية، جــــ٢، ص٧٦٢- ٩٢١، ومادة هنري شامبني في دائرة المعارف الإلكترونية على الانترنت على الموقع:

http://en.wikipedia.org.

http://www.al-maktabeh.com

الأول في ٥٨٨هـ(١١٩٢م) الذي لم يستقر له قرار في حكم بقايا مملكة بيت المقدس في ظل ما تعرض له من منافسة جاي لوزجنان حاكم قبرص، الذي سعى إلى استعادة ملكه بمساعدة صلاح الدين الذي لم يعره اهتمامًا، فتوجه نظره نحو تجار البيازنة، بجانب أنه لم يتوج ملكًا حتى سقط من نافذة قصره ١٠من سبتمبر ١١٩٧م[١]، ويبدو أن نبلاء المملكة قد تأكدوا من عدم جدارة هنري الشمباني لتولي عرش المملكة، ومن ثم لم يسعوا لتنصيبه في وقت كانت فيه المملكة في حاجة ماسة لهذا التنصيب، لكن لم يكن هناك بديل شرعي للقيام بالأمر.

ومهما يكن من أمر فقد خلا عرش بيت المقدس مرة أخرى، فتم البحث عن زوج رابع للملكة إيزابيل، ووقع الاختيار هذه المرة على عموري لوزجنان أخي جاي – الملك السابق للمملكة وخليفته في حكم قبرص – وتم الزواج عام ٥٩٥هـ(١١٩٨م)[٢]. وهكذا اتحد عرشي مملكة بيت المقدس الثانية– عكا وقبرص – غير أن ذلك الأمر لم يستمر سوى سبع سنوات، إذ توفي عموري لوزجنان عام ٦٠٢هـ(١٢٠٥م)[٣]، فعادت مملكة بيت المقدس إلى الملكة إيزابيل ثم كبرى بناتها من هنري الشامبني المسماة بماري، التي صارت ملكة تحت

---

(١) Ernoul, Le Chronique d'Ernoul, p306, 'Estoire d'Eracles, p220; Annales des Terre Sainte, p431; Cf. also, Grousset, op. cit. , tome. II, p169; Michaud, Histoire des Croisades, vol. II, p120-141

راجع أيضا: سعيد عاشور الحركة الصليبية؛ جـ٢، ص٤٦٥؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية؛ جـ٣، ص١٧٢؛ لطيفة البوعنين، الحياة الاقتصادية، ص٩٦.

(٢) Ernoul, Le Chronique d'Ernoul, pp309-310; L'Estoire d'Eracles, pp221-223; Cf. also, Grousset, Op. Cit. ,III, pp1152-154; Michaud, Op. Cit., III,p67 ; King, The Knights Hospitallers, p168.

راجع أيضا: سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ٢، ص٩٢١؛ رنسيمان، المرجع، جـ٣، ص١٧٤؛ سهير المليجي، المرأة الصليبية، ص٦٣.

(٣) L'Estoire d'Eracles, P305 . Cf. also: Grousset, Histoire des Croisades, tome. ,III, P1152-154 ; Michaud Histoire des Croisades, tome III, p.360 ; King, the Knights Hospitallers, p.176 ; Nicerson, "The Crusader State" p.534.

راجع أيضا: سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ٢، ص ٩٤٧؛ رنسيمان، المرجع السابق، جـ ٣، ص١٨٨–١٨٩؛ سهير المليجي، المرجع السابق، ص ٦٥.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وصاية يوحنا الأول ابلين John I of Ibelin [١] الذي اختارته المحكمة العليا، وحين بلغت سن الرشد عام ٦٠٥هـ(١٢٠٨م) تنافس نبلاء الشرق اللاتيني على الزواج منها، وكاد الأمر يفضي إلى حرب أهلية؛ مما دفع نبلاء المملكة إلى عقد مؤتمر للنظر في الأمر برئاسة البطريرك، وقد أسفر المؤتمر عن التوجه نحو الغرب للبحث عن زوج للملكة الشابة، فرشح لهم فيلب ملك فرنسا يوحنا دي بريين John de Breinne المسن الذي وصل إلى عكا وتزوج بها في ربيع الأول من ٦٠٧هـ (سبتمبر ١٢١٠م)[٢].

ولم تلبث ماري أن ماتت حزناً على شبابها الضائع بعد أن أنجبت يولاند Yoland التي وضعت تحت وصاية والدها حتى تبلغ سن الرشد، ولما بلغته عام ٦٢٢هـ(١٢٢٥م) فقد درس مشروع زواجها، فكان أقوى المرشحين الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا على أمل قيامه بحملة صليبية تنقذ الشرق اللاتيني، وحدث الزواج وانتقلت يولاند إلى جزيرة صقلية، حيث صارت في عداد حريم فردريك، ولم تلبث أن توفيت بعد أن أنجبت له ابنها كونراد – وارث عرش مملكة بيت المقدس – الذي صار تحت وصاية والده فردريك حتى بلغ سن الرشد عام ١٢٤١م (٦٣٩هـ)[٣].

ونظراً لغياب كونراد في الغرب، فقد وضعت المملكة تحت وصاية أليس ملكة قبرص Alice of Champagne Queen of Cyprus حتى يصل كوتراد لتولي الأمر بنفسه[٤]؛

---

(١) يوحنا الأول أبلين، ولد عام ٦٧٦هـ(١١٧٧م)، ينتسب إلى بيت أبلين الذي يعد أكبر البيوت الإقطاعية في مملكة بيت المقدس علي الإطلاق في ظل عدد كبير من أفراده بالوظائف الكبرى في المملكة بجانب الزيجات المتبادلة مع كبري الأسر الصليبية في الشام وقبرص، وعرف بيوحنا ابلين الكبير تميزا له عن عدد من حاملي اسمه من آل أبلين، تولى يوحنا أبلين عدداً من الوظائف كان أهمها منصب الوصي علي عرش المملكة ٦٠٢هـ(١٢٠٥م) حتى بلغت الملكة ماري سن الرشد عام ٦٠٧هـ (١٢١٠م)، توفي عام ٦٣٤هـ(١٢٣٦م) لمزيد من التفاصيل عن يوحنا ابلين انظر ،

La Mont, "John D'Ibelin the Lord of Beirut", 117-1236 ,in B. (T. XII, 1937), PP 417-458 ; Edbury, "John of Beirut", in The Crusades an Encyclopedia, p.690.

(٢) Ernoul, Le Chronique d'Ernoul, P.407 ; La Mont, John d' Iblin, p.425.

(٣) بالار ، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٣٢٠.

(٤) Runciman, "The Crusader state",, p.55.

http://www.al-maktabeh.com

لعلمهم باستحالة حضوره في ظل مشاكل فردريك في أوربا، كما ألقى فردريك الحركة الصليبية وراء ظهره، ومن ثم صارت المحكمة العليا في مملكة عكا هي صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في اختيار الوصي على عرش المملكة من جراء غياب الملك الشرعي، الذي نال تلك الشرعية بالوراثة(١). ومهما يكن من أمر فما أن ماتت الملكة أليس عام ٦٤٥هـ (١٢٤٧م) حتى آلت الوصاية علي عرش مملكة عكا إلي ولدها الملك هنري King Henry of Cyprus (٢).

هذا عن نظام التوريث في مملكة بيت المقدس الثانية حتى ١٢٥٠م، ومنه يتضح معاناة المملكة من عدم وجود وريث ذكر لتولي العرش، مما وجه الأنظار إلى ضرورة البحث عن

=لم يكن اختيار أليس ملكة قبرص وصية علي عرش مملكة عكا من فراغ، وحتي تتضح الصورة يجب بسط الحديث قليلاً، فأليس كانت نتاج زواج الملك هنري الشامبني من إيزابيلا ابنة الملك عموري، أي أنها أخت ماريا زوجة يوحنا دي بريين وخالة يولاند التي تزوجت من الإمبراطور فردريك وأنجبت كونراد صاحب الحق الشرعي في مملكة عكا، مهما يكن من أمر ففي عام ٦٠٥هـ (١٢٠٨م) تزوجت أليس من هيو ملك قبرص وأنجبت الملك هنري الأول، توفي الملك هيو عام ٦١٥هـ (١٢١٨م) ولم يتجاوز عمر ابنه هنري الثمانية شهور فصارت أمه أليس وصية عليه، وفي عام ٦٢٧هـ (١٢٢٩م) طالبت المحكمة العليا في مملكة عكا بحقها في الوصاية علي عرش مملكة عكا في ظل تغيب كونراد ابن فردريك الثاني عن عرش المملكة، وكونها أقرب المرشحين لتولي المنصب، غير أن طلبها قوبل بالرفض بحجة صغر سن كونراد وبالتالي الأمر إلى والده والوصي عليه الإمبراطور فردريك، وفي عام ٦٤١هـ (١٢٤٣م) بلغ كونراد سن الرشد وتوجب حضوره بشخصه إلى عكا لممارسة سلطاته غير انه لم يفعل فقررت المحكمة العليا تولية أليس وصية علي العرش لحين قدوم كونراد من الغرب. عن أليس وعرش مملكة عكا انظر:

فليب دي نوفارا، حروب فردريك الثاني، ص ١٧٩-١٨٢

Asssises de Jerusalem ,tome II , p.400; Estoire d'Eracles, pp. 158-420 Passim, Cf. also, La Monte, Feudal Monarchy in the Latin king of Jerusalem 1100-1291, New York, 1970, pp. 96-97.

راجع أيضاً: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ١٥٨-٣٤٤ متفرق.

(١) Rogger of Wendover, the Chronicle, in: Christian Society and the Crusades 1198-1229, tr. Johan paderborn, edited by Edward Peters ,Philadelphia, 1971 ,pp.146-156. Cf. also: La Monte, op. cit, pp.55-62.

راجع أيضا: بالار، الحملات الصليبية، ٣٢٠

(٢) La Mont. op. cit, p.74.

مكتبة المهتدين الإسلامية

زوج مناسب للملكة حين تبلغ سن الرشد في ظل استقرار مبدأ الملكية الإقطاعية في توريث العرش، وهو ما فتح باب الصراعات القاتلة بين نبلاء المملكة، وكان الأسوأ من ذلك تزويج وريثة العرش من زوج له أملاك أخرى غير مملكة بيت المقدس، وقد حدث ذلك مع عموري لوزجنان ملك قبرص الذي أعلن صراحة مبدأ الفصل بين المملكتين، وبالتالي ضرورة اعتماد كل مملكة على قوتها الذاتية تحت قيادته.

وسرعان ما صار الخطب أفدح حينما أصبح زوج الملكة ووارث المملكة إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فلا شك أنه كان يفضل ما في أوربا على ما في الشرق، ومن ثم فإنه أهمل أمر المملكة في وقت انتقلت فيه الصراعات بين البابوية والإمبراطورية من أوربا إلى الشرق اللاتيني، الذي انقسم بين مؤيد للإمبراطور ومؤيد للبابوية وما نشب بينهما من صراعات كانت ذات أثر مدمر على المملكة بشكل زاد وضوحا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر كما سوف يتضح لنا.

لويس ملك غير متوج في مملكة عكا ١٢٥٠-١٢٥٤م.

عندما أطلق المماليك سراح لويس التاسع من الأسر عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م)، لم يرحل مباشرة إلى فرنسا بل في بقي بعكا عله يحرز نجاحاً يحفظ له ماء وجهه بعد أن تمرغت سمعته في أوحال الأسر[١]، ولما حل لويس بعكا وجدها تحت وصاية هنري ملك قبرص وفي كفالة يوحنا ابلين سيد أرسوف John of Ibelin Lord of Arsour [٢]، وعلى الرغم من أن

(١) جوزيف نسيم، لويس التاسع في الشرق الأوسط ١٢٥٠-١٢٥٤م، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ١١٦.

(٢) La Monte, Feudal Monarchy ,p.74 .

يوحنا ابلين سيد أرسوف: هو ابن يوحنا ابلين الكبير، سمي يوحنا صاحب أرسوف لأنه ورث المدينة عن أمه فنسب إليها، تولى منصب كفيل المملكة أو نائب الملك عام ٦٤٥هـ (١٢٤٧م) خلفا لأخيه باليان، بذل جهدا كبيرا في القيام بمهام منصبه في ظل غياب الملك في قبرص واستطاع تهدئة الصراعات الداخلية في المملكة عام ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) مما ساعد علي مشاركة المملكة في حملة لويس علي مصر، وعقب فشل الحملة ووصول لويس التاسع إلى عكا سلم إليه يوحنا زمام المملكة، توفي عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م).

The templar of Tyre, pp.21-33; Annales de Terre Sainte, p.442; Chronique d'Amadi, p.198.

http://www.al-maktabeh.com

كونراد صاحب الحق الشرعي كان على قيد الحياة فإن نبلاء المملكة اعترفوا بسلطة لويس في مملكة عكا باعتبارها أمراً واقعاً[١]. وثمة سؤال يطرح نفسه في هذا المجال، ألا وهو لماذا قبل نبلاء مملكة عكا نفوذ لويس عليهم في حين أنهم رفضوا سلطة فردريك من قبل؟

تتضح الإجابة من دراسة أحوال الصليبيين في ذلك الوقت التي توضح أن أمور عديدة دفعتهم إلى ذلك: أولها تردي قوة المملكة بشكل خطير من جراء فشل حملة لويس، وخسائر المملكة الضخمة خصوصاً الخسائر البشرية التي تركت المملكة بلا درع يحميها، وعلى الرغم من أنه كان درعاً هشاً لكنه كان لا بأس به في التصدي لهجمات المسلمين[٢]، بجانب بقاء عدد كبير من الصليبيين في أسر المماليك – حكام مصر الجدد – الذين لم تتضح معالم سياستهم بعد أو كيفية التعامل معهم[٣].

أما الأمر الثاني فهو تغير الخريطة السياسية لمصر والشام عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) من جراء قيام دولة المماليك الفتية بسيوف من حطموا أحلام لويس في المنصورة، ومن ثم فقد تطلب الأمر وجود شخصية قوية تجمع شمل المملكة وتؤمنها من شر الانقسام وتطفيء نار الفتنة المعتادة الوقوع، سواء بين الجاليات التجارية الإيطالية أو بين التنظيمات الدينية العسكرية، أو حتى بين طبقات المجتمع المتصارعة فيما بينها[٤]، على الأقل حتى تتضح الصورة و يأمن الصليبيون في عكا شر تلك القوة الفتية، وثالث الأمور هو أن لويس لا يمثل خطراً على نفوذ مراكز القوى في مملكة عكا على المدى الطويل، فلم يطالب بعرش المملكة كما لم يسع إلى سلب كونراد بن فردريك حقوقه[٥]، بجانب أن إقامة لويس لن تطول في ظل رسائل الملكة الأم المتكررة بضرورة الرجوع إلى فرنسا بسبب مشاكلها المتفاقمة[٦].

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٤٧٤؛ لطيفة البوعنين، الحياة الاقتصادية، ص ١٠٩. وانظر أيضا: Hamilton, The Latin church ,p.266.

(٢) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي، ص ٤٥–٨٨.

(٣) جوانفيل، سيرة القديس لويس، ص ٢٠٨؛ مجهول، تتمة كتاب وليم الصوري، ص ٢٢٢.

(٤) حول تلك الصراعات انظر الفصل الثالث، ص ١٥٤ .

(٥) جوانفيل، المصدر السابق، ص ١٥٧.

(٦) جوزيف نسيم، لويس التاسع، ص ٧٧.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أما الأمر الرابع فتمثل في عجز نبلاء المملكة عن انتهاج سياسة معارضة لسلطة لويس في ظل تأييد البابا له، بخلاف فردريك الذي جاء إلى الشرق محروماً، علاوة على أن لويس قد بذل جهداً مكثفاً لتدعيم المملكة على الصعيد الدبلوماسي بمحاولة الاستفادة من صراع القوى بين الأيوبيين بالشام والمماليك في مصر، أو على الصعيد العسكري بتدعيم دفاعات المدن الصليبية في عكا ويافا وعسقلان وصيدا وقيسارية[١]، أو على صعيد حل مشاكل باقي الإمارات الصليبية مثل حل الخلاف بين أمير أنطاكية وأمه الوصية عليه[٢]، وأخيراً حسن معاملة لويس لنبلاء المملكة بخلاف فردريك الذي أساء إليهم، فعقب نزول لويس بساحل عكا أحسن التعامل مع نبلاء المملكة وبخاصة آل أبلين حين منح يوحنا ابلين سيد أرسوف والوصي على عرش المملكة إقطاع يافا، كما منح فيليب مونتفورت Philip of Montfort[٣]، صهر الأبلينيين إقطاع صور، وأحسن إلى باقي نبلاء المملكة، بخلاف

---

(١) L'Estoire d'Eracles, p.440 ; Annales de Terre Saint, p.445 Cf. also: King ,The knights Hospitallers, pp.249-250 ; Grousset, Histoire des Croisades ,tomeIII ,P501-503; Strayer, "The Crusades of Louis IX ", p.507. راجع أيضا: ريشار، تكوين مملكة بيت المقدس، ص ١٧٣؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص ١٩٥؛ إبراهيم سعيد، يافا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٩١م، ص ٢٤٠. وعن مواقع هذه المدن انظر: الخريطة رقم(١)، ص ٣٤٧.

(٢) توفي بوهمند الخامس أمير أنطاكية وطرابلس تاركاً ولدا في الرابعة عشر من عمره هو بوهمند السادس تحت وصاية أمه لوسي، غير أنها أهملت أمر أنطاكية وأقامت في طرابلس، فوقعت أنطاكية في حالة من الفوضى، وفي ٦٥٠هـ (١٢٥٢م) زار لويس يافا فخف إليه بوهمند السادس حيث طلب منه التوسط بينه وبين أمه حتى وافقت علي ترك الابن في أنطاكية يدير شئونها وتبقي هي في طرابلس ولمزيد من التفاصيل حول ذلك الخلاف ودور لويس في تصفيته انظر، جوانفيل سيرة القديس لويس، ص ٢٣١-٢٣٢. وأيضا: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ١٠٩٥، ١٠٩٦؛ حسين عطية إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص٣٨٩.

Grousset, Histoire des Croisades ,tomeIII.511-512.

(٣) فليب مونتفورت: كان والده هو جاي مونتفورت، وأمه هيلفيس ابلين، تزوج من ماريا الأرمينية ابنة ريمون روبين التي ورثت إقطاع تبنين، كان شديد الولاء لأخواله آل ابلين ومن ثم تصدي لمحاولة فلانجيري عام٦٤١هـ (١٢٤٣م) للقضاء علي الأبلينيين في عكا، شارك في معركة الحربية التي هزم جيش مصر فيها الصليبيين عام٦٤٢هـ(١٢٤٤م)، كما شارك في حملة لويس علي مصر وفر من الأسر في دمياط، وشارك مشاركة فعالة في الأحداث السياسية وذاع تأييده المطلق للملك هيو الثالث، حتى أوعز الظاهر بيبرس إلى الحشاشية

http://www.al-maktabeh.com

فودريك الذي كانت أولى خطواته في الشرق هي محاولة حرمان عميد بيت ابلين من إقطاعه في بيروت(١)، لكل هذه الأمور صار لويس التاسع ملكاً غير متوج في مملكة عكا.

وهما يكن من أمر فقد أحدث وجود لويس التاسع في عكا نوع من الاستقرار النسبي في ظل سلطته وهيبته، بجانب الإرهاق الشديد والخسائر الفادحة التي تحملتها شتى عناصر المملكة من جراء فشل الحملة الصليبية السابعة علي مصر، ووقوع عدد كبير من الأسرى في يد المسلمين(٢)، وبالتالي انحصرت الصراعات بين الجاليات الإيطالية مرحلياً، وحد وجود لويس من نفوذ التنظيمات الدينية، وتوحد الجميع تحت ظل سيفه مرحليا.

وقبيل رحيل لويس عن الشرق عام ٦٥١هـ (١٢٥٣م) توفي الوصي – الغائب – على عرش مملكة عكا في قبرص وهو الملك هنري، فشغر منصب الوصي، نظراً لصغر سن العاهل القبرصي الطفل هيو الثاني Hugh II ومن ثم آل منصب الوصي على عرش قبرص إلى الملكة الأم بليسانس Queen Plaisance، ونظراً لوراثة أم هيو الثاني لمنصب الوصي على عرش مملكة عكا، فقد صارت بجانب وصايتها على عرش قبرص وصية على الوصي على عرش بيت المقدس مما عقد الأمور. ولم يقف الأمر عند ذلك، إذ رفض القانونيون في مملكة عكا أن يحلفوا لها يمين الطاعة حتى تصل بنفسها، ولما كانت بليسانس عاجزة عن العناية بالمملكتين معاً فقد مكثت في قبرص وتركت أمر إدارة عكا إلى يوحنا ابلين – سيد أرسوف نائباً – عن الملك، غير أن الأمور ارتبكت معها في قبرص، فاستدعت يوحنا ابلين سيد أرسوف ليعاونها

=بالتخلص منه فاغتالوه عام ٦٦٩هـ (١٢٧٠م) فكانت ضربة قاصمة لهيبة الصليبيين لمزيد من التفاصيل عنه انظر:

The Templar of Tyre, p.60-63

وراجع أيضا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٣٦٠-٥٧٠.

(١) جرجس فام، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس الصليبية وعلاقاتها الخارجية (١١٩١-١٢٩١ م/ ٥٧٨ – ٦٩٠ هـ) رسالة دكتوراه، كلية الآداب ببنها، جامعة الزقازيق، ١٤١٠هـ/١٩٨٩ م، ص ١٩١.

(٢) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي، ص ٢٠٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

في إدارة شئونها عام ١٢٥٤م، وترك منصب نائب الملك في يد يوحنا ابلين – سيد يافـا – يعاونه جيفري سارجنيس[(١)] الذي تركه لويس قائداً للقوة الفرنسية لحماية عكا[(٢)].

وفي ذلك الوقت توفي الملك الشرعي لمملكة عكا وهو كونراد هوهنشتاوفن عام ٦٥٢هـ(١٢٥٤م)، فانتقل العرش من بعده لولده الطفل كونرادين الذي لم يأت إلى الشرق أبداً مثل والده[(٣)]، وهو أمر كان يثلج صدور نبلاء المملكة خصوصاً القانونيين منهم، الذين أخذوا يفسرون القانون على هواهم ويناوئون الأوصياء متشدقين بحقوق الملك الغائب، بل ويسنون القوانين التي تخدم مصالحهم الشخصية والعرقية والحزبية، وهو ما أزعج كل ساع لمساعدة المملكة[(٤)]، ولا شك أن ذلك كان له ظلال خطيرة على أمن المملكة مع سيادة حالة من الانفلات الأمني استعصت على الحل.

---

(١) جيفري سارجنيس: نبيل فرنسي تركه لويس في عكا علي راس قوة فرنسية تساند قوات المملكة في الدفاع عنها، وأثناء تواجده تولى عدد من المناصب الإدارية أعلاها نائب الملك عام (مايو ١٢٥٩م)، توفي في ٦٦٨هـ (١١ إبريل ١٢٦٩م). عنه انظر:

The Templar of Tyre, p.20 f. Cf. Also, La Monte، Feudal Monarchy, p.74 f ; Hill, The History Of Cyprus, p.161 f

(٢) L'Estoire d'Eracles, p.441 ; Annales de Terre Saint, p.446;Chroniques d'Amadi, p.203. Cf. also: Mas Latrie, Histoire de l'ile de Chypre ,I, p.363 ; Hill, Op. Cit., vol. II, p.148; Nicolle (David), Acre 1291 Bloody Sunset of the Crusader States, Oxford, 2005, p.9

راجع أيضا: سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٤٦؛ عاطف مرقص، قبرص والقوي الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٩١م، ص ١٧٦.

(٣) ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٩١؛ سهير المليجي، المرأة الصليبية، ص ١٢٢.

La Monte, Op. Cit., p.75, note 1.

(٤) ماير، المرجع السابق، ص ٣٦١.

حين جاء إدوارد ولي عهد إنجلترا إلى الشرق عام٦٧٠هـ (١٢٧١م) طلب من الجاليات الإيطالية حظر التجارة مع مصر لأنها تضر بمصالح المملكة فاعترضوا وقدموا له حكما من المحكمة العليا يحظر تدخل حكومة المملكة في هذا الشأن. عفاف صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٥٥.

http://www.al-maktabeh.com

ومهما يكن من أمر فإن يوحنا سيد يافا[١] لم يكن في حنكة يوحنا سيد أرسوف، بحيث انشغل الأول عن إصلاح أحوال المملكة، وكان يوحنا سيد يافا قد عقد هدنة مع السلطان عز الدين أيبك عام ٦٥٢هـ (١٢٥٤م)، غير أنه لم يكن رجل الساعة ليملأ الفراغ الذي تركه أخوه فسمح لجيفري سارجنيس كونستابل المملكة بالإغارة على عسقلان، مما عُدَّ خرقاً للاتفاق الذي عقده من قبل ومن ثم تعرض للهجوم من قبل المماليك، وهو ما أقلق بال الوصية على عرش قبرص ويوحنا سيد أرسوف، اللذان سعيا إلى السلام مع المماليك، أو حتى تجميد الموقف لحين وصول معونة مناسبة من الغرب في وقت لم يتعرض لهم فيه المماليك بسوء، فسارع يوحنا سيد أرسوف بالعودة إلى عكا ثانية عام٦٥٤هـ (١٢٥٦م) وتولى منصب نائب الملك في ذلك الوقت الحرج[٢]. غير أن تلك العودة لم تملأ الفراغ الذي تركه لويس، وهو ما أدى إلى اندلاع أكبر حرب أهلية عرفها الشرق اللاتيني على الإطلاق وهي حرب القديس سابا التي اندلعت منذ عام ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) فعمقت جذور الخلافات بين شتى عناصر المملكة، تلك الخلافات التي لم تنته إلا بسيف الأشرف خليل، حقيقة أن بداية الحرب كانت بين البنادقة والجنوية لكن سرعان ما تحزبت باقي الطوائف لتساند هذا الطرف أو ذاك[٣].

---

(١) يوحنا أبلين سيد يافا: هو القانوني الشهير، كان والده هو فيليب أبلين، وعمه هو يوحنا ابلين الكبير سيد بيروت، ولد عام ٦١٣هـ (١٢١٦م)، تزوج من إحدى بنات هيثوم الأول ملك أرمينيا، وفي عام ٦٤٥هـ (١٢٤٧م) منحه هنري ملك قبرص والوصي علي عرش مملكة عكا مدينة يافا إقطاعاً له، لعب دوراً كبيرا في حرب القديس سابا منحازاً إلى البنادقة، واتخذ من بليسانس أم ملكة قبرص عشيقةً له، مما عرضه لسخط البابا أوربان الرابع، وفي عام ٦٦٣هـ (١٢٦٤م) بدأ في تدوين كتابه عن قوانين بيت المقدس، توفي عام ٦٦٥هـ (١٢٦٦م). عنه انظر

John of Ibelin, Le Liver des Assis, ed. By Peter Edbury , Leiden , 2003, the introduction, p.11, 12; The Templar of Tyre, pp.23-52 passim. Cf. also, Edbury, John of Iblin and the Latin Kingdoom of Jerusalem, London, 1997, "John of Jaffa", in The Crusades an Encyclopedia, p.692.

(٢) إبراهيم سعيد، يافا، ص ٢٥٠

(٣) عن حرب القديس سابا، انظر الفصل الثالث، ص ١٦٠.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وفي محاولة من الملكة بليسانس لإثبات وجودها فإنها وصلت إلى عكا في (فبراير ١٢٥٨م) وفي صحبتها بوهمند السادس – أمير أنطاكية – وابنها الملك هيو الثاني طفلاً في الخامسة من عمره، فطلب بوهمند انعقاد المحكمة العليا وأقام دعوى قضائية يطلب فيها من نبلاء المملكة بتأدية يمين الولاء للطفل الصغير وصياً على عرش مملكة عكا، باعتباره وريث المملكة بعد الملك الغائب كونرادين، وبأمه قيمة عليه حتى يبلغ سن الرشد، وقبلت القضية، وأصدرت المحكمة قراراً بحلف اليمين للملك الطفل وأمه مع الأخذ في الاعتبار حقوق كونرادين الغائب، فحلف كل من مقدم الداوية ومقدم التيوتون وفرسان المملكة والبنادقة، لكن الاسبتارية والجنوية وفليب مونتفورت رفضوا حلف يمين الولاء إلا في حضور الملك الغائب كونرادين. والراجح أن رفض الفريق الثاني حلف اليمين لم يكن سوى معارضة من أجل المعارضة، في إطار تداعيات الحرب المشتعلة وليس حباً في أسرة هوهنشتاوفن، وبدلاً من أن يسهم وجود الملك والوصية عليه في عكا في تهدئة جذوة الصراع المشتعل من جراء حرب القديس سابا، انجرفت الأسرة الملكية للمشاركة في الصراع بعد أن صارت عكا حزبين يأكل بعضهما بعضاً. ولما كانت الوصية على العرش عاجزة عن فعل شيء فإنها رحلت عن عكا، وتركت أمر نيابة الملك إلى يوحنا سيد أرسوف، يعاونه الجنود الفرنسيون الثمانمائة تحت قيادة جيفري سارجنيس، وطلبت منهم الضرب على أيدي العابثين بأمن مملكة عكا، وهي في قرارة نفسها تعلم أن تلك الوصية لن تغير شيئاً من الأمر الواقع، ومن ثم استمرت نار الحرب، ولكن ما لبث يوحنا ابلين سيد أرسوف أن توفي سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م)، فحزنت الملكة كثيراً وعهدت بأمر النيابة إلى سارجنيس[١].

---

(١) Asssises de Jerusalem ,tome II ,Par Benugnot, Paris, 1843, p.401, Chroniques d'Amadi, pp.204-205, The Templar of Tyre, p.25, L'Estoire d'Eracles, pp.442-444 ; Annales de terre Sante ,P. 446-448. Cf. also: Hill, A history of Cyprus, vol. II, p.150 ; Read, The Templars, p.228.

راجع أيضا: سهير المليجي، المرأة الصليبية، ص ١٢٢

http://www.al-maktabeh.com

وقد بلغ الفراغ السياسي ذروته عام٦٥٩هـ (١٢٦٠م) حين خرج المماليك بقيادة السلطان قطز[١] لقتال المغول[٢]، وأرسلوا إلى عكا يطلبون الإذن بعبور أراضي المملكة على حد تعبير المصادر العربية أو التحالف على حد تعبير المصادر الصليبية[٣]، في ذلك الوقت الحرج الذي كان يتطلب وجود ملك قوي، ولم تجد مملكة عكا من يجمع شملها ويلم شعثها، على الرغم من وجود المغول في بلاد الشام منذ فترة، ووجود أمل في فتح باب تحالف صليبي مغولي، يسمح بوضع المسلمين بين شقي الرحى.

غير أن نبلاء عكا لم يتقدموا في هذا الأمر قيد أنملة بسبب غياب الملك، واختلاف وجهات نظر النبلاء حول معالجة الموقف، بجانب روح الاستعلاء المغولية التي لم تكن تفكر حتى هذا الوقت في البحث عن حلفاء بل عن أتباع أذلاء، ووصل بهم الحد إلى استثارة المغول ضد الصليبيين وهم على مرمى حجر من المملكة بعد اجتياحهم للشام واستعدادهم

---

(١) المظفر قطز: كان من مماليك الملك المعز أيبك، ترقى في مراتب الجندية حتى وصل إلى درجة الإمارة، وقربه عز الدين أيبك حتى علا شأنه، وحين قتل أيبك تولى قطز تدبير أمور البلاد لصغر سن الملك علي بن المعز أيبك، ولما اقترب التتار عزله في ذي القعدة عام ٦٥٧هـ(١٢٥٨م)، وتولي أمر البلاد، واستطاع قيادة جيش مصر في عين جالوت، وحقق النصر الذي خلد ذكره برغم قصر مدة حكمه التي لم تتجاوز السنة، وقد لقي مصرعه بسيف جماعة من المماليك بقيادة بيبرس البندقداري الذي تولى الأمر من بعده يوم السبت ١٦من ذي القعدة ٦٥٨هـ. انظر: اليونين، ذيل مرآة الزمان، ص ٢٢ وما بعدها؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٥٤؛ العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، جـ١، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ١٤٢٢هـ، ص ص٢٢٠-٢٦٠.

(٢) حول المغول ونشأة دولتهم وتوسعها انظر: المدائني، حملات الغزو المغولي للشرق كما عاشها ابن أبي الحديد المدائني، النص العربي مرفق به ترجمة فرنسية، ترجمه إلى الفرنسية: د.مختار جبلي، باريس ،١٩٩٥. انظر أيضا:

Grigor of Akanc, History of Nation of Archers, the Armenian text edited with English translation and nots by Robert p. Blake and Richard N. Frye, in H.J.A.S. (vol. 12, no.3/4 dec., 1949), pp.269-399; Aboul-Ghazi Behadour Khan, Histoire des Mongols et des Tartars, Publie Petr Desmaisons, Amsterdam, 1970.Cf. also: Saunders, The history of the Mongol conquests, London, 1971; Comeaux, Chez les Mongols de la conquete (XIII siecle), 1972; Curzon, The secrt history of the Mongols, trans. By Urgungr Onon, London, 2001.

وأيضاً: فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ من جنكيز خان إلى هولاكو خان، القاهرة، ١٩٦٠.

(٣) حول هذه القضية والآراء المختلفة التي دارت حولها انظر الدراسة الممتازة التي قام بها بيتر جاكسون:

Jackson ,"The Crisis in the Holy Land in 1260", in E.H.R. vol. 95, no.376 (jul., 1980), pp.481-513; McDaniel (Ryan James), The Mongols Invasion of the Near east, Master of arts, The faculty of History, San Jose State University, 2005, pp. 20-33.

مكتبة المهتدين الإسلامية

لغزو مصر، حين أقدم جوليان Julian of Sidon [١] حاكم صيدا[٢]، دون إدراك منه لخطورة التصرف الأهوج بالهجوم على القوات المغولية مما جعل كتبغا يسارع باجتياح مدينته[٣]، كل ذلك لم يجعل الوصية على العرش تسارع بتقديم يد العون للمملكة على الأقل بالتواجد في الساحل لتدبير شئونه، حتى ينجلي الموقف في وقت كانت مملكة قبرص فيه بمنأى عن الخطر.

ولكن يبدو أنها لم يكن يشغلها سوى الشكل القانوني في الموضوع وأن تنادي بالوصاية على المملكتين، ذلك المنصب الذي فرغ من معناه بترك الأمر في يد نائب الملك جيفري سيرجنيس الذي لم يكن في مقدرة يوحنا ابلين، ومن ثم لم يستطع حمل الصليبيين على جادة الصواب وما فيه مصلحتهم من تحديد موقف محدد من المغول، أو المسلمين ومن ثم فإنهم وقفوا موقف المتفرج الذي ينتظر ما تسفر عنه نتيجة المعركة، ويبدو أنهم آمنوا بأنه في كلا الحالين فإن المنتصر سوف يجتاح الأراضي الصليبية.

---

(١) جوليان سيد صيدا: تولى حكم صيدا والشقيف خلفا لوالده رينالد في عام ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) وكان متجرداً من المسئولية وانغمس في اللهو والطرب غير عابيء بالأخطار المحدقة بالصليبيين، كان متزوجاً من إحدى بنات هيثوم ملك أرمينيا الموالي للمغول، غير أنه لم يحذ حذو أمير أنطاكية بالدخول في طاعة المغول مثل صهره، كما شغف بالقمار والشراب حتى غرق في الديون ورهن صيدا والشقيف لدى فرسان الداوية، ثم تنازل لهم عنها عام ٦٥٩هـ (١٢٦٠م)، كما اشتهر بعلاقاته النسائية التي كان اشهرها علاقته بإيزابيل ملكة قبرص التي توفي عنها زوجها قبل الدخول بها، وتوفي عام ٦٧٤هـ (١٢٧٥م) في أحد الأديرة بعد أن اعتزل الحياة العامة، عنه انظر:

The Templar of Tyre, p.11 f.

وأيضاً: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٢٩-٥٨٦؛ أسامة زكي زيد، صيدا، ص ص٢٢٦-٢٤٠.

(٢) صيدا: مدينة من مدن الساحل الشامي أو الفينيقي، على ساحل جنوب لبنان، شمال صور، بنحو ستة أميال، يحدها من الشمال نهر الأولي ومن الشرق بساتين ومزارع ومن الغرب البحر، كانت تعد من أعمال دمشق، وفي فترة التواجد الصليبي كانت من مناطق نفوذ أسقف صور، عنها انظر: ناصر خسرو، سفرنامة، ص٦٠؛ الدمشقي، نخبة الدهر، ص٢٠١؛ القلقشندي، صبح الأعشي، جـ٤، ص١١١. وأيضاً:

Buurchard, p6,15.

راجع أيضاً: أسامة زكي زيد، المرجع السابق، ص١٢،١١.

(٣) Richard (Jean), The Crusades 1071-1291, trans by Jean Birrell, Cambridge, 1999, p.411.

http://www.al-maktabeh.com

ومهما يكن من أمر ففي ظل غياب السلطة العليا في المملكة اجتمعت المحكمة العليا للنظر في الأمر، ورحب جمع من الصليبيين بالمماليك، وحجتهم أنهم عدو معلوم الخطر لكنه صار مألوفاً وطريقة التعامل معه مدركه، أما المغول فهم خطر لم تتحدد ملامحه، بالإضافة إلى ما ارتبط بانتصاراتهم من مذابح تقشعر لها الأبدان، غير أن فريقاً آخر قاده أنو أوف سانجر هاوزن[١] مقدم الفرسان التيوتون نبههم إلى أن المماليك حال انتصاراتهم لن يكونوا أرحم بهم من المغول، ومن ثم انتهت جلسة المحكمة بقرار الاكتفاء بالسماح للمماليك بالعبور من أراضي المملكة بأمان، دون تقديم العون لهم[٢].

وزاد الطين بلة أنه حين توفيت الوصية على عرشي قبرص وعكا عام ٦٦٠هـ / (١٢٦١م)، فقد صار ملك قبرص الطفل ابن الثامنة بلا وصي وفقد سارجنيس في عكا شرعية ولايته؛ ذلك أنه لم يكن أكثر من مندوب عن الوصي على العرش ليس أكثر، وهو ما فتح باب الصراع بين المطالبين بالوصاية على عرش قبرص وبالطبع على عرش عكا، وهنا تحتم الضرورة معالجة أبعاد هذا الصراع بالعرض التفصيلي لعلاقة المطالبين بالوصاية بالملك الطفل هنري.

كان لملك قبرص الراحل هيو أختين؛ الكبرى ماريا والصغرى إيزابيل، فتزوجت ماريا من والتر البريوني Walter of Brienne[٣]، بينما تزوجت إيزابيل من هنري الأنطاكي شقيق

---

(١) أنو أوف سانجر هاوزن: تولى منصب المقدم الأعلى لطائفة الفرسان التيوتون الألمان في الفترة بين عامي٦٥٤-٦٦٢هـ (١٢٥٦-١٢٧٣م)، ظهر علي سطح الأحداث عام ٦٥٢هـ (١٢٥٤م)، وتولى عدة مناصب قبل وصوله لوظيفة المقدم الأعلى، وقد شهدت الجماعة في عهده عدة تطورات أهمها اتساع مراكز الجماعة في أوربا، مما مهد لانتقال هذه الجماعة إلى هذه المراكز بعد ضياع أملاكها في الشرق بفعل فتوح بيبرس وقلاوون. عنه انظر: حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص٢٧٤، حاشية٢، ص٢٧٥.

(٢) حول تفاصيل علاقة الصليبيين بالمغول انظر الفصل السادس، ص ٢٨٥.

(٣) ولتر البريوني: كان ابن عم للملك يوحنا دي بريين، تولي حاكماً ليافا، وقع في اسر الخوارزمية عام ٦٤٢هـ (١٢٤٤م)، وقد حاول الخوارزمية استخدامه في الضغط علي حامية يافا لتسليمها، إلا أنه أشار للحامية بعدم التنازل حتي لو كلفهم ذلك حياته شخصيا فساقه الخوارزمية إلى السجن حيث توفي بعد قليل، عنه انظر:

The Templar of Tyre, p.19, note 6

مكتبة المهتدين الإسلامية

بوهمند الخامس وعم بوهمند السادس، وأنجبت كل من ماري وإيزابيل ولـد وحمـل كـلا الولدين اسم هيو، غير أن هيو الأنطاكي بن إيزابيل كان أكبر سناً من هيو البريوني بن ماري الأخت الكبرى، وتوفيت الأخيرة قبل أختها وتركت ولدها هيو في رعاية خالته، ولما توفيت بلسانس أم ملك قبرص طالبت إيزابيل عمة الملك هنري الطفل بالوصاية على عرش المملكة على الرغم من أحقية هيو البريوني بالأمر، بحكم أنه ابن الأخت الكبرى، وطبقـاً لقـوانين الوراثة الفرنسية يقدم على ابن الأخت الصغرى.

ولكن نظراً لأن هيو البريوني كان يرى أن خالته في مقام أمه فلم ينازعهـا في مطالبتـها بالوصاية على عرش قبرص، ولما عرض الأمر على المحكمة العليا في قبرص فإنها أقرت حـق إيزابيل في الوصاية على العرش، غير أنها فضلت أن يقوم ولدها هيو الأنطاكي بذلك الأمـر نظراً لتفضيل الرجال على النساء في القيام بهذه الوظيفة في ذلك الوقت الحرج، أما في مملكة عكا فقد رفضت محكمتها العليا الاعتراف بوصاية إيزابيل على العرش حتى تمثل بنفسها أمام هيئتها وتطالب بالوصاية، وبرغم أن الأمر كان تحصيل حاصل فإن المحكمة العليـا الممثلـة لنبلاء المملكة أبت إلا أن تظل هي السلطة التشريعية التي تمنح للأوصياء شرعيتهم، وبقيت مملكة عكا قرابة العامين بلا وصي على العرش. ومهما يكن من أمر فقد أسرعت إيزابيل إلى عكا عام ٦٦٢هـ (١٢٦٣م) وتم الاعتراف بها وصية على عرش المملكة، ونظراً لاستقالة جيفري سارجنيس من منصب نائب الملك فقد أسرعت إيزابيل بتعيين زوجها هنري في هذا المنصب وعادت إلى قبرص[١].

كان من المفترض أن يحدث استقرار نسبي في شئون عكا عقب تولي إيزابيـل منـصب الوصاية وتعيين زوجها نائباً عن الملك، غير أن الأجل لم يمهلها؛ إذ توفيت عقب عودتها من عكا إلى قبرص مباشرة عام ٦٦٣هـ(١٢٦٤م)، فشغر منصب الوصي على عرش عكـا، وهنا تصاعد الخلاف بين ابني الخالة، هيو البريوني الذي رأى أحقيته بالوصاية لأنه ابن البنت

---

(١) Estoire d'Eracles, p.446, The Templar of Tyre, p.40. Cf. also, La Monte, Feudal Monarchy, p.75; Runciman, "The Crusader State", p.571.

راجع أيضاً: سهير المليجي، المرأة الصليبية، ص ١٢٣.

http://www.al-maktabeh.com

الكبرى وبالتالي يتقدم على ابن خالته الصغرى في الوراثة طبقاً لقوانين فرنسا التي هي المصدر الأساس للنظام المعمول به في مملكة عكا، في حين طالب هيو الأنطاكي بالمنصب باعتباره الوريث الشرعي لآخر من تولى الوصاية، بجانب أن خالته ماري قد توفيت وخاله هنري ملك قبرص على قيد الحياة وبالتالي الميت لا يرث. وأمام اشتداد الخصومة بين ابني الخالة فقد عرض الأمر على المحكمة العليا في عكا، وقدم كلا المتنازعين ما يدعم مطالبته بالوصاية على العرش، فاحتج هيو الأنطاكي بكونه ابن آخر من تولي المنصب ووريثه، في حين حاول هيو البريوني تقوية موقفه بالمطالبة بإدلاء فليب النوفاري(١) القانوني المشهور والعالم بأصول التوريث في فرنسا بشهادته في تلك القضية، ولم تكن هذه القضية سهلة بحيث استمرت عدة أيام متوالية من الانعقاد والفض لمحاولة الفصل فيها، وفي النهاية أقرت المحكمة حق هيو الأنطاكي في منصب الوصي على عرش المملكة(٢).

ولا يستبعد أن يكون في الأمر بعد سياسي مرتبط بحالة المملكة الراهنة، ذلك أن ظروف المملكة كانت في حالة يرثى لها في ظل التناحر المستمر بين مواطنيها، في وقت جلس على عرش مصر الظاهر بيبرس الذي أكد للصليبيين أن محور سياسته هو الجهاد في سبيل طردهم من الساحل الشامي كله، وساعد بيبرس في سياسته ما كان يعانيه الصليبيون من تمزق سياسي داخلي، بحيث بدت مملكة عكا وكأنها عدة دول متداخلة مع بعضها، فعلى سبيل المثال لا الحصر، عقد يوحنا ابلين – سيد يافا– اتفاقاً مع الظاهر بيبرس في عام

---

(١) فيليب النوفاري: أحد النبلاء البارزين في مملكة عكا، أصله غير معروف ولكن يرجح انتسابه إلى أسرة إقطاعية مغمورة، وقد أظهر نبوغا في المجال القانوني والتشريعي، وهو ما جعل عائلة ابلين تقربه منها وتسدد عنه ديوناً كان غارقاً فيها، ليس هذا فحسب بل وصل الأمر إلى منحه إقطاعاً كفل له دخلاً طيباً، توفي عام ٦٦٨هـ(١٢٦٩م) تقريباً. انظر في ذلك: فيليب دي نوفارا، حروب فردريك الثاني، – مقدمة الترجمة العربية– ص ص١٥–٢٠؛ براور، الاستيطاني الصليبي في فلسطين (مملكة بيت المقدس)، ترجمة: عبد الحافظ البنا، القاهرة،٢٠٠١م، ص١٣٧.

(٢) Chroniques d'Amadi,p206; L'Estoire d'Eracles ,p446. Cf. also:Grousset, Histoire des Croisades, tome III, p.559; Hill, The History of Cyprus, Vol. II, pp. 152-153.

راجع أيضاً: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٤٩٨.

مكتبة المهتدين الإسلامية

٦٦٠هـ(١٢٦١م) حصل بمقتضاه على حق تبادل الأسرى بين المسلمين والصليبيين، غير أن هيئتا الداوية والإسبتارية رفضتا إطلاق ما في حوذتهما من أسرى، نظراً لحاجتهما إلى هؤلاء الأسرى الذين كان لهم باع كبير في الصناعات اليدوية، ومن ثم هاجم الناصرة التي كانت ضمن أملاك مملكة عكا[١].

وفي ظل هذه الأوضاع اتجه أعضاء المحكمة العليا – في ظل تغلب المصالح الفئوية على المصلحة العامة في مملكة عكا– إلى تنصيب وصي على العرش يمكنه الدفاع عنها ويتصدى للخطر المنتظر من سلطان مصر والشام، فرجحت كفة هيو الأنطاكي نظراً لأن مقدرات مملكة قبرص في يديه ومن ثم يستطيع الاستفادة منها لصالح مملكة عكا، في حين أن ابن خالته لم يكن لديه من الإمكانيات التي تمكنه من معاونة المملكة بل سوف يكون عبئاً عليها، وعلى هذا الأساس الواقعي تم التغاضي عن الأساس القانوني الذي يدعم موقف هيو البريوني.

وترتب على الإشكال السابق حدوث نوع من تطوير التشريع في مملكة عكا الذي يرجح امتداد آثاره إلى قبرص، وقد صارت المحكمة العليا – بمقتضى هذا التطوير – الفيصل في قضايا توريث العرش، بحيث أصبح من حقها سن القوانين التي تخدم مصلحة المملكة حتى لو خالفت العرف الإقطاعي المتبع والذي يستمد جذوره من النظام الإقطاعي الفرنسي.

لكل ما سبق سارع نبلاء المملكة بالاعتراف بوصاية هيو الثاني على مملكة عكا لحين حضور الملك الشرعي – كونرادين هوهنشتاوفن – وتبعهم في ذلك الأمر ممثلو القوميونات الإيطالية في المملكة وكذلك مقدما الداوية والاسبتارية، وهنا حاول هيو ممارسة سلطته الحقيقية في المملكة، فلم يعين نائب لها بل أخذ يتنقل بين قبرص وعكا لتنظيم شئون المملكتين، وترك تصريف الأمور العاجلة – في حال غيابه في قبرص – إلى جيفري سرجنيس لحين عودته ثانية إلى عكا[٢].

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١١٨ .وأيضاً:

Runciman, "The Crusader State", p.574.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٨٩. وأيضاً:

La Monte, Feudal Monarchy, p.76; Hill, The History of Cyprus, Vol. II, p.154.

http://www.al-maktabeh.com

حدث نوع من التطور في قبرص وفي عام ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) كان يفترض أن ينعكس بالإيجاب على مملكة عكا، وتمثل هذا التطور في تولي هيو الأنطاكي منصب الملك في قبرص، ذلك أن ابن خاله هيو الثاني الجالس على عرش قبرص قد توفي في نوفمبر ١٢٦٨م[١]، وهو في الرابعة عشر من عمره دون وريث، فلما عرض الأمر على المحكمة العليا في قبرص تقرر تنصيب هيو الأنطاكي خلفاً لقريبه بلا منازع تحت اسم هيو الثالث[٢]، عندها ظن هيو الثالث أنه بعد أن ارتقى من منصب الوصي على العرش إلى منصب الملك أنه سوف يقبض على الأمور ويُصير مقدرات المملكة رهن أوامره، فلما أراد الخروج إلى مملكة عكا لمساندها في ذلك الوقت العصيب الذي عصف فيه بيبرس بكثير من أملاك الصليبيين[٣]، رفض نبلاء المملكة تقديم هذا العون، بحجة أهم حلفوا يمين الولاء على الطاعة في مملكة قبرص وليس في غيرها من الممالك[٤].

ويلاحظ المحلل للأحداث أمراً خطيراً، ويتمثل في أن نبلاء قبرص في الأصل هم من نبلاء الصليبيين الذين انتقلوا إلى قبرص منذ أن صارت إلى يد آل لوزجنان بعضهم ذهب طمعا في زيادة أملاكه وبعضهم ذهب كنوع من التعويض عما فقدوه من جراء فتوحات صلاح الدين، ومن ثم كان المفترض أن تكون قبرص خط دفاع ثان لمملكة عكا، بحكم تكوين الجهاز الحاكم فيها الذي هو في الأصل من صليبي الساحل، بجانب أن النبلاء هم أيضاً من الساحل كما ذكرنا منذ قليل.

ويبدو أن هؤلاء النبلاء تخلوا عن القضية الصليبية بالكلية، وأهم وجدوا أنه لا فائدة من التعلق بالمتلكات الشامية التي باتت مهددة بالزوال بين عشية وضحاها، بعكس مملكة

---

(١) L'Estoire d'Eracles, p.448.

(٢) سعيد عاشور، قبرص، ص٤٧. وأيضاً:

Mas Latrie, Histoire de l'île de Chypre ,I, p.421

(٣) حول فتوح السلطان بيبرس وأثرها انظر الفصل الثاني ، ص ٩٤.

(٤) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٦٢.

مكتبة المهتدين الإسلامية

قبرص التي وفرت لهم الأمن والاستقرار[1]، في ظل عجز المماليك في مصر عن امتلاك قـوة بحرية تهدد قبرص، ومن ثم فقدت قبرص الدور الذي رسم لها منذ أن باعها ريتشارد قلب الأسد لجاي لوزجنان، وبدلاً من تقديم يد العون لمملكة عكا فإنها لعبت دوراً سلبياً تمثل في جذب سكان عكا إليها، الأمر الذي أسهم في الخلخلة السكانية في الساحل الشامي مما سهل مهمة المجاهدين المسلمين إلى حد كبير.

هذا جانب أما الجانب الآخر فهو إذا كان هيو الثالث الذي صار من الناحية الشرعية ملكاً على قبرص ولا يستطيع إجبار نبلائها على الخضوع التام لسلطته، فكيف له أن يجبر نبلاء مملكة عكا على الخضوع له وهو مجرد وصي على المملكة. وثمة أمر جدير بالذكر وهو أن نبلاء مملكة عكا قد ألفوا غياب الملك وهو أمر رحبوا به كما ذكرنا من قبل، وكانوا يريدون ملكاً يحمي المملكة ولا يفرض سلطته عليهم، أي يردون درعاً بلا شوكة، وهو أمر غير ممكن فلا يعقل أن يعمل الملك حارساً للمملكة دون أم يستبد بالأمر.

وهكذا بقيت مملكة عكا تعاني الفراغ السياسي منذ رحيل لويس ٦٥٢هـ (١٢٥٤م) وحتى ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) من جراء انشغال آل هوهنشتاوفن – الورثة الشرعيين لمنصب الملك – بمشاكلهم في أوربا؛ مما ترك المملكة تعاني التخبط والصراعات الداخلية والأخطار الخارجية، مما أدى إلى استفحال قوة النبلاء على حساب قوة الملك الشرعي كما سوف يتضح بعد قليل.

مصرع كونرادين ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) وأثره في توريث العرش:

جرى إعدام كونرادين هوهنشتاوفن الملك الشرعي لمملكة عكا في نابولي بناء على أوامر شارل أنجو Charles of Anjiou في يوم الاثنين العشرون من صفر عام ٦٦٧هـ (٢٩ من أكتوبر ١٢٦٨م)[2]

---

(١) سعيد عاشور، قبرص، ص٣٥.

(٢) L'Estoire d'Eracles,p.456; Mas Latrie, Histoire de l'ile de Chypre , I, p.428; Edbury, The Kingdom of Cyprus and the Crusades 1191-1374, p.90.

شارل أنجو: هو ابن لويس الثامن ملك فرنسا، وأخو لويس التاسع، ولد عام ٦٢٥هـ (١٢٢٧م)، تولى منصب كونت مقاطعة أنجو في فرنسا عام ٦٤٥هـ (١٢٤٧م)، وشارك في حملة لويس التاسع على مصر، كما

http://www.al-maktabeh.com

بعد أن هزمه في موقعة Tagliacozzo [1] بمباركة كلمنت الرابع Clement IV[2]، وأدت وفاة كونرادين إلى زوال الفرع الأكبر للأسرة الحاكمة في بيت المقدس الذي انحدر من ماريا ابنة يوحنا برين، فانتقل ذلك الحق إلى الفرع الذي يليه وهو الفرع الذي آل إليه حكم مملكة قبرص الذي ينحدر من أخت غير شقيقة لماريا وهي أليس كونتسية شامبني. وتقدم هيو الثالث – ملك قبرص والمنتهية وصايته على عرش عكا بحكم وفاة الملك الغائب – إلى المحكمة العليا يطلب تنصيبه رسمياً ملكاً على مملكة عكا، وحجته في ذلك أنه ابن إيزابيل الثانية – زوجة هنري الأنطاكي – ابنة

=لعب دور كبير في الصراع بين آل هوهنشتاوفن وباباوات روما، ثم نصب عام ٦٦١هـ (١٢٦٢م) ملكاً على صقلية، وتطلع إلى إقامة إمبراطورية في حوض البحر المتوسط، وأسهم في توجيه حملة لويس الصليبية عام ٦٦٩هـ (١٢٧٠م) نحو تونس، واستطاع عام ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) أن يحصل على لقب ملك بيت المقدس بعد شرائه لحقوق ماري الأنطاكية بوساطة البابا جريجوري العاشر، كما سعى إلى إحياء الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية بإسقاط الإمبراطورية البيزنطية في عهد ميخائيل باليولوجوس، وقد اتسمت سياسته في معاملة أهل صقلية بالعنف ومن ثم تطلعوا إلى الخلاص منه، فقاموا بطرد جميع الفرنسيين منها عام ٦٨١هـ (١٢٨٢م) بعد الحادثة المشهورة بمذبحة المساء الصقلية، وفشل شارل في استعادة صقلية ومات متحسراً على ضياع أحلامه الإمبراطورية عام ٦٨٤هـ (١٢٨٥م). لمزيد من التفاصيل حول شارل انجو انظر:

The Templar of Tyre, pp.21-84. Cf.also, Runciman, The Sicilian Vespers, Cambridge,1992, passim.

راجع أيضا: محمود سعيد عمران، شارل كونت أنجوبين القسطنطينية وتونس والقدس، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٦، مجلد ١، مارس ١٩٩٨م، ص ١٦٩-١٩٦.

(١) كان هناك صراع مرير بين البابوية وبيت هوهنشتاوفن ومن أسباب هذا الصراع تمسكهم بأملاكهم في إيطاليا وصقلية ومن ثم قررت البابوية وضع منافس لهم في صقلية تمثل في شارل كونت أنجو ملك صقلية الذي سمت نفسه إلى إقامة إمبراطورية في حوض البحر المتوسط، وحين أراد كونرادين هوهنشتاوفن استرداد أملاك آبائه في صقلية بتشجيع من أهل صقلية الذين أذلهم حكم شارل، هزمه شارل في موقعة Taglicozzo وأمر بإعدامه بمباركة البابوية التي رغبت في التخلص من هذه الأسرة الحاكمة التي طالما تصدت لسلطتها وسعت لانتقاص حقوقها. إنظر:

Red, the Templars, p.232; Mckilliam, A Chronicle of Popes, pp.319-320; Hindley ,The Crusades,p.203.

(٢) كلمنت الرابع: كان من أصل فرنسي ولد في سانت جيل، سار في سلك العسكرية في شبابه المبكر ثم انشغل بدراسة القانون المدني حتى صار مستشاراً للويس التاسع، ثم دخل السلك الكهنوتي وترقي حتى صار رئيس أساقفة ناربون، ثم عينه البابا أوربان الرابع كاردينالاً علي سابينا، حتى انتخب بابا عام٦٥٥هـ (١٢٥٧م)، وظل في ذلك المنصب حتى توفي في ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) وكان من أبرز أعماله تنصيب شارل كونت انجو ملكاً علي صقلية ونابولي. انظر:

L'Estoire d'Eracles, p.456 ;The Templar of Tyre, p.43 f. Cf. also: Mckilliam, A Chronicle of the Popes, pp.319-32.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أليس– زوجة هيو الأول لوزجنان – ابنة إيزابيل الأولى من زوجها هنري شامبني، فهو حفيد ابنة إيزابيل الأولى من نسل ابنتها أليس ابنة هنري شامبني، وعلى هذا الأساس صار هيو الثالث من أقوي المرشحين للمنصب، فتقدم إلى المحكمة العليا في عكا بدعوى يطالب فيها بتنصيبه ملكاً على مملكة عكا[١].

غير أن الأمر لم يمر بسلام؛ ذلك أن ثمة منافس لم يدر بخلد هيو أن يتصدى له، تمثل هذا المنافس في العانس المسنة[٢] ماريا الأنطاكية، التي طالبت بالعرش باعتبارها سابقة في النسب على هيو الثالث ملك قبرص، فهي ابنة مليزند – زوجة بوهمند الرابع – ابنة إيزابيل الأولى[٣]، أي أنها حفيدة إيزابيل الأولى وأقرب إلى كونرادين من هيو الثالث، وأنه إذا كانت أليس القبرصية قد توجت بحكم قرابتها من آل هوهنشتاوفن فإن موتها يعيد حقوق الوراثة إلى أمها ميلزند. ولما عرض الأمر على المحكمة العليا في عكا فإنه كان لديها ما يسوغ لها الحكم لصالح هيو الثالث لأمور عديدة:

- الأمر الأول: قربه من الأحداث ومشاركته بنفسه فيها، فهو آخر من تولى الوصاية على المملكة حال غياب كونرادين.

– الأمر الثاني: حكمها الصادر لصالح هيو الثالث منذ وقت قريب حول الوصاية على عرش المملكة حين نازعه فيه هيو البريويني، وهو أمر لم تعترض عليه البابوية ومن ثم صار قانوناً ثابتاً لا يجوز نقضه.

– الأمر الثالث: أن هيو الثالث ملكاً على قبرص ومن ثم يتسنى له استخدام موارد قبرص لمساعدة مملكة عكا وقت الحاجة على الرغم أن التطبيق العملي لهذا الأمر لم ينجح حين كان وصياً على المملكة.

---

(١) Hill ,A History of Cyprus, p.161.

(٢) ثمة خلاف حول سن ماريا الأنطاكية حال مطالبتها بالعرش، فهناك رأي بأنها كانت في الأربعين، ورأي آخر بأنها كانت في الستين ورأي ثالث بأنها كانت في الخمسين ويري ماس لتري أنها كانت في الثامنة والستين، غير أن الجميع قد أجمعوا علي عنوستها وعدم صلاحيتها للزواج، حول هذا الأمر انظر :

Hill, op.cit., p.162, note 1.

(٣) حول تسلسل نسب ماريا انظر: The Templar of Tyre, p.60, note 3

http://www.al-maktabeh.com

– الأمر الرابع: وضع ماري الأنطاكية الذي سوف يؤثر سلباً على المملكة حيث أنها عديمة الخبرة السياسية، بجانب كبر سنها ويأسها من أمر الزواج ومن ثم لا يمكن حل المشكلة بالبحث عن زوج مناسب لها ليقوم بتبعة إدارة المملكة كما حدث مع وريثات المملكة في الماضي[١].

– الأمر الخامس: وهو أمر لم تذكره المصادر ويمكن استخلاصه من سياق الأحداث فهو فشل هيو في إحكام قبضته على الأمور في عكا، وإدرك نبلاء المملكة أنه لن يعطل مصالحهم، لأنه سوف يستقر في قبرص – في الغالب – ويترك نائباً عنه في عكا، و بالتالي يبقى الوضع كما كان عليه في الماضي.

وبناء على كل هذه المسوغات أصدرت المحكمة العليا قرارها بأحقية هيو الثالث في تاج مملكة بيت المقدس الثانية المعروفة باسم مملكة عكا، وعليه توج هيو الثالث في صور بيد أسقف اللد بتصريح من بطريرك المملكة في ٢٤ من سبتمبر ١٢٦٩[٢].

على أن هذه القضية أسهمت إلى حد كبير في زيادة تمزق المملكة، فقد ظاهر الداوية ماري الأنطاكية نظراً لخلافاتهم مع هيو الثالث، في حين ساند هيو رجال القانون ونبلاء المملكة، ليس فقط لمجرد اقتناعهم به لكن بسبب حكمهم الصادر لصالحه من قبل في أثناء خلافه مع ابن خالته هيو البريوني[٣]، ناهيك عن تأثير آل ابلين في الأمر، الذين حرصوا على تنصيب هيو ملكاً في ظل مصالحهم في قبرص وارتباطهم الوثيق بالجالس على العرش.

غير أن ماري الأنطاكية لم تسلم بالأمر الواقع، بل حاولت تعكير صفو الاحتفال بالتتويج ولكن دون جدوى، فلجأت إلى بطريرك المملكة وليم أجني William Agni[٤]، محتجة بعدم شرعية حكم المحكمة نظراً لوجود فصل في قوانين المملكة يحتم تسجيل قرارات المحكمة قبل

---

(١) (La Monte, Feudal Monarchy, p.78; Hill, A History of Cyprus, vol. II, p.162.

(٢) Chroniques d'Amadi, p.211. Cf. also: Hill, A History of Cyprus, vol. II,p.162; Mas Latrie, Histoire de l'ile de Chypre , I, p.42.

(٣) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٦٣.

(٤) وليم أجني: تولى منصب بطريرك بيت المقدس في الفترة بين عامي ٦٦١-٦٦٩هـ (١٢٦٢-١٢٧٠م). لمزيد من التفاصيل انظر: Hamilton, The Latin Church, pp.272-276.

مكتبة المهتدين الإسلامية

تنفيذها، وقد جنح البطريرك إلى مساندتها في البداية ولكن يبدو أنه وجد بعد وفاة كونرادين لن يكون في صالح المملكة أن تتولاها ماري[١]، وعلى الرغم من إجماع سائر عناصر المملكة على تأييد هيو، إلا أن الداوية ساندوا ماري لا لشيء سوى عدم رضاهم عن هيو الثالث[٢].

وأمام فشل مساعي ماري في الحصول على مملكة عكا فإنها قررت رفع الأمر إلى البابا في روما فوصلت إلى صقلية عام ٦٦٩هـ(١٢٧٠م)، وفي الطريق حاولت كسب عطف شارل أنجو المقرب من البابا، لكن حال وصولها إلى روما وجدت أنها بلا بابا، ذلك أن كلمنت الرابع كان قد توفي عام ١٢٧٠م، ولم يتم اختيار بابا جديد حتى عام ٦٧٠هـ(١٢٧١م)، ومن ثم صار على ماري انتظار تنصيب البابا جريجوري العاشر Gregory X[٣]، وما أن جلس البابا الجديد على العرش حتى وجد ماري في انتظاره لعرض قضيتها، ويبدو أن جريجوري العاشر كان ملماً بأطراف القضية حين كان في الشرق، وأنه كان يرى بأحقيتها في الحكم، ومن ثم أبدى تأييده لماري في قضيتها، وطلب منها عرض الأمر على مجمع ليون الثاني[٤] عام ٦٧٣هـ(١٢٧٤م)، غير أن الملك والمحكمة العليا في عكا كانا يراقبان الأمر، فما أن تقدمت ماري بعرض قضيتها أمام المجمع، حتى هب مندوبو مملكة عكا ليدحضوا دعواها، ويؤكدوا استقلال مملكة عكا، وأن أمر توريث العرش فيها هو أمر

---

(١) Hill, op. cit. vol. II, p.163.

(٢) Hill, A History of Cyprus, vol. II,p 163.

(٣) جريجوري العاشر: تولى العرش البابوي بين عامي ٦٧٠- ٦٧٥هـ (١٢٧١-١٢٧٦م)، وكان ينتسب إلى عائلة عريقة في بيزا، إذ كان ابن أخ لأوتو رئيس أساقفة ميلان، وترقى في السلك الكهنوتي حتى صار رئيس أساقفة ليج، وعرف بتأييده الشديد للمشروع الصليبي، وفي وقت اختياره كان مشاركاً لإدوارد الأمير الإنجليزي في حملته الصليبية ومن ثم فور توليه المنصب جعل أول أولوياته الدعوة إلى حملة صليبية لإنقاذ الشرق اللاتيني المتداعي، كما عقد مجمع ليون الثاني٦٧٣هـ (١٢٧٤م)، ولكن لم يمهله القدر لينفذ مشروعه الصليبي، ومن ثم تم التركيز على عقد تحالف مغولي صليبي عله ينجح فيما فشلت فيه الحملات الصليبية الأوربية. انظر:

The Templar of Tyre, p.36 f; Cf. also: Kelly, The Oxford dictionary of Popes, pp.197-198; Mckilliam, A Chronicle of the Popes, pp.321-322.

(٤) أمل البيلي، مجمع ليون الثاني ١٢٧٤م دراسة في مشروع الوحدة بين كنيستي القسطنطينية وروما في القرن الثالث عشر الميلادي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ١٩٩٧م، ص ٦٩.

http://www.al-maktabeh.com

تُصرفه المحكمة العليا فيها، وليس لأي سلطة أخرى أن تتدخل فيها، فأسقطت دعوى ماري. ولم ينفعها تأييد البابا لها[1] وهو أمر لم يكن ليمر بسلام، فكيف لمملكة عكا المتداعية أن تقف في وجه أوامر البابوية، وهي من أزلت عروش الغرب وتحكمت في ملوكه.

غير أن ماري لم تخرج من الأمر خاوية الوفاض، ذلك أن البابا جريجوري أراد استغلال الموقف لحل عدة مشاكل كانت تواجهه، وأهم هذه المشاكل أطماع شارل أنجو في الإمبراطورية البيزنطية التي دخل معها البابا في مفاوضات من أجل توحيد الكنائس[2]، ومن ثم قرر البابا تحويل نظر شارل أنجو عن بيزنطة إلى مملكة عكا، فعرض على ماري بيع حقوقها في عرش بيت المقدس إلى شارل، وصادف ذلك هوى في نفس شارل الذي تطلع إلى وراثة آل هوهنشتاوفن في الشرق كما ورثهم في الغرب، وتم التفاوض بينهما بوساطة البابا، وتمت الصفقة عام٦٧٦هـ(١٢٧٧م)، بمقتضاها تنازلت ماري عن جميع حقوقها في مملكة عكا أمام جمع من الكرادلة وأعضاء المحكمة البابوية الذين طمعوا في إنعامات شارل، ومن ثم تسابقوا إلى إتمام الصفقة في مقابل أن يدفع لها شارل مبلغ نقدي يبلغ ألف جنيه ذهبي، ومعاش سنوي يبلغ أربعة آلاف ليره تورينيه، ومن ثم سارع شارل بتلقيب نفسه بملك بيت المقدس. وقد أثار هذا الأمر تساؤلاً في الأوساط القانونية حول مدى شرعية هذا التصرف من قبل البابا، لكن يبدو أن البابا كحامي للملكة الصليبية، اعتبر أن رأيه هو قانون لا يجوز لأحد أن يخالفه أو يطعن فيه[3].

---

(١) L'Estoire d'Eracles, pp.476-477; Chroniques d'Amadi, p.211; Hill, A History of Cyprus .Vol II, pp.190-191; Runciman, The Crusader state, p.583.

وأيضا: ريشار، تكوين مملكة بيت المقدس، ص ١٧٨

(٢) حول مشاكل أوربا وأثرها علي مملكة عكا والصليبيين في الشرق انظر الفصل الخامس.ص ٢٢٥ وما بعدها.

(٣) L'Estoire d'Eracles, pp.476-477; Chroniques d'Amadi, p.211. Cf.also Hill, A History of Cyprus ,pp.190-191; Runciman, The Sicilian Vespers, , p.170, CF, The Crusader state, p.583, Hamilton, the Latin Church, p.277; Richard, The Crusades 1071-1291, trans. By Jean Birrell, Cambridge, 1999, p.450; Nicolle, Acre 1291, p. 9.

راجع أيضا: ريشار، المرجع السابق، ص١٧٨.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وهكذا دخل شارل دائرة الصراع على توريث العرش في مملكة عكا، على أن الصراع بين ماري وهيو الثالث قد أكد عدة أمور يتصدرها ارتفاع شأن المحكمة العليا في عكا بشكل ساعدها على أن تكون صاحبة الحق في أمر تنصيب الملك، وهو تطور إلى الخلف، ذلك أن توريث العرش في مملكة بيت المقدس الأولى بدأ انتخابياً، ثم تطور نحو الملكية الإقطاعية، وها هو في النصف الثاني من القرن الثالث عشر يعود كما بدأ، حقيقة أنه ليس انتخابي محض ولكن صار لنبلاء المملكة الكلمة العليا من جديد في أمر الجالس على العرش.

إضافة إلى عدم تقدير البابوية لخطورة ما يدور في الشرق، وما آل إليه حال مملكة عكا من تصارع في الداخل وتهديد من الخارج، برغم إلمام البابا جريجوري العاشر بالوضع وعلمه بالحال، ولكنه قرر حل مشاكل أوربا على حساب الشرق اللاتيني، علاوة على أن تدخل البابا في بيع حقوق العرش كان محاولة منه لإثبات سلطة البابوية الفعلية على الصليبيين في الشرق، وأنهم لابد أن يرجعوا في كل صغيرة وكبيرة إلى البابوية بالقدر الذي يطلبون به العون منها للتصدي للمسلمين. ويضاف لما سبق قصر نظر البابا بشكل لم يمكنه من إدراك الاعتبارات التي على أساسها تم اختيار هيو الثالث ملكاً على مملكة عكا من قبل المحكمة العليا فيها، ومن ثم سعى في هذا الأمر المدمر بإيجاد صراع بين سلطتين على عرش مملكة عكا المتداعية التي يدق المسلمون أبوابها مطالبين بتصفيتها. لكن ربما أدرك البابا وهن هيو الثالث وفشله في تحسين أحوال مملكة عكا ومن ثم قرر نقل العرش إلى شارل عله يفعل شيئاً.

مملكة عكا بين ضعف سلطة الملك هيو الثالث وبين مطامع شارل أنجو.

كان من المنتظر بعد جهود المحكمة العليا في سبيل تثبيت هيو الثالث على عرش المملكة أن يتكتلوا وراءه لإنقاذ المملكة من المسلمين الذين أحدقوا بالمملكة وبقايا المعاقل الصليبية في الساحل الشامي، حتى بدا أن سقوط بقايا المملكة قاب قوسين أو أدنى، وبخاصة أنه أول ملك شرعي يوجد على أرض المملكة منذ عام ٦٢٧هـ(١٢٢٩م) منذ رحيل فردريك الثاني عن عكا تاركاً تدبير العرش لنوابه، ثم تداوله الأوصياء على العرش حتى ٦٦٨هـ (١٢٦٩م)، أي أن المملكة قد بقيت لمدة أربعين عاماً دون ملك مقيم، وطالما تشدق أعضاء المحكمة العليا بحقوق الملك الغائب وضرورة المحافظة عليها، غير أن المقدمات لم تؤدي إلى نتائج منطقية.

http://www.al-maktabeh.com

فما أن جلس هيو على العرش حتى تاقت نفسه إلى ممارسة سلطاته كملك، لكنه لم يحصل على المساندة المطلوبة، من قوى المملكة المختلفة سواء النبلاء أو الهيئات العسكرية التي طالما تشدقت بدفاعها عن الصليب ومصلحة المملكة أو حتى الجاليات الإيطالية، وبـــدت عكـــا وكأنها عدد كبير من الممالك كل يدير شئونه بنفسه بمعزل عن الآخـــرين، ولا شـــأن لـــه بمصالحهم حتى لو كان الأمر يناقض مصالح المملكة العليا، في وقت توالت فيه المصائب على الصليبيين، إذ ضاعت أنطاكية من يد الصليبيين عام ٦٦٧هـــ(١٢٦٨م) بعد أن ســـبقها ضياع عدد كبير من معاقل الصليبيين[١].

أما الأمل الأخير في الدعم الأوربي والمتمثل في حملة لويس الجديدة التي وعد بهـــا قبيـــل رحيله عام ٦٥٢هـــ(١٢٥٤م) فقد انتهت بكارثة مروعة حين توفي لويس في تونس عـــام ٦٦٩هـــ(١٢٧٠م) مع جل جيشه من جراء حرارة الصيف والأمـــراض المتوطنـــة[٢]، ولم تفلح حملة الأمير إدوارد[٣]، في فعل شيء لصالح المملكة في ظل صغر حجم قوته العسكرية

---

(١) حول فتوح الظاهر بيبرس انظر الملحق رقم (٩)، ص ٤١٤.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول حملة لويس علي تونس عام ١٢٧٠ انظر: جوانفيل، ســـيرة القـــديس لـــويس، ص٣١٠-٣١٧. انظر أيضاً:

L'Estoire d'Eracles, pp.458 -9, Nangis, Vie de saint Louis, p.443; The Chronicle of Bury St. Edmonds, tr. Antonia Gransden, London, 1964, pp.47- 48. Cf. also: Strayer ," The Crusades of Louis IX, pp.513 – 517.

(٣) الأمير إدوارد: هو ابن هنري الثالث ملك إنجلترا وولي عهده، ولد في (١٧ من يونيـــه ١٢٣٩)، قـــرر المشاركة في حملة لويس التاسع علي الصليبية ٦٦٩هـــ (١٢٧٠م)، لكنه تأخر ووصل بعد فوات الأوان، لكنه قرر الوفاء بالنذر الصليبي الذي قطعه والده على نفسه ولم يستطع الوفاء به بسبب المشاكل السياسية التي تعاني منـــها بلاده، لكنه لم ينجز شيئاً، فغادر عكا بعد عقد هدنة مع المماليك في عام ٦٧١هـــ (١٢٧٢م)، ليجد نفسه وقـــد صار ملكاً علي إنجلترا بعد وفاة والده، لكنه ظل مهتماً بالحركة الصليبية دون أن يستطيع تقديم شيء يذكر في ظل مشاكله الأوربية وتدهور أحول الصليبيين في الشرق حتى توفي عام ٧٠٨هـــ (١٣٠٨م). عنه انظر:

The Gesta Regum, pp.239-321., The Templar of Tyre, pp.67-69; Eracles, pp.61- 62;The chronicle of Bury st. Edmunds pp.46-54. Cf. also. King, The Knights Hospitallers, pp.270-272; Turner, "unpublished notices of the Edward I", pp.45-51; Rohricht," La Croisade du prince Edward, de Angleterre", pp.617-629; Prestwich, Edward I ;Read, The Templar, p.233.

راجع أيضا: زينب عبد المجيد، الإنجليز في فترة الحروب الصليبية، دار عين، القـــاهرة، ١٩٩٦م، ص٢٠٧-٢٣٨.

مكتبة المهتدين الإسلامية

التي لم تأت كحملة صليبية مستقلة ولكنها جاءت لمساندة لويس، ومن ثم لم يزد عددهم عن ألف رجل، لكنه وصل بعد أن انتهى كل شيء، فصمم على الوفاء بقسمه الصليبي، فلما جاء إلى عكا راعه ما وجد من الصراعات البينية الصليبية، وتهديد المسلمين للملكة بشكل لا ينقطع.

وقد سعى إدوارد إلى الاستعانة بقوات ملك قبرص بيد أن النبلاء رفضوا اقتراحه بحجة عدم التزام قبرص إلا بالدفاع عن نفسها، فلجأ إدوارد إلى إحياء مشروع التحالف الصليبي المغولي بمراسلة أبغا خان[١] - حاكم مغول فارس - الذي أرسل بدوره جيشاً صغيراً معتمداً على ما سوف يقدمه الصليبيون من قوات، ولكن حين وصل الجيش إلى الشام لم يخرج أحد لمساندته في وقت تقدم فيه بيبرس بجيش كبير، فسارع المغول بالتراجع مكتفين بما نهبوه من شمال الشام. وهكذا لم يفلح إدوارد في إنجاز شيء لدعم الكيان الصليبي سوى باقتناعه بأن سقوط الكيان الصليبي في الشرق بات وشيكاً، وأخيراً تعرض لمحاولة اغتيال على يد الإسماعيلية، مما دفعه إلى عقد صلح مع بيبرس ثم عاد إلى بلاده عام ٦٧١هـ (١٢٧٢م) متحسراً على الشرق الفرنجي[٢].

---

(١) أبغا: هو الابن الأكبر لهولاكو خان وأمه تسمي سونجين خاتون، كان يقيم في منغوليا ثم انتقل بعد ذلك إلى إيران، اختاره هولاكو واليا لعهده، ثم خلف والده في حكم دولة مغول فارس منذ ٦٦٤هـ (١٢٦٥م) حتى توفي ٦٨١هـ (١٢٨٢م)، لمزيد من التفاصيل انظر: رشيد الدين، جامع التواريخ، جـ١، ص٢٢٣ومابعدها؛ فؤاد الصياد، الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص ص٣٣-١١٧. وأيضاً

Howorth, History of the Mongols, part III, pp.218-284; Saunders, The history of the Mongols, p.129.

(٢) راجع في ذلك:

Chronicles of Reigns of Edward I and Edward II, vol.I, Annales Londonienses, ed. By William Stubbs, in R. S., (London, 1882), pp.80-83 . cf. also: Read, The Templars, p.233; King, The knight Hospitallers, pp.266-268.Turner, "Unpublished Notices of the Edward I, especially of his relation with the Mongol sovereigns of Persia", in A.J., vol. V, VIII, (London ,1851),pp.45-50; Amaiti, "Edward of England and Abagha Ilkahn", in, TOLERANCE AND INTLIORANCE, edited by Michael Gervers and James M. Powell, (New York, 2001), pp.75-82.

راجع أيضا: جرجس فام، الأحوال السياسية في مملكة بيت المقدس، ص٢٣٤؛ عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها علي العالم الإسلامي، دار عين، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١١٣، زينب عبد المجيد، المرجع السابق، ص٢١٦؛ محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٣٢.

http://www.al-maktabeh.com

ومهما يكن من أمر فقد شهد عام ٦٧٦هـ(١٢٧٧م) إنهاء صفقة بيع حقوق ماري الأنطاكية في عرش مملكة بيت المقدس الثانية المعروفة بمملكة عكا، ومن ثم حمل شارل أنجو لقب ملك بيت المقدس بجانب باقي ألقابه الملكية، وقرر ممارسة حقوقه كملك، ونظراً لأنه كان لا يستطيع مغادرة أوربا فقد أرسل نائباً عنه إلى عكا متمثلاً في روجر سان سفرينو Roger of Sanseverino، وقد أدى وصوله إلى عكا إلى مزيد من الانشقاق في المملكة المتداعية، إذ لقي فور وصوله تأييد الداوية والبنادقة، وذلك ليس مستغرباً فمقدم الداوية تربطه صلة قرابة بشارل أنجو بجانب حقد الداوية على ملك قبرص هيو الثالث. أما البنادقة فتربطهم بشارل مصالح واسعة النطاق، بجانب أن سفرينو كان يحمل خطابات اعتماد من البابا و شارل أنجو، في حين تصدى لهذا الحزب حزب آخر تمثل في الإسبتارية ونبلاء المملكة الذين تمسكوا بحقوق هيو الثالث في العرش، وذلك ليس مستغرباً على النبلاء الذين نصبوه ورفضوا دعوى ماري الأنطاكية لانتزاع العرش منه، والذين دافعوا عنه أمام مجمع ليون ٦٧٣هـ (١٢٧٤م).

أما الإسبتارية فلو لم يعارضوا من أجل مصالح مادية فسيعارضوا لمجرد تأييد الداوية لسفرينو، ناهيك عن عدم استعدادهم للقتال من أجل ملك غائب، وعلى هذا وحقناً للدماء تسلم روجر قلعة عكا من باليان ابلين Balian d'Ibelin – بن يوحنا سيد أرسوف– الذي أجرى مفاوضات مع مقدم الداوية وبطريرك بيت المقدس، فشرع روجر في رفع أعلام شارل على القلعة، وطلب من سائر عناصر المملكة أن يحلفوا يمين الولاء لشارل انجو ملكاً على بيت المقدس، وهدد من يعارض أو يرفض الانصياع للأمر بالطرد من إقطاعه، ومن ثم سارع النبلاء وأعضاء المحكمة العليا بالكتابة إلى الملك هيو بناء على نصيحة من مقدم الداوية على أن يرد خلال يوم واحد، لتدارك الأمر لكنه لم يرد عليهم، ومن ثم قرروا حلف اليمين لشارل كونت أنجو ملكاً[1]. والغريب في الأمر أن يطالب الداوية باسترضاء هيو بعد أن كانوا هم سبب تركه لمملكته حبلها على غاربها والهرب إلى قبرص، ولعل ذلك تم

---

(١) Mas Latrie, Histoire de l'ile de Chypre, I, p.457; Hill, A History of Cyprus, p.173 ; Runciman, The Sicilian vespers, p.179.

مكتبة المهتدين الإسلامية

بالتنسيق مع نائب شارل حتى يظهر الملك هيو بمظهر الزاهد في حكـم المملكـة، في ظـل تأكدهم من عدم رغبته في العودة إلى عرش المملكة في وقت تعقد فيه الموقف بوجود نائـب شارل بها.

وبرغم حلف اليمين لشارل أنجو إلا أن سائر عناصر المملكة لم تكن تؤيد سلطته، ومن ثم سعى وليم بيجي Guillaume de Beaujeu [1] إلى استقطاب البنادقة وجون مونتفـورت للحزب المساند لشارل، غير أن جون مونتفورت بقي بعيداً عن دائرة تأييد الحكومـة. وفي عام ٦٧٨هـ(١٢٧٩م) قرر هيو الثالث استعادة عرشه في عكا معتمداً على وجود حزب مناوئ لروجر يرجح أن يسانده في مطالبه، ومن ثم ارسى في صور على هذا الأمل، لكـن لم يؤيده سوى يوحنا مونتفورتJohn Montfrat[2] صاحب صور، ولم يهب غيره لتأييده بعد أن وقف مقدم الداوية بقوة لمنع أحد من نبلاء عكا أو مقدمي التنظيمات الدينية أن يقدموا العون له، وبقي أربعة شهور في المدينة دون إنجاز شيء ومن ثم صار عليه الرحيل لانتهاء مدة خدمة القوات القبرصية خارج أراضيها، فرحل عن صور وهو يكيل اللعنات علـى ولـيم بيجي الذي سعى لجمع الكلمة حول سفرينو، وفي سورة غضبه صادر أمـلاك الداويـة في

---

(١) وليم بيجي: أحد فرسان الداوية، كان ذا خبرة واسعة في قتال المسلمين، فقد شارك في قتالهم عدة مرات، وأسر عام ٦٥٩هـ (١٢٦١م)، ثم أطلق سراحه وتولى عدد من المناصب الإدارية في تنظيم الداوية في طـرابلس وصقلية، تولي منصب المقدم الأعلى للداوية عام ٦٧١هـ(١٢٧٣م)، ويرجح أن سبب اختياره لمنـصب مقـدم الداوية يرجع إلى قرابته من البيت الحاكم في فرنسا، ارتبط مع البلاط المملوكي بعلاقة حسنة في ظل نشاط الداوية المصرفي، وقتل في حصار الأشرف خليل لعكا عام ٦٩٠هـ(١٢٩١م). عنه انظر:

The Templar of Tyre, passim.; John de Villiers, Letter of John de Villiers, pp.301-302; Read, The Templars, p.237-241. Cf. also, Nicolle, Acre 1291, p.20; Addison, The History of The Templar, chapter 8, on www.templarhistory.com.

(٢) يوحنا مونتفرات: هو ابن فليب منتفرات Philip Montfrat ووريثه في حكم مدينة صور، تزوج من مارجريت الانطاكية Margaret أخت ملك قبرص هيو الثالث عام ٦٦٧هـ(١٢٦٨م). تولى حكم صور عام ٦٦٩هـ(١٢٧٠م) عقب اغتيال الإسماعيلية لوالده، ولم يرزق بأولاد ومن ثم فقد انتقل حكم صور عقب وفاته عام ٦٨٢هـ(١٢٨٣م) إلى أخيه همفري Humphrey. عنه انظر:

The Templar of Tyre, p.61 f.; Chronique d'Amadi, pp.211-215.

http://www.al-maktabeh.com

قبرص(١)، وفي أعقاب ذلك جرت محاولة من البابا نيقـولا الثالـث Pope Nicolas III(٢) لتصفية الخلاف بين شارل أنجو و هيو الثالث دون جدوى(٣).

إذن نحن أمام حالة فريدة لم يتعرض لها الصليبيون من قبل، بوجود ملكين كـل منـهما يطالب بالملك ويدعي الشرعية وكل منهما لديه ما يثبت به حقوقه، وبلا شك أن ذلـك لم يكن في مصلحة الصليبيين بأي حال ولولا انشغال المماليك بوفاة بيبرس في يوم الخميس ١٧ من محرم ٦٧٦هـ(الأول من مايو ١٢٧٧)(٤)، وما ترتب عليه من مسألة التوريث لما بقـي للصليبيين بقية في بلاد الشام، وبخاصة أن المماليك كانوا على علم بكل صغيرة وكـبيرة في مملكة عكا وقبرص وغرب أوربا.

ونظراً للهدنة المعقودة بين الطرفين فإنه لم يحدث أي هجوم من قبل المماليك، لكن لمـا لم يكن هناك ملك مقيم في مملكة عكا يدير شؤونها ويصرف أمورها فلم يتم اسـتغلال فتـرة الهدنة في تقوية المملكة أو تدريب جيوشها، أو حتى إحياء فكرة التحالف مع المغول، الـتي كان يلح عليها المغول في تلك الآونة أكثر من ذي قبل في ظل هـزائمهم المتتاليـة أمـام المماليك، وانشقاق دولتهم وانتهاء عصر إمبراطورية المغول الكبرى التي امتدت من جوف آسيا إلى ساحل البحر المتوسط(٥).

---

(١). The Templar of Tyre, p.75 ; Annales de Tera sante, p.457. Cf. also: Mas Latrie, Histoire de l'ile de Chypre, I, p.464; Hill, A History of Cyprus, vol. II, pp.281. 174; King, The Knight Hospitallers, p.281.

راجع أيضا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٦، ص٦٦٤.

(٢) نيقولا الثالث: تولى منصب البابا عام ٦٧٦هـ(١٢٧٧م)، وتوسع في منح أقاربه الإقطاعيات الكنسية، وأكثر من المنشآت المعمارية في روما، كما أغدق على الرهبان ووسع أعطياتهم وأصر علـى توحيـد الكنيـستين اليونانية والرومانية بصرف النظر عن الخلافات بينهما، كمل لقي معارضة من قبل شارل أنجو لكونه غير فرنسي ولا ينفذ رغباته التي لا تنتهي، وتوفي عام ٦٧٩هـ (١٢٨٠م). عنه انظر:

Mckilliam, A Chronicle of the Popes, pp.326-327 ; Kelly, The Oxford dictionary of Popes, pp.201-202.

(٣) Hill: A History of Cyprus, vol. II, p.174.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٤٧٣.

(٥) حول محاولات التحالف الصليبي المغولي انظر الفصل السادس، ص ٢٨٥.

مكتبة المهتدين الإسلامية

غير أن سلطة شارل لم تطل في عكا ذلك أنه تعرض لنكسه كبيرة عام ٦٨١هـ(١٢٨٢م) تمثلت في ثورة في صقلية أنهت سيطرته عليها عرفت اصطلاحا بمذبحة المساء الصقلية the Sicilian Vespers[١]، ومن ثم نفض يديه من أمر الشرق وكتب إلى سفرينو يستدعيه إلى أوربا فأسرع بالعودة تاركاً وظيفة نائب الملك للصنجيل Sensechal[٢] أودو بوليشيان، وبرغم ما تمثله مذبحة المساء الصقلية من خسائر لشارل أنجو إلا أنها لم تزد من قوة هيو الذي ظل مقيداً بقوانين قبرص الإقطاعية التي لا تسمح بخدمة قوات المملكة خارج حدودها بما لا يزيد من أربعة أشهر كل عام[٣].

وكانت نهاية أحلام شارل أنجو صدمة للمماليك الذين ربطتهم صلات سلمية مع شارل، لكنها أيضاً رفعت عنهم الحرج في مواصلة فتوحاتهم، وخير دليل على نهاية نفوذ شارل في عكا أن المماليك حين جددوا الهدنة مع عكا عام ٦٨٢هـ(١٢٨٣م) لم يرضوا بأن يوقع

---

(١) مذبحة المساء الصقلية The Sicilian vespers: لم يملك شارل قدر من السياسة وحسن الإدارة التي كان يملكهما أخوه لويس التاسع، ومن ثم فإنه عامل أهل صقلية أسوأ المعاملة، وبخاصة أهالي مدينة بالرمو، التي أضاع عليها تميزها بوصفها عاصمة للجزيرة، ونقل العاصمة إلى نابولي واشتط في جمع الضرائب مما دمر اقتصاد صقلية بصفة عامة وبالرمو بصفة خاصة، ولذا فقد كره الصقليون كل ما هو فرنسي، وتاقت نفوسهم للخلاص من نير سيطرتهم، ومن ثم تأثروا بسرعة بتحريض بطرس الثالث – ملك أراجون – هم علي الثورة علي شارل أنجو فقاموا عام٦٨١هـ(١٢٨٢م) بثورة عارمة أذهبت نفوذ شارل من صقلية، وتمكن ملك أراجون من السيطرة على الجزيرة مما أدى إلى ضياع كل أمل في إرسال جيش من قبل شارل لمساعدة الأرض المقدس في فلسطين علي البقاء. لمزيد من التفاصيل انظر:

Amari (Michele), History of the war of the Sicilian Vespers, London, 1850; Runciman, The Sicilian vespers, pp.214-228; Setton, The Papacy and the Levant (1204-1571), Philadelphia, 1976, p.140; Read, The Templars ,p.238.

راجع أيضاً: جرجس فام، الأحوال السياسية، ص٢٤٩.

(٢) صنجيل (القهرمان): هو موظف يشرف علي المراسم والاحتفالات ويحمل الصولجان يوم تتويج الملك، ويشارك في المحكمة العليا، ويرأسها في حالة غياب الملك، ويشرف على حجاب المملكة، ويشرف على جباية خراج الضياع الملكية، كما يشرف على شئون الجيش حال غياب الملك. راجع: جمعة الجندي، الاستيطان الصليبي، ص١٢٩.

(٣) The Templar of Tyre, p.75. Cf. also: Hill, A History of Cyprus, vol. II, p.176 ; Runciman ," the Crusader State", p.588.

http://www.al-maktabeh.com

عليها أودو منفردا بل طلبوا توقيع قادة التنظيمات الدينية العسكرية، ولم يعترض أودوا على الأمر[١].

أما هيو فقد وجدها فرصة للعودة إلى الساحل الشامي – بعد أن غادره عام ٦٧٥هـ (١٢٧٦م) بسبب صراعه مع نبلاء المملكة[٢]– في وقت بدا فيه سهولة تدعيم سلطانه في الساحل، ذلك أن سيدة بيروت ماتت وانتقل إقطاعها إلى أختها إيشيفا زوجة همفري مونتفورت Humphrey of Montfort الأخ الأصغر لسيد صور المؤيد لهيو، ومن ثم سارع الملك هيو إلى الساحل مع ولديه هنري وبوهمند، وقد ألجأته الرياح إلى بيروت فاستقبل بها استقبالاً حافلاً، فسار إلى صور وتعرض بها لعدد من الكوارث[٣]. وتوقع هيو أن يسارع نبلاء عكا بدعوته إليها، غير أنهم رأوا في وجود أودو ما يكفي فلا حاجة بهم إلى ملك يتدخل في شئوهم. ولما انتهت مدة الشهور الأربع ترك القبارصة هيو وحده وعادوا إلى بلدهم وبقي بها حيث توفي متحسراً على فقد ابنه بوهمند في يوم ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) وضياع هيبته كملك[٤].

وقد تباينت الآراء حول تقييم عصر هيو الثالث، فقد تحامل عليه البعض متهمين إياه بالجبن والكسل في الشأن السوري ولا شك أن ذلك من جراء خلافاهم معه[٥]، أما داوي

---

(١). انظر ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، القاهرة، ١٩٦١م، ص٤٥؛ ابن الفرات، تاريخ بن الفرات، جـ٧، ص ٢٦٢؛ القلقشندى، صبح الأعشي، جـ١٤، ص ٥١. انظر أيضا:

Mas Latrie, Histoire de l'ile de Chypre, tome I, p.469; Runciman ," The Crusader state", p.588; Holt, "Qulawun treaty with Acre in 1283", in E.H.R., vol. 91, pp.802- 812.

(٢) حول صراع هيو مع نبلاء المملكة انظر الفصل الثالث ص ١٣٨.

(٣) عندما نزل هيو الثالث في صور عام ٦٧٣هـ(١٢٨٣م) فإنه صادف سوء الطالع فقد سقط لواءه في البحر أثناء نزوله من المركب، عندما خرج رجال الدين لاستقباله سقط منهم الصليب الكبير فحطم رأس طبيب هيو اليهودي. انظر: The Templar of Tyre, p.82.

انظر أيضا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٦٧.

(٤) The Tempar of Tyre, p.84;Chroniques d'Amadi, p.216. Cf. also: Mas Latrie, Histoire de l'ile de Chypre, I, p.473 ; Hill. 176; Read, The Templars, p.237.

(٥)عاطف مرقص، قبرص، ص١٨٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

صور المجهول فقد تأسف عليه واعتبر وفاته خسارة كبيرة للمسيحية(١)، أما المؤرخون الحديثون فقد نظروا إليه نظرة أخرى فها هو جروسيه يصفه بأن آخر ملوك الصليبيين العظام(٢)، ويؤيده هيل ملتمساً له الأعذار فكيف له أن يحكم قبضته على المملكة في حال مملكة عكا، التي استشرت فيها الشرور والنزاعات، والتي حاول إصلاحها بمختلف الوسائل، لكن الأمر الذي لم يستطع التصدي له فهو اغتصاب شارل أنجو للعرش بتأييد من البابا في روما، وماذا يفعل حيال قيود الخدمة العسكرية الإقطاعية التي منعته من القيام بعمل عسكري في الساحل السوري يثبت به سلطانه(٣).

ويميل الباحث إلى تأييد رأي هيل؛ ذلك أن هيو كان ضحية لعصر راح يستنفد جهده لإصلاح الكيان الصليبي ولكن دون جدوى، فماذا يفعل مع مملكة لا تريد منه إلا أن يكون درعاً لها دون أن يطلب منها شيء ويتركها حرة في كل شيء حتى في التجارة مع المسلمين في بضائع تضر المملكة مثل السلاح والعبيد. لقد كان الداء عضالاً، وكان كل ذلك واضحاً للعيان، لكن هيو كان قصير النظر حيث أعمته شهوة الجمع بين مملكتين، ولو كان ذا بصيرة لاكتفى بعرش قبرص يتنعم فيها بعيداً عن شوكة بلاد الشام التي تتعرض للتآكل، لكن لا نؤيد جروسيه في وصفه له بأنه كان آخر ملوك مملكة عكا، ذلك أن عصر الملوك العظام كان قد ولى وانتهى في القرن الثاني عشر، أما ملوك القرن الثالث عشر فقد كانوا سلسلة متلاحقة من الإخفاقات التي وضع لها الأشرف خليل حداً بسيفه.

ومهما يكن من أمر فقد خلف هيو ولده يوحنا الذي توج في قبرص ملكاً في ٦٨٣هـ (١١من مايو ١٢٨٤)، ثم عبر إلى صور وتوج ملكاً على بيت المقدس دون أن يحظى سوى بتأييد بيروت وصور، ولكنه ما لبث أن توفي في ٦٨٤هـ (١٢٨٥م)(٤) وخلف أخاه

---

(١) The Templar of Tyre, p.84.

(٢) Grousset, Histoire des Croisades, tome III, p.679.

(٣) Hill, A History of Cyprus, vol. II p.178.

(٤) The Templar of Tyre, p.85 ; Chroniques d'Amadi ,p.216. Cf. also: Mas Latrie, Histoire de l'ile de Chypre, I, p.475; Hill, A History of Cyprus ,Vol.II, p.179.

http://www.al-maktabeh.com

هنري الثاني ابن الأربعة عشر عاما الـــذي تــوج في قـــبرص لكنـــه لم يجـــازف بالتوجـــه للساحـــل(١).

ومع فتح المنصور قلاوون لحصن المرقب سنة ٦٨٤هـــ(١٢٨٥م) (٢) ارتـــاع الـــشرق الفرنجي كله لسقوط أكبر قلاع الإسبتارية في الشرق(٣)، في وقت علم نبلاء المملكة بوفـــاة شارل أنجو، وان ابنه مشغول في حروب طاحنة ولا ينتظر أن يقدم يد العون للشرق؛ ومـــن ثم وبناء على نصيحة الإسبتارية تم دعوة هنري الثاني إلى عكا، ولم يعترض قومون عكا على الأمر غير أن أودو اعترض على الأمر وسانده ما تبقى من القوات الفرنسية في عكا.

وفي يوم الثلاثاء التاسع من ربيع الآخر ٦٨٥هـــ(٤ من يونيه ١٢٨٦م) نزل هنري إلى ساحل عكا حيث استقبل بحرارة وقرر الإقامة في القلعة، لكن أودو صمم على عدم تسليمها في وقت رأت فيه القوي المختلفة في عكا أنه لا مبرر لبقاء أودو بها، ومن ثم خرج مقـــدمو الداوية والإسبتارية والتيوتون عن حيادهم – الذي تعاملوا به مع القـــضية منـــذ البدايـــة مفضلين ترك الأمر بين هنري ونائب شارل لتسوية حسبما تقتضي الظروف – وتوسطوا في

---

(١) The Templar of Tyre, p.100 ; Hill,op. cit, p.179.

(٢) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص٧٧- ٨١؛ شافع بن علي الكاتـــب، الفـــضل المـــأثور، ص٣٧٩؛ بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، تحقيق: د. عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة، ١٩٩٣، ص٨٤.

حصن المرقب: تقع قلعة المرقب على الساحل السوري بمدينتي طرطوس وباناس الساحليتين، علي قمة جبـــل بركاني صخري يشرف على شاطئ البحر، شيدت علي ارتفاع ٣٦٢م عن سطح البحر، ونظرة لوعورة المكان فقد كانت القلعة من أمنع حصون الصليبيين وأشدها خطورة، وقد عرفت باسم قلعة المرقب لأنها تراقب المنطقة الـــتي نيط بها علي الساحل أو في الداخل، انتقلت إلى حوزة فرسان الإسبتارية عام ٦٦٩هـــ(١١٨٦م) بعد أن باعهـــا لهم برتراند المرقبي لخوفه من العجز عن الاحتفاظ بها، وقد صمدت القلعة أمام صلاح الدين وأمام الظاهر بيبرس ولم تسقط سوى في ٦٨٤هـــ(٢٥ من يناير عام ١٢٨٥م) علي يد السلطان المنصور قلاوون، لمزيد مـــن التفاصـــيل انظر:

مولر.وفيز، القلاع، ص ٧١-٧٤.

Nicolle, Crusader Castles, pp.29-31

وأيضاً: القلاع والحصون علي الساحل السوري، علي موقع سوريا علي شبكة الانترنت بعنوان:

http://www.syriancastles.com/marquab.htm

(٣) King, The Knight Hospitallers, p.285.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الأمر وطالبوا تسليم القلعة إليهم ويتولون هم تسيلمها لهنري، وتم الأمر في ٢٩ من يونيه، وفي ١٥ من أغسطس ١٢٨٦ توج هنري الثاني في صور ملكاً على بيت المقدس بيد رئيس الأساقفة بوناكوروس جلوريا Bonaccoros de Gloria، وتم الاحتفال به في عكا، لكن النبلاء ضاقوا ذرعاً بوجوده في الساحل ومن ثم نصحه خاليه - فليب ابلين وبلدوين ابلين- بالرحيل فرحل هنري الثاني عن عكا تاركا بلدوين نائبا عنه بها(١).

غير أن هنري لم يكن رجل الساعة، فلم يكن بوسعه التصدي للمماليك بجانب إصابته بالصرع ومن ثم حين فتحت طرابلس عام٦٨٨هـ(١٢٨٩م)(٢) لم يستطع فعل شيء سوى تجديد الهدنة مع المنصور قلاوون، كما لم يستطع الغرب فعل شيء بسبب توابع مذبحة المساء الصقلية، وعليه لم يهب أحد ذا بال لنجدة الصليبيين بناء على دعوة نيقولا الرابع Nicolas IV (٣)، سوى مجموعة من اللصوص أثاروا ضدهم سلطان مصر الذي قرر الاستيلاء على عكا وإنهاء الأمر، ولم يؤخره سوى وفاة قلاوون المفاجأة، لكن النهاية جاءت بسيف الأشرف الذي واصل الطريق وحاصرها ٦٩٠هـ(١٢٩١م)، غير أن ملك قبرص لم يكن بوسعه فعل شيء سوى إرسال المدد تحت قيادة أخيه بلدوين ثم تبعه، لكن الأمر كان مسألة وقت فقد تهدمت الأسوار فسارع الملك وأخيه بالرحيل تاركين عكا لمصيرها المحتوم(٤).

---

(١) The Templar of Tyre, 86. Cf. also: King, The Knight Hospitallers, p.287 ; Runciman, The Sicilian Vespers, p.258; Read, The Templars ,p.238
Nicolle, Acre 1291, p.20.

راجع أيضا: حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص٣٢٦.

(٢) The Templar of Tyre, p.101; King, The Knight Hospitallers, p.288; Nicolle, Acre 1291, p42.

(٣) نيقولا الرابع: من اصل لومباردي، انضم في سن مبكرة إلى هيئة الرهبان الفرنسيسكان، ثم ترقي في الهيئة حتى وصل إلى منصب المقدم الأعلى لها، واختير لمنصب البابوية عام ٦٧٨هـ (١٢٨٨م)، وانغمس في مشاكل أوربا ولم يستطع حمل الملوك والأمراء على القيام بحملة صليبية لمساندة الشرق اللاتيني المتداعي، ومن ثم يعد فتح الأشرف خليل لعكا عام ٦٩٠هـ(١٢٩١م) أهم وأسوأ أحداث عصره في نظر الأوربيين، توفي عام ٦٩٢هـ(١٢٩٢م). انظر:

Mckilliam, A Chronicle of Popes, p.330; Kelly, The Oxford dictionary of Popes, pp.205-206.

(٤) Chroniques d'Amadi, p.214; Annales de terre sante, pp.460-461; King, The Knight Hospitallers, pp.291-298; Nicolle, Acre 1291, p 49.

http://www.al-maktabeh.com

أثر مشاكل وراثة العرش على استقرار المملكة:

هكذا بدا حال توريث العرش في مملكة عكا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ومما لا شك فيه أن ذلك التوريث قد ترك أثراً بعيد الغور على الكيان الصليبي في ساحل الشام في ذلك الوقت في شتى المجالات، وهو كما علمناه نظام غير مستقر، فلو نظرنا إلى الملك الشرعي على المملكة طوال فترة الدراسة نجد أنه لم يقم في المملكة سوى بضعة شهور، فمنذ ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) وحتى ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) كان الملك في حوزة آل هوهنشتاوفن، ولم يحضر لا كونراد الثالث - بن فردريك الثاني - ولا كونراد الرابع (كونرادين) إلى المنطقة قط، فقد ألهاهم ملكهم في أوربا عن مملكة عكا.

وحين تم إعدام كونرادين على يد شارل أنجو تم تنصيب هيو الثالث ملك قبرص ملكاً على عكا أيضاً، غير أن قوى المملكة لم تكن تريد ملك قوي يستبد بالأمر ويقيد من حرياتها التي ألفتها منذ زمن بعيد يعود إلى بداية الربع الثاني من القرن الثالث عشر، ومن ثم لم يتمكن هيو من ممارسة سلطاته كملك مسموع الكلمة، ولم تقدم مملكة قبرص العون الكافي للمملكة بحجة القوانين الإقطاعية كما ذكرنا، ومن ثم اضطر إلى ترك مملكة عكا حبلها على غاربها، مما أفسح المجال لشارل أنجو ليتدخل في شئون المملكة دون دعم حقيقي لها، ولم تجن المملكة من وراء تدخله سوى ازدواج السلطة الملكية والصراع بين السلطتين، وحين فقد شارل قوته بعد مذبحة المساء الصقلية ونكساته المتوالية تقرر تنصيب هنري الثاني ليجمع بين تاجي قبرص وعكا ولكن لم يسمح له بالبقاء في الساحل وتركه على حاله ينازع سكرات الموت، أي أنه لم توجد سلطة ملكية حقيقية تدير شئون المملكة طوال النصف الثاني من القرن الثالث عشر.

ولا شك أن تراجع السلطة الملكية أفسح المجال لقوى أخرى للصعود على سطح الأحداث، حقيقة أن تلك القوى كانت موجودة من قبل لكن نفوذها زاد ووضح في ظل غياب سلطة الملك الحقيقية، وعلى رأس تلك القوى المحكمة العليا في المملكة التي كانت المقر التقليدي لاجتماع الملك وكبار أتباعه الإقطاعيين، حيث يقدم النبلاء المشورة للملك بحكم الواجب الذي يحتمه النظام الاقطاعي - الذي ساد في غرب أوربا وكان أساس النظام

مكتبة المهتدين الإسلامية

الذي ساد في الشرق اللاتيني – أي أنه لم يزد دورها في عهد مملكة بيت المقدس الأولى عن دور استشاري للملوك فيما يستجد من ظروف، غير أنه كان للملك الكلمة الأولى والأخيرة[١].

ثم تغير الوضع في عهد مملكة بيت المقدس الثانية، حينما تحول امتياز تقديم المشورة إلى مجموعة من القوانين تجبر الملك على العمل بهذه المشورة وتنفيذها، مما غل يد الملك في تنفيذ خططه وسياساته[٢]، ثم تطور الأمر في ظل غياب الملك الشرعي عن المملكة وبخاصة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر تغير الوضع فقد صارت المحكمة هي السلطة الحقيقية في المملكة، تسير الأمور وتنظر في المعاهدات وتنصب الوصي على العرش أو حتى تنصيب الملك الشرعي منذ ٦٦٨هـ(١٢٦٩م) حين نصبت هيو الثالث، وعليه فقد استعادت المحكمة العليا نظام التوريث طبقاً لمبدأ الانتخاب الذي توارى بصورة تدريجية في مملكة بيت المقدس الأولى ليستقر نظام الملكية الإقطاعية، وتوجت ذلك بأن يكون لها القول الفصل في قضايا تنصيب الوصي على العرش أو حتى الملك ذاته كما ذكرنا، وهكذا صار الملك صورة بلا معني لا حول له ولا قوة، مما أسعد العناصر المكونة للمحكمة العليا[٣].

ولم تتوقف أثار نظام توريث العرش عند الجانب السياسي بل امتدت أثاره إلى شتى جوانب الحياة في المملكة، فعلى الصعيد الاقتصادي أدى ضعف السلطة الملكية الناتج عن نظام التوريث غير المستقر إلى إفساح المجال أمام القوى التجارية في المملكة والمتمثلة في

---

(١) جمعة الجندي، الاستيطان الصليبي، ص١٢٢.

(٢) لم يكن أمر استشارة الملوك لكبار نبلاء المملكة ورجال الدين فيها منحة من ملوك بيت المقدس، بل جرى ذلك الأمر في أوربا موطن الصليبيين الأصلي مجرى القانون، ذلك أن المشرعين الأوربيين في العصور الوسطى كانوا يميزون بين الملك والطاغية المستبد، فالملك يعمل بمقتضى القانون ولا يسعه مخالفته، ويلتزم بمشاورة أولي الأحلام والنهى، ومن يخالف ذلك يعتبر خائناً لله الذي منحه السلطة، أما المستبد فلا يقبل لغيرة رأياً ولا يقبل منهم استشارة، ولما لم يكن ملوك بيت المقدس يسعهم أن يستبدوا فقد قبلوا أن يكونوا ملوكاً، وبخاصة أن الملك كان لا يتميز عن كبار النبلاء في شيء؛ فهم من منحوه اللقب الملكي وجعلوه كبيراً عليهم لتدبير الأمور وليس للاستبداد بالأمر و هذا يعني أن الملك كان بمثابة الأول بين أقرانه . راجع: سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطي، جـ٢، ص١٩٧.

(٣) براور، الاستيطان، ص٢٠٢. انظر أيضا، عالم الصليبيين، القاهرة، ١٩٨١م، ص١٣٢.

http://www.al-maktabeh.com

الجاليات الإيطالية على اختلافها لتتصارع فيما بينها سواء بالوسائل الاقتصادية المتمثلة في المنافسات التجارية، أو الوسائل العسكرية بإتباع أسلوب القتال المباشر وما حرب سان سابا منا ببعيد، التي أتت على الأخضر واليابس في المملكة وتركتها أحزاباً تأكل بعضها بعضاً بلا مبالغة، وأيضاً ما شهدته عكا عام ٦٧٥هـ (١٢٧٦م) من صراع بين البنادقة والجنوية الذي تبعه انتشار حوادث الشغب في أنحاء المدينة، بالإضافة إلى صراع تجار بيت لحم يؤيدهم الداوية وتجار الموصل يؤيدهم الاسبتارية من جهة[١] وغير ذلك من حوادث.

كما أسهم ضعف السلطة الملكية في توسيع إطار الخلافات بين الهيئات الدينية لتتحول من مجال التنافس الشريف بإظهار مهارتها في قتال المسلمين إلى تحقيق المكاسب باستخدام الطرق الملتوية، وتكوين تكتلات على الصعيدين الداخلي الخارجي، لتنهش بعضها بعضاً لا لشيء سوى لسعي كل منها للانفراد بالأمر، وبخاصة أن تلك التنظيمات قد ألفيناها في ظل ضعف السلطة الملكية دول داخل الدولة، ليس لأحد سلطة عليها سوى البابا، ومن ثم أسهمت بدور فعال في انهيار سلطة الملكية الصليبية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وبخاصة تنظيم الداوية[٢].

ولا شك أن ضعف سلطة الملك قد أسهم في الانهيار الأمني في سائر نواحي المملكة، مما ساعد على ارتفاع معدلات الجريمة، والفشل في تطبيق القانون في ظل محدودية نفوذ الشرطة الصليبية، ويكفي دليلاً على ذلك أن المجرم ما أن يرتكب جريمته، وينتقل من منطقة تخص البنادقة إلى منطقة أخرى تخص فئة أو جالية أخرى حتى يصعب وربما يستحيل معاقبته؛ لانتقاله إلى منطقة نفوذ جديدة تطبق فيها قوانين مخالفة، ومن ثم يفلت المجرم بفعلته، هذا بجانب فشل السلطات المحلية في السيطرة على المهاجرين الجدد من أوربا الذين جاءوا متعطشين لدماء المسلمين حتى لو أضر ذلك بالهدن المعقودة بين الصليبيين والمسلمين[٣].

---

(١) Runciman, "The Crusader State", p.585.

(٢) حول الصراعات بين التنظيمات الدينية انظر الفصل الثالث ص ١٤٢.

(٣) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والدهور، ص١٧٧؛ شافع بن علي، الفضل المأثور، ص١٧٤؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٥٢؛ العيني، عقد الجمان، جـ٣، ص١٠؛ الحريري، الإعلام والتبيين، ص٣١٨.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ولا نغفل دور ضعف السلطة الملكية في النجاحات التي حققتها دولة المماليك بصورة متتابعة في عهود السلاطين بيبرس، وقلاوون، والأشرف خليل، في ظل التدهور العسكري الواضح للعسكرية الصليبية، وفي ظل تقلص الأراضي الصليبية، والخلخلة السكانية التي برزت بشكل فج بعد حملة لويس التي دمرت القوة العسكرية الرئيسة للكيان الصليبي[1]، وحرمته من آخر دعم عسكري كبير جاء من الغرب، ومن ثم لم يعد بإمكان الملك الصليبي تجميع جيش كبير يستطيع التصدي في معركة مفتوحة لقوة المماليك، ومن ثم عولوا بشكل واضح على أن يقوم لهم المغول بذلك الأمر دون أن يقحموا أنفسهم فيه، ولما فشل الاعتماد على المغول فقد اعتقدوا أن مسالمة المسلمين سوف تثني السلاطين المماليك عن إتمام فتح الساحل، لكن هيهات أن يتردد حاكم مسلم في تسجيل اسمه في سجل كبار المساهمين في تصفية الوجود الصليبي في الشرق[2].

ولا شك أن ضعف الملوك قد أسهم أيضاً في ارتفاع شأن الكنيسة التي تستمد سلطانها من البابا في روما بشكل مباشر، ومن ثم صارت هي الأخرى دولة من الدول التي ظهرت داخل مملكة عكا الصليبية، ولعل خير مثال على ذلك قرار بطريرك المملكة بحرمان كل من يشارك في تتويج فردريك الثاني في القدس عام ٦٢٧هـ(١٢٢٩م) نظراً لحرمان البابا له، بالإضافة إلى حاجة الملوك إلى تتويج رجال الدين لهم اكتساباً للشرعية، كما أسهم ضعف الملوك في تفاقم الخلافات بين رجال الدين والمنظمات الرهبانية وخصوصاً الفرسان التيوتون[3] المنتمين إلى ألمانيا، حيث سلطة الهوهنشتاوفن المتداعية، ولاشك أن كل ذلك أسهم في زيادة ضعف المملكة.

هكذا اتضحت سلامة فرضية الدور الفعال لنظام توريث الملك في مملكة عكا الصليبية في ضعف المملكة وانهيارها من الداخل مما يسر أمر إسقاطها من الخارج، على أن هذا الأمر لم يكن له وحده الدور الفاعل في القضاء على الكيان الصليبي، وهو ما سنعرض له في الصفحات التالية.

=The Templar of Tyre, p.101; Ludolph von Cuchems, Description of the Holy Land, p.54.

ول ديورانت، قصة الحضارة (عصر الإيمان)، ترجمة: محمد بدران، مجـ٨، جـ١٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م، ص٥٩.

(١) انظر التمهيد ص ٣٤.

(٢) حول فشل التحالف الصليبي المغولي انظر ص ٣١٠.

(٣) حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ٢٨٥.

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفصل الثاني

- التراجع الاقتصادي
- تراجع الزراعة
- تدهور الصناعة
- تقلص عائدات التجارة
- أثر التراجع الاقتصادي على المملكة.

تحققنا في الفصل الأول من سلامة فرضية الأثر السلبي لنظام التوريث في مملكة بيت المقدس الثانية المعروفة اصطلاحاً بمملكة عكا، وتبينا أثر هذا العامل في انهيار المملكة من الداخل، وفي هذا الفصل نبحث في فرضية ثانية ممثلة في التراجع الاقتصادي، ذلك أن الاقتصاد هو عصب الحياة الذي لا تستقيم إلا به، ولا يمكن إغفال دوره في استقرار أي كيان سياسي فإذا ظهرت عليه علامات الصحة والقوة كان دليلاً على استقرار هذا الكيان وقوة بنيانه، وإذا حدث اضطراب وتراجع، دل على قرب سقوط هذا الكيان، وجعله مطمعاً للقوى المحيطة به الصديقة قبل المعادية، وعلى هذا فسوف نستعرض في هذا الفصل عناصر الاقتصاد الصليبي الثلاث: زراعة وصناعة وتجارة لبحث أحوالها، وتبين مدى صعود أو هبوط هذه العناصر الثلاث، ومقدار دورها في انهيار المملكة الصليبية من الداخل في النصف الثاني من القرن الثالث عشرالميلادي.

- تراجع الزراعة

اشتهرت بلاد الشام منذ العصور القديمة بإنتاج عدد من المحاصيل الزراعية مثل القمح والزيتون والكروم، وحين جاء الصليبيون إليها بُهِرُوا بما وجدوه من أنظمة زراعية، وخيرات كثيرة دفعت كثيراً من الرحالة إلى وصفها بأنها بلاد العسل واللبن، ومن ثم لم يضيفوا جديداً سوى تقسيم البلاد إلى إقطاعيات بين النبلاء الصليبيين[1].

---

(١) براور، الاستيطان، ص٤٢٦؛ مهجه السيد، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام من خلال كتب الرحالة والجغرافيين العرب والأجانب المعاصرين للحركة الصليبية (٤٨٧-٦٩٠هـ/١٠٩٥-١٢٩١م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٧م، ص١٠٨.

http://www.al-maktabeh.com

ونبدأ بإلقاء الضوء على الإمكانيات الزراعية لمملكة عكا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ثم ندلف إلى مقصدنا حول أسباب تراجع أهميتها الزراعة.

كانت مملكة عكا تمتد على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وبالتالي ساد فيها مناخ يتناسب مع ظروف تلك المنطقة، أي أنها تميزت بجو حار جاف صيفاً دافئ ممطر شتاءً، باستثناء المناطق الجبلية التي يصل ارتفاعها إلى درجة التجمد(١)، ونتيجة لسقوط الأمطار فقد تكونت عدة أنهار موسمية قصيرة، كانت تجف في الصيف(٢)، مثل نهر بيلوس أو النعامين أو النعمان الذي ينبع من أحد تلال عكا، ويصب في البحر المتوسط بعدها بقليل، وهناك نهر قيشون قرب حيفا الذي ينبع من جبل طابور، ونهر الليطاني الذي يصب في البحر شمال عكا(٣). كما وجدت العديد من الأنهار القصيرة مثل نهر الكلب، الذي كان يسقي بيروت وصيدا، ونهر أبي فطرس الذي كان يسقي أرسوف ويافا(٤)، وأيضاً وجد حول قيسارية العديد من الأنهار الصغيرة مثل نهر صالح ونهر التمساح ونهر الزرقاء.

ولا شك أن هذه الأنهار كان لها دور كبير في تجديد خصوبة التربة بفضل ما تحمله من الطمي(٥)، غير أنها أيضاً كانت في فصل الصيف تستحيل إلى مستنقعات تسهم – مع ارتفاع

---

(١) براور، عالم الصليبيين، ترجمة: د.قاسم عبده قاسم، محمد خليفة حسن، ١٩٨١م، ص١٤٣؛ لطيفة البوعنين، الحياة الاقتصادية، ص٢٩، ٣٠.

(٢) Burchard of Mount Sion of Mount sion , p.64 .

(٣) وليم الصوري، الحروب الصليبية ؛ جـ٢، ص٢٤٣؛ مجهول، الحرب الصليبية الثالثة، جـ١، ص١٠٧–١٠٨؛ جاك دي فيتري، تاريخ مملكة بيت المقدس، ص١٧٢. انظر أيضاً:

Burchard of Mount Sion, pp.13,15, 39,41, 48.

راجع أيضاً: أسامة سيد علي، الساحل الشامي ودوره في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٩٣م، ص ١٩٩؛ لطيفة البوعنين، الحياة الاقتصادية، ص٢٠١.

(٤) مهجة السيد، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، ص٧٧.

(٥) Burchard of Mount Sion, p.11.

راجع أيضاً: حسن عبد الوهاب، قيسارية الشام، ص٧٧؛ مهجة السيد، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، ص٧٧؛ بلال محمود، الزراعة في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٩٧م، ص٤٣.

مكتبة المهتدين الإسلامية

درجة الحرارة – في اتساع انتشار الأمراض الوبائية، وكلما اتجهنا نحو الشمال حيث صور وبيروت يضيق الساحل، وتزداد كمية المطر، وتتراكم الثلوج فوق قمم الجبال التي لا تلبث أن تذوب مكونة أنهاراً قصيرة سريعة الجريان، كما كثُرت العيون الجوفية في المملكة التي نشأت نتيجة تسرب مياه الأمطار في الصخور الكلسية، مثل عين البقر في عكا[١].

ومما سبق يتضح ما تمتعت به مملكة عكا من مصادر للمياه تنوعت بين عدد من الأنهار والعيون التي يسرت قيام الزراعة بفضل ما وفرته من المياه وما حملته من الطمي الذي كان يجدد خصوبة التربة عاماً بعد عام، حقيقة أن عدداً كبيراً من هذه الأنهار غلبت عليها الصفة الموسمية، إلا أنها يسرت قيام الزراعة مرة كل عام على الأقل، وهو ما أعطى فرصة أكبر للأرض لتستعيد قوتها، وبالتالي ازدياد كمية المحصول في العام التالي.

وقد تميزت كل مدينة من مدن الساحل الواقعة ضمن حدود المملكة بعدد من المحاصيل، ولا يمنع ذلك من انتشار زراعة المحصول في أكثر من مدينة، وسوف نستعرض تلك المحاصيل بتتبع المدن من الجنوب إلى الشمال:

فقد كانت يافا مركزاً لإنتاج الزيتون والقمح والكروم، وبلح النخيل حلو المذاق الذي استخرج منه عسل التمر علاوة على تميزها بكثرة الغابات والمروج العشبية[٢]. أما حيفا فقد كثر زرعها وما حولها من بساتين الموالح، وفيما يخص أرسوف فاشتهرت بكثرة بساتين الفواكه حولها خاصة الكروم[٣]. وإذا جئنا إلى قيسارية وجدنا الزراعة فيها تعتمد على الأمطار التي تجمعت في قنوات، تم استغلالها لأغراض الري بجانب بعض العيون الجارية، كما

---

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٢، ص٢٤٣، جـ٣، ص٢٣؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٢٥٢؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، جـ١، تهذيب أحمد العوامري ومحمد جاد المولي، القاهرة، ١٩٣٤م، ص٥٠؛ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، جـ١، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٢٢٤. راجع أيضاً: أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص١٩،١٨.

(٢) براور، الاستيطان الصليبي، ٤٣١؛ حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص٢٠٧. انظر أيضاً:

Holmes, "Life among the European in Palestine and Syria in the Twelfth and Thirteenth Centuries" , in Setton, A History of The Crusades, vol. IV , (London 1977), p.15.

(٣) براور، المرجع السابق، ص٤٢٨-٤٣١.

http://www.al-maktabeh.com

قام الأهالي ببناء صهاريج من الخزف لتخزين المياه بها لأغراض الشرب، وكانت مركزاً لإنتاج القمح، وتميزت بارتفاع إنتاجيتها منه؛ بسبب تباعد فترات الزرع بفعل الصراعات المستمرة بين المسلمين والصليبيين، ونتيجة كثرة إنتاجها من القمح فإنها اشتهرت بإنتاج الخبز الأبيض، وكثرت حولها بساتين الكروم، ناهيك عن الموالح وبخاصة النارنج والتين والزيتون[١]. أما حيفا فإنها كثيرة النخل والشجر[٢]،و كانت عثليث محاطة بكثير من المزارع والأشجار المثمرة وحدائق الكروم[٣].

وتميزت عكا بكثرة القرى المحيطة بها وبخاصة مزارع الكروم، التي اشتهرت بغلتها العالية حتى احتكرها السادة النبلاء دون غيرهم، خصوصاً أن الكروم هو المصدر الأساس لصناعة النبيذ والخمور التي كانت من أساسيات المائدة الصليبية، وانتشرت أشجار النخيل والقصب والخوخ والموز أو تفاح الجنة، والتفاح والكمثري والكرز والتين واللوز والمشمش والبرقوق. أما بساتين الزيتون فحدث ولا حرج، فقد غطت التلال المحيطة بالمدينة، بالإضافة إلى محاصيل الموالح من البرتقال والليمون. أما الخروب فينمو طبيعياً دون ما تدخل من الإنسان، حيث كان ينمو حول عكا وضواحيها، وكثر الاهتمام بزراعة البقوليات من الفول والبصل والسمسم والعدس والبسلة التي كانت طعام القاعدة العريضة من فقراء عكا[٤].

---

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٢، ص٢١٩؛ ناصر خسرو سفر نامه، ص٦٥. وراجع أيضاً: براور، الاستيطان الصليبي، ص٤٢٨، ٤٣١؛ مهجة، العلاقات الاقتصادية، ص٩٠.

(٢) ناصر خسرو، ص٦٤. وأيضا:

Richard, " Agricultural condition in crusade state" in Setton , A History of The Crusades, vol. 5, p.260.

(٣) شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص٨٩.

(٤) ناصر خسرو، سفر نامه، ص٦٢؛ ابن جبير، الرحلة، ص٢٥١؛ جاك دي فيتري، تاريخ مملكة بيت المقدس، ص١٧٢؛ ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والدهور، ص١٤٠. انظر أيضاً:

Theoderich, Theodrich's Description of the Holy Places, Trans. By Aubrey Stewart , P.P.T.S. Vol. V , London , 1896 , p. 59; Burchard of Mount Sion, p.100. See Also: Richard, "Agriculture", p.256.

راجع أيضاً: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص٢٠٣؛ براور، المرجع السابق، ص٤٣١، ٤٣٣؛ أسامة سيد علي، الساحل الشامي، ص٢٠١؛ لطيفة البوعنين، الحياة الاقتصادية، ص٢٠٣- ٢٠٤؛ جمعة الجندي، الاستيطان، ص١٤٨.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ولم تقل صور عن عكا في أهميتها ومواردها الزراعية، فقد اشتهرت بخصوبة تربتها وغزارة أمطارها وارتفاع إنتاجية أراضيها؛ مما أدى إلى كثرة التوابع الريفية التي بلغ عددها حسب إحصاء براور ١١٤ قرية، تميزت بكثرة المجاري المائية التي سمحت بقيام عدد من السواقي لزراعة البساتين المحيطة بالمدينة، بجانب حسن استغلال العيون، كما اشتهرت بزيتونها ومعاصره، وغدت كل قرية من قراها ذات أهمية كبيرة في هذا المجال بجانب المساحات الواسعة من العنب، إضافة إلى مزارع القصب المشهورة التي وفرت الخام اللازم لصناعة السكر، ناهيك عن القمح وباقي الحبوب وكذا القطن(١).

وتميزت صيدا بتربتها وكثرة مزارعها وتعدد قراها، وبخاصة مزارع القصب والكروم وأشجار الفواكه مثل التين، كما أحاطت بها الحدائق والغابات(٢)، وفيما يخص بيروت ذات الظهير الغني بغابات جيدة الأخشاب التي كانت تصدر إلى المناطق الإسلامية والصليبية على حد سواء؛ لاستخدامها في صناعات المراكب والأثاث، وكذلك أشجار الفاكهة في ظل قربها من منطقة غنية بأنهارها وأمطارها، مما ساعد على ظهور عدد من القرى وسط بساتين ومزارع بيروت، وازدهار زراعة الكروم وقصب السكر حولها(٣).

---

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٣، ص٢١، ٢٣؛ جاك دي فيتري، تاريخ مملكة بيت المقدس، ص١٨٠. انظر أيضاً:

Burchard of Mount Sion, pp.10,11, 101. Cf also: Prawer, Crusader Institutions, (Oxford, 1980), pp.148, 160; Richard, "Agricultural", pp.261-262; Holmes, "Life among the European", p.14.

راجع أيضاً: براور، الاستيطان الصليبي، ص٤٣١، ٤٣٥؛ البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٤١؛ مهجة، العلاقات الاقتصادية، ص ص٨٧ – ٨٩، أسامة سيد علي، المرجع السابق، ص ٢٠١.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٦٠؛ رحلة ابن بطوطة، جـ١، ص٥١؛ جاك دي فيتري، تاريخ مملكة بيت المقدس، ص١٧٣.

Burchard of Mount Sion , p.101. Cf also, Holmes , "Life among the European" , p.14.

راجع أيضاً: أسامة زكي زيد، صيدا، ص١٢؛ حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص٢٠٦؛ مهجة السيد، العلاقات الاقتصادية، ص٩٠، ١٢٠، أسامة سيد علي، المرجع السابق، ص ١٢٦.

(٣) جاك دي فيتري، المصدر السابق، ص١٧٢. انظر أيضاً:

http://www.al-maktabeh.com

أما المناطق الداخلية فقد اشتهر إقليم الجليل وحقل مجدو ومرج ابن عامر بخصوبة تربتها ووفرة المياه من بحيرة طبرية، ومن ثم فإنها عرفت بإنتاج القمح والزيتون وما تغله أشجار النخيل الكبيرة وكروم العنب، والذرة والزيتون، كما انتشرت كثير من الزراعات حول الأديرة مثل نباتات العقاقير والزعفران، كما تميزت المنطقة المحيطة بحصن القرين Mont Fort[١] الذي كان في يد الفرسان التيوتون بكثرة ما يغله من الحمضيات والموالح، كما وجدت الخضراوات بجميع أنواعها[٢].

نخلص من العرض السابق إلى تنوع المنتجات الزراعية التي كانت تنتجها أراضي مملكة عكا، وبالرغم من كل هذه الإمكانيات الزراعية، فقد عانت المملكة من تراجع الزراعة في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وقد تضافرت عدة عوامل أسهمت في تراجع أهمية الزراعة، تعود جذور بعضها إلى القرن الثاني عشر والبعض الآخر وليد القرن الثالث عشر نوردها فيما يلي:

أول الأسباب هو تراجع مساحات الأراضي المزروعة في مقابل زيادة مساحات الأراضي البور، فلم تكن جميع الأراضي الزراعية تصلح لنمو المزروعات المختلفة في ظل كثرة المستنقعات أو ارتفاع نسبة الأملاح في بعض المناطق ومن ثم صارت أراضي بور أي غير

=Phocas (Joannes) , The pilgrimage of Joannes Phocas in the Holy Land, trans. By Aubrey Stewart, P.P.T.S. Vol. V, (London, 1896), p.9. Cf also, Holmes (Urban Tignor), "Life among the European", p.13.

راجع أيضاً: علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية، ص١٣؛ مهجة، العلاقات الاقتصادية، ص١٢٥، ٨٤؛ محمد مؤنس، الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٢١٧.

(١) حصن القرين، يقع شمال فلسطين، قرب صفد، علي بعد عشرين ميلاً شمال حيفا، فوق جرف شديد الانحدار في الشعاب الخارجية للسلسلة الجبلية الممتدة شمال غرب بحيرة طبرية، بين الحصن وبين الجبل المتاخم توجد قناة مائية، ويحمي الحصن من الخارج برج محصن ربما كان شبه دائري. وكانت من أمنع الحصون الصليبية، وتشرف علي شمال الجليل وعلى طريق دمشق عكا، انظر: مولر وفيز، القلاع، ص٩٨.

(٢) Burchard of Mount Sion, pp.40, 46; Daniel , The Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy Land 1106-1107 AD. Annotated by Wilson, P.P.T.S., vol. XII, (London, 1895), p.45; Theoderich, Guide to the Holy Land, trans. by Aubery Stewart, 2ns edition. (New York, 1986), p.6. CF. also, Nicolle, Crusader Castles, p.48.

راجع أيضاً: براور، الاستيطان الصليبي، ص٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٤؛ مهجة، المرجع السابق، ص١٣١.

مكتبة المهتدين الإسلامية

مزروعة، وقد استخدمت هذه الأراضي كمراعي للماشية، ولم تكن هذه الظاهرة ذات بال في القرن الثاني عشر في ظل اتساع مساحة مملكة بيت المقدس ومحدودية عدد الملاك. أما في القرن الثالث عشر فقد باتت هذه الظاهرة علامة على تراجع الزراعة الصليبية وتضاؤل أهميتها الاقتصادية ولتلك الظاهرة عدة أسباب:

وفي مقدمة هذه الأسباب نقص الأيدي العاملة التي تقصر حتى عن زراعة الأراضي الصالحة، فما بالنا بالأراضي الخَرِبَة، بجانب عدم السماح للفلاحين بمغادرة أراضيهم إلا في أضيق الحدود، مما يجعلهم يتفننون في اختراع وسائل الهرب[(١)]، وهو ما انعكس على الاقتصاد الزراعي بشكل سلبي ومن ثَم تضمنت الهدن بين المماليك والصليبيين بنود خاصة تلزم الفلاحين بعدم الهرب من أراضيهم، وتضع عقوبات قاسية على من يخالف هذه الاتفاق سواء من الصليبيين أو المسلمين[(٢)].

كذلك عدم صلاحية الأراضي البور للزراعة في ظل ملوحتها أو بسبب تدهور التربة، وكان التهديد المستمر من جانب القوى الإسلامية من أهم أسباب تناقص مساحات الأراضي الزراعية، حتى باتت القرى في يد الصليبيين وأصبحت في يد المسلمين، فما الذي يدفعهم لزيادة المساحات المزروعة بجانب كثرة حوادث تدمير المحاصيل قبيل الحصاد[(٣)]، وبجانب الأسباب السابقة نذكر كثرة الثعابين في بعض المناطق[(٤)]، وتتابع نوبات الجفاف التي تتابعت على الإمارات الصليبية كما حدث عام ٦٦٨هـ (١٢٨٠م)[(٥)]، وتكاثر ظهور الجراد في بعض السنوات، مما دفع حكام المسلمين والصليبيين إلى مقاومته[(٦)].

---

(١) رايلي سميث، الإسبتارية، ص٤٣٧؛ محمد مخزوم، جبل عامل في العهدين الصليبي والمملوكي، على موقع تبنين على الإنترنت www.tibneen.com/jabalAmell.aspx

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٤، ص٣٣، ٦١.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٥٨.

(٤) أرنول، الرحالة أرنول، ترجمة سهيل ذكار، ضمن الموسوعة الشامية، مجـ ٣٩، دمشق، ١٩٩٩م، ص٣٩٥٤؛ حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص١٩٩.

(٥) De Cancy , Crusader's letter , p. 13.

راجع أيضاً: رايلي سميث، الإستارية، ص٤٣٨.

(٦) النويري، نهاية الآرب في فنون الأدب، جـ ٢٩، القاهرة، ١٩٣١م، ص١١٩.

http://www.al-maktabeh.com

إضافة إلى هجمات الفئران التي كانت تأتي على مخزون الحبوب مثلما حدث عام ٦٥٩هـ(١٢٦٠م)[١]، كذلك تذبذب مصادر الري التي تراوحت بين المطر والآبار والأنهار الموسمية، وطغيان النشاط التجاري على الزراعة والصناعة[٢]، وأيضاً الموجات الجديدة من الصليبيين التي كانت تشبع تعطشها للدماء من الفلاحين العرب – مسلمين ومسيحيين على حد سواء – لجهلهم بأهمية هؤلاء الفلاحين للمملكة ومن ثم راح عدد كبير منهم ضحية لهذا الجهل[٣].

غير أن تناقص مساحات الأراضي المزروعة وزيادة مساحات الخرائب لم تكن وحدها سبباً تراجع الاقتصاد الزراعي، بل كان هناك سببا ثانياً تمثل في نقص الأيدي العاملة[٤]، فقد لعب الغزو الصليبي دوراً كبيراً في حرمان الريف من سكانه المسلمين والمسيحيين المحليين على حد سواء الذين فروا من مدهم وقراهم بفعل وحشية الانتقام من كل ما هو محلي بدعوى تطهير موطن المسيح من رجز الكفار– في اعتقادهم[٥]– ومن ثم لجأ جل هؤلاء الفلاحين إلى المناطق الإسلامية، وإن بقت منهم أعداد صممت على البقاء في أراضي الآباء والأجداد تحت الحماية الصليبية.

ولعل هؤلاء السكان هم من شكلوا جماعات المقاومة الشعبية التي انتشرت على طول الطرق في مملكة بيت المقدس الأولى، يهددون الحجاج المسيحيين والعابرين في طرق المملكة

---

(١) العيني، عقد الجمان ، جـ١ ، ص٣٢٣.

(٢) حاتم الطحاوي، المرجع السابق، ص ص١٩٩-٢٠٤.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ١، ق١، ص٧٥٤؛ رايلي سميث، المرجع السابق، ص١٣٦؛ قاسم عبده قاسم، "بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية"، مجلة عالم الفكر، الكويت، ١٩٩١م، ص٣٨٤.

(٤) De Cancy , op. cit, p.13.

وأيضا: رايلي سميث، المرجع السابق، ص٤٣٧- ٤٣٨.

(٥) محمد فتحي الشاعر، أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، القاهرة، ١٩٩٠، ص ص٥-١٢؛ مهجة، العلاقات الاقتصادية، ص٨٤؛ صفاء عثمان، مملكة بيت المقدس في عهد الملك بلدوين الثاني، ص٢٠٣.

مكتبة المهتدين الإسلامية

حتى صارت عظام الموتى من الصليبيين أمراً عادياً على طول تلك الطرق[١]، ولم يعان الصليبيون من نقص الأراضي بقدر ما عانوا من نقص الأيدي العاملة نتيجة انخفاض الكثافة السكانية، ذلك أن جل التجمعات السكانية في الأراضي الصليبية كانت كفور ونجوع وليست قرى، ولم تزد معظم الأسر عن ثلاثة أو أربعة أفراد، كما تراوح عدد الأسر في كل تجمع سكني يسمي بالقرية عن عشرين أسرة[٢]، هذا يعني أن عدد سكان قرية تسكنها عشرين أسرة لم يزد عن ثمانين فردا، من بينهم بالتأكيد أطفال وعجائز ومرضى. وهذا يعني أن هذه القوة غير كافية بحال من الأحوال لفلاحة جميع أرضي القرية تحت أي نظام زراعي، ولعل هذا الأمر يفسر لنا حسن معاملة السادة الصليبيين في بعض المناطق للمزارعين المسلمين وعدم الاشتطاط في فرض الضرائب عليهم، كما ذكر ابن جبير[٣]، الذي اعتبر ذلك نوعاً من الفتنة لأن المزارعين في المناطق الإسلامية تفرض عليهم ضرائب أكثر مما يفرض على أهل المكان الذي مر به.

وفي ظل عجز الصليبيين عن تغيير البنية العرقية لسكان الريف، مع حرصهم على سكنى المدن بدعوى الأمن والتهديد المستمر من قبل المقاومة الإسلامية، بجانب عودة معظم الحجاج إلى بلادهم[٤]، بالإضافة إلى فشل عملية توطين الفلاحين الأوربيين على نطاق واسع، كل ذلك أسهم في بقاء الفلاحين المسلمين هم عماد العمالة الزراعية[٥] التي تناقصت بصورة تدريجية بسبب كثرة الضرائب التي فرضت عليهم[٦]، ومن هذه الضرائب والأعباء: ضريبة

---

(١) وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس والأراضي المقدسة ١١٠٢-١١٠٣م، ترجمة وتعليق: سعيد البيشاوي، دار الشروق، رام الله، ١٩٩٧م، ص٢٣.

(٢) براور، الاستيطان، ص٤٤٩.

(٣) الرحلة، ص٢٥١.

(٤) ابن جبير، الرحلة، ص٢٥١. وأيضا، براور، الاستيطان، ص٤٥٣؛ حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص١٩٦؛ قاسم عبده قاسم، "بعض مظاهر الحياة الاجتماعية"، ص٣٧٧.

(٥) لطيفة البوعنين، الحياة الاقتصادية، ص١٩٣.

Riley-Smith (Jonathan), "Some Lesser Officials in Latin Syria", in E.H.R., vol.87, no.342, (Jan. 1972), p.12.

(٦) Richard, " Agricultural" ,.p.256.

http://www.al-maktabeh.com

عينية كانت تفرض على ما تغله الأرض بواقع ثلث أو ربع المحصول من القمح ونسب متفاوتة من محاصيل الزيتون والكروم ما بين الربع والنصف، وتقابل ضريبة الخراج لدى المسلمين[١].

إضافة إلى هدية جبرية تقدم بصورة سنوية إلى السيد الصليبي عبارة عن طائر وعشر بيضات ونصف رطل من الجبن واثني عشر بيزنت[٢] عن كل حمل خشب[٣]، وضريبة على نحل العسل والدواجن، وحيوانات المراعي التي يقوم بتربيتها[٤]، بجانب ضريبة على الرعي في مراعي السيد الإقطاعي، أو قطع الأخشاب لبناء بيت أو لأي غرض آخر[٥]، وكذلك ضريبة مقابل استخدام طاحونة القرية أو الفرن أو الحمام. وأحياناً في نطاق ضيق السخرة سواء لفلاحة أرض السيد أو بناء القلاع لكنها لم تكن منتشرة على نطاق واسع بسبب عدم احتفاظ السادة الإقطاعيين لأنفسهم بمساحات يتولون زراعتها، ولم تظهر بشكل واضح سوي في بساتين الزيتون بالقرب من صور[٦].

كما كان هناك ضريبة النقل مقابل نقل الحبوب إلى الأجران أو الشون، أو لاستخدام أجراء السيد وآلاته الزراعية أو السماح لهم بنقل المنتجات إلى المدن لبيعها[٧]. وضريبة

---

(١) Riley-Smith , op. cit. , p.12; Richard ,op. cit. , p.255.

(٢) البيزنت: هو السوليدس والسوليدس نقد ذهبي أطلق عليه المؤلفون البيزنطيون اسم نومزما التي استمرت متداولة حتى أطلق عليه في غرب أوربا البيزنت. انظر: رأفت النبراوي، العملة الصليبية في مصر والشام، دار نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ١٩٩٦م، حاشية ٢، ص ٢٣.

(٣) Richard , op. cit. , p.256.

(٤) Ibid.

(٥) Ibid, p258.

(٦) محمد مخزوم، جبل عامل، موقع تبنين علي الانترنت.

//www.tibneen.com/jabalAmell.aspx،http

(٧) خليل حسن الزركاني، "العلاقات الاقتصادية في الحروب الصليبية"، ضمن مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي"، جـ٢، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ٢٠٠٠، ص٨٢٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الرأس التي فرضت على كل من بلغ سن الرشد مرة واحدة كل عام[١]. كما كان هناك ضرائب إضافية تفرض من وقت لآخر حسب الظروف، مثل ضريبة الدفاع عن المملكة التي فرضت في فبراير عام٥٨٧هـ (١١٨٣م)؛ بسبب تفاقم خطر صلاح الدين على جميع سكان المملكة بصرف النظر عن العرق أو الديانة أو المذهب، وقدرت الضريبة بواحد في المائة من دخل الفرد، وشكلت لجنة في كل مدينة لجمع هذه الضريبة من الإقطاعيات.

وقد عانى المسلمون من هذه الضريبة بسبب أن الدولة أوكلت إلى أصحاب الإقطاعيات تسديدها جملة واحدة، وجمعها من الفلاحين بعد ذلك مما فتح الباب للتلاعب وتحميل الفلاحين فوق ما يطيقون سواء من قبل صاحب الإقطاع أو القائمين بجمع المال[٢]. وبرغم أننا لم نسمع عن ضريبة مماثلة في القرن الثالث عشر فإنه من المرجح وجود ضرائب مشابهة مع اتساع موجة فتوح الظاهر بيبرس.

وقد أسهمت كثرة الضغوط على الفلاحين تحت السيادة الصليبية في اتجاههم إلى التمرد والثورة، حقيقة أن المصادر لم تسجل خبر ثورة فلاحية على الصليبيين، غير أنه في عام ٦٦١هـ(١٢٦٣م) صارت بوادر ثورة الفلاحين أمراً واضحاً[٣]، وربما تشجع الفلاحين على إظهار بوادر الثورة للحصول على بعض حقوقهم المسلوبة في ظل تصاعد قوة المماليك وتراجع قوة الصليبيين.

هذا ولم يستطع الصليبيون تعويض النقص البشري، برغم المحاولات العديدة لتلافي هذا العيب الديموجرافي، إلا أن ارتفاع نسبة الوفيات بسبب كثرة الأمراض التي لم يعلموا كيفية

---

(١) Richard, " Agricultural", p.255.

راجع أيضاً: محمد فتحي الشاعر، أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس، ص١٣-١٤.

(٢) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٤، ص ص٣٠٩-٣١٣؛ براور، الاستيطان، ص٤٤٦-٤٤٩؛ محمد فتحي الشاعر،المرجع السابق، ص١٥-١٧.

Kedar (B.Z.)، "The General Tax of 1183 in the Crusading Kingdom of Jerusalem , Innovation or Adaptation?", in E.H.R., 1974 , pp.339-345.

(٣) رايلي سميث، الإسبتارية، ص٤٣٨.

http://www.al-maktabeh.com

علاجها، ناهيك عن بعد الشقة بين أوربا والشرق باستخدام وسائل نقل العصور الوسطى قد لعب دوراً كبيراً في هذا التدهور، ولا نغفل ضحايا الحروب التي لم تنقطع يوماً بين المسلمين والصليبيين[١].

أما السبب الثالث وراء تراجع الزراعة فهو الصراعات البينية التي كان لها دور كبير في ذلك التراجع، حقيقة أن أثر هذه الصراعات على الجانب الزراعي لم يلق عليه كتاب الحوليات إلا إشارات نادرة، لكننا نستطيع تلمس ذلك الأمر، فمن المؤكد أن نقص الأراضي الصليبية بفعل الفتوح الإسلامية قد أسهم في تصاعد الخلافات على الأراضي[٢]، فعلى سبيل المثال كان للصراع الدائم بين الداوية والإسبتارية دور كبير في تراجع الزراعة في ظاهر عكا؛ بسبب الخلاف على مصادر المياه حين حاولت كل طائفة الاستئثار، ومع اشتداد الأزمة وعدم فصل البابا في الأمر، وعدم وجود ملك قوي قام الإسبتارية بحفر قناة تأخذ الماء من نهر عكا، وتحوله عن مجراه مما أدى إلى توقف طواحين الداوية عن العمل والإضرار بزراعات القصب وغيره من المحاصيل، وفتح المجال أمام نزاعات الفلاحين على الماء، ولما لم يصلوا إلى حل، فإنهم هجروا المزارع إلى داخل أسوار المدينة، حيث بحثوا لأنفسهم عن أعمال جديدة[٣].

أما السبب الرابع وراء تراجع النشاط الزراعي فهو الفتوح المملوكية، فقد بدأ تدهور الإنتاج الزراعي بشكل خطير في ظل فتوح صلاح الدين[٤]، حيث فقد الصليبيون المناطق

---

(١) جوانفيل، القديس لويس، ص١٤١-١٤٢. انظر أيضاً:

Wurzburg (John), Description of the Holy Land, trans. By Aubrey Stewart, in P.P.T.S., vol. V, London , 1896, p.44; De cancy , Crusader's letter, p.13.

راجع أيضاً: مهجة، العلاقات الاقتصادية، ص٩٦.

(٢) رايلي سميث، المرجع السابق، ص٤٤٢.

(٣) نبيلة مقامي، فرق الفرسان الرهبان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٩٤م، ص١٠٧؛ لطيفة البوعنين، الحياة الاقتصادية، ص٢٢٠.

Benvenisti, The Crusaders in the Holy Land, Jerusalem, 1970, p.250.

(٤) حول فتوح صلاح الدين انظر: ابن شداد، سيرة صلاح الدين، ص ص٢٧٠-٢٧٧؛ العماد الاصفهاني، الفتح القسي، ص١٢٢-١٣٦؛ مجهول ذيل وليم الصوري، ص ص١٠٦-١٣٠.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الرئيسة لإنتاج الحبوب حول بيت المقدس التي تميزت برغم طبيعتها الصخرية بارتفاع الإنتاج[١]، كما فقدت أراضي نابلس ووادي عربة بجانب بيسان، وفقدوا أيضاً مناطق إنتاج الشعير حول الكرك والشوبك، وحبرون وشمال بيت لحم[٢]، ومناطق إنتاج الذرة حول عسقلان وغزة[٣]، ومناطق إنتاج الأرز حول بيسان وضفاف نهر الأردن[٤]، ومناطق إنتاج الكروم والبلسان والقطن والفواكه والموالح وبخاصة الليمون قرب القدس وبيت لحم ورام الله[٥]، ومناطق إنتاج الفواكه في وادي الأردن، خصوصاً الموز الذي عرف بتفاح الجنة[٦].

وقد أفضت هذه الخسائر التي خسرها الصليبيون إلى الوضع الاقتصادي الحرج في المجال الزراعي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وهو ما سنبسط فيه القول. فحين لجأ الصليبيون إلى السهل الساحلي ظهرت مشكلة مزدوجة تمثلت في تكدس الصليبيون في مدن الساحل، بجانب نقص الحبوب بفعل فقدان مصادرها ومن ثم الاتجاه إلى تعويض هذا النقص من مصدرين الأول الاستيراد من بيزنطة. وأما المصدر الثاني فهو الاستيراد من المناطق الإسلامية الداخلية، وارتبط هذا المصدر بمعاهدات السلام مع المماليك[٧]، بجانب مصادر أخرى من صقلية وأرمينيا[٨].

أما عن خسائر الزراعة الصليبية من جراء الفتوح المملوكية فمن الممكن تتبعها من خلال العرض التالي للآثار الاقتصادية للحملات المملوكية على بلاد الشام في عهد بيبرس

---

(١) Daniel , p 45, 58.

(٢) Theoderich, Guide to the Holy land, p. 49.

حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص٢٠٥.

(٣) Theodrich , p. 3.

(٤) Burchard of Mount Sion ,p 62 , Ludolph , Description of the Holy land , p. 70.

(٥) Anonymous pilgrim , trans. Aubrey Stewart , London , 1894 , P 34.

(٦) Burchard of Mount Sion ,p 100 .

راجع أيضاً: مهجة، العلاقات الاقتصادية، ص١٢٩.

(٧) انظر الفصل السادس، ص ٣١٠.

(٨) حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص ٢٠٨.

http://www.al-maktabeh.com

وقلاوون والأشرف خليل. ففي عام ٦٦٢هـ(١٢٦٣م) قام السلطان بيبرس بحملة على عكا، وقبل أن يصل قامت طلائع جيشه بالهجوم على ظاهر المدينة، واستولت على كل ماشية المراعي مما شجع السلطان على اجتياح المنطقة المحيطة بعكا في حملة أتت على الأخضر واليابس خارج أسوار المدينة وقطعوا الأشجار وأحرقوا الثمار(١).

وحين هاجم قيسارية يوم الخميس التاسع من جمادى الأولى في٦٦٤هـ(١٢٦٥م) كانت أولى الخطوات تخريب مناطق الإنتاج الزراعي المحيطة بالمدينة، وبعد أسبوع في يوم الخميس ١٥ من الشهر نفسه من بدء الحصار صارت المدينة وقلعتها في يد السلطان فأمر بتخريبهما(٢) حتى لا يستفيد الصليبيون مرة أخرى إن وصلوا إليها، ولا شك أن فقدان الصليبيين لقيسارية قد أدى إلى خسائر باهظة في القطاع الزراعي، وبذلك فقد الصليبيون كل ما تغله قيسارية من ضرائب وغلال وثمار، وبعد فراغ السلطان من أمر قيسارية أمر بحصر الإقطاعيات التابعة لها ووزعها بين قادته ومماليكه(٣).

وبعد الاستيلاء على قيسارية اتبع السلطان بيبرس سياسة الأرض المحروقة فضرب حيفا على حين فجأة ودمرها وقلعتها وسواهما بالأرض(٤)، وبالطبع خسر الصليبيون عائداتها من الضرائب وثمار الفواكه التي اشتهرت بها المدينة، واتبع ذلك بالهجوم على قلعة عثليث

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٥٧-١٥٩؛ شافع بن علي، حسن المناقب السرية ص٥٧؛ العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، جـ١، ص٣٢٦. انظر أيضاً:

L'Estoire d'Eracles, p.447; Annales des Terre Sainte, p.450.

وعن تلك الحادثة يقول العيني " وانهزمت الفرنج إلى المدينة، وحرق الناس ما حول عكا من الأبراج والأسوار، وقطعوا الأشجار، وحرقوا الثمار، فلا يرى الناس إلا دخاناً أو عجاجاً، وسيوف لامعة وأسنة قاطعة"، كما يقول شافع بن علي حول نهب المدينة وتدميرها "نهبوا ما بها وتقسم الجيش المدينة والقلعة، فهدمت إلى الأرض، بالطول والعرض".

(٢) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص٢٣٠-٢٣١ ؛ شافع بن علي، المصدر السابق، ص٨٨. انظر أيضاً:

L'Estoire d'Eracles, p.450; The Templar of Tyre, p.44; Annales des Terre Sainte ,p.452. See also: Michaud, Histoire des Croisades, tome III, p.21; Paine, the Crusades, p.86.

(٣) حسن عبد الوهاب، تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص٢٢٥.

(٤) شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص٨٩؛ العيني، عقد الجمان، جـ١، ص٣٩٧.

مكتبة المهتدين الإسلامية

حصن الفرسان الداوية وكانت أول أعمال السلطان حرق القرية الواقعة خارج الأسوار ولما صمدت القلعة تركها[١]، كما اجتاح أرسوف في العام نفسه، ولم يتركها حتى خربها وسواها بالأرض[٢]، وأضيفت إلى قائمة خسائر الزراعة الصليبية.

هكذا اتضح ما تعرضت له الزراعة الصليبية من خسائر كبيرة من جراء فتوح الظاهر بيبرس خلال عام واحد، وبالطبع انعكست تلك الخسائر على واردات الخزانة الصليبية مما أسهم في تراجع قوة الصليبيين وقدرتهم على حشد الجيوش، كما بدا أنه كان هناك قاسماً مشتركاً بين المدن والحصون التي قام بفتحها الظاهر، هذا القاسم يتمثل في التخريب الذي قام به في هذه المدن وضواحيها، ومن المؤكد أن سبب هذا التخريب في المقام الأول يعود إلى رغبة الظاهر في حرمان أصحاب تلك المدن من منتجات الأراضي الزراعية المحيطة بها أثناء الحصار، بجانب ضمان تكبيد هذه المدن أكبر قدر من الخسائر إذا ما فشل الحصار، وحين كان ينجح الحصار ويتم الفتح، تصير تلك البلاد غير ذات فائدة إذا ما أراد الصليبيون العودة إليها، وهو ما يفقدهم الرغبة في استعادتها، تلك الاستعادة التي تستهلك قدراً كبيراً من المال هم في أشد الحاجة إليه للمحافظة على ما بقي في أيديهم من بلاد.

ولم تتوقف خسائر الزراعة الصليبية عند هذا الحد، بل تبعتها خسارة كبيرة تمثلت في إقليم الجليل وما به من ثروة زراعية هائلة، التي كانت تسيطر عليها الداوية من خلال قلعة صفد، ففي٦٦٤هـ(١٢٦٦م) قام بيبرس باجتياح ظاهر عكا والمناطق المحيطة بقلعة التيوتون في مونتفورت، ثم فرض الحصار على قلعة صفد في ٤من يوليو(٢٩ من رمضان) الواقعة

---

(١) شافع بن علي، المصدر السابق، ص٨٩. راجع أيضاً: رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٤٦؛ وفاء محمد علي، جهود المماليك ضد الصليبيين، الإسكندرية، ١٩٩١م، ص١٢. يقول شافع بشأن حادثة تخريب المزارع بظاهر عثليث "وركب السلطان جريدة، وقصد عثليث لكشف عورتها، والخلل الذي يمكن أن يتسلط عليها منه، فوصل إليها وضرب هناك دهليزه الحربي الحمر، وطاف بها، ووجد هناك جزيرة فصلي بها، ثم أمر العسكر بهدم ما حولها من العمائر، وقطع الأشجار والكروم، وكانت عامرة آهلة، فجعلها للوقت خراباً يباباً".

(٢) شافع بن علي، المصدر السابق، ص٨٩-٩٠. انظر أيضاً:

L'Estoire d'Eracles, p.450; The Templar of Tyre, p.44; Annales des Terre Sainte, p.452. Cf also, Amitai, "The Conquest of Arsuf by Baybars، Political and Military Aspects", M.S.R., vol. IX (2005), pp.62-83, p.77.

http://www.al-maktabeh.com

على مرتفعات الجليل الأعلى والتي كانت من أمنع الحصون فسلمت في١٩ من شوال (٢٢ من أغسطس)[١]، وأتم بيبرس انتصاره بإسقاط حصن تبنين[٢]، ثم أمر بإعدام سكان قرية قارة من المسيحيين المحليين[٣]، لتعاونهم مع الصليبيين.

ولما حاولت حامية عكا استرجاع الجليل في٢٧من المحرم ٦٦٥هـ(٢٨ من أكتوبر ١٢٦٦) وقعت في كمين مملوكي كبدهم خسائر فادحة وثبت أقدامهم بالجليل، وبخاصة بعد أن سيطرت القوات المملوكية على أكثر من عشرين حصناً كانت تحكم السيطرة على المنطقة[٤]، وتأكدت خسارة القطاع الزراعي وضاعت خيرات الجليل التي طالما تقوى بها الصليبيون على المسلمين.

وزادت الخسائر الزراعية حين قرر بيبرس استكمال فتوح جنوب عكا بحيث لم يبق سوي عثليث ويافا، فبدأ بيافا فاستولى عليها في نصف يوم، وبالطبع فقد الصليبيون كل ما كانت تغله من الزيتون والقمح والكروم وبلح النخيل وما أحاط بها من الغابات والمروج العشبية، ومن ثم فقد خسرت مملكة عكا ما كانت تقدمه يافا من المؤن سواء في صورة عينية أم صورة نقدية في شكل عائدات الضرائب، حتى عدها السلطان من أسباب عجزه عن فتح

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ص٢٥٤ -٢٦٣؛ شافع بن علي، حسن المناقب، ص١٠٨؛ العيني، عقد الجمان، جـ١، ص٤٢١. انظر أيضاً:

The Templar of Tyre, p.59; Annales de Terre Sainte, p.453; Chronique d'Amadi, p.209.

(٢) تبنين: كان من حصون الصليبيين الكبرى، عبارة عن بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور وكان مقر لجمارك الصليبيين على القوافل الإسلامية الداخلة إلى أراضيهم. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٢، ص١٤٠؛ ابن جبير، الرحلة، ص٢٥٠.

(٣) قرية قارة: كانت قرية كبيرة بين دمشق وحمص في منتصف الطريق بينهما وكانت محطة للقوافل التجارية، وهي أقرب إلى حمص منها إلى دمشق. عنها انظر: أبو الفدا، تقويم البلدان، ص٢٢٩.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٥٠؛ شافع بن علي، حسن المناقب، ص١٠٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٧٦. انظر أيضاً:

L'Estoire d'Eracles, p.455; The Templar of Tyre, p.59; Annales de Terre Sainte, p.453; Chronique d'Amadi, p.206.

راجع أيضاً: رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٥٠-٥٥١.

مكتبة المهتدين الإسلامية

عكا، وكان الفتح في ٢٠ من جمادى الآخرة ٦٦٦هـ(٧ من مارس ١٢٦٨هـ)[١]، وتبع فتح يافا بفتح حصن الشقيف أرنون Beaufort[٢]، وحرم الصليبيون من خيرات سهل البقاع وجنوب لبنان بجانب فقدان السيطرة على مياه نهر الليطاني[٣].

وقد تركت تلك الفتوح المتوالية ظلالاً قاتمة على أحوال الصليبيين في مملكة عكا وسائر مدن الصليبيين في مدن الشام، وكان أخطر ما نتج عنها نقص إنتاج الحبوب مما أدى إلى ارتفاع أسعارها[٤]. وبعد الشقيف توقفت خسائر القطاع الزراعي في مملكة عكا لتوجه الظاهر إلى فتوح أنطاكية وما حولها، وفي عام٦٦٩هـ(١٢٧٥م) تمكن الظاهر من فتح حصن القرين وتخريبه[٥] الذي كان من أملاك الفرسان التيوتون، ومما لا شك فيه أن خسارة حصن القرين كانت خسارة فادحة للفرسان التيوتون ومملكة بيت المقدس بعد ضياع السيطرة على عدد كبير من القرى التي كانت منتشرة في الجليل الأعلى وخاضعة للحصن[٦].

أما عن خسائر الزراعة في المملكة في عهد قلاوون وابنه الأشرف فمن الجدير بالذكر أن وفاة بيبرس عام٦٧٦هـ(١٢٧٧م) قد أعطت الصليبيين فترة من الراحة ومن ثم توقفت خسائر القطاع الزراعي في ظل المعاهدات التي كانت تجدد بصورة دورية حتى نقضت

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٩٢-٢٩٥؛ العيني، عقد الجمان، جـ١، ص١٩؛ ابن كثير، المصدر السابق، جـ١٣، ص٢٨٠. انظر أيضاً:

L'Estoire d'Eracles 456; The Templar of Tyre, p.59; Annales de Terre Sainte, p.453; Chronique d'Amadi, p.206.

(٢) حصن الشقيف أرنون: قلعة في جنوب لبنان، تقع فوق جرف جبلي شديد الانحدار ارتفاعه ٢٠٠ قدماً مقابل نهر الليطانى. انظر مولر و فيز، القلاع، ص ٨٠.

(٣) نفسه، ص٨٠.

(٤) L'Estoire d'Eracles, p.456.

(٥) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٣٨٥-٣٨٦؛ العيني عقد الجمان، جـ١، ق٢، ص٧٩؛ ابن أيبك الدوداري، كنز الدرر، جـ٨، ص١٦١-١٦٢. وأيضاً:

Annales des Terre Sainte, p.453.

(٦) حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص٣١١.

http://www.al-maktabeh.com

الهدنة، وتقرر فتح عكا وتم ذلك عام٦٩٠هـ(١٢٩١م)[١]، وضاعت عكا ومزارعها من يد الصليبيين ولم يعد لهم بقاء في باقي المناطق مثل صور وبيروت.

وقد أدرك ملاك الأرض من الصليبيين الخسائر المتتالية للقطاع الزراعي، وهو ما ألجأهم إلى تأجير إقطاعياتهم أو بيعها - بعد أن عجزوا عن حمايتها - للجماعات الرهبانية العسكرية، وقد نال الفرسان الإسبتارية نصيب الأسد من هذه الأملاك[٢]. ولعل مرجع تلك الظاهرة إلى تزايد الأخطار مع تصاعد قوة المماليك مما انعكس بصورة مباشرة على الكيان الصليبي بالسلب، بجانب اجتياح المغول لبلاد الشام وما يتوقع من خطرهم، وكثيراً ما عجز المستأجرون عن دفع الضرائب بسبب هجمات المماليك، أو نقص الماء، مما أحدث مشاكل بين المؤجرين والمستأجرين، رفع كثير منها إلى القضاء، ووصل الأمر أحياناً إلى رفع الأمر إلى البابا في روما، نتيجة تراجع العائدات من الزراعة بشكل هدد خزانة الهيئة الدينية والهيئة العلمانية على السواء[٣].

وخير دليل على ذلك ما نشب بين الفرسان التيوتون وأسقفية عكا في رمضان ٦٥٥هـ(سبتمبر ١٢٥٧م) حول رفض التيوتون دفع ما عليهم من ضرائب العشور وأنواع الضرائب الأخرى عما أجروه من الأسقفية بجانب ضرائب الطواحين، واشتد الخلاف حتى تدخل بعض أصدقاء الطرفين لإنهاء النزاع. وهكذا سيطرت المطامع الاقتصادية على عناصر المجتمع في مملكة عكا، وتفننوا في التهرب من دفع ما عليهم من واجبات مالية، سواء في صورة ضرائب أو إيجار، والغريب أن من امتنعوا عن الدفع هم الهيئات الدينية التي استشرت مطامعها الاقتصادية، متناسين الهدف الذي تكونت هيئاتهم من أجله، وتمثل في الدفاع عن الكيان الصليبي[٤].

---

(١) شافع بن علي، كتاب الفضل المأثور، ص١٧٧.

(٢) مصطفى الحناوي، الفرسان الإسبتارية، ص٤٢٨.

(٣) Hamilton, The Latin Kingdom, p.288.

(٤) البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٤٩.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ومن أمثلة تأجير الإقطاعيات قيام باليان ابلين بتأجير إقطاعه في أرسوف للإسبتارية سنة٦٩٥هـ(١٢٦١م) بعد أن عجز عن المحافظة عليه(١). أما عن البيع فمن أمثلته قيام حاكم قيسارية حنا أليمان John L'Aleman ببيع قلعة الدامور Damor القريبة من عكا إلى الإسبتارية عام٦٥١هـ(١٢٥٣م). وبعد عام من التاريخ السابق قام ببيع عدد من الإقطاعيات لهيئة الفرسان الاسبتارية سواء في عكا أو قيسارية ذاتها بسبب قلة موارد تلك الجهات.والعجز عن الدفاع عنها(٢)، كما قام جوليان حاكم صيدا ببيع قلعة الشقيف للداوية عام ٦٥٩هـ(١٢٦٠م)، ثم تنازل عن صيدا نفسها بعد أن غرق في الديون وعجز عن الدفاع عنها وعما تحميه من أراضي(٣).

وفي الماضي قبل حطين كان رجال الدين منهمكين في استغلال الإقطاعيات الكنسية ذات العائد الكبير في ظل قوة الملوك، ونظراً لضخامة العائد فقد قبلوا عن طيب خاطر تجهيز جماعات من المقاتلين فرسان ورجالة للمشاركة في الدفاع عن المملكة وصل عددهم إلى ٥٠٠ جندي. أما في القرن الثالث عشر ومع انحسار تلك الإقطاعيات فقد خسروا عائدات أملاكهم، ومن ثم رفضوا تقديم الخدمات العسكرية التي كانت مفروضة عليهم من قبل(٤)،

---

(١) L'Estoire d'Eracles, p.446; Annales des Terre Sainte, p.450. Cf. also: Prawer, Crusader Institution, p.154; Benvenisti, The Crusader in the Holy land, p.132; Tibble (steven), Monarchy and Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem 1099-1291, Oxford, 1989, p.181.

راجع أيضاً: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص٥٤٥؛ مصطفي الحناوي، الاسبتارية، ص٤٣٧.

(٢) Rohricht, Regesta, no.1210,1233,1234.1238. Cf also: Tibble, Monarchy and Lordships, p.131; La Monte, "Lords of Caesaria in the period of the Crusades", in Speculum. Vol.22, no.2 (Apr., 1947), p.159.

وانظر أيضاً: حسن عبد الوهاب، قيسارية، ص١٩٩.

(٣) The Templar of Tyre, p.35; Annales des Terre Sainte, p.449, Cf. also, Tibble, op. cit, p.179.

مولر فيز، القلاع، ص٨٠؛ أسامة زكي زيد، صيدا، ص٢٣٨.

(٤) John of Ibelin, Le Livre des Assises, pp.615-616.

راجع أيضاً: البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٥٠.

http://www.al-maktabeh.com

وتحولوا إلى استثمارا أموالهم داخل أسوار المدن بعيداً عن التهديد المباشر للمماليك والمغول، مثل تأجير المنازل لمن يريد حتى لنساء سيئات السمعة اللائي حولنها لبيوت لممارسة الفواحش والموبقات(١).

ورُبَ سائل يسأل ألم تكن هناك محاولات من قبل الصليبيين لإنعاش القطاع الزراعي الذي تعرض لخسائر فادحة؟ ونجيب بأن الصليبيين لم يكن لهم أن يتركوا القطاع الزراعي ينهار بصورة كلية، لما يترتب عليه من مجاعة وتوقف الصادرات الزراعية، والمواد المصنعة التي تعتمد على الخامات الزراعية، وكانت وسيلتهم إلى ذلك أمرين: أولهما عقد الهدن مع المسلمين سواء في عهد الظاهر بيبرس أو في عهد قلاوون، وقد تضمنت تلك الهدن بنوداً عديدة للمحافظة على الأراضي الزراعية، وتنظيم السكان المقيمين فيها، وبصفة خاصة أراضي المناصفات(٢).

أما الأمر الثاني وهو استقدام المزارعين من الغرب الأوربي للمساعدة في زراعة الأراضي البور، ففي عام٦٦٩هـ(١٢٧٠م) قام لويس التاسع – حين نزل في تونس في حملته الصليبية الثانية – بإرسال ٥٠٠ من المزارعين الفرنسيين الذين أسهموا في إحياء الأرض الموات وزيادة إنتاج الحبوب مما أسهم في توقف ارتفاع الأسعار(٣). ويحمل هذا الخبر– الذي انفرد به مؤلف تاريخ الإمبراطور هرقل – على صغره كثير من الدلالات، منها الدور الكبير لتناقص السكان في تدهور الزراعة وارتفاع الأسعار.

إضافة إلى هرب عدد كبير من الفلاحين المسلمين الذين كانوا يقومون بفلاحة الأراضي الصليبية إلى المناطق الإسلامية بعدما تناقصت الأراضي الزراعية الصليبية بشكل كبير، مما

---

(١) جاك دي فيتري، تاريخ مملكة بيت المقدس، ص٢٥١–٢٥٢.

(٢) شهد عهدي الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون إبرام العديد من المعاهدات بينهما وبين الصليبيين بصورة جماعية أو منفردة حول تلك المعاهدات. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٤، ص ص٣١–٦٣. وأيضاً:

Holt, "Baybars's treaty with the Lady of Beirut in 667/1269 , in C.S., pp.242-245. See also: "Qalawun treaty with Acre in 1283", in E.H.R., vol.91, (no.361, 1976), pp.802-812.

(٣) L'Estoire d'Eracles, p.458.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أسهم في إحداث نقص خطير في الأيدي العاملة الزراعية، وأيضاً أن قضية نقص الأيدي العاملة الزراعية لم تكن خافية على الملك لويس التاسع، وربما لمسها بشكل واضح أثناء تواجده في الساحل في الفترة بين عامي٦٤٨-٦٥٢هـ (١٢٥٠-١٢٥٤م) وبالتالي ظل كلفا بالأمر حتى تيسر له دعم القطاع الزراعي في المملكة بهؤلاء الفلاحين الخمسمائة. كما أن ذكر مؤلف تاريخ هرقل أن قدوم الفلاحين وقيامهم بالزراعة قد أسهم في توقف زيادة الأسعار، ولم يقل أنه قد خفضها مما يوحي لنا بأنها ظلت مرتفعة، وبالتالي زادت تكاليف الإقامة في الساحل الشامي، وهو أمر بلا شك له دور في النزوح الدائم للسكان من مملكة عكا.

نخلص مما سبق إلى أن الاقتصاد الزراعي في القرن الثالث عشر شهد تراجعاً حاداً وبخاصة في النصف الثاني من القرن، وعلى وجه التحديد منذ تولي الظاهر بيبرس سدة الحكم وانحسار خطر المغول، ومن ثم نشط في التهام أملاك الصليبيين، وبالطبع كان أول القطاعات الاقتصادية تأثراً هو القطاع الزراعي، فسواء نجحت هجمة الظاهر أم لم تنجح كان القطاع الزراعي خارج أسوار المدن والحصون يصيبه الدمار، وهو ما انعكس على واردات الخزنة الصليبية من الضرائب وبالتالي الأثر السلبي على القوة العسكرية للجانب الصليبي.

- تدهور الصناعة

ولم يقتصر الاقتصاد في مملكة عكا على الزراعة، ذلك أن قيام الزراعة وفر كثير من الخامات التي تقوم عليها كثير من الصناعات القائمة على أساس الخامات الزراعية والحيوانية، أما الصناعات التي تعتمد على الخامات الحفرية فتنوعت مصادر خاماتها بين الخامات المحلية والخامات المستوردة، وعلى الرغم من أننا لسنا بصدد دراسة الصناعة في حد ذاتها وإنما دراسة مظاهر التراجع الاقتصادي في هذا القطاع فإنه لا مندوحة من إلقاء الضوء على أهم المراكز الصناعية القائمة في مدن المملكة حتى نستطيع تتبع مظاهر التدهور التي أصابتها.

ففي يافا ازدهرت العديد من الصناعات، وبخاصة الزجاج الذي صنع من رمال الشاطئ.أما الصناعات القائمة على الزيتون مثل إنتاج الزيت للأغراض المختلفة والصابون

http://www.al-maktabeh.com

فقد لقيا رواجاً كبيراً، وكذلك الصناعات التي اعتمدت على البلح مثل عسل التمر(١). كما انتشر في أرسوف عدد من مصانع الخمور(٢).

أما قيسارية فازدهرت بها الصناعات النحاسية وبخاصة إنتاج الأواني والموازيين والمكاييل(٣)، وتصنيع الملابس بأنواعها حتى اشتهر بها سوق الخياطين، كما انتعشت بها مصانع السكر، بجانب تصنيع الخبز للأغراض التجارية وبخاصة خبزها الأبيض(٤)، أما حيفا فقد كثر بها معاصر الزيتون(٥).

أما عن عكا، فكانت قاعدة الصناعة الصليبية، حيث شهدت ازدهار العديد من الصناعات مثل صناعة السفن بحكم كونها ميناء المملكة الأول، بجانب أن هذه الصناعة من الصناعات القديمة بها منذ العهود الإسلامية، ومن الواضح أن الأخشاب التي كانت تنمو بظاهر عكا لم تكن جيدة لصناعة السفن، ومن ثم لجأت إلى الاستيراد من المناطق الساحلية التي توجد بها أخشاب جيدة مثل بيروت، وبجانب تصنيع السفن ، التي تحتاج إلى رعاية مستمرة بسبب رحلات التجارة الطويلة(٦).

أما الصناعات التي قامت على الحديد فقد لقيت هي الأخرى رواجاً كبيراً حتى وجد شارع في وسط عكا يعرف بشارع الحدادين، الذين قاموا بتصنيع الأسلحة والآلات الزراعية والأدوات المترلية مثل السكاكين. ومن الصناعات التي ازدهرت في عكا صناعة

---

(١) حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص٢٠٧، ٢١٥.

(٢) براور، الاستيطان، ص٤٣٢.

Richard , "Agricultural" , p. 260.

(٣) حاتم الطحاوي، المرجع السابق، ص٢١٦.

(٤) براور،المرجع السابق، ص٤٣٢؛ مهجة السيد، العلاقات الاقتصادية، ص١٥٠، ١٥٦.

(٥) Richard , op. cit. , p.260 .

(٦) علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، القاهرة، ١٩٩٦م، ص١٢؛ لطيفة البوعنين، المرجع السابق، ص٢٠٤- ٢٤٢. وأيضاً:

Archer, The Crusades, The Story of the Latin kingdom of the Jerusalem, London, 1919, p.29.

مكتبة المهتدين الإسلامية

آلات الحصار، وخصوصاً المجانيق التي بلغت درجة من الرقي دفعت بفردريك الثاني في أثناء وجوده في عكا إلى نقل كثير من نماذج هذه الآلات إلى أوربا[١].

كما ازدهرت في عكا صناعة الحلي وأدوات الزينة، في ظل إقبال الطبقة العليا في المجتمع على هذه السلع، بجانب صناعات الهدايا التذكارية مثل صناديق حفظ الأناجيل المزينة والصلبان والميداليات وأواني القربان. أما صناعة الأثاث فقد بلغت شأوا كبيرا من التطور في ظل إقبال تجار الغرب على تصديرها، وهي صناعة نقلها البنادقة إلى مدينتهم الأم التي أمست واحدة من كبرى مراكز تصنيع الأثاث في أوربا، ومن الصناعات التي قامت على الأخشاب صناعة أدوات الكتابة مثل المحابر المصنوعة من خشب الأبنوس، والصناديق المعدة لحفظ الملابس أو الأقمشة، والمناضد التي اتسع استخدامها في الكنائس ومنازل النبلاء[٢].

كما اشتهرت عكا بصناعة الزجاج الذي اعتمد على الخامات المحلية من رمال الشاطئ وقد احتكر اليهود تصنيعه، وعمل البنادقة على تطوير هذه الصناعة ونقلوها إلى بلادهم وباقي مناطق تركزهم في الساحل[٣]، ومن الصناعات لتي لقيت رواجا في عكا الصناعات المغذية لقطاع البناء، مثل صناعة الموزاييك المزين بالزهور ورسوم الحيوان والطير، كذلك صناعة الأثاث المنزلي ذي الطابع الشرقي الفخم[٤]، الذي صبغ بصبغة مسيحية، ومما لا شك فيه أن جل الصناع كانوا من المواطنين الشرقيين مسيحيين ويهود ومسلمين.

---

(١) كاهن، الشرق والغرب، ص٢٢٦؛ براور، عالم الصليبيين، ص١٤٥؛ لطيفة البوعنين، الحياة الاقتصادية، ص٢٤٧. وأيضاً: Holmes , Life among the European, p.13

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص٢٥٢. راجع أيضاً: براور، عالم الصليبيين، ص١٤٥؛ عفاف صبرة، علاقة البندقية بمصر والشام، ص١٤٣؛ حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص٢١٦؛ لطيفة البوعنين، المرجع السابق، ص٢٥٠. وأيضاً:

Holmes, op. cit., p.13.

(٣) Benjamin of Tudela , The Itinerary of Benjamin OF Tudela, trans. By Marcus Nathan , (London , 1907), p.30. Cf. also, Holmes, " Life among the European", p.15.

راجع أيضاً: عفاف صبرة، المرجع السابق، ص٢٥٣-٢٥٤.

(٤) براور، عالم الصليبيين، ص١٤٤، ١٥٥.

http://www.al-maktabeh.com

أما الصناعات الفخارية فإنها راجت وكثر تصديرها حتى وضع لها بند خاص في قائمة جمارك ميناء عكا، فقد نص القانون على أن تدفع ربع قيمة الفخار المصدر من عكا أما المستورد فيدفع ٢ كاروبل فقط[١]، ولعلنا نتلمس من هذا الرسم الجمركي انتعاش تصدير في الفخار المدينة مما يشي بالجودة العالية لصناعة الفخار مما أدى إلى ارتفاع أسعاره بشكل دفع الحكومة إلى رفع الرسم الجمركي. كذلك نشطت صناعة الخزف المطلي بالمينا[٢].

كما نشطت الصناعات الجلدية معتمدة على قطعان الماشية التي كانت ترعى في مراعي عكا، وتركزت الصناعات الجلدية في ضاحية مونتمزارد Montmusard [٣]، كما لقيت صناعة السكر رواجاً كبيراً[٤]، وكذلك صناعة المنسوجات القطنية والحريرية والكتانية[٥]، بالإضافة إلى صناعة الزيوت وبخاصة زيت الزيتون في ظل اتساع مزارع الزيتون والسمسم في ظاهر عكا، وارتبط بصناعة الزيوت صناعة الصابون[٦]. أما صناعة الخمور، فقد وجدت على نطاق واسع في ظل إقبال الصليبيين عليه باعتباره مشروبهم الأول[٧]،كما ازدهرت صناعة المربي التي اعتمدت على كثرة الفواكه مثل الخوخ[٨].

أما صور فاشتهرت منذ القدم بالصبغة الأرجوانية التي تستخرج من أصداف البحر وتستخدم لصبغ الملابس باللون الأراجواني، وتركزت في يد اليهود الذين عملوا بها[٩]،

---

(١) Livre des Assises de Jrusalem, Tome I, pp.173-181.

وقد اعتمدنا على الترجمة العربية لدى: حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص٢٤٩.

الكاروبل، يعادل ٢٤/١ من البيزنت. انظر: حاتم الطحاوي، المرجع السابق، ص١٦١.

(٢) هايد، تاريخ التجارة، جـ٢، ص١٩١؛ لطيفة البوعنين، الحياة الاقتصادية، ص٢٥٨.

(٣) لطيفة البوعنين، المرجع السابق، ص٢٥٩.

(٤) Burchard of Mount Sion , p. 99.

(٥) زنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٠٣؛ كاهن، الشرق والغرب، ص١٧٣.

(٦) لطيفة البوعنين، المرجع السابق، ص٢٦٦.

(٧) Richard , " Agricultural" , p. 260.

(٨) Burchard of Mount Sion , p. 100 .

(٩) وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٣، ص٢٣؛ جاك دي فيتري، تاريخ مملكة بيت المقدس، ص١٨١.

انظر أيضا: Benjamin OF Tudela, The Itinerary of Benjamin, p.30.

راجع أيضاً: هايد، المرجع السابق، ص١٩٠؛ أحمد عبد الله، التجارة، ص٩٢.

مكتبة المهتدين الإسلامية

بجانب شهرتها في تصنيع الأقمشة الحريرية وأنواع من القماش الأبيض الفاخر الذي صنع بغرض التصدير[١]، كما ازدهرت بها مصانع الزجاج بفضل البنادقة الذين ربحت تجارتهم من الزجاج، ومن ثم عملوا على نشر مراكز تصنيعه، وبخاصة أن صناعة الزجاج في صور كانت من الصناعات المتوطنة منذ عهد الفينيقيين[٢].

كما وجد في صور أكبر مضرب للعملة في الإمارات الصليبية، والذي كان يقلد العملة الفاطمية ويزينها بالرسوم المسيحية[٣]، كما ازدهرت صناعة السكر التي ارتبطت بمنطقة الإنتاج الرئيسة حول صور ومن ثم فقد كثرت معاصر القصب بصور لصناعة السكر كما وجدت بالقرب من عكا وصيدا[٤]، كما كثرت مصانع الخمور المعتمدة على ما تغله مزارعها من الكروم[٥]، وازدهرت بها صناعة العطور[٦]، ولم تخل من مصانع الفخار متعددة الأشكال حسب الحاجة والغرض[٧]، وكذلك تجفيف الأسماك التي غدت صور من مراكزها الرئيسة.في ظل ضخامة كمية ما يتم صيده من أسماك[٨].

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، جـ١، ص٣٦٥-٣٦٦. راجع أيضاً: هايد، المرجع السابق، ص١٩٠؛ أسامة سيد علي، ص ٢٠٦.

(٢) وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٣ ؛ ص٢٣؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٣٦٥. وأيضاً: هايد،المرجع السابق، ص١٩١؛ عفاف صبرة، علاقة البندقية بمصر والشام، ص٢٥٣؛ حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص٢١١ ؛ محمد مخزوم، جبل عامل. وأيضاً:

Holmes, Life among the European, p.14; Archer , the Crusades, p.299; Archer , the Crusades, p.299.

(٣) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، جـ١، ص٢١٧. وأيضاً: رأفت النبراوي، النقود الصليبية، ص٢٨.

(٤) وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٣، ص٢٣. وأيضاً:

Benjamin OF Tudela , p.30.

راجع أيضاً: براورر، الاستيطان، ص٤٣٤.

(٥) Richard , " Agricultural" , p. 260.

(٦) صفاء عثمان، مملكة بيت المقدس، ص٢١٢.

(٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، جـ١، ص٣٦٦. وأيضاً: Archer, The Crusades, p.299.

(٨) مهجة السيد، العلاقات الاقتصادية، ص١٦٢.

http://www.al-maktabeh.com

أما عن صيدا فوجد بها مصانع الخمور والسكر، والحُصر المزين بالنقوش والزخارف، وإنتاج زيت الزيتون والزبيب وبالطبع الخمور المعتمدة على الكروم، بالإضافة إلى تصنيع قماش الحرير(١). واشتهرت بيروت بالكثير من الصناعات مثل الصناعات التي تعتمد على الحديد كالمسامير والأنابيب والصهاريج، وذلك في ظل كثرة الحديد في جبل لبنان(٢)، بجانب صناعة الحصر(٣).

هكذا أوضحنا ما تمتعت به المدن الصليبية من توفر العديد من الصناعات بفضل ما توفر من خامات وقوى محركة اعتمدت على الحيوان والإنسان وقوى الرياح، تلك الصناعات التي توطنت في مدن الساحل الشامي منذ زمن بعيد سبق الغزو الصليبي، ولما جاء الصليبيون فإنهم وجدوها صناعات مستقرة وأكثر تطوراً مما لديهم من صناعات مثيلة، ومن ثم فإنهم نشطوا في تنميتها وتطويرها ومنهم من نقلها إلى بلادهم الأم، وبالرغم من كل ذلك لم يستفد الصليبيون في مملكة عكا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر من الصناعة إلا القليل ويرجع ذلك إلى عدة عوامل نجملها فيما يلي:

يأتي نقص الخامات في مقدمة تلك العوامل؛ فمما لا شك فيه أن الصناعة الصليبية عانت من نقص الخامات في مملكة عكا وبخاصة بعد سنة ٦٤٨هـ(١٢٥٠م)، وترجع جذور ذلك إلى خسائر الصليبيين من جراء فتوح صلاح الدين عقب موقعة حطين، إذ مثلت البلاد التي فتحها صلاح الدين مصدرا مهماً للكثير من الخامات، فقد كانت المناطق المحيطة ببيت المقدس مصدراً لخامات الصابون، كما كانت أيضاً مصدراً لعدد من أنواع الأحجار المهمة للعمران والتشييد، ناهيك عن محاجر مدينة صفد والغابات التي كانت تحيط ببيروت، وكانت من أهم مصادر الأخشاب الجيدة لصناعة الأخشاب بجانب أبراج القتال(٤).

---

(١) رحلة ابن بطوطة، جـ١، ص٥١. انظر أيضاً:

Burchard of Mount Sion , p. 101. Cf. also, Richard , " Agricultural" , p.160.

راجع أيضاً: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٠٣.

(٢) Holmes," Life among the European" , p.13 ; Archer , The Crusades, p.299.

(٣) رحلة بن بطوطة، جـ١، ص٥١- ٥٢؛ ناصر خسرو، سفر نامه، ص٦٠. راجع أيضاً: رنسيمان، المرجع السابق، جـ٣، ص٦٠٣.

(٤) علي السيد علي: العلاقات الاقتصادية، ص١٢.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وكانت خسائر القطاع الزراعي تنعكس بالسلب بصورة مباشرة على القطاع الصناعي في ظل دمار محصول العنب أو الكروم من جراء أي هجمة مملوكية، وبات ذلك واضحاً في عهد الظاهر بيبرس الذي كثف هجماته على المناطق الريفية المحيطة بالمدن - كما أشرنا في دراسة أسباب تدهور الزراعة، وفي ظل حالة الحرب فإنه صار من الصعب السماح للتجار بنقل الخامات من مصادرها التي سيطرت عليها الدولة المملوكية إلى المدن الصليبية.

وإضافة إلى ذلك عانت الصناعة من نقص الأيدي العاملة - مثل الزراعة - وذلك أن جل الصناع كانوا من المسلمين والمسيحيين المحليين واليهود، بجانب عدم إقدام الحجاج الجدد على تعلم تلك الصناعات، وسرعان ما رحل من أقبل عليها مثل البنادقة إلى بلدهم الأم ليقيموا فيها مصانع تنتج منتجات الشرق لبيعها إلى الغرب بأسعار عالية يكون فيها هو الرابح[١]، بدلاً من تحمل عناء الاستيراد من الشرق ومخاطر النقل وتكاليفه، وقد مثل هذا النقص سبباً في فشل محادثات الهدنة بين الصليبيين والظاهر بيبرس عام٦٦٢هـ(١٢٦٣م) حين رفض الداوية والاسبتارية إطلاق سراح ما عندهم من الأسري نظراً لإتقانهم العديد من الحرف، ومن ثم رفض الظاهر توقيع الهدنة وفشلت المفاوضات[٢].

وبالطبع لو كان لدى الداوية والاسبتارية بديل من الأوربيين أو حتى المسيحيين المحليين لما ترددوا في مبادلة الأسرى وبخاصة أن الهدنة سوف توفر لهم الأمن الذي تزدهر في ظله الزراعة والصناعة والتجارة، ولكن يبدو أن الداوية والإسبتارية كانت أرباحهم مما تدره الصناعات التي يقوم بها الأسرى من المسلمين ضخمة بشكل يجعلهم يرفضون صلح السلطان بيبرس، ذلك الصلح الذي يفقدهم الأيدي العاملة التي هم في أشد الحاجة إليها. وهناك أمر آخر أسهم في نقص الأيدي العاملة ألا وهو وجود قبرص التي عمل ملوكها من آل لوزجنان على رفع كثافة السكان بها فقاموا ببذل الإقطاعيات والامتيازات لمن يذهب للإقامة فيها مما أدى إلى توجه كثير من الصليبيين إليها - جدد وقدامى - حيث الغنيمة بلا مغرم[٣].

(١) عفاف صبرة، علاقة البندقية بمصر والشام، ص٢٥٦.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١١٨؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٤٥.

Richard, The Crusades, p.416.

(٣) مجهول، ذيل وليم الصوري، ص٢٢٣؛ رايلي سميث، الاسبتارية، ص١٥٢.

http://www.al-maktabeh.com

ولم يقل اضطراب الأمن أهمية عن العوامل السابقة، فقد كان عدم الاستقرار الأمني شديد الخطورة على الصناعة، مما سبب حالة من عدم الاستقرار تفشت فيها السرقات وارتفعت فيها معدلات الجريمة، وكثر السلب والنهب بشكل جعل استمرار الصناعة أمراً من الصعوبة بمكان، وقد تعددت الأسباب التي وقفت وراء تدهور الأمن في المدن الصليبية في مملكة عكا[١]، ويتصدرها ضعف السلطة الملكية وهي سمة النصف الثاني من القرن الثالث عشر كما أوضحنا في الفصل الأول في ظل غياب صاحب الحق الشرعي وترك الأمر إلى الأوصياء الذين شغلوا بمصالحهم عن مصالح المملكة ومن ثم غاب الأمن[٢].

بالإضافة إلى الطائفية التي تميزت بها المدن الصليبية حين تجمع كل جماعة تنتمي إلى عرق معين أو هيئة معينة في قسم خاص بها[٣]، وهو أمر صار معه تحقيق الأمن أمرا مستحيلا فصار مرتكب الجريمة يفعلها في حي فإذا فر بجريمته إلى حي آخر لا يستطيع أحد القبض عليه وعقابه في ظل غياب السلطة العليا الممثلة في الملك. ومن نماذج عدم استتباب الأمن حالة الاضطراب التي شملت المملكة أثناء تواجد فردريك الثاني فيها من جراء الحرمان الكنسي الذي أثار عليه أهل عكا، مما أدى إلى صدام مسلح داخل المدينة، كذلك المشاكل التي واجهتها المملكة من جراء الصراع بين هيو الثاني ونواب شارل أنجو الذي مزق المملكة بين مؤيد لهذا أو لذاك[٤]، ودليل آخر على حالة عدم الاستقرار الأمني التي ألمت بالمملكة ككل وبالعاصمة عكا على وجه الخصوص ما حدث عام ٦٨٩هـ(١٢٩٠م)، من اعتداء الوافدون الجدد من صليبي أوربا على المسلمين في المدينة دون أن تستطيع شرطة المدينة فعل شيء، حتى نقضت الهدنة التي طالما حاول الصليبيون الحفاظ عليها[٥].

---

(١) L'Estoire d'Eracles. p.444.

(٢) راجع الفصل الأول، ص ٤٥.

(٣) محمد مؤنس عوض، "أضواء علي مستوطنة البيرة الصليبية"، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٦٦.

(٤) راجع الفصل الأول، ص ٧٠.

(٥) Ludolph von Suchem:'s. Description of the Holy land, pp.54-57.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وكان للصراعات البينية التي استعر أوارها في النصف الثاني من القرن الثالث عشر دور مهم فيما آلت إليه الصناعة، وأكبر هذه الصراعات حرب القديس سابا ٦٥٤-٦٦٠هـ (١٢٥٦-١٢٦٢م) التي بدأت في عكا بين الجنوية والبنادقة ثم تحزبت القوى في المملكة بين مؤيد لهذا أو لذاك، ثم امتدت بصورة تدريجية إلى باقي المعاقل الصليبية حتى انتشرت الحرب في سائر نواحي المملكة، وضاع خلالها الأمن والاستقرار داخل المدن الصليبية مما أفضى إلى شبه توقف للإنتاج الصناعي في تلك المعاقل، وخسر الصناع منتجاهم ودمرت الآلات المستخدمة في التصنيع وهُبت معارضهم(١).

وآخر هذه العوامل هو الفتوح المملوكية، فمما لاشك فيه أن الفتوح المملوكية أضرت بالقطاع الصناعي مثلما أضرت بالقطاع الزراعي، على غرار ما حدث من فتوح صلاح الدين التي فقد من جرائها الصليبيون عدداً كبيراً من المراكز الصناعية ومصادر المواد الخام مثل مصانع الخمور في القدس ومستعمرة ألبيرة والجليل الأدنى ومعاصر الزيتون وخامات الأملاح التي كانت تجلب من البحر الميت(٢)، كذلك أدت الفتوح المملوكية إلى خسارة معاصر الزيتون في المدن الساحلية التي كانت تُدار بواسطة الإنسان والحيوان(٣)، ومصانع السكر وإنتاج الزيتون وغيرها وكان كل فتح مملوكي جديد يمثل خسارة جديدة لقطاع الصناعة.

يتضح مما سبق حدوث تراجع صناعي، كما وضح تركز معظم الصناعات في عكا، مما يشي بالطابع المركزي للصناعة في المملكة، وهو ما يعني أن كل تهديد تتعرض له مدينة عكا كان يترك أثراً سلبياً على الصناعة فيها، وكان أمر توقف الصناعة أو بطء الإنتاج يعني توقف أو قلة العائد من الصناعة في صورة ضرائب على المنتجات وجمارك على ما يتم تصديره وهو ما ينعكس مباشرة على قدرة المملكة في الدفاع عن نفسها.

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن حرب سان سابا ونتائجها انظر الفصل الثالث ص ١٦٠.

(٢) صفاء عثمان، مملكة بيت المقدس، ص٢١٠.

(٣) براور، الاستيطان، ص٤٣١.

http://www.al-maktabeh.com

- تقلص عائدات التجارة:

حرص ملوك الصليبيين منذ فجر عهدهم في فلسطين على تنشيط التجارة، ليس للعائد الاقتصادي فحسب، بل لاعتبارات كثيرة أهمها أن سفن الجمهوريات التجارية الإيطالية مثلت منذ البداية وسيلة النقل الأساسية بين الساحل الشامي وأوربا - موطن الصليبيين الأصلي ومصدر نجدهم في أوقات المحن - وعلى هذا الأساس منحت الجاليات الإيطالية امتيازات واسعة في مدن الصليبيين عموماً والمدن الساحلية خصوصاً[١].

وصارت مملكة بيت المقدس الثانية - وبالتحديد في منتصف القرن الثالث عشر - عبارة عن شريط ساحلي ضيق من يافا حتى نهر الكلب شمال بيروت[٢]، وفقدت كل الأراضي التي كانت تمتلكها في العمق وما تدره من عائدات، وغالباً ما صار هذا الشريط عرضة للتهديد من قبل المسلمين بشكل مستمر من جهة البر، وبالتالي تضاءلت أهمية الزراعة التي كانت الخاسر الأول من هجمات المماليك التي تنعكس بشكل مباشر على القطاع الصناعي، ومن ثم فقد غدت التجارة أهم قطاعات الاقتصاد الصليبي على الإطلاق في وقت لم يكن لدى المسلمين فيه أسطول قوي يطاول الأساطيل التجارية الإيطالية[٣]، فبقي البحر صمام الأمان والملجأ والملاذ للصليبيين الأواخر، كما كان لأسلافهم الأوائل.

وكانت مدن المملكة الرئيسة عبارة عن موانئ ومراكز تجارية، غير أنها تفاوتت في أهميتها التجارية تبعاً لعدة اعتبارات في مقدمتها موقع المدينة الجغرافي الذي حدد أهمية المدينة من الناحية التجارية، فعكا تتمتع بموقع ممتاز على ساحل البحر المتوسط بين صور في الشمال وحيفا في الجنوب[٤]، ومن ثم فإنها صارت منفذ دمشق على البحر وموئل تجار اليمن، كما

---

(١) هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص١٤٩.

(٢) نفسه، جـ١، ص٣٢٦؛ رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص١٤٦.

(٣) حاول الظاهر بيبرس بناء أسطول مصري يستطيع منافسة القوة البحرية الصليبية التي تكونت أساساً من قوات الجاليات الإيطالية في الساحل، وفعلاً تم بناء عدد لا باس به من السفن الحربية غير أنها جميعاً تعرضت للغرق حين حاولت غزو قبرص عام ٦٦٩هـ(١٢٧١م). انظر: المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص٥٩٤؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٣٨٧؛ إبراهيم سعيد، البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٨٤-٢٨٥.

(٤) أسامة سيد علي، الساحل الشامي، ص١٩٢؛ لطيفة البوعنين، الحياة الاقتصادية، ص٢٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كانت تمثل نهاية طرق التجارة العالمية من آسيا الوسطى إلى سواحل البحر المتوسط[١]، وكان معظم الحجاج والتجار الوافدون من الغرب يؤثرون النزول بها[٢]، وهو أمر لم يتيسر لباقي مدن المملكة الرئيسة مثل صور ويافا وصيدا وبيروت.

كما كانت طبيعة الميناء وقدرته الاستيعابية على استقبال السفن عاملاً مهماً أيضاً، وفي هذا المضمار أيضاً كانت عكا تقف في الصدارة، في ظل تضاريس الشاطئ الذي تميز بأنه لم يكن عميقاً، كما تمتع الميناء بالحماية الطبيعية من الشمال والجنوب والشرق مما ضمن رسواً آمنا للسفن وربحاً مؤكداً للتجار[٣]، فقد بلغت سعة مينائها ثمانين سفينة، حسبما ذكر الرحالة ثيودريك[٤]، كما أفاض الرحالة المسلم ابن جبير[٥] في مدح عكا والتحسر على كونها في يد الصليبيين.

أما ميناء صور فكان من أحسن موانئ الشام بحيث ضُرب به المثل في الحصانة لكونه شبه جزيرة، كما تميز الميناء بالسلسلة التي تمتد بين برجين لحماية الميناء من السفن المعادية وتنظيم دخول وخروج السفن، غير أن الميناء صعب استخدامه بسبب قرب الصخور من سطح الماء، وهو ما جعل أمر استخدام الميناء ليس بالأمر اليسير ويتطلب معرفة جيدة بتضاريس الشاطئ ومسارات السفن نحو رصيف الميناء[٦]، كما أننا كلما سرنا نحو الشمال اقتربت

---

(١) حاتم الطحاوي، "القانون البحري لمملكة بيت المقدس الصليبية، قراءة في مجموعة قوانين مملكة بيت المقدس"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجـ(٥٨)، عدد (٤)، أكتوبر ١٩٩٨، ص٤٨٢.

(٢) Anonymous Pilgrims , p.29.

(٣) وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٢، ص٢٣٤؛ حاتم الطحاوي، القانون البحري لمملكة بيت المقدس، ص٢٨٢.

(٤) Theoderich , Description of the Holy places , p. 60.

راجع أيضاً: أحمد عبد الله، التجارة، ص٤٩، ٥٨.

(٥) عنها قال ابن جبير"هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة والمشبهة بالقسطنطينية، مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من كل الآفاق". انظر: رحلة بن جبير، ص٢٥٢.

(٦) وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٣، ص٢٦؛ سانوتو، كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها، ترجمة الأب سليم رزق الله، مراجعة البروفسور بللغرينور ونكاليا والدكتور سمير الخادم، بيروت، ١٩٩١م، ص٢٤١. وأيضاً: Benjamin OF Tudela , p. 30.

http://www.al-maktabeh.com

الجبال من الشاطئ مما حد من سعة المدينة وقلل مسارات الطرق من المدينة وإليها، فتراجعت أهمية موانئ صيدا وبيروت وبقيت عكا أهم موانئ الساحل[١].

كما كانت الأهمية السياسية عاملاً مهماً في ارتفاع الأهمية التجارية لأي مدينة، ونظرا لكون عكا كانت عاصمة المملكة فقد تركزت فيها مؤسسات الحكم والإدارة، ولو قدر لها أن تفقد مميزاتها التجارية التي ذكرناها سلفاً مع بقائها عاصمة للمملكة لظلت تمتاز بالحركة التجارية مثل القاهرة والإسكندرية الآن، فالقاهرة عاصمة البلاد ومركز الحكم فيها ومن ثم يفد إليها كثير من الناس لمختلف الأغراض، وبالرغم من كون الإسكندرية ميناء مصر الأول فإن أهمية القاهرة التجارية لا ينكرها أحد على الصعيدين الداخلي والخارجي كذلك كانت عكا عاصمة المملكة وميناؤها الأول وأكبر مراكزها التجارية[٢].

ولعبت الظروف السياسية وسخاء الحكام دوراً كبيراً في تصاعد أهمية الميناء التجارية من عدمه، وعلى سبيل المثال مدينة بيروت تلك المدينة التي فقدت مكانتها التجارية بالنسبة للصليبيين عقب فتح السلطان صلاح الدين لها، لكن بمجرد استعادتها وما بذله حنا ابلين سيد بيروت الكبير Vieux sire de Baruth من منح سخية في المدينة للجاليات التجارية البندقية والبيزية والمرسيلية دور كبير في انتعاش التجارة الصليبية مرة ثانية في المدينة. في ظل خسائر هذه الجاليات في عكا بسبب تنافسها مع الجالية البيزية التي ارتفع نجمها في مطلع القرن الثالث عشرالميلادي[٣].غير أن مكانة بيروت تراجعت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر بعد تغلب الجنوية والبنادقة على البيازنة مما مكنهم من استعادة حقوقهم في عكا[٤].

= راجع أيضاً: أحمد عبد الله، التجارة، ص٩١.

(١) Acre , in C. E., on:
http//www.newadvent.org.cathen-04543c-htm\cathen\01110b.htm

(٢) أحمد عبد الله،المرجع السابق، ص٨٤.

(٣) هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص٣٢٦.

(٤) انظر الفصل الثالث ص ١٥٤.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ومما سبق يتضح لنا أن عكا كانت المركز التجاري الأول تليها صور ثم صيدا وأخيرا بيروت. وقد تعرضت التجارة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر لعدة متغيرات تركت آثاراً سلبية بعيدة المدى على التجارة في المملكة، في مقدمتها الصراعات بين الجاليات الإيطالية، إذ سيطر الإيطاليون منذ فجر الحركة الصليبية على تجارة الشرق اللاتيني بفضل الدور الكبير الذي قاموا به في استيلاء الصليبيين على هذه المدن، وعلى هذا حصلوا على امتيازات هائلة في جل المدن الصليبية بصفة عامة، والمدن الساحلية بصفة خاصة، وقد كان لهذه الامتيازات أثراً سلبياً على اقتصاد المملكة لأنها أدت إلى قلة العائد من التجارة ومن ثم ندر أن عمرت الخزينة الملكية بالمال(١).

وفي ظل أرباح التجارة الضخمة كان أمر التنافس بين الجاليات الإيطالية أمراً متوقعاً، وكان للتنافس وسائل كثيرة مثل التسابق في الحصول على الامتيازات التجارية في الموانئ الصليبية ووسيلتهم في ذلك مساعدة الصليبيين في فتح مدن الساحل(٢)، أو عقد المعاهدات مع حكام المسلمين الذين لم يستطيعوا قطع الصلة مع التجار الإيطاليين لنقل البضائع إلى أوربا، وحين نفذت الوسائل السلمية في التنافس التجاري فقد لجأ هؤلاء إلى الصراع المسلح(٣).

وكانت جنوة والبندقية كبرى الجمهوريات الإيطالية التي تاجرت مع الشرق، واستطاع البنادقة احتكار متاجر البحر الأسود في ظل المملكة اللاتينية التي قامت منذ ٦٠٠هـ (١٢٠٤م)، بالإضافة إلى ما تتمتع به في السواحل الشامية مما أثار حقد الجنوية وحفيظتهم

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٠٦.

ومن الجدير بالذكر أن مصلحة المدينة التجارية كانت فوق كل شيء فطالما ردد البنادقة على سبيل المثال "لنكن بنادقة أولا ثم بعد ذلك/مسيحيين"، أي أن مصلحة البندقية أولاً، وكذلك كل المدن التجارية وبعد تحقيق المصلحة ينظر في أمر الدين. عفاف صبرة، علاقة البندقية بمصر والشام، ص٥.

(٢) حول ذلك انظر: هايد، تاريخ التجارة، ص١٥٩–١٧٠؛ عفاف صبره، علاقة البندقية بمصر والشام، ص٢٢١.

Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1897, p.208.

(٣) Anonymous Pilgrims, p.49.

http://www.al-maktabeh.com

فاتجهوا إلى كسر هذا الاحتكار وحينما فشلوا في تحقيق مرادهم – من الصراع حول دير سان سابا ٦٥٤-٦٥٩هـ(١٢٥٦-١٢٦١م) في عكا والذي سعوا من ورائه إلى إحكام السيطرة على الميناء وبسببها تعرض الشرق اللاتيني للتمزق وتكبد القطاع الاقتصادي خسائر فادحة وبخاصة التجارة – فإنهم بحثوا عن وسيلة لضرب البنادقة في مقتل فلم يجدوا خيراً من القضاء على المملكة اللاتينية في القسطنطينية، فعقدوا اتفاقية نينفو Nenfeo التي تعهد فيها الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجوس (١٢٥٨-١٢٨٢م)[١] بمنحهم امتيازات واسعة ضمنت لهم السيطرة على تجارة البحر الأسود ووسط آسيا[٢].

وعلى هذا لم يعد الجنوية في حاجة إلى الموانئ الشامية – التي لم يبق لهم فيها سوي صور[٣] – التي صار للبنادقة الدور الأكبر فيها، ومن ثم آل إليهم احتكار تجارة آسيا الوسطى التي حتمت عليهم الارتباط مع المغول بعلاقات صداقة[٤]. وإمعاناً في ضرب تجارة البنادقة في الساحل فإنهم شنوا حملة على ميناء عكا عام ٦٦٥-٦٦٦هـ(١٢٦٧م) أوقعت خسائر فادحة بالميناء، ورد البنادقة على الهجوم بهجوم مماثل على صور معقل فليب مونتفرات حليف الجنوية[٥].

---

(١) عن ميخائيل باليولوجوس انظر : هسي، العالم البيزنطي، ص ٢١٢-٢١٧.

(٢) نصت اتفاقية نيفينو على أن يقدم الجنوية الدعم لميخائيل باليولوجوس سواء من الجنود أو قطع أسطول بلغ عددها ٥٠٠ قطعة حربية، على أن يدفع ميخائيل رواتبهم، ويتعهد بتقديم امتيازات تجارية ضخمة في أنحاء الإمبراطورية، وإعادة ممتلكاتهم في القسطنطينية التي انتزعها البنادقة منذ ١٢٠٤ وتسليمهم قلعة البنادقة في القسطنطينية وجزء كبير من ممتلكاتهم، والسماح لهم بإقامة مستعمرات صغيرة خاصة بهم في عدد من مدن الإمبراطورية، مع حظر السماح لأي سفينة غير السفن الجنوية والبيزية بدخول البحر الأسود. لمزيد من التفاصيل انظر:

هايد، تاريخ التجارة، جـ٢، ص٨٤-٨٦؛ مصطفي الكناني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، ص٣٥٩؛ الأمين أبو سعده، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والقوى الإسلامية في المشرق في عهد الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوج، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة طنطا، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص١٦٧-٨. انظر أيضاً:

Nicol (Donald), Byzantium and Venice, Cambridge, 1995, pp.176-177.

(٣) هايد، المرجع السابق، ص٣٥٥.

(٤) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦١٤.

(٥) هايد، المرجع السابق، جـ١، ص٣٥٧.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وهكذا صار أكبر الموانئ الصليبية مسرحاً للصراعات وتصفية الحسابات، والرابح من وراء ذلك كله الطرف الإسلامي، فكما صار الجنوية الشريك التجاري الأول مع الإمبراطورية البيزنطية فإنهم فعلوا الشيء نفسه حينما عقدوا مع مصر معاهدة في ١٣من مايو ١٢٩٠م(٢ من جمادى الأولى ٦٨٩هـ) التي حصلوا بمقتضاها على عدة مزايا أغنتهم عن الموانئ الشامية الصليبية كالتالي:

أولاً: حصلوا على بضائع الشرق الواردة عبر مصر بأسعار أرخص مما لو حصلوا عليها من الموانئ الشامية التي ترتفع أسعارها بسبب ارتفاع تكلفة النقل.

ثانياً: عدم إلزامهم بدفع أثمان السلع في صورة عملات ذهبية بالأمر كان مقايضة البائع بالعبيد والأخشاب[(١)].

وقد تركت هذه الصراعات آثاراً بالغة الخطورة على مملكة عكا، تمثلت في تراجع النشاط التجاري في الموانئ الصليبية بفعل عدم الاستقرار، علاوة على خسائر الخزانة الصليبية الفادحة من جراء تذبذب عائدات الجمارك التي كانت من أهم مصادر دخل المملكة في النصف الثاني من القرن الثالث في ظل تراجع العائد من القطاع الزراعي الذي كان في انهيار شبه تام على إثر الهجمات المملوكية المستمرة، وارتفاع معدلات البطالة بفعل تراجع الوارد من البضائع الواردة من الشرق إلى الموانئ الشامية التي صار للبنادقة اليد العليا فيها فعلاً، مما زاد من عدد الجرائم في وقت ازدادت فيه هجرة الفلاحين إلى المدن الصليبية مما عقد المشكلة وجعل السيطرة الأمنية في المدن الصليبية أمراً من الصعوبة بمكان. إضافة إلى ظهور ميل من القوى التجارية المتصارعة لمساعدة المسلمين في ضرب الوجود الصليبي في الساحل كما حدث عام ١٢٦٣م(٦٦١هـ) حين قرر بيبرس ضرب عكا، بعد وعد من الجنوية بمساعدته من البحر، وبرغم أن هذا الأمر لم يتم ربما خوفاً من انتقاد الرأي العام المسيحي أو يقظة ضمير لكن الجنوية ضربوا عكا بأنفسهم بعد ذلك عام ١٢٦٧م/ (٦٦٥هـ)[(٢)].

---

(١) مصطفى الكناني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، ص٣٠٥، ٤١٩-٤٢٤.

(٢) هايد، تاريخ التجارة ، جـ١، ص٣٥٦-٣٥٧.

http://www.al-maktabeh.com

وكان للمنح والامتيازات التي تحصل عليها الجاليات الإيطالية دور كبير في المشكلة الاقتصادية التي عانت منها المملكة، فقد حصلت الجاليات الإيطالية على كثير من المنح والامتيازات بفضل جهودهم في فتح مدن الساحل الشامي(١)، فقد حصل البنادقة والجنوية على إعفاء كامل من الجمارك ومن رسوم الإنتاج على المبيعات والمشتريات، وتبعهم بعد حين المرسيليين اعترافاً بخدماتهم(٢)، وبمرور الوقت أدرك ملوك الصليبيين خطورة هذه الامتيازات على اقتصاد المملكة، وبخاصة مع تصاعد المقاومة الإسلامية، وزيادة الحاجة إلى الأموال، ومن ثم مالوا إلى تقليص هذه الامتيازات، وكان الملك فولك أول من انتهج هذا النهج في تقليص تلك الامتيازات، ونجحوا في ذلك أحيانا وأحيانا فشلوا بسبب تدخل البابوية في الأمر(٣).

ولكن عقب حطين وفقدان كثير من بلدان الساحل وتزايد الحاجة إلى جهود المدن الإيطالية في الحملة الصليبية الثالثة وما جاء بعدها من حملات فقد تم تقديم مزيد من التنازلات لتلك المدن بما فيها إعادة حقوقها القديمة التي تمتعت بها قبل فتوح صلاح الدين،

---

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية ؛ جـ٢، ص٢٤٥، ٣٧٣.

(٢) Anonymous Pilgrims, p.29; Jacoby, "The Venetian Privileges in The Kingdom of Jerusalem", in Montjoie, p.160.

راجع أيضاً: هايد، المرجع السابق، جـ١، ص٣٤٣.

أورد وليم الصوري نص معاهدة بين كبار رجال المملكة حال أسر الملك بلدوين الثاني، ودوج البندقية عقدت في ذي الحجة ٥١٧هـ(فبراير ١١٢٤) الإعفاءات التي يتمتع بها البنادقة نظير المساعدة في مدن الساحل جاء فيها "أنه سوف يكون للبنادقة في كل مدينة من المملكة كنيسة خاصة بهم وشارع خاص بهم بأكمله، وكذلك يكون لهم ميدان وحمام ومخبز، يكون ذلك حق لهم يتوارثونه ولا يدفعون عن ذلك أبداً أي ضرائب"، كما جاء فيها "أما إذا باع البنادقة أو تسلموا أي شيء للمتاجرة فيه من أي شعب أجنبي عنهم ليس ببندقي فيؤذن لهم أن يأخذوا بالميزان الملكي وبثمن معلوم، ومن أجل هذه الامتيازات فليس على البنادقة أن يدفعوا أي ضريبة أيا كان السبب"، ومن نصوصها أيضاً "ونوافق ملك بيت المقدس أن تدفع لدوج البندقية من دخل صور يوم الاحتفال بعيد الرسولين بطرس وبولس ثلاثمائة قطعة بيزنطية شرقية سنوياً كما هو متفق عليه"، كما جاء فيها "لا يجوز لأي بندقي في جميع أملاك الملك أو في جميع أملاك باروناته أن يدفع أي ضريبة سواء في الدخول أو الإقامة أو في الخروج تحت أي حجة" "وأخيرا فإنه يكون للبنادقة ثلث مدينتي صور وعسقلان وملحقاتهما، وثلث جميع الأراضي المتصلة بذلك من يوم عيد القديس بطرس". وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٧٨-٣٨٤.

(٣) هايد، المرجع السابق ، جـ١، ص١٦٨.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ولم تتوقف الإعفاءات على الجنوية والبنادقة بل امتدت إلى غيرهم من الجاليات مثل البيازنة. وفي القرن الثالث عشر وبالتحديد بعد حملة لويس عانت الإمارات الصليبية من أزمة مالية خانقة لم تنته إلا بانتهاء الوجود الصليبي ككل، وكان من أسباب هذه الأزمة الامتيازات التجارية الإيطالية في الموانئ الشامية، فلم يستطع أحد المساس بالامتيازات الممنوحة للبندقية وبخاصة بعد خروجها منتصرة في حرب سان سابا[١]، كما تمسك الجنوية بما لهم من حقوق في ميناء صور تمثلت في ثلث إيرادات الميناء، بل إنهم حصلوا على نصيب من الرسوم المفروضة على بضائع الترنزيت المارة من الشرق إلى أوربا، وحصل ربابنة السفن الجنوية على إعفاء كامل من جميع الرسوم على الوصول والمغادرة وكذلك رسوم المبيعات والمشتريات[٢].

وكان للتوسع المغولي دور سلبي على التجارة الصليبية، إذ كان لبضائع الشرق سحر خاص في أوربا، إذ أقبل الأوربيون عليها إقبالاً كبيراً، ومن هنا اهتم التجار الإيطاليون بمصادر هذه التجارة وحققوا من ورائها أرباحاً هائلة. غير أن الأحوال السياسية طالما تركت ظلاً ثقيلاً على حركة التجارة، إذ ترتب على الغزو المغولي لمنطقة غرب آسيا قطع الطرق التجارية البرية بين آسيا وغرب أوربا، ومن ثم زادت أهمية طريق البحر الأحمر البحري[٣].

غير أن الأمر أخذ في التغير بعد تفتت الإمبراطورية المغولية الكبرى، وظهور الكيانات المحلية في البلاد التي اغتصبوها مثل الدولة الإلخانية في فارس ودولة المغول القفجاق في جنوب روسيا التي سعت إلى تنشيط التجارة بعد هدوء موجات التوسع ونقص العائدات من

---

(١) هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص٣٤٢-٣٤٣.

(٢) نفسه، ص، ٣٥٣.

(٣) مصطفي الكناني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، ص٢٩٨.

كانت طرق التجارة البحري من الهند إلى مصر والشام تبدأ من سواحل الهند الغربية حيث تسير السفن في المحيط الهندي حتى اليمن، ومن عدن تدخل البحر الأحمر حتى موانئ القصير وعيذاب والطور والسويس، وكانت الرحلة يمكن أن تسلك طريق آخر حين تدخل بحر فارس (الخليج العربي) حيث ترسو عند البصرة وتحملها القوافل مروراً ببغداد والموصل فحلب ثم الموانئ الشامية. راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥، ص٨٦.

http://www.al-maktabeh.com

الغنائم والمنهوبات، ومن ثم فإهم شجعوا التجار على استخدام الطريق البري ثانية عبر مواني البحر الأسود أو إلى إياس[١] في قليقية[٢]، ومن ثم لم تعد مصر هيمن على أرخص الطرق التجارية بين شرق آسيا وأوربا الغربية.

ولأجل تنشيط التجارة في ميناء إياس الأرمني فقد قام بوهمند بمنح البنادقة الامتيازات في بلاده عام ٦٦٩هـ (١٢٧١م) وذلك بحكم علاقته بالأرمن والمغول، ومن ثم صار ميناء إياس أهم الموانى التي تتكدس بها سلع الشرق بعد أن سيطر المصريون على معظم الساحل الشامي، ومن ثم هدد النشاط التجاري الأرمني – الذي يسانده بوهمند السادس – احتكار مصر للتجارة مع الشرق، وهو أمر لم يكن للظاهر بيبرس أن يسكت عنه، فجعل بلادهم وبلاد إمارة إنطاكية هدفاً دائماً لغاراته، ومع ازدياد تجارة آسيا إلى إياس تراجعت أهمية الموانى الصليبية رغم استمرر وصول التجارة إليها لكنها كانت في طريقها للزوال في ظل جهود المماليك التي لا تنقطع[٣].

وكانت الفتوح المملوكية أيضاً من أهم عوامل تراجع التجارة الصليبية في ظل استيلائهم على المعاقل الصليبية الساحلية مدينة بعد مدينة، فكلما فتح المسلمون مدينة خسر الصليبيون معقلاً تجارياً حتى أتى الأشرف خليل على آخر معاقلهم، ومن ثم لم يعد يرحب بتجار المدن الإيطالية في الأراضي المقدسة[٤].

---

(١) ميناء إياس: كان تابع لمملكة أرمينيا الصغرى علي الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، وقد مر مارك بولو الذي قال عنه "هي مكان تدور فيه تجارة ضخمة، ويكثر التجار من ارتياد مينائها، قادمين من البندقية وجنوة ومن أماكن أخرى كثيرة، وهم يتاجرون في التوابل وفي العقاقير المختلفة الأنواع، وفي منسوجات الحرير والصوف وغير ذلك من السلع الثمينة". انظر: مارك بولو، رحلات ماركو بولو، جـ١، ص٤٤.

(٢) هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص٣١٠.

(٣) حسين عطية، إمارة أنطاكية، ص٤٥٢-٤٥٣. وأيضاً:

Ziada, "The Mamluk Sultanas to 1293", in Setton, The History of Crusades, vol. II, p.654.

(٤) Abulfia (David),"Asia , Africa and the Trade of medieval Europe", in C.E.H., VOL. pp.458, 459 II, ed. Postman & Miller, Cambridge , 2nd edition, 1987.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وأخيراً منافسة الموانئ المصرية للموانئ الشامية، فقد حرص سلاطين المماليك على تنشيط التجارة لما فيها من فوائد لا تقتصر على البعد الاقتصادي وإنما امتدت إلى الجانب العسكري، فالتجار هم مصدر الرقيق الأبيض الذي كثر الإقبال عليه إكثاراً من المماليك، بجانب أن التجارة كانت مصدراً لكثير من المواد الخام المهمة في الحروب وبخاصة الأخشاب والحديد وغيرها من المواد التي تستخدم في تصنيع السلاح، وهي السلع التي حاولت البابوية منع وصولهما إلى مصر لأنها تستخدم في الأساس في حرب الصليبيين في الشام[١].

وقد ارتفعت القدرة التنافسية للموانئ المصرية لعدة أسباب، منها الإمتيازات التجارية الواسعة في تلك الموانئ، فعلى سبيل المثال حصلت تجارة الجنوية على إعفاء من الجمارك في حالة عدم بيعها في الموانئ المصرية، وحقهم في تصديرها دون أدنى عائق وبلا كلفة، وكان ذلك بخلاف الموانئ الصليبية التي فرضت رسوماً على البضائع المعاد تصديرها[٢] في حالة بيعها بدفع ١٢% على الحبوب و١٠% على باقي السلع، بجانب إعفائهم من الضرائب على السلع التي يجلبونها لاستعمالهم فيما بينهم مثل الخمور والجبن، كما أعفوا بالمثل من الضرائب على المعادن النفيسة مثل الذهب والفضة بشرط ألا تكون في صورة نقود؛ ففي هذه الحالة يدفع ٤,١٢% على كل مائة بيزنت، كما منحوا مخازن خاصة كفلت الحكومة حمايتها دون أي قيود من نقل البضائع منها أو إليها ماداموا ملتزمين بما أبرموه مع السلطان[٣].

ولم تقتصر الامتيازات على تجار جنوة بل حصل البنادقة على امتيازات كبيرة أيضاً مثل الإعفاء من رسوم العرصة (الأرضية) عند تفريغ السفن على الرصيف لحين فحصها وتقدير ما عليها من جمارك[٤]، وكذلك من الرسوم المفروضة مقابل فحص البضائع في مكتب

---

(١) هايد، تاريخ التجارة، جـ٢، ص٣٥،٣٤.

(٢) نفسه، جـ١، ص٣٤٢.

(٣) مصطفى الكناني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، ص٣٢٧.

(٤) Traite entere la Republiquw de Vinice et le Sultan d'Egypte Malec-Moezz Iibek, in Traites de Paix et de Commerce et Documents Divers, ParDe Mas Latrie, Paris, 1872, p.77.

http://www.al-maktabeh.com

الجمرك، وإعفاء الموظفين الإداريين من ضريبة الرأس[١]، وحرية البنادقة في الشراء أو البيع لمن يريدون دون تدخل الحكومة المملوكية، وعدم فرض أي ضرائب مقابل عمل المترجمين والسماسرة[٢].

وبالإضافة إلى عامل الامتيازات فقد وجد عامل آخر وهو انخفاض تكاليف النقل من وإلى الموانئ المصرية، فعلى سبيل المثال بلغ أجر السفر بين الإسكندرية وجنوة ١٥٦ ليرة جنوية، في حين بلغت نظيرتها من جنوة إلى عكا ٣٠٠ ليرة[٣]، ولا شك أن المسافة من سواحل مصر إلى إيطاليا أقصر من مثيلتها إلى الشام. كما كان لقوة حكومة المماليك دور في تنشيط التجارة المصرية على حساب التجارة الصليبية، إذ ضمنت قوة الحكومة تنفيذ المعاهدات التجارية واستقرار الأمن وحرية التجار في إطار المعاهدات المعقودة[٤].

ومن الإجراءات الأمنية التي اتبعت إغلاق المحال التجارية الأجنبية في يوم الجمعة تجنباً لإثارة مشاعر عامة المسلمين، علاوة على وضع حراس مصريين على المخازن والمرافق المهمة[٥]، ولا شك أن هذه الحراسة كانت ذات هدفين: الأول حماية المصالح الأجنبية، والثاني التأكد من تنفيذ بنود المعاهدة بين السلطان والجالية. وفي حالة انتقال موظف من الجالية إلى القاهرة في أمر من الأمور فإن الحكومة كانت حريصة على توفير الحراسة في الذهاب والإياب[٦].

ولم يقتصر الأمر على انخفاض تكاليف النقل بل تعداه إلى انخفاض أثمان كثير من البضائع الآسيوية التي كانت ترد إلى مصر عن مثيلاتها في الموانئ السورية، وفوق ذلك الحصول

---

(١) هايد، تاريخ التجارة ، جـ٢، ص٦٢، ٦٤.

(٢) Traite entere la Republiquw de Vinice et le Sultan d'Egypte Malec-Moezz Iibek, p.78, 80..

(٣) مصطفي الكناني، المرجع السابق، ص٣٧١.

(٤) Traite Entere la Republiquw de Vinice et le Sultan d'Egypte Malec-Moezz Iibek, p.78.

(٥) هايد، تاريخ التجارة، جـ٢، ص٦٣.

(٦) نفسه، ص٦٩.

مكتبة المهتدين الإسلامية

مباشرة على البضائع المنتجة في مصر زراعية كانت أو صناعية بشكل مباشر دون وسيط[١].

وأخيراً تدابير الحكومة لراحة التجار الأجانب مثل السماح لهم بملكية كل جالية من الجاليات لفندق أو أكثر، وبجانب عدد من المخازن وكنيسة وحمام وفرن، والسماح لهم بالخمور في داخل الفنادق فقط[٢]، مع اتخاذ الإجراءات حيال ما يسبب الضيق للجالية مثل إزالة مصادر التلوث كما ورد في اتفاقية مع الملك المعز أيبك ٦٥٢هـ(١٢٥٤م) بإزالة سوق للسمك المجاور لأحد خانات البنادقة[٣].

ويؤكد فرضية ارتفاع القيمة التنافسية للموانئ المصرية على حساب الموانئ الشامية ما ورد في سجلات جيوفاني سكريبا التي جمعت نحو من ألف وثلاثمائة اتفاقية بين جنوة والعالم، منها ١١٢ معاهدة تخص الشرق، فجاءت ٥٨ معاهدة مع الإسكندرية، ٣٤ مع ساحل الشام و٢٠ اتفاقية مع بيزنطة[٤]، وهذا يعني أن مصر وحدها حظيت بـ٥١ % من جملة تلك الاتفاقيات. وبالرغم من أن هذه الإحصائية تعود إلى القرن الثاني عشر فإنه لها دلالة قوية على ما فرضناه، ففي القرن الثالث عشر وبالتحديد في النصف الثاني منه تراجعت قوة جنوة التجارية في الساحل الشامي لما ذكرناه من منافسة البندقية لها، وهو ما جعلها تعول على الموانئ المصرية والبيزنطية.

ولعلنا نتلمس الضعف الاقتصادي لمملكة عكا في مسألة العملة[٥]، ولا يرجع ضعف العملة الصليبية إلى القرن الثالث عشر فحسب بل إلى القرن الثاني عشر أيضاً، ففي البداية

---

(١) Traite Entere la Republiquw de Vinice et le Sultan d'Egypte Malec-Moezz Iibek, p.78.

(٢) هايد، المرجع السابق، جـ٢، ص٦٢.

(٣) معاهدة تجارية بين البندقية وسلطان مصر الملك المعز أيبك، ص٢٨٢.

(٤) مصطفي الكناني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، ص٣٧٠.

(٥) لقيت العملة الصليبية اهتماماً كبيراً في الغرب والشرق علي حد سواء، ومن أول الدراسات الغربية:

De Saulcy, Numismatiqe des Croisades, (Paris, 1847); Schlumberger, Numismatique de L'Orient Latin, (Paris , 1878).

http://www.al-maktabeh.com

تداول الصليبيون البيزنتات البيزنطية والدنانير الفاطمية، ثم حاول ملوك الصليبيين الأوائل استكمال سيادتهم بسك العملة، وهو أمر احتكره الملوك وفرضوا عقوبة مشددة على البارونات الصليبيين في حالة مخالفة هذا الحظر، مؤداها انتزاع إقطاعياتهم[١]، وكان أول من سك العملة الملك بلدوين الثاني[٢].

ويبدو أن نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين قد ساعد على زيادة الضغط على الملك حتى سمح بإنشاء دور لسك العملة في كبرى الإقطاعيات، حتى إذا دون حنا ابلين في منتصف القرن الثالث عشر قائمته عن المحاكم ذكر فيها عدداً كبيراً من الإقطاعيات والمدن التي سمح لها بسك العملة، وقد بقي من هذه الدور في مملكة عكا بعد ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) حسبما ذكرت القائمة: كونت يافا، كونت يابنة وأمير الجليل، وإقطاع الشقيف أرنون، وإقطاع أرسوف، وإقطاع حيفا، وصور، وتورون، وبيروت[٣]. ولم تذكر القائمة حق عكا في سك العملة بالرغم من أن المدينة كانت عاصمة للملكة، وأثبتت الكشوف الأثرية والدراسات الحديثة وجود دارين لضرب العملات في عكا، أولهما لسك العملات المقلدة للعملات العربية والأخرى لسك العملات المحلية[٤].

وجل العملات التي ضربها الملوك المتعاقبين حتى ٦٤٨هـ(١٢٥٠م) كانت تقليدا للعملات الإسلامية تقليدا غير متقن[٥]، فعلى سبيل المثال قلد الصليبيون الدينار الذهبي

= كما لقيت العملة الصليبية اهتماماً كبيراً من الدارسين العرب ومن الدراسات الرائدة في هذا المجال انظر:رأفت النبراوي، النقود الصليبية في مصر والشام، دار نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٩٦م. الذي صحح كثير من الحقائق حول العملة الصليبية التي تناقلها الباحثون بالرجوع إلى الدراسات الغربية، كما تعرضت الرسائل الجامعية لأمر العملة الصليبية، وعلى سبيل المثال لا الحصر: حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص١٥٩-١٧١؛ أحمد عبد الله، التجارة في الساحل الشامي، ص ٢٠٦-٢٢٠.

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦١٨. وأيضاً:

La Monte, Feudal Monarchy, p.174.

(٢) حاتم الطحاوي، المرجع السابق، ص١٦١.

(٣) John d'Iblin, Livre des Assises, pp.603-605.

وانظر أيضاً: حاتم الطحاوي، المرجع السابق، ص٢٤٢-٢٤٤.

(٤) رأفت النبراوي، النقود الصليبية، ص٢٦٨-٢٧٠.

(٥) نفسه، ص٢٨٠.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفاطمي الذي كان وزنه الأصلي ٤,٢٥ جرام من الذهب الخالص، وجاء نظيره الصليبي المقلد أخف وزنا لم يزد عن ٣,٧ جرام، ونسبة الذهب فيه لا تزيد عن ٧٥% ، والتقليد ظاهر لكل ملم بأبسط مبادئ اللغة العربية، فلم تكن الحروف العربية التي نقشت عليه سوى شرائط عمودية ودوائر يصعب التعرف على ما تشير إليه، ومرجع ذلك إلى جهل من سك تلك العملات باللغة العربية(١).

وحين حل لويس في مملكة عكا عقب فشل حملته في مصر، فإنه جلب معه عملات من فرنسا سكت باسمه، غير أنه لم يستمر على ذلك طويلاً، إذ تحول إلى استخدام العملات المسكوكة في الشرق الفرنجي مثل العملة التي سكها صاحب صيدا. وقد كثرت التفسيرات حول سبب هذا الاستخدام فقد حاول البعض تفسير ذلك برغبة لويس في تكريم صاحب صيدا، غير أن الأمر لم يكن أكثر من دلالة على نفاذ ما مع لويس من أموال حملها معه من فرنسا بعدما تعرض للفشل في حملتة على مصر، ولم يصله من فرنسا مدد كاف من الأموال.

ومهما يكن من أمر فلم يكن لويس سعيداً بانتشار العملات الإسلامية في المملكة الصليبية ومن ثم فقد شارك المندوب البابوي يودي الشتيوري Eudes de Chatearoux في إنكار ذلك الأمر ومن ثم فقد جنح صليبيو مملكة عكا عام ٦٤٨هـ(١٢٥٠م) إلى سك عملات مقلدة للعملات الإسلامية مع الإبقاء على مواصفات العملة كما هي، مع تغير العبارات إسلامية بعبارات مسيحية. هذا وقد عُثر على عدد من العملات يعود تاريخ سكها إلى الفترة ما بين ٦٤٨-٦٥٢هـ(١٢٥٠-١٢٥٤م) أي في فترة تواجد لويس في مملكة عكا(٢).

واستمر سك العملات الذهبية ذات العبارات المسيحية حتى عام ٦٥٥هـ(١٢٥٧م) حين أصبح المجال أكثر اتساعاً للعملات الفضية حتى نهاية الوجود الصليبي، ولعل تاريخ ١٢٥٧يقدم لنا دلالات خطيرة على أثر الصراعات الداخلية في الاقتصاد الصليبي، ففي

---

(١) نفسه، ص٣٨.

(٢) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص٣٢٧-٣٣٠.

http://www.al-maktabeh.com

ذلك العام كان الصراع على أشده في عكا بين الجاليات الإيطالية الذي بدأ حول دير سان سابا، وكانت هذه العملات الفضية أيضاً مقلدة عن عملات إسلامية، وكانت نسبة الفضة بها فاضحة للاقتصاد الصليبي، فقد عُثِر على عملات فضية نسبة إلى الملك حنا دي برين تعود لفترة ما بعد الحملة الصليبية الخامسة على دمياط لم تزد نسبة الفضة فيها عن ٢٠,٣% أو ٢٢%، فما بالنا بما سك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، في وقت كان الاقتصاد ككل فيه في حالة تدهور كما بدا لنا(١).

وكان لتفشي ظاهرة سك العملة المزيفة أثرٌ سلبيٌ على الاقتصاد الإسلامي، ففي عام٦٥٦هـ (١٢٥٨م) اشتكى قطب الدين اليونيني من جراء انتشار الغلاء وارتفاع الأسعار وأوضح أن سبب ذلك الدراهم التي سكها الصليبيون، والتي لم تتعد نسبة الفضة فيها ١٥% والباقي من النحاس، مما أدى إلى كثرة الدراهم في أيدي الناس فأخذوا في الشراء على نطاق واسع خوفاً من قيام الحكومة الإسلامية بإلغاء التعامل بها، فارتفعت الأسعار ارتفاعاً جنونياً بلا مبرر مما أضر بالاقتصاد الإسلامي(٢)، وبالطبع تأثر الاقتصاد الصليبي من جراء التعاملات المستمرة مع المسلمين.

ومجمل القول أن العملات الصليبية كانت قليلة القيمة مقارنة بالعملات الإسلامية، كما لم تكن جيدة الصنع، ولم تضرب في دور سك ذات قدرات تقنية عالية بمقياس عصرها، ومرجع ذلك إلى الوضع الاقتصادي الحرج للمملكة الصليبية، بجانب منافسة دور السك في الإمارات الصليبية لدار السك في مملكة بيت المقدس في المظهر، لكن الجوهر لم يكن ذا بال لديهم، أو لم يكن لديهم من الإمكانيات ما يساعدهم على ترقية مستوي العملة.

وخير دليل على التراجع الاقتصادي في المملكة ككل ما يجوز لنا أن نسميه بالقصور المالي(٣)، فلم يستطع الشرق اللاتيني أن يعتمد على نفسه بصورة كلية طوال النصف الثاني

---

(١) براور، الاستيطان الصليبي، ص٤٥٨-٤٦٦.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ص ٢٢٢؛ عبد الحافظ عبد الخالق يوسف، الأسواق في المناطق الصليبية في بلاد الشام في الفترة من ١٠٩٩-١٢٩١م (٤٩٠-٦٨٧هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٩، ص١٠٥.

(٣) جوناثان فليبس، الشرق الاتيني ١٠٩٨-١٢٩١م، ضمن كتاب، تاريخ أكسفورد للحروب الصليبية، حرير جوناثان رايلي سميث، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٢٠٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

من القرن الثالث عشر، ولم يحدث أن عمرت خزانة المملكة بالمال، فلم يدر ازدهار التجارة على الصليبيين إلا دخلا ضئيلاً في ظل تحول الموانئ الصليبية إلى ساحة للاقتتال بين الجاليات الإيطالية، وحتى لو ساد السلام فالعائد قليل أيضاً في ظل الامتيازات والإعفاءات التي تمتعت بها تلك الجاليات، حتى ضريبة العشر التي كانت من حق الملك على المتاجر في المملكة فقد معظمها بعد أن باع الملوك المتعاقبين أجزاء من هذا الحق للهيئات الكنسية وأتباعهم الإقطاعيين[١]، حتى الأموال التي كانت تأتي من الغرب لدعم الفرق العسكرية قد نضبت، فقد تهكم الشاعر الجوال روتبيف Rtebeuf ٦٤٣-٦٨٤هـ (١٢٤٥-١٢٨٥م)[٢]على التاج الفرنسي الذي عجز عن دفع نفقات الفرقة الفرنسية في عكا؛ مما اضطرها إلى الاقتراض من بعض التجار وحين اشتكي التجار من تأخر ميعاد السداد تدخل قادة الداوية والإسبتارية، و أرسلوا إلى لويس في فرنسا صكوك الديون للوفاء بها لكن هذه الديون لم تحصل أبداً بعد أن غرقت الصكوك في ماء البحر المتوسط، رغم تأكيد أحد القادة الفرنسيين ويدعي اوليفر اوف تيرم Oliver of Terms انهم قد استدانوا مبلغ ٢٥٠٠ جنية تورينية باسم ملك فرنسا دون جدوى[٣]، ونخرج من الأمر الأخير بعدة أمور:

أولاً:عدم وفاء لويس التاسع بوعده باستمرار دعم الحامية الفرنسية التي تركها في عكا.

ثانياً : عجز ملك فرنسا عن الوفاء بالدين لدرجة انه رفض دفع المبلغ الذي اقترضته الحامية باسمه لمجرد ضياع الصكوك ورغم تأكيد أحد ضباط الحامية أمر القرض ومبلغه وتدخل ممثلي الداوية والإسبتارية، ومن المؤكد أن ذلك كان نتيجة خواء الخزانة بسبب نفقات حملته الفاشلة على مصر، وما أنفق في الساحل خلال سنوات أربع قضاها فيه.

ثالثاً :أن التجار من جميع الجنسيات قد اعتبرت بما حدث ومن ثم أحجمت عن دفع أي أموال للقوات الصليبية في المملكة.

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٠٦، ٦١٥.

(٢) كان روتبيف اسما مستعاراً لشاعر جوال مجهول ظهر في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، عنه انظر:

Rutebeuf, on http://en.wikipedia.org/wiki/Rutebeuf

(٣) رايلي سميث، ما الحروب الصليبية، ص٩٧.

http://www.al-maktabeh.com

كما تؤكد المنح البابوية لبطاركة عكا الأزمة المالية الخانقة التي تعرضت لها المملكة، فعندما كثرت شكايات بطرك بيت المقدس من خسائر الكنيسة نتيجة الفتوح المملوكية، وتثاقل من بأيديهم الإقطاعيات الكنسية حتى رجال الدين أنفسهم مثل رئيس أساقفة قبرص، قام البابا أوربان الرابع بمنحه السيطرة على أديرة النساء في بيت المقدس، غير أن المشكلة اشتدت في السنوات الأخيرة من عمر المملكة مما جعل البابا نيقولا الرابع يسمح لبطريك عكا بالحصول على قرض ٤٠٠٠ جنيه توريي من العشور التي تجمع في أوربا لتجهيز الجيوش الصليبية، التي تعلن عزمها على الذهاب إلى الشرق، ثم منحه ٢٠٠٠ جنيه توريي عام٦٨٩هـ (١٢٩٠م) لمواجهة متطلبات وظيفته في ظل تدخله في كثير من الشئون العلمانية نتيجة لغياب الملك في قبرص[١].

– أثر التراجع الاقتصادي على المملكة

مما لا شك فيه أن التراجع الاقتصادي قد ترك ظلالاً ثقيلة على مصير مملكة عكا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وقد وضح ذلك الأثر منذ حملة لويس على مصر، تلك الحملة التي أظهرت بجلاء خواء الخزانة الملكية الصليبية، فلم تتعد القوة العسكرية التي قدمتها مملكة عكا في الحملة بضع مئات من الفرسان[٢]، وهو دلالة واضحة على تقلص عائدات المملكة التي اعتمدت في تكوين جيوشها على ما تقدمه الإقطاعيات من فرسان، بجانب ما تقدمه الهيئات الدينية.

وتؤكد الدراسات التي أجريت على الجيش الصليبي أن عدد فرسان المملكة في وقت حالة عنفوانها لم يزد عن ٦٧٠ فارساً وعدة آلاف من المحاربين المشاة، نصفهم قوة ثابتة لحراسة القلاع، كما كان لدى الهيئات الدينية الثلاث عدد مماثل تقريباً[٣]، وهذا يعني أن كل تقلص في عدد الإقطاعيات يعني تناقص في أعداد الجيوش، والرقم المذكور من قبل كان

---

(١) Hamilton, The Latin Church, p. 290.

(٢) Hill, A history of Cyprus, vol II, pp.144-14; Strayer, "The Crusades of Louis, IV", pp.49.

(٣) براور، الاستيطان الصليبي، ص٣١٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

قبل فتوح صلاح الدين، ومما لا يقبل الشك أن هذا العدد تناقص مع فتوح صلاح الدين، ومع انحسار الإقطاعيات، وزاد الانحسار في منتصف القرن الثالث عشر مع انحسار المملكة في شريط ساحلي امتد من يافا حتى نهر الكلب شمال بيروت[١]، ومع كل فتح مملوكي جديد كانت الإقطاعيات تتناقص، وعدد فرسان المملكة يتراجع، ومن ثم تقف المملكة عاجزة عن أي رد إيجابي تجاه الهجمات المملوكية، فمع فقد يافا حرم الجيش الصليبي من ٢٥ فارسا و ١٠٠ سرجنديا كان يقدمهم الإقطاع، وعندما خسرت المملكة إقليم الجليل فقدت ٤٠ فارساً، وباستيلاء بيبرس على قيسارية حرم الصليبيين من ٢٥ فارس و ٥٠ سرجنديا[٢]، وقد ظهر أثر هذه الخسائر المتوالية واضحا في فتوح الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، تلك الفتوح التي لم تشهد أي هجوم مضاد من قبل الصليبيين، فيما خلا عدة مناوشات كان تسفر في الأغلب عن سحق القوة الصليبية التي لم تتناسب في ذلك الوقت مع القوة المملوكية، ومن ثم تتابعت الرسائل إلى الغرب الأوربي لطلب العون غير أن الأمر تغير بعد حملة لويس على مصر.

ويؤكد هذا الأمر رسالة وجهها مقدم الإسبتارية عام ٦٦٧هـ(١٢٦٨م) إلى الغرب يوضح فيها تراجع قوة الإسبتارية نتيجة لفتوح الظاهر، ويذكر أنهم لم يعودوا يستطيعون تجهيز أكثر من ٣٠٠ فارس، بعد أن كان في وسعهم تجهيز ١٠٠٠٠ فارس في الماضي[٣]، وكذلك الرسالة الموجهة إلى الملك الإنجليزي إدوارد عام ٦٨١هـ(١٢٨٢م) يشكو فيها الراهب يوسف الكانسي من قلة عدد المدافعين عن المملكة[٤]، وقد قوبلت كل دعوة لحملة صليبية بفتور في تلك الفترة بعدم اكتراث من الشعوب الأوربية، ومماطلة وتهرب من جانب الملوك[٥]، ولم يكن تهرب الغرب الأوربي من فراغ ففي فجر الحركة الصليبية تدافع

---

(١) هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص٣٢٦؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص١٤٦.

(٢) حول خدمات النبلاء الإقطاعيين العسكرية انظر:

John of Ibelin, Le Livre des Assises, pp.607-610.

(٣) رنسيمان، المرجع السابق، جـ٣، ص٥٨٩؛ مصطفي الحناوي، الفرسان الاسبتارية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي، الرياض، ٢٠٠٤م، ص٤٤٧..

(٤) De Cancy, Crusader's Letter, p.13.

(٥) Throop, Criticism of the Crusade, pp.262-282.

http://www.al-maktabeh.com

الأوربيون إلى أرض العسل واللبن – ليحسن العامة من أحوالهم، وينال الفرسان إقطاعيات حرموا منها في أوربا[١]– أما وقد جفت منابع الخير وانحسرت مصادر الجذب في ساحل يعج بالصراعات، فقد تحولت أنظار الغربيين نحو أرض مغنم بلا مغرم في قبرص حيث آل لوزجنان الذين سعوا جاهدين لتوطين اللاتين فيها[٢]، ولم يذهب إلى المملكة الصليبية في الساحل سوى اللصوص وقطاع الطرق الذين قضوا على آخر أمل تعلق به صليبيو الساحل وهو الالتزام بما عقدوه من معاهدات مع المماليك فكانت النهاية[٣].

هكذا وضحت المشكلة الاقتصادية التي عانت منها مملكة عكا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر التي تضافرت فيها الظروف لضرب قطاعات الاقتصاد الرئيسة – الزارعة، الصناعة، التجارة – وما ترتب على هذه المشكلة من نتائج، ووضح لنا وجود عوامل مشتركة وراء تراجع هذه القطاعات، منها ما هو من داخل المملكة، مثل الصراعات البينية، ومنها ما هو خارجي مثل الضربات المملوكية، كما أثر التراجع في القطاع الزراعي على القطاع الصناعي وانعكست مشكلتهما على القطاع التجاري، ومثل هذا التراجع الاقتصادي مشكلة كبري للمملكة أدت إلى عجزها عن توفير الأموال اللازمة لجمع المقاتلين للتصدي لهجمات المسلمين التي باتت متوقعة لهم كل لحظة، وقد تمسي المدينة صليبية وتصبح وقد صارت في يد المسلمين.

وبذلك اكتملت المظان والدلائل على سلامة فرضية دور التراجع الاقتصادي في انهيار مملكة بيت المقدس الثانية المعروفة بمملكة عكا.، ومن ثم ننتقل إلى فرضية جديدة نبحثها في الفصل التالي وتدور حول دور الصراعات البينية وأثرها في ذلك الانهيار.

---

(١) قاسم عبده قاسم، ماهية الحركة الصليبية، ص٦٩–٨٠.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص١٨٥–١٨٧.

(٣) The Templar of Tyre, pp.101-102; Chronique d'Amadi , p.214; Annales de trrre sante, pp.460-461. Cf. also: King, The Knight Hospitallers, pp.291-298; Conder, The Latin Kingdom, p.407.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفصل الثالث

الصراعات الداخلية وأثرها علي انهيار المملكة

- الصراع بين نبلاء المملكة وبين أصحاب السلطة الشرعية.
- الصراع بين الهيئات الدينية والعسكرية.
- الصراع بين الجاليات الإيطالية.

تبينا من الفصل الثاني دور التراجع الاقتصادي في دمار المملكة الصليبية من الداخل، وفي هذا الفصل ندرس دور الصراعات الداخلية في هذا الأمر، وقد اهتممنا بدراسة ثلاثة أنواع من الصراعات البارزة في تاريخ الصليبيين ككل، وفي مملكة عكا على وجه الخصوص، وهذه الصراعات هي الصراع بين نبلاء المملكة وبين أصحاب السلطة الشرعيين سواء كانوا غائبين أو موجودين على أرض المملكة. أما الصراع الثاني فحدث بين الهيئات الدينية العسكرية. أما الصراع الثالث والأخير فتمثل في الصراع بين الجاليات الإيطالية. ولا يعني هذا أن هذه الصراعات هي كل ما دار في المملكة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر لكن هناك صراعات أقل أهمية وأصغر نطاقاً ارتبطت من قريب أو بعيد بالصراعات الثلاثة التي ذكرناها.

الصراع بين نبلاء المملكة وبين أصحاب السلطة الشرعية:

شهد النصف الثاني من القرن الثالث عشر غياب سلطة ملوك بيت المقدس، ونتيجة لذلك زاد شأن النبلاء سمواً ورفعة، ومن ثم وقفوا في وجه كل من حاول الانتقاص من هذا السمو، وعلى منوالهم نسجت الهيئات الدينية العسكرية التي مثلت دولاً مستقلة داخل المملكة، وعلى هذا فأول المشاكل التي نعالجها تتمثل في الصراع بين أصحاب السلطة الشرعية وبين نبلاء المملكة والتنظيمات الدينية.

http://www.al-maktabeh.com

ولم يكن هذا الصراع وليد تلك الفترة لكن جذوره بعيدة ترجع إلي النصف الأول من ذلك القرن، ذلك أن انتقال السلطة الشرعية إلي فردريك الثاني وورثته حرم المملكة من تواجد الملك، الذي شغله ملكه في أوربا عن ملكه في الشرق، ومن ثم جاء الأمر عكس ما اشتهت البابوية التي شجعت زواج فردريك الثاني من وريثة بيت المقدس، على أمل إجباره على الحفاظ على المملكة الصليبية باعتبارها جزء من ملكه، وهو أقوى حكام أوربا آنذاك، وحين تأخر فردريك في الخروج في حملة صليبية نحو الشرق، فقد صدر في حقه قرار بالحرمان من جانب البابا جرجوري التاسع Gregory IX [(١)]، مما أدى إلي فتح باب الصراع من جديد بين البابوية والإمبراطورية[(٢)]، ولما أدرك الإمبراطور ضعف موقفه فإنه جاء إلي الشرق بمجموعة هزيلة من جنوده فيما يسمى بالحملة الصليبية السادسة ٦٢٥هـ(١٢٢٨م)[(٣)].

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣١٨.

جريجوري التاسع، كان ينتمي إلي إحدى الأسر الإقطاعية الكبرى وهو ابن أخ للبابا أنوسنت الثالث Innocent III ٥٩٥-٦١٢هـ (١١٩٨-١٢١٦م)، وابن لكونت سيجني Segni وكان يسمى Ugo، تم انتخابه عام ٦٢٥هـ (١٢٢٧م) خليفة للبابا هونوريوس الثالث Honorius III تحت اسم جريجوري التاسع Gregory IX وعرف بتصديه لنفوذ إمبراطور ألمانيا والإصرار على السمو البابوي على حساب السلطة الزمنية، توفي عام ٦٣٩هـ (١٢٤١م). وأيضاً: Kelly, the Oxford dictionary of Popes, pp.189-191.

(٢) الصراع بين البابوية والإمبراطورية: كان أعظم الصراعات التي شهدتها لأوربا في العصور الوسطي، وسبب هذا الصراع هو إصرار البابا الجالس على عرش روما انه مصدر السلطة الشرعية على الأرض نيابة عن القديس بطرس، وأنه يمنحها للملوك والأباطرة المتعاقبين، ومن ثم يجب على الأباطرة الخضوع التام للبابا مانح السلطة ومصدر التشريع، بجانب حق البابا في عزل وتعيين رجال الدين في شتى البلاد التي تتبع المذهب الكاثوليكي، في حين رفض الأباطرة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة هذا الأمر، وقاوموه بشدة، لأنه يجعل من رجال الدين دولة داخل دولة، وقد بدء هذا النزاع في عهد البابا جريجوري الرابع والإمبراطور هنري الرابع، واشتد في عهد الإمبراطور فردريك الثاني والبابا جريجوري التاسع.

لمزيد من التفاصيل حول الصراع بين البابوية والإمبراطورية انظر: نورمان كانتور، قصة حضارة بداية ونهاية، جـ٢، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة، ١٩٨٢، ص٣٦١-٣٧٤ ؛ موريس كين، حضارة أوربا العصور الوسطي، ترجمة د.قاسم عبده قاسم، دار عين، ١٩٩٦، ص١٧٥-١٩١، سعيد عاشور أوربا العصور الوسطي، جـ١، ص٣٥٤ وما بعدها؛ رأفت عبد الحميد، الفكر السياسي في العصور الوسطي، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١٣-٦٦.

(٣) L'Estoire d'Eracles, p.363; Annales des Terre Sainte, p.438; Philip of Novara, The Crusade of Frederick II, in Christian society and the Crusades 1198-1229, tr. Gavigan, ed. Peters, pp.156-161, 438. Cf.also, Mas Latrie, Histoire de l'ile de Chypre, vol.II, p.236;

مكتبة المهتدين الإسلامية

غير أن فردريك قبل أن يصل إلي الشرق كان قد كون بتصرفاته جبهة معارضة له، فقد صمم على انتهاج السياسة نفسها التي يسير عليها في أوربا، فقد تصرف نائبه في عكا توماس اكينو Thomas d'Aquina , count of Acerra تصرفاً استبدادياً مع نبلاء المملكة وهو أمر لم يعهدوه[١]، وزاد الطين بلة حين وصل فردريك إلي قبرص وصمم على خضوع جزيرة قبرص لنفوذه مباشرة، وكان ذلك يعني وصايته على ملك قبرص الطفل، مما أثار مخاوف أسرة ابلين – أكبر أسرة إقطاعية في الشرق سواء في قبرص أو في مملكة عكا – التي كان يقوم أحد أبنائها وهو فليب أبلين Philip d'Ibelin بالوصاية على عرش قبرص، والذي توفي عام ٥٢١هـ(١٢٢٧م) وخلفه أخوه حنا ابلين الكبير[٢].

وعلى الرغم من اضطرار الأبلينيين للخضوع له في قبرص فإنهم كانوا يتحينون الفرصة للانقضاض عليه والتخلص من سيادته، إذ لم يكن بيت أبلين وسائر البيوت الصليبية في مملكة عكا يريدون تواجد ملك قوي يحد من نفوذهم، بجانب أن فردريك لم يراع قوانين بيت المقدس باعتبار الملك رئيساً للمحكمة العليا، وقائد أعلى لجيوش المملكة لا يتصرف في صغيرة ولا كبيرة إلا بعد استشارة أقرانه، وهناك حدود لسلطاته وحقوق لنبلاء المملكة يجب عدم تخطيها، بيد أن فردريك أغفل كل ذلك وتجنب الدبلوماسية التي استخدمها في استعادة بيت المقدس، وقرر الاستبداد وضرب بقانون المملكة عرض الحائط[٣]، وسعى إلي تجريد عميد الأبلينيين من إقطاع بيروت؛ فسارع حنا ابلين إلي بيروت لتحصينها انتظاراً للمواجهة مع الإمبراطور[٤].

=La Monte, Feudal Monarchy, p:58; else, "John d'Ibelin", p.430; Nickerson, "The Crusader States", p.543; Van clev (Thomas), "The Crusade of Frederick II", in Setton, The history of The crusades, vol. II, p.442.

(١) رنسيمان، المرجع السابق، جـ٣، ص٣١٩.

(٢) فليب دي نوفارا، حروب فردريك، ص٧٩. انظر أيضاً:

Annales de Terre Sainte, p.438. Cf. also, Mas Latrie, Histoire de l'ile de Chypre,vol. II, p.236; La Monte, Feudal Monarchy, p.58; "John d'Ibelin", p.430; Van clev , "The Crusade of Frederick II", p.451.

(٣) رنسيمان، المرجع السابق، جـ٣، ص٣١٢.

(٤) La Monte, Feudal Monarchy, P 61; Nickerson, "The Crusader states", p.543.

http://www.al-maktabeh.com

وفي ثنايا هذا الجو المشحون عقد فردريك معاهدة يافا مع الملك الكامل الأيوبي[1] وبمقتضاها عادت القدس إلي يد الصليبيين[2]، ووصل خبر حرمان الإمبراطور فزاد تحرج موقفه وقوى ساعد النبلاء، ففي السابق كانوا يتحرجون من الوقوف في وجهه بحكم أنه مؤيد من قبل البابا، أما وقد حرمه البابا فلم يعد ما يدعو للحرج، بل صار الأمر قربة من البابوية، فأعلن الداوية والإسبتارية صراحة التخلي عن الإمبراطور وإن أيده التيوتون[3]،

---

(١) الملك الكامل: هو أبو المعالي محمد بن الملك العادل، الملقب بالملك الكامل ناصر الدين، ثاني أكبر أبناء الملك العادل، ولد عام ٥٧٦هـ(١١٨٠م)، حكم مصر في حياة أبيه، وبويع له بالحكم عقب وفاة والده، فتصدي للحملة الصليبية الخامسة عام ٦١٥هـ(١٢١٨م)، دخل في صراع مع إخوته مما اضطره إلي تسليم القدس للإمبراطور فردريك الثاني عام ٦٢٥هـ(١٢٢٨هـ)، وتوفي يوم الخميس ٢٢ من رجب ٦٣٥هـ(١٢٣٧م). عنه انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ١٧١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٥، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨م، ص ٧٤-٧٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٢٧٧-٢٩٨؛ ابن إياس بدائع الزهور، جـ١، ق ١، ص٢٥٨-٢٦٨. وأيضاً: سعيد عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص٨٣-١١٣.

(٢) قضت معاهدة يافا عام ٦٢٧هـ(١٢٢٩م)، بين فردريك الثاني والملك الكامل الأيوبي، بعودة القدس وبيت لحم والناصرة، وغربي الجليل بما فيها حصني مونتفورت وتبنين، وشريط من الأرض يصلهم بالساحل ينتهي عند يافا، ويبقي بيد الصليبيين المسجد القصي ويحريم دخوله على المسيحين، وقد قوبلت المعاهدة بالرفض من قبل المسلمين والصليبيين على السواء، حول تلك المعاهدة وتداعياتها انظر:

ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٤، ص٢٤١-٢٤٣؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٣، ص٢٠٥؛ ابن نظيف الحموي، من التاريخ المنصوري، تحقيق: سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٢١، دمشق، ١٩٩٥م، ٤٢٦، ص٣٠٢، المقريزي، السلوك، جـ١، ص٢٣٠.

Roger of Wendover, The Crusade of Frederick II : from the Chronicle of roger of Wandover, in Cheistian society and crusades, p.152; Annales de Terre Saint, p.438. Cf. also, King, The Knight Hospitallers, p.208; Nickerson, "The Crusader States", p.545; Van clev, "The Crusade of Frederick", pp.455 -457.

راجع أيضا، رنسيمان، المرجع السابق، جـ٣، ص٣٣٠-٣٣١؛ سعيد عاشور، الحروب الصليبية، جـ٣، ص١٠١١-١٠١٣؛ الإمبراطور فردريك الثاني، ص٢٠٣-٢١٠؛ محمد مؤنس، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٢٨٩-٣٠١.

(٣) كان من الطبعي أن يؤيد الفرسان التيوتون الإمبراطور فردريك لعدة اعتبارات أولها عنصر المواطنة بحكم أن التيوتون من الألمان، أما الاعتبار الثاني فهو الصداقة التي كانت تربط مقدم التيوتون هرمان دي سالزا بالإمبراطور أما الاعتبار الثالث فهو أن تنظيم التيوتون كان اصغر التنظيمات الدينية الثلاث و أضعفها ومن ثم كان في حاجة إلي إنعامات فردريك لتدعيم وجودهم في الشرق.، انظر: حسن عبد الوهاب، تاريخ الفرسان التيوتون، ص٢٧٧.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وأصدر بطريرك المملكة جيرولد Gerold of Laussanne [١]، قراراً بحرمان مدينة القدس ومن يستقبل الإمبراطور بها[٢].

وتطورت الأحداث إلي الصراع المسلح بين أنصار الإمبراطور وخصومه في عكا، فانقسمت مدينة عكا إلي معسكرين أثناء تواجد فردريك في القدس: فريق يؤيده ممثلاً في البيازنة وجنود اللمباردين الذين أحضرهم معه من الغرب، في حين تصدى لهم الجنوية والبنادقة وساندهم النبلاء ورجال الدين الداوية[٣]. وفي ظل تلك المعارضة الشديدة التي قوبل بها فردريك في عكا بعد عودته من القدس ورفض قبول صلحه مع المسلمين فإنه لجأ إلي العنف فقوبل بعنف أشد.

ووصل الأمر إلي التدبير لاغتياله لولا تدخل حنا ابلين الكبير الذي منع أقاربه من الإقدام على هذا الأمر؛ انتقاما من الإمبراطور الذي عامل آل ابلين بما لا يليق، في وقت صار عليه الإسراع بالعودة إلي أوربا، ومن ثم سار إلي الميناء تشيعه لعنات رجال الدين وسخط النبلاء، وأوساخ العامة التي ألقيت عليه[٤]، بعد أن ترك وصيين على عرش المملكة

---

(١) جيرولد: كان أحد الرهبان الكولونيين ثم صار أسقفا لفلانس Valence، تولي منصب بطريرك بيت المقدس عام ٦٢٢هـ(١٢٢٥م) بانتخاب من قبل أساقفة المملكة في وقت غابت فيه السلطة الملكية مما أدي إلي اتساع نفوذ رجال الدين، وبقي في هذا المنصب حتى توفي عام ٦٣٧هـ(١٢٣٩م). وأيضاً:

Hamilton, The Latin Church in the Crusader States, London, 1980,p.259.

(٢) King, Op. Cit., P 208.

(٣) كان لدي كل فريق ما يبرر به الانضمام إلي هذا الطرف أو ذاك فانضمام التيوتون إلي فردريك برزناه في الحاشية السابقة .أما الجنود اللومبارد فهم من جاء مع فردريك من أوربا. أما البيازنة فقد كانت هناك مصالح مشتركة مع فردريك، أما المعسكر الثاني المعادي لفردريك والمتمثل في الداوية و الإسبتارية ونبلاء المملكة ورجال الدين فقد تراوحت أسبابهم بين إرضاء البابا والحفاظ على مصالحكم التي أضر وجود فردريك بها.

(٤) Chronique d'Amadi, pp.135-136. Cf. also, La Monte, "John d'Iblin", p.432, Van Clven, "The Crusades of Fredrick II", p.459.

راجع أيضا، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص ١٠١٦؛ الكناني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، جـ٢، ص٢٣١، جوناثان فيليبس، الشرق اللاتيني، ص ١٦٧.

http://www.al-maktabeh.com

في غيابه[١]. ومن يومها ترسخت كراهية نبلاء مملكة بيت المقدس للإمبراطور فردريك الثاني وبنيه.

وبالرغم من علم فردريك بسخط مملكة عكا عليه، فإنه أبى إلا التمادي في غيه، فبدلاً من استرضاء هؤلاء النبلاء، واتخاذهم صنائع له في مملكته البعيدة عن أوربا، تلك المملكة المحاطة بالأخطار فإنه قرر زيادة استعدائهم حين أمر ممثله في عكا فلانجيري Filangieri[٢] بسلب أكبر الأسر الإقطاعية وهم الأبلين من أملاكهم بعد أن قويت يده في الساحل بالسيطرة على بيروت وصور وعكا في غياب حنا ابلين في قبرص[٣]، وهو أمر رفضه نبلاء المملكة قاطبة[٤]، بما فيهم كفيلي المملكة الذين عينهما فردريك من قبل رحيله[٥].

---

(١) ترك فردريك باليان سيد صيدا وأودو مونتبلارد Balian of Sidon Odo of Montbeliard ليقوما بالوصاية على مملكة عكا، في حين بالوصاية على قبرص لخمسة من النبلاء القبارصة. بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلي القرن الرابع عشر، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٣١٨. وأيضاً:

La Monte, Feudal Monarchy, p.63; Nickerson, "The Crusader states", p.544.

(٢) كان ريتشارد فلانجيري مارشالاً للإمبراطور فردريك الثاني، وعقب صلح الإمبراطور مع البابا عام (١٢٣١م)، تقرر إرساله على رأس جيش لحماية مملكة بيت المقدس مكون من ستمائة فارس، وكان في مقدمة أهدافه الانتقام من نبلائها الذين أساءوا إلي الإمبراطور وبخاصة آل ابلين، وظل فلانجيري في عكا ممثلا للإمبراطور حتى عام٦٤١(١٢٤٣م). انظر: فليب دي نوفارا، تاريخ الحرب، ص١٣٣ وما بعدها. وأيضاً:

Assises de Jerusalem, tome II, p.400.

راجع أيضا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٤٤-٣٨٧.

(٣) عقب رحيل فردريك قرر أوصيائه في قبرص جمع المال الذي طلبه منهم الإمبراطور مقابل الوصاية ومن ثم عاملوا الأهالي بغلظة لجمع المال كما اتجهوا إلي مصادرة أملاك الأبلينين وهم أخوال لملك قبرص، واستنجد الأبلينين بحنا ابلين الكبير فسار إلي قبرص واستطاع طرد ممثلي الإمبراطور منها وتولي الوصاية على عرش قبرص، وعندما علم حنا ابلين باقتراب وصول القوات الإمبراطورية وكان في زيارة لعكا، سارع بالرحيل إلي قبرص للدفاع عنها، ولما فشل فلانجيري في النزول إليها أسرع إلي الساحل الشامي وسيطر على بيروت وصور وعكا. انظر:

فيليب دي نوفارا، تاريخ الحرب، ص٩٤ وما بعدها ؛عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٠١٨-١٠١٩.

(٤) لطيفة البوعنين، الحياة الاقتصادية في عكا، ص١٠٧.

(٥) رنسيمان، المرجع السابق، جـ٣، ص٣٤٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ويمكن تفسير هذا الرفض بأمرين: الأمر الأول هو حسن علاقة الأبلينين بهم جميعاً وبخاصة مع توثيق تلك الصلات بالزيجات السياسية. أما الأمر الثاني فهو خوف النبلاء من أن يجري عليهم ما سوف يجري على الأبلينين. ومن ثم جاء رد الفعل عنيفاً متناسباً مع الطلب الذي أرسله الإمبراطور، وتمثل ذلك الرد في تشكيل قومون[١] يحكم عكا ويحميها من عدوان فردريك المحتمل، وجعلوا رئاسته في يد حنا أبلين عميد البيت الذي أراد فردريك انتزاع أملاكه. أما باقي مدن المملكة فقد صارت في يد نبلاء معادين للحزب الإمبراطوري[٢]، الذي تسلم مقاليد القومون في جمادى الآخرة ٦٣٠هـ (أبريل ١٢٣٢م)[٣].

وظل الوضع متأزماً في مملكة عكا، وحاول فردريك التحول إلي الدبلوماسية في التعامل مع نبلاء المملكة فأرسل إليهم بقراره بعزل فلانجيري وتولية أحد نبلاء الساحل، لكن الجميع رفض هذا النبيل لصلته الوثيقة بفلانجيري، فتدخل البابا جريجوري التاسع Gregory IX عام ١٢٣٦م(٦٣٤هـ) وطلب من نبلاء الشام الخضوع لفردريك مقابل العفو عنهم جميعاً عدا آل ابلين، والمسارعة بحل قومون عكا، لكن العرض رفض كما رفض نبلاء المملكة اقتراحاً بابوياً بتوحيد تاجي عكا وقبرص وتمسكوا بكونراد بن فردريك[٤].

---

(١) القومون: مفرد كلمة قومونات وهي كلمة ذات اصل لاتيني هو communitas، وقد أطلق المصطلح أواخر القرنين ١١، ١٢م على جماعات سكان المدن الذين حصلوا على الحكم الذاتي وصار لها سلطات سياسية مستقلة بعد نضال ضد السيطرة الإقطاعية، وفي الشرق اللاتيني عرفت القوميونات الإيطالية في المدن الصليبية التي يتجمع فيها تجار كل مدينة إيطالية مع بني جلدتهم لينظموا شئونهم وينظروا في مصالحهم، ويبدو أن نبلاء مملكة عكا لما عانوا من فردريك الثاني وسياسته قرروا إقامة قومون يدير شئون المملكة بعيد عن سلطة الإمبراطور أو نائبه في الشرق. انظر: مجهول، تتمة كتاب وليم الصوري، ص٢٣٥-٢٣٦، حاشية ٥؛ حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص ١٢٤، حاشية ١٣٧.

(٢) بالار، الحملات الصليبية، ص٣١٨؛ جمعة الجندي: الاستيطان الصليبي في فلسطين، القاهرة، ٢٠٠٦، ص١٤-١١٥.

(٣) Nickerson, "The Crusader State", p.549.

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ١٠٢٣

http://www.al-maktabeh.com

ويوضح مسلك النبلاء الذين يحركهم آل ابلين حرصهم جميعاً على عدم تواجد ملك في المملكة، وبالرغم من أن ملك قبرص هو ابن أخت زعيمهم حنا ابلين فإنهم ألفوا غياب الملوك ولا يريدون وجود الملك حتى لو كان في صالح المملكة، والأغرب من ذلك أن فردريك كتب إليهم في عام ٦٣٩هـ(١٢٤١م) يعلمهم ببلوغ كونراد وريث عرش المملكة سن الرشد، وأنه صار ملكاً على بيت المقدس، وطلب من الجميع السمع والطاعة لنائبه توماس أكينو[١]، فرفض الجميع ذلك الطلب، وقرروا وضع المملكة تحت وصاية أليس ملكة قبرص حتى يصل كونراد لتولي الأمر بنفسه[٢]؛ لعلمهم باستحالة حضوره في ظل مشاكل فردريك في أوربا، كما القى فردريك الحركة الصليبية وراء ظهره، ومن ثم صارت المحكمة العليا في مملكة عكا هي صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في اختيار الوصي على عرش المملكة، بعد أن غاب الملك الشرعي الذي نال تلك الشرعية بالوراثة[٣]، وخرج النبلاء منتصرين في هذه الجولة.

وظل النبلاء يديرون المملكة حتى عام ٦٦٨هـ(١٢٦٩م) فيما خلا السنوات الأربع التي قضاها لويس في المملكة عقب إطلاق سراحه من الأسر والتي كان فيها ملكاً غير متوج[٤]، وما أن رحل لويس عن المملكة عام ٦٥٢هـ(١٢٥٤م)، حتى فقدت المملكة وجود الملك الفعلي، وبقيت على هذا الحال الذي استملحه النبلاء حتى توج هيو الثالث رسمياً ملكاً على عكا عام ٦٦٨هـ(١٢٦٩م)[٥]، فلما حاول ممارسة سلطاته الفعلية كملك تجدد الصراع من جديد، ذلك أن قومون عكا وقف له بالمرصاد، ذلك القومون الذي تأسس للتصدي للإمبراطور فردريك الثاني، والذي وجب حله مع وجود الملك الشرعي

---

(١) بالار، المرجع السابق، ص ٣٢٠

(٢) Runciman, "The Crusader state", p.55.

(٣) بالار، الحملات الصليبية، ص ٣٢٠.

(٤) انظر الفصل الأول، ص ٦٤.

(٥) L'Estoire d'Eracles, p.457; The Templar of Tyre, pp.60-61; Annales de Terre Saint, p.454. Cf. also: Mas Latrie, Genealogie des rois de Chypre de la famille de Lusignan, Venise, 1888, p.8.

مكتبة المهتدين الإسلامية

على أرض البلاد، لكن القوموت استمر وأساء إلي الملك، وحين أراد الملك الاستعانة بقوات مملكة قبرص لمساندة مملكة عكا، رفض نبلاء القبارصة تقديم يد العون، وبعد مفاوضات استمرت حتى٦٧٢هـ(١٢٧٣م)، وافقوا على عدم تقديم يد العون للملك خارج حدود المملكة إلا أربعة أشهر كل عام شريطة أن يقودهم الملك بنفسه أو ولي عهده[١].

في تلك الأثناء فشل هيو في إنجاز أي شيء وبلغ فشله الذروة حين فقد إقطاعه في بيروت عام ٦٧٢هـ(١٢٧٣م)، ذلك أن إيزابيل ابلين Isabella of Ibelin وريثة الإقطاع قد تزوجت وهي بعد طفلة من هيو الثاني ملك قبرص، وبعد وفاته بقيت دون زواج لبعض الوقت مرتبطة بعلاقة آثمة مع جوليان سيد صيدا، ثم تزوجت من أحد النبلاء الإنجليز المصاحبين للأمير إدوارد في حملته يدعى هاموا Hamo L'Estrange الذي توفي بعد قليل، وعند ذلك قرر هيو نقل إيزابيل بالقوة إلي قبرص ليزوجها أحد نبلاء المملكة هناك. غير أن بيبرس اعترض على الأمر، وحجته في ذلك ما عقده من معاهدة مع صاحب بيروت الراحل، وحينما كان على فراش الموت فإنه وضع بيروت وزوجته تحت حماية السلطان بيبرس، وأرسل إلي المحكمة العليا في عكا يعرض عليها الأمر، وهدد باستخدام القوة لإعادة السيدة إلي بيروت، فما كان من هيو سوى إطلاق سراحها وبخاصة بعد تأكده من مناوئة الداوية له ومساندتهم لصاحبة بيروت، وضاع منه السيطرة على الإقطاع، بجانب ما تردد دون تأكيد من أن ابن خالته هيو البريوني يجمع قوات لغزو قبرص بمساعدة شارل أنجو، فعادت إيزابيل إلي بيروت وتزوجت مرتين بزوجين من اختيارها قبل أن تموت عام ٦٨١هـ(١٢٨٢م)[٢] متحدية لسلطة الملك، ومؤكدة على ضياع سلطته وأنه صورة لا معنى لها.

---

(١) Runciman, "The Crusader State", P. 582.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤٤٧. انظر أيضاً:

L'Estoire d'Eracles, p.462. Cf. also, Hill, A History Of Cyprus, Vol. II, pp.170-171; Runciman, "The Crusader State", p.584; Holt (p. m), "Bybirs's Treaty with Lady of Buirt in 1269", in: C.S., p.242.

http://www.al-maktabeh.com

ولم تتوقف مصائب هيو عند هذا الحد بل زاد الطين بله حين أراد عام٦٧٤هـ(١٢٧٥م) أن يتدخل في شئون أنطاكية، حين توفي بوهمند السادس تاركاً بوهمند السابع طفلاً، فتطلع هيو إلى الوصاية على عرش أنطاكية باعتباره أول من بلغ سن الرشد من البيت الأنطاكي، غير أن الوصاية على إمارة طرابلس آلت إلي - سبيلا زوجة بوهمند السادس - ولما سار هيو بنفسه إلي طرابلس لفرض نفسه، وجد أن الأم قد أرسلت الصبي بوهمند السابع إلي إخوتها في أرمينيا، ووجد الأم وقد فوضت أمر إدارة المدينة إلي أسقفها بارثليميو الذي حاز شعبية كبيرة، فلم يقف أحد ليساند هيو الثالث في دعواه فعاد إلي عكا بخفي حنين[1]، ولو تم له الأمر لجمع بقايا الصليبيين في الساحل تحت سلطانه حين يجمع بين السلطة الشرعية على مملكة عكا وإمارة طرابلس، غير أن هيو لم يكن الرجل المناسب في الوقت المناسب.

أما ثالثة الأثافي فقد كانت صراع هيو مع الداوية، ومرجع ذلك إلي ما قدمه البابا جريجوري العاشر من نصيحة لماري الأنطاكية ببيع حقوقها في عرش بيت المقدس إلي شارل أنجو، ذلك أن مقدم الداوية الجديد كان وليم بيجي الذي كان ابن عم لشارل أنجو، ومن ثم تصدى بيجي للملك هيو إرضاءً لشارل ربما بالاتفاق معه قبل المجيء إلي عكا، أو بالتعاطف بحكم صلة القرابة بينهما، وعلى هذا فقد قام بيجي بشراء إحدى القرى القريبة من عكا، دون الرجوع إلي الملك، ومن ثم اشتكى هيو إلي المحكمة العليا التي لم تستجب له.

وفي ثورة غضبه قرر - هيو - ترك مملكة عكا إلي سبيلها، والعودة إلي ملكه في قبرص عام ٦٧٥هـ(١٢٧٦م) بعد أن فشل في القضاء على الشجار بين نبلاء مملكة عكا وتجارها وبين التنظيمات الدينية العسكرية وبخاصة الداوية والاسبتارية وبين البنادقة والجنوية، ومن ثم كتب إلي البابا في روما يبرر له تصرفاته ويلقي باللوم على الداوية، وفي أثناء إقامته في صور قبل رحيله كتب إليه نبلاء المملكة ومقدمي التنظيمات الدينية يطلبون تعيين نائباً عنه، فرشح

---

(١) حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص٤٤٨. وأيضاً:

Hill: A History of Cyprus, vol. II., p.171.

مكتبة المهتدين الإسلامية

لهم باليان ابلين Balian d'Ibelin بن يوحنا سيد أرسوف، وعين قضاة للمحكمة العليا وأبحر بعدها إلى قبرص[١].

وبقيت المملكة يديرها النبلاء بالرغم من إجماع قوى المملكة على هنري الثاني بن هيو إلا أن أخواله من آل ابلين طلبوا منه - بعد حفل التتويج - الرحيل والإقامة في قبرص، ولم يدخلها بعد ذلك إلا مرتين الأولى عقب فتح قلاوون لطرابلس الذي لم يملك حياله سوى توقيع هدنة جديدة معه، والثانية لمحاولة الدفاع عن عكا عام ٦٩٠هـ(١٢٩١م) ولما أدرك أن سقوطها صار مسألة وقت فإنه تركها لمصيرها المحتوم[٢].

وهكذا دار الصراع بين أصحاب السلطة الشرعية وبين القوى الموجودة في مملكة عكا، وبدا بوضوح مدى قوة قومون عكا الذي استطاع التصدي لأقوى أباطرة الغرب الأوربي، كما نجح هذا القومون في تفريغ منصب الملك من معناه في ظل طول غياب الملك الشرعي عن المملكة طوال فترة سيادة آل هوهنشتاوفن على المملكة، ومن ثم لم يسمحوا للملك هيو الثالث بممارسة سلطاته كملك شرعي، ولكنهم طلبوا منه أن يكون درعاً لكيان لا يستفيد منه شيء لا لشيء سوى لقب الملك.

وقد أسهم هذا الموقف في فشل هيو في تقوية قبضته على المملكة مما يسر مهمة المماليك المتمثلة في إسقاط المعاقل الصليبية الواحد تلو الآخر دون مقاومة تذكر، فيما خلا ممتلكات الهيئات الدينية، كما سهلت تدخل الظاهر بيبرس في أدق خصوصيات المملكة ألا وهي توريث الاقطاعات وزواج الوريثات، مما حرم الملك من سلطات طالما تمتع بها أسلافه، كما أسهمت مضايقات الداوية في تصعيب مهمة هيو الثالث في تقوية قبضته على المملكة بشكل يمكنه من مواجهة المماليك مواجهة قوية، غير أن المشاكل والصراعات التي عانى منها وقفت وراء فشله في القيام بهذا الدور.

---

(١) Annales de Terre Sante, p.457. Cf.also: Mas Latrie, The Templar of Tyre,, p.74; Histoire de l'ile de Chypre, Tome I, p.453; Hill, A History Of Cyprus, vol. II, p.172; King, The Knight Hospitallers, p.280; Grousset, Histoire des Croisades, tomp III, pp.669-672: Runciman, The Sicilian Vespers, p.178; Ed-bury, The Kingdom of Cyprus, p.95: Read, the Templars, pp.236-7.

(٢) راجع الفصل الأول، ص ٧٠.

http://www.al-maktabeh.com

كما أسهم فشل هيو الثالث في حكم مملكة عكا في إفساح المجال لملك غير موجـــود، ولم تطأ أقدامه أرض المملكة ألا وهو شارل أنجو الذي منعته ظروف أوربا وصـــداقته للظـــاهر بيبرس من القيام بوجباته حيال المملكة، مما أضاع على الصليبيين فرصة ضـــرب بيـــبرس في ظهره وهو مشغول بالمغول، مما ساعد على زيادة الضغط على الصليبيين بعد الفـــراغ مـــن المغول.

الصراع بين الهيئات الدينية والعسكرية:

أما ثاني الصراعات التي عانت منها مملكة عكا، فتمثلت في الصراع بين التنظيمات الدينية والعسكرية، تلك التنظيمات التي مثلت سمة من أهم السمات التي نتجت عن عصر الحروب الصليبية، والتي تكونت في ظل روح التدين العالية في العصور الوسطى، والتي طورت دور الرهبان من التفرغ للعبادة إلي خدمة المجتمع ورعاية المرضى والمعوزين، وأخيرا إلي القتال من أجل نصرة المسيح واسترداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها – كما زعموا – وجاء ذلـــك التطور في ظل الروح التي سادت أوربا الساعية إلي نبذ فكرة عزلة الرهبان وتفعيل دورهم في خدمة المجتمع الذي يعيشون فيه[(١)]، وفي هذا الإطار تكونت ست هيئات دينية عـــسكرية هي: الإسبتارية Hospitallers، والداوية Templars، والفرسان التيوتون The Teutonic Knights، وهيئة مونتجوي Montjoye[(٢)]، وهيئة القديس تومـــا The order of Saint

---

(١) محمود الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من المـيلاد، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ص٥٥.

(٢) هيئة مونتجوي: كانت هيئة مغمورة لم تقم بدور كبير في خدمة الكيان الصليبي، ولم تنل من الشهرة مـــا يمكنها من الحصول عي امتيازات واسعة واعتراف من قبل البابا باستقلاليتها، وكانت في الأصل هيئة إسبانية ربمـــا أراد من ورائها الأسبان في الأراضي المقدسة أن تكون النسخة الأسبانية من الجماعات الرهبانية التي تأسست هناك، وقد ظهرت بوادر وجودها عام ٥٧٣هـــ(١١٧٧م) حين تنازل لهم وليم مونتفرات عن أربعة أبراج في عسقلان، وفي ٥٧٩هــ(١١٨٠م) تشكلت الهيئة بمقتض مرسوم صدر من البابا ألكسندر الثالث، ولما لم تقم بدور بـــارز في خدمة الصليبيين تم تفكيكها وانصهرت في هيئة الداوية منذ ٦٠١هــ(١٢٠٤م). عنها انظر:

Le Roulx (J. Delaville), L'Ordere de Montjoye, in R.O.L. , Tome I, Paris, 1893, pp.42-57.

محمود الحويري، الأوضاع الحضارية، ص ٧٢.

مكتبة المهتدين الإسلامية

Thomas of Acre[١]، وهيئة القديس لازاروس The Order of Saint Lazarus[٢].

وحين نشأت هيئتا الداوية و الاسبتارية، كان هدفهما المعلن خدمة الحجاج المسيحيين سواء برعايتهم الصحية أو الأمنية، ومن ثم أدى تقارب الأهداف إلي وجود نوع من التفاهم بينهما، وبمرور الزمن زادت شهرة الفريقين وعليه فقد سعى كل طرف إلي منافسة نظيره، والتباري في الحصول على المنح والإقطاعيات سواء داخل الكيانات الصليبية في الساحل الشامي أو خارجه في أوربا وإرمينيا، ومع تأكد الصبغة العسكرية للهيئتين زادت الشقة، وسعى كل طرف منهما إلي إثبات انه الأفضل والأقوى والأعلى صوتا وعليه فقد تحول التنافس إلي تنابذ وتصارع[٣]، ورفض أي عمل مشترك بينهما - إلا فيما ندر - حتى في أحرج أوقات الصليبيين، مما ألحق الضرر بهم في كثير من المواقف[٤].

وقد لقي جموح الهيئات الدينية في قوة ملوك بيت المقدس الأولى كابح لأطماعهم ومانع لصدامهم، لكن مع ضعف الملوك صار المجال فسيحا لزيادة نفوذ كل منهما ومن ثم التنافس

---

(١) هيئة القديس توما: كانت هيئة إنجليزية أسسها راهب إنجليزي عام ٥٨٥هـ(١١٨٩م) وكرس وقته لدفن الموتى في عكا، وتذكر بعض الحوليات الإنجليزية أن التأسيس كان على يد الملك ريتشارد قلب الأسد، ولم يكن للهيئة عدد كبير من الفرسان، ولقيت دعماً من بيتر دي روش Peter de Roche عام٦٢٩هـ (١٢٣١م)، ووضعها تحت إشراف الداوية، كما غمرها الأمير إدوارد حين جاء إلي الشرق بعطفه، وبقيت الهيئة في عكا حتى٦٩٠هـ (١٢٩١م)، واتخذت لنفسها زياً تمثل في رداء أبيض وصليب أحمر فضي. انظر: محمود الحويري، الأوضاع الحضارية، ص٧٢-٣؛ محمد مؤنس، التنظيمات الدينية، ص٣٩٦؛ سهيل زكار، الموسوعة الشامية، جـ٣٣، ص٢٥٤-٢٥٦. وأيضاً:

King, The Knight Hospitallers, p. 306 ; Forey, "The Military Order of St. Thomas of Acre", in E.H.R., Vol. 92, No. 364 (Jul. 1977), pp. 481-503.

(٢) هيئة القديس لازاروس : كانت مخصصة لرعاية مرضى الجذام، وكان تأسيسها سابقاً للغزو الصليبي للشرق، واتخذوا لأنفسهم شعاراً خاصاً بهم تمثل في الصليب الأخضر المثمن الأطراف، وقد شاركت بدور عسكري يرجح أنه بدأ مع حملة لويس التاسع على مصر، وكان دورها محدود للغاية ومن ثم لم تلتف إليها المصادر كثيراً. عنها انظر: محمود الحويري، المرجع السابق، ص٧٣؛ محمد مؤنس، المرجع السابق، ص٣٩١؛ سهيل ذكار، الموسوعة الشامية، جـ٣٣، ص٢٠٥. وأيضاً: King, The Knights Hospitallers, pp.303-304.

(٣) نبيلة مقامي، فرق الرهبان، ص١٠٤.

(٤) محمود الحويري، المرجع السابق، ص٦٨.

http://www.al-maktabeh.com

فيما بينهم، وترجع جذور الصراع بين الداوية و الإسبتارية إلي عهد بلدوين الرابع – الملك المجزوم – [١]، غير أن الوقت لم يكن متسع لتظهر مشاكلهم على نطاق واسع على سطح الأحداث، فقد أنهت معركة حطين مملكة بيت المقدس الأولي وكذلك أنهت عهد الملوك الأقوياء، ومن ثم كان المجال فسيحا في القرن الثالث عشر للتنافس بين الهيئتين بعد أن صارا كفرسي رهان وغرقوا في أطماعهم في السيطرة وحب المال.

بدأ الصراع بين الداوية والإسبتارية يظهر على السطح منذ عام ٦٠٠هـ (١٢٠٤م)، ففي ذلك العام حدث نزاع بينهما، وسبب ذلك ادعاء الداوية ملكية منطقة تقع بين بانياس وقلعة المرقب، وكانت في حوزة فارس يدعي سيجين Seguin، والذي كان من أفصال الإسبتارية، فهاجموا قلعته وانتزعوها منه بالقوة، فرفع الفارس شكوى إلي قائد قلعة المرقب بيتر الاسكاري Peter de Escurai، الذي سارع باستخدام القوة في استرداد القلعة وأعادها إلي سيجين[٢]، ويبدو أن بيتر قد رأي في الأمر دلالة خطيرة على تجرأ الداوية على الإسبتارية وأنه إن لم يقم برد فعل قوي فسوف تهتز هيبة الإسبتارية في الساحل الشامي كله ويشاع عجزهم عن حماية أفصالهم، ومن ثم عجزهم عن القيام بدورهم في الدفاع عن الكيان الصليبي، وهي الغاية التي قدم من أجلها كثير من المانحين الهبات والعطايا للهيئة في الساحل الشامي وأوربا، ومن ثم تتراجع الهدايا والهبات وتتقلص أموال الإسبتارية التي تمثل مصدر قوتها الحقيقية في عصر عانت فيه المملكة ككل من النقص الخطير في الأموال.

غير أن الحادثة لم تقف عند ذلك الحد، فيبدو أن النار كانت تحت الرماد، وأن تلك الحادثة كانت فرصة لإظهار الأحقاد والضغائن التي يكنها كل فريق لنظيرة، وحين وقعت تلك الحادثة كانت متنفسا لما تجول به الصدور، وبسرعة تطور الموقف من نزاع على قلعة صغير إلي حرب مفتوحة بين الداوية والإسبتارية، فحيثما وجد جندي إسبتاري وآخر داوي، فثم قتال لا ينتهي إلا بهلاك أحدهما أو كلاهما، وبدا أن الصليبيين في الساحل الشامي قد

---

(١) رايلي سميث، الاسبتارية، ص٨٠-٩٤؛ نبيلة مقامي، المرجع السابق، ص١٠٥.

(٢) King, The Knight Hospitallers, p. 171.

مكتبة المهتدين الإسلامية

انحدروا إلي هوة الحرب الأهلية(١)، وقد حاول الملك عموري لوزجنان - الذي جمع بين عرشي قبرص وعكا - أن ينهي النزاع بمعاونة البطريرك، فلم يفلح سوي في تهدئة القتال أما القضية نفسها فلم تحل، ومن ثم رفع الأمر إلي البابا أنوسنت الثالث للفصل فيها، و أغضب الأمر البابا فوبخ ممثلي الهيئتين لحيدتهم عن الأهداف التي من أجلها تكونت الهيئتين، وطلب من سيجين رفع دعوى قضائية أمام محكمة تتكون من ممثلي إمارتي أنطاكية وطرابلس، يختارهم الإسبتارية ويوافق عليهم الداوية، وشكلت الهيئة وحكمت في النهاية بأحقية سيجين في المنطقة المتنازع عليها، ويري كينج(٢) أن سبب النزاع هو ضعف مقدمي الداوية و الاسبتارية الذين لم يحكموا قبضتهما على جنودهم بشكل كاف، ومن ثم صار المجال مفتوحا بين الفريقين، وهذا الأمر لا يخلو من وجاهه، غير أن ضعف المقدمين ليس وحده السبب بل الأمر راجع كما ألمحنا من قبل إلي سعى الهيئتين الدائم للظهور بمظهر القوة الأكبر، ولا نستبعد وجود ضوء أخضر من مقدم الاسبتارية لجنوده بوضع حد للداوية وتلقينهم درسا قاسيا حتى لا يتجرءوا ثانية على أملاك الاسبتارية.

على أن النزاع لم يتوقف بين الداوية الاسبتارية بعد تدخل البابوية بل هدأت النار، واختفت تحت الرماد لنتيجة التدخل البابوي، وانتظرت الفرصة لتندلع من جديد. ومن أشكال الصراع بين الهيئتين رفض الهيئة لأي أمر من الأمور لا لسبب وجيه سوي موافقة الهيئة الأخرى عليه، ففي ٦٠٧هـ (١٢١٠م) كان عرش مملكة بيت المقدس تحت وصاية حنا ابلين لان الملكة مارية بنت هنري كانت ما تزال قاصرا، وفي ذلك الوقت أرسل الملك العادل الأيوبي(٣)، ليجدد الهدنة وعقد مجلس صليبي للنظر في الأمر وأوصي المجلس بتجديد

---

(١) King, The Knight Hospitallers, p. 171

(٢) Ibid, p. 172.

(٣) الملك العادل: هو أبو بكر محمد بن أبي الشكر بن شادي بن مروان الملقب بالملك العادل، أخو صلاح الدين. ولد في المحرم سنة ٥٤٠هـ(١١٤٥م)، جاء إلي مصر في صحبة عمه أسد الدين شيركوه وأخيه صلاح الدين، وحين آل حكم مصر إلي صلاح الدين كان ينوب عنه فيها حال غيابه في الشام، وعقب وفاة صلاح الدين استطاع إعادة توحيد الدولة الأيوبية عام ٦٠٤هـ(١٢٠٧م) ثم قسم البلاد بين أبنائه، مصر للكامل والشام للمعظم عيسى والمشرق للأشرف والأوحد نجم الدين أيوب ميافارقين. توفي في ١٧ جمادى الأولي

http://www.al-maktabeh.com

الهدنة وأيد مقدم الاسبتارية، و مقدم التيوتون، الأمر، فما كان من مقدم الداوية[١] سوي تحريض الأساقفة على رفض التجديد بحجة أن الملك الجديد – حنا دي برين – الذي سوف يتزوج من ماريا ليس بوسعه قبول هدنة لم يوقع عليها[٢]، ولا يهمنا هنا مدي قانونية تصرفهم لكن الأمر واضح أنها معارضة للمعارضة، فتجديد الهدنة كان أمرا في مصلحة المملكة التي كانت تحت الوصاية، وتعاني من مشاكل لا حد لها وهو ما شجع حنا ابلين ومعه مجلس النبلاء على قبول تجديد الهدنة وتبني الإسبتارية وجهة نظره، ويبدو أن الداوية رأوا في ذلك رفعة للإسبتارية فقرروا تقويض ما سعى إليه خصومهم حتى لو كان في الصالح الصليبي العام.

ومن الواضح أن مقدم الداوية قد قرر الانتقام من مقدم التيوتون، لانتهاجه نفس توجه الإسبتارية في الموضوع سابق الذكر، فبحث عن أمر يعكر على التيوتون صفوهم فرفع دعوى أمام البابا بحجة تشبه التيوتون في ردائهم بالداوية، ويري الدكتور حسن عبد الوهاب[٣] أن سبب الدعوى هو خشية الداوية من تصاعد أهمية دور الفرسان التيوتون ومن الخلط بين فرسانهم وفرسان الداوية، ولا يخلوا ذلك التفسير من صحة غير أن الأمر كان انعكاسا مباشرا للحادث السابق كما أوضحنا سلفاً.

وبالرغم من اتفاق الداوية و الاسبتارية على مخالفة فردريك الثاني بسبب الحرمان البابوي، إلا أن الخلاف صار ديدنهم والمصلحة دليلهم، فلم يلبثا إلا قليل حتى اختلفا وساند الإسبتارية فلانجيري نائب فردريك في الشرق، ودعموا سياسته القائمة على التفاهم مع

=سنة ٦١٦هـ(١٢١٩م) ودفن بدمشق. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٢١، ص٧٥- ٧٩.

(١) في ذلك الوقت كان مقدم الاسبتارية هو جيرين مولتاجو Garin de Mont Agu، و مقدم التيوتون هرمان دي سالزا، ومقدم الداوية فليب بليس Philip de Ple.

(٢) L'Estoire d'Eracles, pp. 311-315.

رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٢٣٩؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص٩٥١.

(٣) حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص١٥٢.

مكتبة المهتدين الإسلامية

مصر، في حين ساند الإسبتارية الحزب المناوئ للإمبراطور متمثلا في قومون عكا وآل ابلين، ومن المسلم به أن تكون يد التيوتون في يد الإسبتارية لما لا وهم صنيعه أباطرة ألمانيا وبخاصة فردريك الذي جعل لهيئتهم قيمة كبيرة، بفضل ما قدم لها من دعم[١].

وبلغ العداء حده بين الفريقين إلي درجة الغضب من أي كسب يحققه أي من الطرفين حتى لو كان هذا المكسب من يد المسلمين – أعداء الطرفين – ففي عام ٦٣٨هـ (١٢٤٠م) تنازل الصالح إسماعيل[٢]، أمير دمشق للداوية عن حصن صفد، وهو ما أغضب الاسبتارية الذين حطموا التحالف مع دمشق بصلح مع الصالح أيوب مما قوض التحالف مع دمشق[٣].

---

(١) فليب دي نوفارا، حروب فردريك الثاني، ص٩٢.

Runciman, "The Crusader states", p.560; Marshall, Warfare in the Latin East, p.61.

(٢) الصالح إسماعيل: هو احد أبناء الملك العادل الأيوبي، حكم دمشق ١٢٤٠–١٢٤٥م(٦٣٧–٦٤٣هـ)، دخل في صراع مع الصالح أيوب بن أخيه الكامل ولم يجد من يحالفه سوى الصليبيين مما أساء إلي سمعته في الأوساط الإسلامية، وساعد الصالح أيوب على اجتياح الشام إعادة توحيد الدولة الأيوبية وعوض الصالح إسماعيل ببعلبك عن دمشق.

انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ٢٠٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص ٣٢٢وما بعدها، سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ١١٧–١٢٥.

(٣) في عام ٦٣٨هـ(١٢٤٠م) تمكن الصالح أيوب من السيطرة على مصر، مما أثار أحقاد حاكم دمشق الصالح إسماعيل، فقرر ضرب مصر بالتحالف مع الصليبين بعد أن يعقد تحالفاً معهم، وفي سبيل هذا التحالف قرر أن يتنازل للصليبيين عن حصني هونين وصفد، وسلمت قلعة صفد للداوية في حين سلمت هونين إلي باليان ابلين، وتسليم صفد للداوية ليس بالأمر المستغرب، فقد ارتبطت دمشق مع الداوية بعلاقات تجارية وثيقة، ويبدو أن الداوية كان لهم الدور الأكبر في عقد التحالف، ومن ثم فضل الأمير تيالد الشمباني تسليم المنطقة إليهم، أما هونين فقد كانت من قبل في يد الأبلينيين ومن ثم ردت إليهم، وبعيد عن التفاصيل فقد حقد الإسبتارية على الداوية لما حققوه من مكاسب فقرروا ألا يضيعوا على الداوية فرحة ما حققوه، فسعوا لتدمير الحلف الإفرنجي الدمشقي بأي صورة حتى لو كانت على حساب الصالح الصليبي العام، ففي ذلك الوقت عرض الصالح أيوب على الإفرنج إطلاق أسراهم في موقعة غزة، والسماح لهم باحتلال أطلال عسقلان مقابل التزام الحياد، فسارع الاسبتارية بالموافقة ووقعوا الاتفاق مع الصالح أيوب، ووافقهم تيبالد حرصاً على إطلاق سراح الأسرى من الفرنجة، وهو أمر ارتاع له سائر صليبيو الساحل بسبب خسارة التحالف مع دمشق، وهكذا تفتت الحلف الدمشقي الصليبي بسبب حقد الاسبتارية على الداوية. لمزيد من التفاصيل انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٣٠٢. انظر أيضاً:

L'Estoire d'Eracles, p.418

http://www.al-maktabeh.com

وقد ترتب على ذلك الحدث اشتداد العداوة بين الداوية والإسبتارية حتى إذا جاء إلي الساحل الأمير ريتشارد كورنوال[1]، وجد الشرق الإفرنجي يعاني من الصراع الصريح والخفي بين الداوية و الاسبتارية، وصار الفرنجة فريقين: النبلاء ساندوا الداوية بسبب رغبتهم في التحالف مع دمشق، وفلانجيري والقوات الإمبراطورية ساندت الاسبتارية بسبب سياسة الإمبراطور فردريك القائمة على الصداقة مع مصر. أما التيوتون فقد التزموا الحياد، وقد استغل فلانجيري هذا الخلاف في مهاجمة عكا عام ٦٣٩هـ (١٢٤١م) أثناء غياب باليان ابلين حاكم بيروت وكبير القومون عنها، غير أن هذا الهجوم فشل بفضل تصدي فليب مونتفورت له وعقاب للاسبتارية على موقفهم حاصر باليان مقرهم في عكا لمدة ستة شهور كاملة بدء من جماد الأول ٦٣٩هـ (نوفمبر ١٢٤١م)[2].

وقد ظهرت العداوة واضحة بين الداوية والاسبتارية في مسألة الخلاف حول العرش مثلما حدث عام ٥ يونيه ١٢٤٣م (٦٤١هـ)، حين اجتمعت المحكمة العليا للنظر في مشكلة العرش، وقررت وضع عرش المملكة تحت وصاية أليس ملكة قبرص، وكان ذلك انتصارا للداوية الذين أيدوا النبلاء في إجراءاتهم، في حين عارضه الإسبتارية بحجة الحفاظ على حقوق الملك الغائب، وكان انتصار النبلاء يعني فتح باب المفاوضات من جديد مع

=راجع أيضا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٧٩، ٣٨٠؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٠٣٧.

(١) ريتشارد كورنوال: كان شقيق هنري الثالث ملك انجلترا، وكانت أخته زوجة للإمبراطور فردريك الثاني، قام بزيارة الساحل الشامي عام ٦٣٧هـ(١٢٤٠م)، وقد منحه الإمبراطور فردريك تفويضاً بإدارة مملكة بيت المقدس فأحسن القيام بدوره ولقي وجوده ترحيباً من جميع قوى المملكة، غير أنه لم يمكث غير قليل ثم عاد إلي بلاده. انظر:

Matthew Parisis, English History, vol. II, p.250

وأيضاً: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٨٠-٣٨٢.

(٢) فليب دي نوفارا، حروب فردريك، ص١٧٧-١٧٨. انظر أيضاً:

Matthew Parisis, op. cit., vol. II, p.250. Cf. also, King, The Knight Hospitallers, p.224.

راجع أيضا: رنسيمان، الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٨١؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٠٤٠.

مكتبة المهتدين الإسلامية

دمشق، ومن جراء ذلك تحققت بعض المكاسب طير الداوية أخبارها إلي الغرب باعتبار أنها نصر للسياسة الداوية على حساب الإسبتارية، لكن النصر الداوي تبدل بعد قليل بخيبة وعار بعد أن اجتاح الصالح أيوب القدس عام ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) وما حققه الصليبيين من مكاسب دفعة واحدة[١]، ولا شك أن ذلك أثلج صدر الإسبتارية.

ومن الواضح أن الحلقات المتداخلة من الانتصارات والهزائم بين الداوية والإسبتارية قد جعلتهما يميلان إلي هدنة الصراع، خاصة في وجود لويس التاسع في الأرض المقدسة لمدة أربعة أعوام بعد نكسته في مصر، الذي كان كابحا لهم بفضل قوة شكيمته وتأييد البابا له بشكل أشعر الجماعتين بالحرج مما جعلهما يؤجلان تصفية حساباتهما حتى يرحل لويس، بحيث لم نسمع عن صدام واضح إلا بعد رحيله عن الشرق عام ٦٥٢هـ (١٢٥٤م)، وحين اندلعت الحرب الأهلية في الساحل الشامي حول دير سان سابا، وقف الداوية إلي جانب البنادقة في حين ساند الاسبتارية الجنوية[٢]، وكون الداوية حلفا لتدمير الاسبتارية وتكون هذا الحلف من الداوية وفرسان القديس أليعازر وفرسان القديس توماس، ودارت رحى الحرب بين الفريقين التي أسفرت عن مقتل جميع فرسان التنظيمات الثلاث، فيما عدا فارس واحد من الداوية تركه الاسبتارية يهرب ليروي لرفاقه ما جري لزملائه في المعركة، ويبدو أن الداوية في مملكة عكا قد ألقوا بثقلهم في هذه المعركة ومن ثم قتل معظم فرسانهم وعليه فقد شعروا بتحرج موقفهم وعجزهم عن الدفاع عن أنفسهم، فكتبوا إلي أوربا يطلبون إرسال أكبر قوة من الفرسان لتدعيم موقفهم في الشرق اللاتيني المتداعي[٣].

غير أن تصاعد الصراع وكثرة الخسائر، وتصاعدت الانتقادات من رجال الدين والعلمانيين على حد سواء، لتصرف الجماعات العسكرية التي تصارعت فيما بينها بسبب

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ١، ص٣١٨؛ فليب دي نوفارا، حروب فردريك ١٨٢. انظر أيضاً:
Matthew Parisis, English History, vol. II, p.260.
راجع أيضا، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٨٩-٣٩٤.

(٢) Read, The Templars, p.228.

(٣) King, The knight Hospitallers, p.255.

http://www.al-maktabeh.com

أمور مادية بحته مثل الخلاف على ملكية القرى والإقطاعات بعيد عن الأهداف التي قامت من أجلها، وفوق كل ذلك ظهور بوادر التقدم المغولي نحو المناطق الصليبية، وهي أمور تطلبت التنسيق بين الجماعات الرهبانية لتصفية ما بينها من خلافات استعدادا للتعامل مع الخطر القادم، ومن هنا تم عقد اتفاق سلام بين الجماعات الرهبانية العسكرية الكبرى المتمثلة في الداوية والاسبتارية والتيوتون في ٩ شوال ٦٥٦هـ (٩ أكتوبر عام ١٢٥٨م)[١] تعهدت فيه بعدم اللجوء إلي الوسائل العسكرية لتسوية الخلافات بينهم وعرضها على المحاكم المختصة للفصل فيها علمانية كانت أم كنسية، وفي حالة تعذر حل المشكلة يتدخل طرف ثالث غير مشارك في الخلاف للبت فيه بصور حيادية، كما تعاهدت الجماعات الثلاث على التعاون في حالة وجود خطر يهدد إحداها، كما تعهدت الجماعات الثلاث على عدم إقدام إحداها بشراء أملاك جديدة دون إخبار الجماعتين الأخيرتين للنظر في الأمر تجنبا للنزاع، كذلك تعهدت الجماعات الثلاث على أن هذا الاتفاق إلزامي للمقدمين الجدد الذين يتولون قيادة الجماعات الثلاث في شتي المناطق ولا ينتهي بموت من وقعوا على الاتفاق، ويلتزم كل مقدم جديد بتلاوة بنود الاتفاق أمام جمع من الجماعتين الأخرتين ضمانا لالتزامه به، كما وضع شرط جزائي في حالة المخالفة للبنود بأن يدفع المخالف للمحافظ ألف مارك من الفضة، واقسموا على ذلك ووقعوا عليه وأشهدوا بطريرك المملكة وجمع من نبلاء المملكة وأعضاء المحكمة العليا[٢].

وفي تقديرنا أن الاتفاق هام لكن الأهم منه درجة تطبيق الاتفاق وما أفرزه في مجريات الصراع الإسلامي الصليبي. والواضح لدينا أن التنسيق بناء على هذا الاتفاق كان محدودا إذا ما لبثت الخلافات أن دبت بين الهيئات الثلاث خاصة بين الداوية والاسبتارية، وجذور ذلك الخلاف قديمة بسبب تناقص أملاك الهيئتين في الساحل الشامي، مما أدي بالهيئتين إلي

---

(١) حسن عبد الوهاب، "وثيقتا اتفاق السلام بين الجماعات الرهبانية العسكرية ٩ من أكتوبر ١٢٥٨م، ١٣ مارس ١٢٧٥م دراسة وتحليل"، ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحضارة الأوربية في العصور الوسطي (المجتمع الصليبي في بلاد الشام)، الإسكندرية، ٢٠٠٠م، ص١٨٦-١٨٧.

(٢) وثيقة اتفاق جماعات الداوية وإسبتارية القديس يوحنا والقديسة مريم التيتونية، ترجمة: حسن عبد الوهاب، ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحضارة الأوربية في العصور الوسطي، ص٢١٠-٢٢٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

محاولة استغلال كل ما يمكن استغلاله لزيادة دخلهما، وفي هذا الإطار قام الداوية والاسبتارية ببناء طواحين على أنهار عكا، وقد بدأ النزاع منذ ٦٣٣هـ (١٢٣٥م) حين قام الداوية ببناء سد لرفع منسوب مياه نهر عكا، وقد أدي ذلك إلي إعاقة ملاحة سفن الإسبتارية في منطقة الطواحين، فسعت هيئة الاسبتارية إلي مضايقة الداوية فكتبوا إلي البابا يطلبون السماح ببناء سد جديد يخصهم، فحصلت الاسبتارية على تصريح من البابوية ببناء سد آخر بشرط عدم زيادة المياه عن نسبة محددة حتى لا تهدد طواحين الداوية. غير أن الخلاف تحول عام ٦٦١هـ (١٢٦٢م) إلي صدام عسكري بسبب اتهام الداوية للإسبتارية برفع منسوب مياه النهر بشكل يخالف ما تم الاتفاق عليه مما أعاق الملاحة في النهر بجانب حفر قناة لتحويل مياه النهر إلي مزارع القصب الخاصة بها وحرمان الاسبتارية من نصيبهم في النهر ولم ينتهي النزاع إلا بعد تدخل شخصيات صليبية كبيرة لم تذكرها المراجع[(١)]، يرجح أن يكون من بينها حنا بلين نائب المملكة والبطريرك وأعضاء المحكمة العليا.

ولم تكن تسوية ٦٦١هـ (١٢٦٢م) سوي تهدئة. أما الخلاف الأصلي أو العلاقة التنافسية بين الطرفين فلم تنته وظهرت في كثير من المناسبات، مثل قضية توريث العرش حين ساند الفرسان الداوية ماري الأنطاكية في دعواها، في حين ساند الإسبتارية الملك هيو الثاني، وكان لتأيد الداوية القوي لها دور في رفع ماري شكواها إلي البابا في روما غير أن الانتصار كان للإسبتارية ومؤيدي الملك هيو، ورغم ذلك جر تصرف ماري المملكة إلي مشكلة كبيرة تمثلت في تدخل شارل أنجو وادعائه أحقيته في العرش بحكم شرائه لحقوق ماري، وهو ما فتح على المملكة مشكلة الصراع بين الملك هيو وبين ممثلي شارل في المملكة ، وكان لتصرفات الداوية الدور الأكبر فيما تعرض له هيو من مشاكل جعلته يترك المملكة ويقيم في قبرص[(٢)].

---

(١) Benvenisti, The Crusaders in the Holy Land, Jerusalem, 1970, p.250.

وأيضاً: نبيلة مقامي، فرق الرهبان، ص١٠٧؛ لطيفة البوعنين، الحياة الاقتصادية، ص٢٢٠.

(٢) راجع ص ٧٠.

http://www.al-maktabeh.com

وفي ظل فتوح الظاهر بيبرس المستمرة لحصون الداوية والإسبتارية والتيوتون على السواء لم يحدث تعاون فعال بين الهيئات الثلاث في الدفاع عن حصونهم إلا في نطاق محدود مثل سماح الاسبتارية للتيوتون عقب فتح الظاهر بيبرس لحصن القرين باستخدام إحدى قراها – بصورة مؤقتة – في ٣٠ ذو القعدة ٦٦٩هـ (١٠يوليو ١٢٧١م) كنوع من المواساة المؤقتة[١].

غير أن أبلغ دليل على فشل معاهدة ١٢٥٨م في تحقيق أغراضها، وثيقة إصدارها البابا جريجوري العاشر في ١٤ رمضان ٦٧٣هـ (١٣ مارس عام ١٢٧٥م) يوثق فيها تقسيم الحدود بين ممتلكات الهيئات الثلاث والتي جاء في نصها أن سبب التوثيق من قبل البابوية " أن الدين لم يعد يلقي التبجيل الواجب، وانحلت رابطة الاهتمام والحرص بينهم، ولم تعد هناك مفاوضات عادلة في أرض بيت المقدس"[٢] وهو ما يوجب الرجوع إلي سلطة أعلى لإجبار الجميع على الالتزام بما يتعاهدون عليه.

على أن توثيق البابا للاتفاق لم يحل دون تجدد الصراعات بين الداوية والاسبتارية، ومن مظاهر الخلاف الذي شب بينهما ووصل إلي حد الاقتتال، ما نشب في عكا من قتال عام ٦٧٥هـ (١٢٧٦)، وسبب ذلك خلاف بين التجار المسلمين القادمين من بيت لحم وتجار النساطرة القادمين من الموصل، وقد أيد الداوية التجار المسلمين في حين أيد الإسبتارية التجار النساطرة، ونشب القتال بين الطرفين ولم يتم السيطرة عليه إلا بعد جهد جهيد من باليان ابلين نائب الملك والبطريرك[٣].

---

(١) Cartulare general des Hospitalires , no.3400, p. 231

وأيضاً: حسن عبد الوهاب، وثيقتا اتفاق السلام، ص١٩٢.

(٢) البابا جريجوري العاشر يوثق لأخوة الاسبتارية والداوية وأخوة منزل اسبتارية القديسة مريم التيتونية اتفاق تقسيم الحدود بينهم، ترجمة حسن عبد الوهاب، ضمن كتاب، دراسات في تاريخ الحضارة الأوربية، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٣) L'Estoire d'Eracles, p.474-475.

راجع أيضاً: رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٥٩١.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ومن الواضح أن ما ترسب بين الطرفين من خلاف أدى إلي انعدام الثقة بينهما بشكل جعلهما يحجمون عن أي عمل مشترك للدفاع عن حصون الطرف الآخر إذا ما هاجمها سلطان مصر ومن ثم صارت لقمة سائغة، حتى في أحرج أوقات الصليبيين لم يستطع الاسبتارية كظم غيظهم من الداوية، فحين حاول مقدم الداوية إيجاد وسيلة للصلح مع السلطان الأشرف، ثارت جموع الصليبيين متهمين إياه بالخيانة ويرجح أن الإسبتارية كان لهم دورا في ذلك ويقوي ذلك الترجيح رفض أي من الفريقين مد يد المساعدة لصاحبة أثناء اقتحام الأشرف لعكا - حسبما يروى فون سيخم[١] - أن كل منهم كان ينتظر في قلعته حتى يحل عليه الدور دون أن يحاول مد يد المعاونة لإخوانه من التنظيمات الأخرى.

كما نشب نزاع بين الداوية والفرسان التيوتون داخل المملكة الصليبية بسبب اختلاف سياسة الفريقين، مثل الخلاف على الأملاك الذي دار حول بعض الإقطاعات الزراعية قرب الشقيف أرنون التي آلت إلي الداوية من جراء رهن جوليان صاحب صيدا لأراضيه بسبب ديونه الكثيرة، ومن المناطق التي دار عليها الخلاف قرية دلهمي Delhamy قرب نهر الدامور، وقرية مكهيرا Mechaiera قرب نهر المعصرة أحد فروع الدامور، كما دار الخلاف بينهما على منطقتي Margekeeirolh و La lehedie وهما غير معلومتا الموضع، وقد استمر النزاع منذ امتلاك الداوية للشقيف حتى ألت المنطقة كلها إلي يد المسلمين في رمضان١٤ رمضان ٦٧٣هـ (١٣ مارس ١٢٧٥م)[٢].

على أن الأمر الذي يدعو للعجب هو أن الصراعات بين التيوتون وباقي الجماعات كان محدودة بخلاف الصراع الحاد بين الداوية والاسبتارية، ونرجح أن سبب ذلك هو إدراك التيوتون للمصير الذي تسير إليه المملكة بخطي سريعة ومن ثم نقلت نشاطها مبكرا إلي ساحل البلطيق لنشر المسيحية هناك وامتلاك أراض جديدة بعيدة عن سيوف المسلمين التي فتحت المعاقل الصليبية الواحد بعد الآخر[٣].

---

(١) Von Suchems, Description of the Holy Land, p.55.

(٢) حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص٢٨٨، حاشية ٣٧.

(٣) نفسه، ص ٢٨٨، حاشية، ٣٧

http://www.al-maktabeh.com

ومهما يكن من أمر فلم يقدر للهيئات الدينية أن تتعاون مع بعضها بالشكل الكافي، في سبيل صمود مملكة عكا أمام الفاتحين المسلمين وبصفة خاصة الداوية والاسبتارية – وهما أكبر هيئتين عسكريتين تكونتا للدفاع عن الكيان الصليبي – لم تستطيعا أن تسيرا في خط واحد رغم وحدة الهدف في الظاهر، فكانت النتيجة وبالا على الكيان الصليبي ككل، مما ساعد على تتضعضع الكيان الصليبي من الداخل مما سهل مهمة الفاتحين المسلمين في تقويض بناء المملكة من الخارج، وهذا الأمر يتضح لكل مراجع لتاريخ الفتوح المملوكية للمعاقل الصليبية فلم نسمع عن تحرك من أي من التنظيمات العسكرية لمساعدة معقل من معاقل أي تنظيم آخر، بل صار كل فريق ينتظر أن يخسر الفريق الآخر أي من أملاكه حتى يشمت فيه ويثبت له أنه الأضعف.

الصراع بين الجاليات الإيطالية

أما ثالث الصراعات التي عانت منها المملكة فقد تمثلت في الصراع بين الجاليات الإيطالية، وكنا قد ألمحنا من قبل إلي حاجة الصليبيين الملحة إلي الجمهوريات التجارية الإيطالية ودورها الكبير في السيطرة الصليبية على مدن الساحل الشامي والحفاظ عليها، وقد أدرك الإيطاليون تلك الحاجة، ووجدوا أن التعاون مع ملوك بيت المقدس سوف يدر عليهم أرباحا طائلة من جراء السيطرة على الموانئ الشامية، وعلى هذا فقد اندفعت المدن الإيطالية التجارية تقدم العون للصليبيين مقابل الحصول على الامتيازات التجارية التي تضمن لهم السيطرة على موارد الشرق، غير أن فكرة التعاون بين تلك الجمهوريات لم تكن واردة فقد حرصت كل جمهورية على الحصول على أكبر قدر من الامتيازات التي تمكنها من تحقيق أكبر استفادة من خيرات الشرق، وفي نفس الوقت حرمان أي منافس تجاري من تلك الامتيازات وما يترتب عليها من فوائد[١].

وسعى ملوك مملكة بيت المقدس الأولى إلى الموازنة بين البنادقة والجنوية، وغيرها من المدن الإيطالية، وبالرغم من التنافس التجاري بين هذه الجمهوريات إلا أن الأمر لم يصل إلي حد

---

(١) حول انتشار الجاليات الإيطالية في مدن مملكة عكا انظر الفصل الرابع، ص ٢٠٣.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الاقتتال، حتى سطر صلاح الدين نهاية هذه المملكة بنصل سيفه في حطين. ومع إحياء مملكة بيت المقدس ثانية في عكا تبدل الوضع، في ظل المساعدات التي قدمتها هذه الجمهوريات للحملة الصليبية الثالثة، وتعزز موقفها وقوتها في المملكة الصليبية وترتب على ذلك تدخل هذه الجاليات في الصراعات الداخلية في المملكة،وقد أسهمت الصراعات الداخلية في مملكة عكا في تصاعد الصراع بين الجاليات الإيطالية، وتحول هذا الصراع من تنافس تجاري إلي صراع مسلح أكل أحشاء المملكة، وجلب عليها العطب من الداخل مما سهل جهود المجاهدين المسلمين من الخارج، ويمكننا أن نقسم الصراع بين الجاليات الإيطالية إلي مرحلتين: الأولي امتدت من بداية العقد الأخير من القرن الثاني عشر حتى قرابة منتصف القرن الثالث عشر ودار فيها الصراع بصورة أساسية بين البيازنة من جهة، وبين الجنوية والبنادقة من جهة أخرى. أما المرحلة الثانية فقد بدأت عقب رحيل لويس عام ٦٥٢هـ (١٢٥٤م) واستمرت حتى نهاية الوجود الصليبي في الساحل الشامي وكان البنادقة والجنوية فرسي رهان هذه المرحلة.

أما عن المرحلة الأولي، فقد بدأت عام٥٨٧هـ (١١٩١م) من جراء الصراع على العرش بين كونراد مونتفرات وبين جاي لوزجنان، وسعى كل منهما إلى تقوية موقفه بالحصول على عون الجاليات الإيطالية فأغدق كونراد المنح على الجنوية وفعل مثله جاي بالتوسع في المنح للبيازنة، وهو ما دفع كونراد إلي طرد البيازنة من صور وتمكين الجنوية فيها، مما تسبب في فتح باب الحرب بين البيازنة والجنوية في عكا، ووصل الأمر إلي حد تدبير الجنوية مؤامرة لتسليم المدينة لكونراد، مما أدى إلي اقتتال في شوارع عكا، غير أن البيازنة أنقذوا الموقف وتمكنوا من السيطرة على عكا ثلاثة أيام باسم الملك جاي، وطلبوا معاونة الملك ريتشارد الذي توسط بين فليب وجاي حتى نزع فتيل الحرب في ذلك الوقت الحرج[1].

---

(١) مجهول، الحرب الصليبية الثالثة، جـ٢، ص١٤٤-١٤٧؛ هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص٣٢١؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص١٢٢؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٨٨٥؛ مصطفي الكناني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، جـ٢، ص١٩٩؛ عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطي، دمشق،١٩٨١م(١٤٠٠هـ)، ص١٤٥.

http://www.al-maktabeh.com

وكان لتسوية مشكلة عرش مملكة عكا بمنحها لفليب مونتفرات وبيع ريتشارد قبرص لجاي لوزجنان عام ٥٨٧هـ (١١٩١م) دور في تهدئة الصراع بين البيازنة والجنوية، غير أن الصراع سرعان ما تجدد، وكان للصراع على العرش دور أيضا، فلم ينس جاي عرش القدس وقرر الاستفادة من إمكانيات قبرص في العودة للساحل الشامي، وطرد هنري شامبني - الذي خلف فليب مونتفرات - منها، ويذكر المؤرخ المجهول أن البيازنة هم من شجعوا جاي على ذلك، ويبدو أن ذلك صحيحاً في ظل ما أسبغه هنري على الجنوية من امتيازات وما أظهره من أحقاد تجاه البيازنة، الذين استمروا على اتصال بالملك المخلوع في قبرص، وعلى الفور ساند البيازنة جاي، في حين ساند الجنوية الملك هنري، ورغم محاولة الملك هنري تسوية الأمر مع البيزيين في جماد الأولى ٥٩٠هـ (مايو ١١٩٣م)، إلا أنهم قاموا بأعمال قرصنة حيال السفن الداخلة والخارجة من ميناء عكا مما جعل هنري يقرر طرد البيازنة من صور وعكا ومن المملكة كلها، بعدما تأكد من تدبيرهم لمؤامرة لتسليم المدينة لجاي، وبقوا خارجها حتى تصالح هنري مع عموري لوزجنان عام ٥٩٢هـ (١١٩٥م)[١].

وتمكن القاصد البابوي الكاردينال بير دي مارشيلليو Pierre de Marcello في عام ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) من تسكين الخلاف فيما بينهما، غير أن الأحقاد بقيت في القلوب حتى تجددت عام ٦١٩هـ (١٢٢٢م) واندلع القتال في شوارع عكا بين البيزيين والجنوية، وفي البداية انهزم البيزيون، الذين انتقموا بإشعال النار في عدد كبير من مباني المدينة، ونتج عن ذلك ارتكاب الجنوية خطأً تكتيكيا بالتخلي عن مواقعهم والإسراع لإنقاذ مبانيهم من الحريق مما سمح للبيازنة بالارتداد وهزموا الحزب المعادي لهم، ونتج عن ذلك إرسال جمهورية جنوة أسطول حربي إلي عكا لإجبار حكومتها على دفع تعويضات عما أصاب أملاك الجنوية في المدينة دون جدوى[٢].

---

(١) مجهول، ذيل تاريخ وليم الصوري، ص٢٤٤-٢٤٦. انظر أيضاً:

L'Estoire d'Eracles, pp.202-203.

راجع أيضاً: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص١٥٧؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص٩٠٥؛ عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص١٤٥.

(٢) هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص٣٤٨.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ولم تنته النزاعات بين البيازنة والجنوية عند هذا الحد بل تجددت مع وصول الإمبراطور فردريك إلي الشرق عام ٦٢٧هـ (١٢٢٩م) فيما عرف بالحملة الصليبية السادسة، مما أدي إلي انتقال الصراع بين الحزب البابوي [الجلفيين] والحزب الإمبراطوري [الجبيليون] إلي الشرق، وكانت جمهورية بيزا تؤيد الحزب الإمبراطوري في حين كانت جمهورية جنوة تؤيد الحزب البابوي، وعليه فما أن وصل الإمبراطور فردريك إلي الشرق حتى وقفت بجانبه الجالية البيزية في حين وقف الجنوية والبنادقة مع الحزب المؤيد للبابا الرافض لنفوذ الإمبراطور المحروم(١)، وكان اندلاع الصدام المسلح بين الإمبراطور وبين الحزب الرافض له، يعني صدام بين الجاليات الإيطالية المتنافسة، وصار سفك الدماء في القتال بين الجنوية والبيازنة من الأمور المعتادة في شتى مدن مملكة بيت المقدس، وفي سبيل تدعيم مساندة الجنوية لقومون عكا المناوئ للإمبراطور، قام حنا بلين رئيس القومون بتوقيع اتفاقية مع الجنوية في جماد الأولي ٦٢٩هـ إبريل(١٢٣١م) منحهم فيها امتيازات تجارية وإقطاعية في قبرص ومملكة عكا، مقابل دعم الجنوية البحري لقوات القومون في مواجهة الإمبراطور والبيازنة المؤيدين له، ووفي قوميون جنوة بوعده وأرسل فرقا عسكرية لمساندة قوميون عكا، وزاد موقف البيازنة سوءا بتدخل البابا بين الجنوية والبنادقة حتى عقدا اتفاقية تحالف هجومي مشترك ضد البيازنة(٢)، واستمرت المواجهات بصورة اعتيادية بين الجنوية والبيازنة طوال الربع الثاني من القرن الثالث عشر(٣)، وبلغت ذروتها عام ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) حين انخرط الطرفين في أعمال عنف في مدينة عكا لمدة أربعة أسابيع أتت على قوة الطرفين حتى أن لويس حين طلب من الجنوية سفنا لنقل ٦٠٠ جندي لمساعدة أنطاكية على التصدي لهجمات التركمان فإنه لم يجد سفن تكفي لنقلهم بسبب هذه الحرب(٤)، ونتج عن هذه

---

(١) فليب دي نوفارا، حروب الإمبراطور فردريك، ص٩٣، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٣٦. La Monte, Feudal Monarchy, p.241.

(٢) هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص٣٤٦.

(٣) فليب النوفاري، المصدر السابق، ص٩٣؛ رنسيمان، المرجع السابق، جـ٣، ص٣٣٣-٣٥٨؛ عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص١٤٧-١٤٩.

(٤) Hill, A History of Cyprus, vol. II, p.141.

http://www.al-maktabeh.com

الحرب مقتل الكثير من الجنوية الذين تعرضوا للهزيمة، ولم يتوقف القتال حتى تدخل حنا ابلين سيد أرسوف ونائب الملك وعقد هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات(١).

ومع ضعف الجبليين نتيجة وفاة فردريك الثاني٦٤٨هـ (١٢٥٠م) ضعف البيازنة وتضاءلت قوتهم ولم يعودوا يمثلون منافسا حقيقيا للجنوية أو البنادقة(٢)، ومع ضعف البيازنة وكسر شوكتهم وجد الجنوية والبنادقة نفسيهما في مواجهة كل منهما الآخر، وبدأت تظهر على السطح الأحقاد والمصالح المتضاربة مما أسهم في دخول الطرفين في حرب مفتوحة.

وفي الماضي كان هناك توازن في العلاقات بين البنادقة والجنوية، ولكن في عام ٦٠١هـ (١٢٠٤م) حدث اختلال في هذا التوازن حين مال الميزان لصالح البنادقة الذين استطاعوا السيطرة على تجارة البحر الأسود، بعدما أسهموا بنصيب الأسد في قيام المملكة اللاتينية في القسطنطينية(٣)، وهو أمر جعل الأحقاد تتصاعد بينها وبين الجنوية الذين خسروا كثير من حقوقهم القديمة في القسطنطينية، وصار الأمر بينهما كثأر سعى الجنوية إلي الانتقام له لما يقرب من الستين عاما، غير أن الظروف في الشرق اللاتيني لم تكن لتسمح بإظهار العداء بينهما في ظل وجود منافس خطير لكلا الطرفين ألا وهو البيازنة، وعليه فقد اتفقا على تصفية الجانب البيزي، ولم يتم ذلك إلا بزوال نفوذ آل هوهنشتاوفن بعد وفاة الإمبراطور فردريك الثاني عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م)(٤)، ومن ثم فقد البيازنة نصيرهم، وآلت قوتهم إلي الأفول والتراجع، مما منح الجنوية والبنادقة مجالاً أكثر اتساعاً للتنافس وتسوية الحسابات القديمة بينهما، من خلال حرب أهلية بدأت بين البنادقة والجنوية سعياً للاستئثار بتجارة الساحل الشامي، فقد طمعت البندقية في السيطرة على تجارة جميع مناطق شرق المتوسط، في

---

(١) هايد، المرجع السابق، جـ١، ص٣٤٨.

(٢) عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص١٤٨.

Lane (frederic C.), Vince A Maritime Republic, (London, 1973), p.73.

(٣) Nicol, Byzantium and Venice, pp.142-147.

(٤) Dotson (John E), Fleet operational in the first genoese-Venetian war, 1264- 1266, in MRS., V. 30, university of California, Los Angeles (1999), on www.deremilitari.org

مكتبة المهتدين الإسلامية

حين أرادت جنوة إحداث توازن بينها وبين البندقية، فإذا كانت تجارة آسيا الصغرى والبحر الأسود قد صارت في أيدي البنادقة فيجب أن يكون الساحل الشامي من نصيبها[١]، كانت هذه هي الأسباب الحقيقية للحرب بين الجاليتين الجنوية والبندقية.

ويرى عدد من الباحثين [٢] أن جذور الصراع بين الطرفين تعود إلي عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) على إثر قيام أحد البنادقة بقتل مواطن جنوي في عكا، فأسرع الجنوية إلي السلاح وأبوا إلا الثأر وكان ذلك بداية لسلسلة طويلة من القتال[٣]، غير أننا لا نتفق معهم ومرجع ذلك إلي عدة أمور منها أن خطر البيازنة كان ما يزال قائما وهو الخطر الذي جمع شمل الفريقين كما ذكرنا من قبل، كما أن خبر وفاة الإمبراطور فردريك لم يكن قد علم في الشرق اللاتيني – على الأرجح – بعد وهو نصير وسند البيازنة، كما أنه في هذا العام وصل الملك لويس التاسع إلي المملكة واستطاع إحكام وثاقها، وبالتالي لم نسمع طوال السنوات الأربع التي قضاها في المملكة أي خبر لصراع بين الجاليات الإيطالية أو حتى الهيئات الدينية، ويؤكد ما فرضناه اتفاقية الصداقة التي وقعت عام ٦٤٩هـ (١٢٥١م) بين الجاليتين الجنوية والبندقية، ربما لتصفية ما دب بينهما من خلاف بسبب الحادث سابق الذكر[٤]. أما عقب رحيل لويس عام ٦٥٢هـ (١٢٥٤م) فقد عانت المملكة من الفراغ السياسي مما فتح المجال من جديد لمثل هذه الصراعات[٥]، كما ضعف أمر البيازنة في ظل الضعف الواضح لآل هوهنشتاوفن في أعقاب وفاة فردريك ١٢٥٠م ثم ابنه كونراد الرابع عام ١٢٥٤م [٦]،

---

(١) La Monte, Feudal Monarchy, p.240; Lane, Venice, p.73.

(٢) هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص٣٤٩ ؛ سعيد عاشور، الحروب الصليبية، جـ٢، ص١١٠٦؛ عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص١٤٩.

Lane, op. cit., p. 73

(٣) هايد، المرجع السابق، جـ١، ص٣٤٩.

Dotson (John E), Fleet operational, on www.deremilitari.org

(٤) هايد، المرجع السابق، جـ١، ص٣٤٩.

(٥) راجع الفصل الأول ص ٥٠.

(٦) L'Estoire d'Eracles, p.442.

http://www.al-maktabeh.com

وبالتالي زال الخطر الذي كان يهدد الطرفين والمتمثل في البيازنة، وزال ما يكبح جماحهم متمثلا في رحيل لويس التاسع؛ مما أفسح المجال لتصفية الحساب بينهما، وعلى هذا فالأقرب إلي الصواب هو عودة جذور الصراع الفعلي بين البنادقة والجنوية في الشرق يعود إلي ٦٥٣هـ (١٢٥٥م) كما ذكر لامونت[١].

وبناء على ما سبق فإن الخلاف حول دير القديس سابا Sabas[٢] يمثل بداية السلسلة في الحرب الطويلة بين الجاليتين البندقية والجنوية، التي تمثل جزءاً من حرب أكبر دارت رحاها بين الجمهوريتين الأم، وكان دير القديس سابا يقع على قمة تل مونجوا Montjoie وهو تل كان يفصل بين حي البنادقة وحي الجنوية في عكا، وفوق التل كان يوجد دير يحمل اسم القديس سابا، واختلف البنادقة والجنوية حول ملكية الدير، وابرز كل منهم وثائق تثبت أحقيته في الدير[٣]، ولم يكن الخلاف لمجرد السيطرة على الدير، ولكن بسببه رغبة كلا الطرفين في السيطرة على ميناء عكا من خلال موقع الدير الإستراتيجي المشرف على الميناء[٤].

ولم يترك الجنوية مجالاً لصوت العقل، وبدلا من حل النزاع بالطرق السلمية قرروا الإسراع باستخدام القوة العسكرية لحسم الموضوع ككل، ووضع البنادقة وجميع سكان المملكة أمام الأمر الواقع، فقاموا ذات يوم من أوائل عام ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) بالاستيلاء

---

(١) La Monte, Feudal Monarchy, p.240

(٢) القديس سابا: ولد فى موتالاسكا Mutalaska في قبادوقيا قرب قيصارية عام ٤٣٩م، كان ابناً لأحد الضباط، وفي عام ٤٥٦م دخل دير القديس ثيوكتيستس St. Theoctistus في القدس وحين بلغ الثلاثين صار راهباً، أسس في القدس ديرا خاصا به، وجذب كثير من المريدين من مصر وأرمينيا وبني عدة مستشفيات وأديرة، وفي عام ٥١١م كان ضمن وفد الرهبان الذي ذهب إلي الإمبراطور أنستاسيوس الأول Anastsius لمناقشة بعض أمور العقيدة، وحين بلغ الواحد والتسعين ذهب ثانية إلي القسطنطينية لزيارة الإمبراطور جستينيان عام ٥٣١م، وتوفي عقب عودته بقليل في ٥ من ديسمبر ٥٣٢م. لمزيد من التفاصيل عن سان سابا انظر:

Delaney, Dictionary of Saints, London, 2nd edition, 1980, p.543; Attwater, The Penguin Dictionary of Saints, p.291.

(٣) L'Estoire d'Eracles, p.443. Cf. also,Marshall (Christopher), Warfare in the Latin East, 1192-1291, (London, 1994), p.39.

وانظر ايضاً: هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص٣٤٩-٣٥٠؛ ماير،الحروب الصليبية، ص٣٩٣.

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٠٧.

مكتبة المهتدين الإسلامية

على موضع الدير بقوة السلاح وهاجموا حي البنادقة[١]، وفي نفس الوقت تقريبا حدث نزاع حول سفينة كانت راسية في ميناء عكا، فقام الجنوية بالاستيلاء على كل السفن البندقية في الميناء، ولقي الجنوية تأييد البيازنة و اجتاحوا مساكنهم في المدينة حتى كادوا أن يلقوا بهم في البحر، ولم يكتف الجنوية بالبيازنة حلفاء بل بحثوا عن مؤيدين لهم من نبلاء المملكة فوجدوا في فيليب مونتفرات –حاكم صور– خير من يعاونهم[٢].

وفي هذا السياق ثمة أسئلة ثلاث تطل برأسها لتستفسر قائلة: ما هي أسباب جنوح الجنوية إلي استخدام القوة لفرض الأمر الواقع في نزاع كان من الممكن إنهائه بالوسائل السلمية؟ وما هي أسباب تأييد البيازنة للجنوية بالرغم من عدائهم التقليدي؟ وأخيراً ما هي الأسباب التي دفعت بفيليب لينضم لصف الجنوية بالرغم من التواجد القوي للبنادقة في صور وضواحيها؟

أما عن السؤال الأول فيمكن الإجابة عنه من خلال الأحداث التي جرت في تلك الفترة وما قبلها، فربما خشي الجنوية من أن يسبقهم البنادقة إلي استخدام القوة لحسم النزاع وبالتالي يتمكن البنادقة من فرض هيمنتهم على تجارة الساحل الشامي كما فعلوا مع تجارة البحر الأسود بعد عام ٦٠٠هـ (١٢٠٤م)[٣]، وعلى هذا قرروا استخدام القوة للاستفادة من فائدة المبادرة بالهجوم مما يقوي مركزهم ويحقق أهدافهم، وربما تنجح خطتهم عندها تصير تجارة الساحل الشامي في أيديهم فيعوضوا ما خسروه من جراء احتكار البندقية لتجارة البحر الأسود، ولعل مفاجأة الجنوية بالهجوم يؤكد ما رجحناه من قبل حول تاريخ بدء العداء بين الجنوية والبندقية في الساحل الشامي.

---

(١) L'Estoire d'Eracles, p.443; Annales de Terre Saint, p.447. Cf. also, La Monte, Feudal Monarchy, p.240; Lane, Venice, p.73.

وانظر أيضا : هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص ٣٥٠؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٨٧؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٠٧؛ سامية عامر، الصليبيون في فلسطين، جبيل لبنان، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص١٢٣.

(٢) L'Estoire d'Eracles, p.443.

(٣) هايد، المرجع السابق، جـ١، ص٢٧٦.

http://www.al-maktabeh.com

وفيما يتعلق بأمر التحالف البيزي الجنوي في مواجهة البنادقة، فمن المرجح أن الجنوية قد وعدوا البيازنة بمكاسب كبيرة من وراء هذه المساندة، وفي ظل الخسائر التي تعرض لها البيازنة من جراء ضعف آل هوهنشتاوفن وعدائها السابق للجنوية والبنادقة قرروا قبول التحالف علهم يعوضون جزء من خسائرهم، ويؤكد صدق هذه الفرضية ما حدث بعد ذلك من تحول البيازنة من التحالف مع الجنوية إلي التحالف مع البنادقة.

أما أمر مساندة فيلب مونتفرات للجنوية فلم يكن ذلك من فراغ، ولا وليد لحظة النزاع بل جاء نتيجة خلاف فيليب مع البنادقة حول ملكية عدد من قري صور، بجانب رغبته في الاستيلاء على ثلث المدينة الذي سيطر عليه البنادقة منذ زمن بعيد .يعود إلي عام٥١٨هـ (١١٢٤م)[١].

ومهما يكن من أمر فقد نتج عن هذا الهجوم الجنوي خسارة البنادقة لموضع الدير، ووقوع ميناء عكا تحت رحمة الجنوية، الذين نهبوا سفن البنادقة المربوطة في رصيف الميناء، ناهيك عن خسائر منازل البنادقة، التي تركها الجنوية أمام صلابة مقاومة أهلها، لكن بعد أن نهبوها، وتركوها خرابا، كأن لم تك بالأمس مظهرا لفخامة وثراء الجالية البندقية في عكا. ثم أراد الجنوية الاحتفاظ بما حققوه من أرباح، فسعوا للصلح مع البنادقة استجابة لطلب جمهورية جنوة من جاليتها في عكا باسترضاء الجالية البندقية[٢]، غير أن البنادقة لم يقبلوا بصلح مهين بعد هزيمتهم، وقرروا أن يغسلوا عار الهزيمة بنصر مدو حتى يعلم الجميع قوة الجالية البنادقة فلا يزال الجميع يهابونها.

وقبل الدخول في مواجهة مباشرة سعوا أولاً إلي عقد تحالف هجومي في وجه الجنوية، وبدءوا بالبيازنة فأقنعوهم بالتخلي عن الجنوية والانضمام إليهم وذلك في عام ٦٥٥هـ

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٨٨؛ ماير، الحروب الصليبية، ص٣٩٣؛ عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص١٥٠. وأيضاً:

Jacoby, New Venetian Evidence, p.241.

(٢) رنسيمان، المرجع السابق، جـ٣، ص٤٨٨؛ سامية عامر، الصليبيون في فلسطين، ص١٢٣.

مكتبة المهتدين الإسلامية

(١٢٥٧م)[١] وكان لبايل[٢] البندقية في عكا مـاركو جـستينياني Marco Giustiniani، الدور الأكبر في تقوية هذا الحلف، حين نجح في استقطاب حنا ابلين سيد أرسوف ونائـب ملك قبرص، ولم يكن قبول سيد أرسوف التحالف مع البنادقة من فراغ، فقد دفعته عـدة أمور إلي هذا التحالف منها: تعرض قريبه حنا ابلين سيد يافا لمحاولة اغتيال على يد الجنوية. كما شب خلاف بين آل ابلين وبين فليب مونتفرات، بالإضافة إلي خطورة تصرفات فليب مونتفورت التي أظهرت تهاونه بقوانين المملكة حين اتجه للاستيلاء على حقوق البنادقـة في صور دون الرجوع إلي المحكمة العليا للمملكة. كما كان الجنوية هم البادئون بالقتـال دون إعطاء الفرصة للمحكمة العليا للتوسط في التراع وحله بالطرق السلمية.

كما ساند قومون عكا البنادقة بسبب ما ظهر من سعي فليب مونتفرات إلي تنمية مكانة صور بحيث تتحول إلي منافس تجاري لمدينة عكا، وهو أمر لم يكن هـم أن يـسكتوا عليه[٣]، بجانب سخاء البنادقة في دفع أجر كل من يقبل العمل على شوانيها من أهل عكـا أثناء القتال حين عرضوا ١٠ بزنتات إسلامية لليوم و ٩لليلة وهو مبلغ ضخم جدا بمقيـاس ذلك العصر[٤].

كما لقي البنادقة الدعم من جماعة الفرسان التيوتون، ولعل سؤلا يطرح نفـسه حـول سبب تأييد التيوتون للبنادقة أعداء الهوهنشتاوفن الألمان، غير أن الإجابة عن هذا التـساؤل ليست عسيرة في ضوء استقراء الأحداث، ففي هذه الفترة كانت أسرة الهوهنشتاوفن تميـل إلي الأفول، ومن ثم التعلق بها ليس أمرا صحيا لجماعة التيوتون، وربما يؤدي إلي صدام مـع

---

(١) L'Estoire d'Eracles, p.443; Annales de Terre Sainte, p.448. Cf. also, Lamonte, Feudal monarchy, p.240; Marshal, Warfare in the Latin East, p.40.

(٢) البايل البندقي: كان موظفاً تعينه المدينة حكومة البندقية الأم لإدارة شئون الجالية في الـشرق اللاتـيني، وغالباً ما كان يقيم في عكا، وأول من تولى هذا المنصب كان بانتاليوني باربو Pantaleone Barbo في عهد هنري شامبني. انظر: هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص٣٣٦.

(٣) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٨٨؛ ماير، الحروب الصليبية، ص٣٩٣.
Marshall, op. cit, p.40; Edbury, The Kingdom of Cyprus, p.86.

(٤) Marshall, op. cit., p.86.

http://www.al-maktabeh.com

البابا في وقت لن يجدوا فيه من يناصرهم كما فعل فردريك الثاني من قبل، وفي نفس الوقت كان الجنوية في الأساس أعداء للهوهنشتاوفن، وفي ظل الأمواج المتلاطمة في المملكة الصليبية اتجه مقدم التيوتون أنو أف سانجر هاوزن[١] إلي البحث عن مصلحة الجماعة فوجدها في جانب البنادقة وعليه فقد مال إليهم[٢]، كما حصل البنادقة على دعم تجار البروفانس نتيجة ما بينهم وبين الجنوية من منافسة تجارية في غرب البحر المتوسط[٣].

ونتيجة مساعي جوستينياني سعى الجنوية أيضا لاستقطاب أي قوة لتأييدها حتى غدت المملكة حزبين ممهدين لحرب أهلية في الساحل الشامي والبحر المتوسط، وتكون الحزب البندقي من الجالية البندقية، وبطريرك بيت المقدس، وفرسان الداوية وفرسان التيوتون، والجالية البروفنسالية، وحنا أبلين نائب ملك قبرص. في حين تكون الحزب الجنوي من الجالية الجنوية وفرسان الإسبتارية[٤]، وتجار أنكونا وكتالونيا[٥]، وأمراء جبيل من أسرة أمبرياكو[٦] الجنوية، الذين قدموا مساعدات ضخمة لحلفائهم، كما سارع بوهمند السادس بمساندة البنادقة نكاية في عائلة امبرياكو التابعة له والتي تدخلت في الصراع دون إذن منه[٧]، بجانب فليب مونتفرات حاكم صور[٨]. وبذلك تحول النزاع حول دير القديس سابا من خلاف

---

(١) أنو أف سانجر هاوزن: مقدم الفرسان التيوتون في الفترة من ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) إلي ٦٧٢هـ (١٢٧٣م). عنه انظر:

Crusades an Encyclopedia, vol.1, pp. 63-64.

(٢) حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص٢٧٠.

(٣) Dotson (John E), Fleet operational,-Source www.deremilitar i.org

(٤) John of Ibelin , Le Livre des Assises, ed. Edbury, P. W, Leiden, 2003 intro. P.1; Marshall, Warfare in the Latin East, p.61.

(٥) مجهول، ذيل وليم الصوري المنسوب خطأ إلي روتلان، ص ٢٣٤. انظر أيضا:

La Monte, Feudal Monarchy, p.240; Lane, Venice,p. 74

راجع أيضاً: هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص٣٥٠.

(٦) عن أسرة أمبرياكو راجع: سامية عامر، الصليبيون في فلسطين، جبيل لبنان، القاهرة، ٢٠٠٢.

(٧) سعيد عاشور، الحروب الصليبية، جـ٣، ص١١٠٩؛ سامية عامر، المرجع السابق، ص١٣٤.

(٨) Warfare in the Latin East, p.40.

مكتبة المهتدين الإسلامية

محلي في مدينة عكا إلي حرب أهلية شملت الساحل الشامي كله. وبالطبع تدخلت جمهورية جنوة وجمهورية البندقية، وأرسل كل منهما الدعم لجاليته متمثلاً في قطع الأسطول المدجج بشتى أنواع الأسلحة(١).

ولم يكن الجنوية من المرونة بما يكفي لتقدير الموقف ووزن الأمور قبل الدخول في مواجهة مع الحزب البندقي، فقد أدركوا ضعف موقفهم بعد تخلي البيازنة عنهم بجانب ضعف المؤيدين لهم، رغم كل ذلك قرروا مواصلة الطريق حتى يفصل السيف بين الجانبين، وربما أدرك الجنوية أن البنادقة لن يقبلوا أي تسوية، وأنه لا مجال للتراجع لأن هذا التراجع سوف يزيد من وقع الكارثة، وبدأ الجنوية بالبيازنة فدمروا أحد أبراجهم، واستعدوا للتصدي للأسطول البندقي الوشيك الوصول(٢)، غير أن وصول الأسطول كان أسرع مما توقع الجنوية، فقد استطاع قطع السلسلة التي تحمي ميناء عكا واستولوا على كل السفن الجنوية، وأحرقوها وانزلوا قواتهم براً، واستولوا على الميناء الحصين الذي أقامه الجنوية أمام دير القديس سابا، ثم استولوا على الحي الجنوي في المدينة وامتد هجومهم إلي ضاحية مونتمزار Montmusard(٣)، لكنهم لم يستطيعوا طرد الجنوية تماما من عكا، وبعدها أخلد البنادقة عدة أيام إلي الراحة، و استغل الجنوية فترة الراحة البندقية في إعادة تجميع قواتهم في صور استعدادا لجولة ثانية من القتال، غير أن الجنوية تعرضوا لهزيمة ثقيلة، وطارد البنادقة الجنوية حتى صور وأسروا قائدهم(٤). وبدا من هذه الجولة وقوع الجنوية في الساحل في عدة أخطاء تكتيكية على رأسها ترك سفنهم داخل ميناء عكا، مع توقع الهجوم البندقي مما أفقدهم

---

(١) La Monte, Feudal Monarchy, p.240.

(٢) في ظل ما حدث من نزاع في عكا رأت البندقية ضرورة إرسال أسطول لحماية القوافل التجارية المتوجهة نحو عكا، وبالطبع لم يكن للأسطول أن يكتفي بتأمين القوافل، ومن ثم انخرط في تسوية الصراع لصالح الجالية البندقية. انظر: Lane, Venice, p75.

(٣) انظر الخريطة رقم (٢)، ص ٣٤٨.

(٤) L'Estoire d'Eracles, p.443. Cf. also, Lane, Venice, p.7; Marshal, op. cit. p.40; Edbury, The Kingdom of Cyprus, p.86.

هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص٣٥١؛ عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص١٥٠.

http://www.al-maktabeh.com

القدرة على المناورة، وسهل مهمة المهاجمين في حصار الميناء وتدمير السفن الجنوية. أما الخطأ الثاني فقد تمثل في توجيه ضربتهم الأولي نحو البيازنة وهذه الضربة كانت كافية لقطع خط الرجعة على أي محاولة جديدة لإعادة استقطاب البيازنة.

وأمام شدة النزاع و نتائجه المدمرة على المملكة حاولت الوصية على العرش الملكة بلايسنس وأخيها بوهمند السادس التدخل بين الجاليات بشكل مباشر وحل ما بينها من خلاف، حين وجهت إليهم دعوة من مقدم الداوية وعدد من نبلاء مملكة بيت المقدس، غير أن الأمر تحول عن غرضه الأساس من السعي إلي تصفية ما بين الجاليات الإيطالية من نزاع، إلي الاختلاف حول مسألة توريث العرش، وكل ما فعله بوهمند وأخته وابنها هو تعيين حنا ابلين سيد أرسوف نائبا للملك وطلبوا منه تسوية لنزاع هو طرف فيه منحازا إلي البنادقة، وبالتالي لم يسفر تدخل بوهمند عن شيء لتسوية الصراع، خاصة بعدما ظهر تأييد بوهمند الواضح لحزب البنادقة، وبالتالي فقد مصداقيته في الوساطة النزيهة في الخلاف الدائر في عكا مما اسخط عليه الحزب الجنوي ، كما عارضه الاسبتارية بسبب تمسكهم بحقوق آل هوهنشتاوفن في عرش المملكة[١].

وفي عام٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وبناء على طلب من جيمس بانتالون بطريرك المملكة الذي كان ما يزال في أوربا،بذلت مساعي بابوية لتصفية النزاع بالوسائل الدبلوماسية بمخاطبة الجمهوريات الإيطالية الأم لتأمر جالياها بالكف عن القتال، وتسوية النزاع بالطرق السلمية غير أن جنوة والبندقية كانتا قد قررتا تصفية ما بينهما من خلاف بحد السيف[٢].

فما أن غادرت الملكة الوصية وابنها وأخيها عكا، حتى اندلعت الحرب من جديد فقد وصلت إلي عكا قوات بندقية إضافية قادمة من جزيرة كريت، كما وصل إلي صور أسطول

---

(١) مجهول، تتمة كتاب وليم الصوري، ص٢٣٦-٢٣٧. انظر أيضاً:

L'Estoire d'Eracles, p.443; The Templar of Tyre, p.25; Annales de Terre Sainte, pp.447-448. Cf. also, Edbury, The Kingdom of Cyprus, p.86.

راجع أيضا، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢، ص١١٠٨- ١١٠٩.

(٢) هايد، تاريخ التجارة، جـ ١، ص ٣٥٢؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٤٩٣.

مكتبة المهتدين الإسلامية

جنوي لمساندة الجالية الجنوية والذي تقدم من صور في ١٦ جمادى الأولى ٦٥٦هـ (٢٣يونيو ١٢٥٨م) وتبعهم فليب مونتفورت في اليوم التالي قاصدين عكا، وكان الأسطول الجنوي بالغ الضخامة مكونا من ٥٠شانية[١] وأربعة سفن كبار، في حين تكون الأسطول البندقي من ٣٩ شانية وأربعة سفن كبار، وبالرغم من صغر الأسطول البندقي مقارنة بالأسطول الجنوي إلا أن الأسطول البندقي لقي دعما من جانب أهل عكا بمختلف طوائفهم، بفضل ما يكنونه من بغض للجنوية، ناهيك عن سخاء البنادقة وما دفعوه من أموال، ودارت رحى القتال يوم ١٧ جمادى الأولى (٢٤ يونيو)، وكان النصر للجانب البندقي كما استطاعت قوات نبلاء عكا التصدي لقوة فليب مونتفرات[٢]. وترتب على ذلك النصر عدة نتائج:

أولاً : خسارة الجنوية لنصف عدد الشواني التي أرسلوها و ١٧٠٠ شخص بين أسير وقتيل بجانب خسارة آخر أبراجهم في عكا الذي فر منه المدافعون عنه رغم قوته من جراء ما شاهدوه من اندحار أخوانهم،وخلت عكا من الجالية الجنوية التي قررت الرحيل إلي صور والاستقرار بها، واقتسم البيازنة والبنادقة ممتلكاتهم[٣].

ثانياً : وقوع خسائر ضخمة لسكان ومنشآت مدينة عكا. فقد أحرقت البيوت بفعل ما يقدر بما بين خمسين وستين آلة حربية نصبت لضرب المدينة من قبل المهاجمين، كما دمر الجزء

---

(١) الشانية: جمعها شواني مركب حربي كبير يتحرك بعدد ١٠٨مجداف، ذات أبراج وقلاع تستخدم في الدفاع والهجوم وتجهز بالسلاح والنفط وتحشد بالمقاتلين، وتحمل في المتوسط قرابة ١٥٠ جندي. انظر:

The Templar of Tyre, p.184.

راجع أيضاً، توفيق بركات، فن الحرب البحرية، ص ١٥٣.

(٢) L'Estoire d'Eracles p.443; The Templar of Tyre, p.24; Annales de Terre Sainte, p.448; Lane,Venice, p.75, Marshal.Warfare in the Latin East, p.40, 231; Edbury, The Kingdom of Cyprus, p.86.

وانظر أيضاً: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٩٢.

(٣) L'Estoire d'Eracles, p.443; The Templar of Tyre, p.28; Annales de Terre Sainte, p.448; Lane, Venice, p.75.

وانظر أيضاً: هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص٣٥٣؛ رنسيمان، المرجع السابق، جـ٣، ص٤٩٢؛ سعيد عاشور، الحروب الصليبية، جـ٢، ص١١٠؛ عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص١٥١؛ سامية عامر، الصليبيون في فلسطين، ص١٢٤.

http://www.al-maktabeh.com

الأكبر من الأبراج التي أنفق عليها لويس التاسع الكثير من المال، حتى لم يبق من عكا سوي العمائر الدينية، وفوق كل ذلك مقتل أكثر من عشرين ألف شخص من سكان المدينة[١]، وبالرغم من ضخامة الرقم المذكور بما يجافي الواقع في ظل بدائية وسائل الإحصاء في العصور الوسطي، إلا أنه لا يخلو من دلالة على كثرة عدد الضحايا بشكل أفجع كل من رآه.

ثالثاً: خسائر التجارة الصليبية التي قدرها المؤرخ المجهول بأربعة وعشرين سفينة محملة بالبضائع والثروات الطائلة كانت في طريقها إلي عكا[٢]. بجانب الخسائر المالية الضخمة التي تكبدها الجنوية في عكا من جراء تكلفة العمليات العسكرية، ودفع أجور الجند المرتزقة والتي جمع جزء كبير منها من أيدي التجار البنادقة في صورة قروض منذ ٦٥٣هـ (١٢٥٥م)، وأحيانا كانت هذه القروض إجبارية وليست اختيارية، ومن الواضح أن هذه القروض لم ترد إلي أصحابها بدليل أن إحدى الوثائق المكتشفة حديثا قد أثبتت أن أحد تجار الترانزيت قد دفع مبلغ من ماله في صورة قرض لصالح القومون البندقي في عكا وفي ٤ شوال ٦٥٦هـ (٤ أكتوبر ١٢٥٨م) اضطر إلي توكيل ابن أخ له للمطالبة بالمبلغ الذي دفع للقومون بجانب ٢٠٠ بيزانت تعويض عما أصابه من الضرر، ومن الواضح أن الديون كانت كبيرة لدرجة أن القومون قرر تخصيص ٣٠٠بيزانت سنوياً لسداد قروض بلغت ٢٠٠٠بيزنت[٣].

رابعاً : تعرضت دفاعات مدينة عكا للضعف بسبب طرد الجنوية منها ذلك أنهم كانوا يدافعون عن منطقة بالغة الأهمية من الميناء[٤]، ولما طردوا من المدينة وزع هذا القسم بين البنادقة والبيازنة ومن ثم تشتت جهود الجاليتين بين الدفاع عن أملاكهم القديمة، وبين ما حازوه من جراء طرد البيازنة من المدينة، ولا شك أنه في حالة الهجوم الإسلامي كانت مقاومة المدينة سوف تكون أمنع منها في حالة عدم وجودهم.

---

(١) مجهول، تتمة كتاب وليم الصوري، ص٢٣٧. انظر أيضاً:

L'Estoire d'Eracles, p.445. Cf. also: Marshall, Warfare in the Latin East, pp.41, 228.

راجع أيضاً: ماير، الحروب الصليبية، ص٣٩٣.

(٢) تتمة كتاب وليم الصوري، ص٢٣٧.

(٣) Jacoby, New Venetian evidence, p.243.

(٤) Marshall, Warfare in the Latin East, p.41.

مكتبة المهتدين الإسلامية

خامساً: استفادة المماليك في مصر من هذه الحرب حين قام كل فريق ببيع أسراه إلي الجانب المملوكي[١]، ومن ثم صاروا عدة للجيش الملوكي استخدموها في تدمير المملكة الصليبية.

سادساً : ولم تتوقف نتائج الحرب الجنوية البندقية على مملكة بيت المقدس بل اتسع نطاقها بشكل لم يتوقعه البنادقة، فقد قرر الجنوية إنهاء احتكار البنادقة لتجارة البحر الأسود ومن ثم عقدوا مع البيزنطيين اتفاقية نفين التي قدموا لهم بمقتضاها المساعدة لإحياء الإمبراطورية البيزنطية مقابل أن يحلوا محل البنادقة في القسطنطينية وتم ذلك في رجب ٦٦٠هـ (يونيو ١٢٦١م)، وكانت أولي خطوات الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجوس عقب عودته إلي عاصمته هي طرد البنادقة من المدينة، ولم يستطع البنادقة إحياء المملكة اللاتينية في القسطنطينية ثانية، وكان ذلك السبب الأساسي لحربها الطويلة مع جنوة التي كانت مملكة عكا مسرحا لها طوال النصف الثاني من القرن الثالث عشر[٢].

ومهما يكن من أمر فقد تدخل البابا ثانية وأرسل في جماد الآخر ٦٥٨هـ (إبريل ١٢٥٩م) مندوبا يدعى توماس أجني لنتينو Thomas Agni Lantino لتسوية النزاع وتصفية الأجواء في مملكة عكا، ولم تعقد جلسة المحكمة العليا حتى٦٥٩هـ (١٢٦٠م) التي قضت بعد طول جدال باستقرار الجنوية في صور، في حين يستقر البيازنة والبنادقة في عكا[٣].

غير أن القتال لم ينته ولم يقنع الجنوية بالتسوية، وظل حنينهم إلي ميناء عكا وخيراتها متأججا، وعليه فقد قرروا مسح عار هزيمة ١٢٥٨م، فقام أمير البحر الجنوي

---

(١) Lane, Venice, p.75.

(٢) L'Estoire d'Eracles, p.445. Cf. alsol, Lane, Venice, p.75; Nicol, Byzantium and Venice, p.176-177 ; Conder, The Latin Kingdom , p387 .
; Dotson (John E), Fleet operational, on, www.dereilitari.org

وانظر أيضاً: عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص٢٨٦.

(٣) L'Estoire d'Eracles, p.444.

رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٩٣؛ ماير، الحروب الصليبية، ص٣٩٤.

http://www.al-maktabeh.com

لوتشيوجريمالدي Luchetto Grimaldi في ١٨ رمضان ٦٥٩ (١٦ أغسطس ١٢٦١م) باجتياح ميناء عكا بقوة بحرية تبلغ ٢٨ سفينة واستطاع الاستيلاء على برج الذباب في مدخل الميناء، لكنه لم يمكث في ميناء عكا أكثر من اثني عشر يوما، رحل بعدها إلي صور مع خمسة عشر سفينة لصيانتها، وفي إثناء غيابه ظهر فجأة أسطول بندقي مكون من ٢٨ سفينة فدمر معظم سفن الجنوية وفر القليل منها عائدة إلي صور[١].

على أن صراع القديس سابا لم يكن نهاية الصراع بين الجاليتين، خاصة بعد زوال الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية، وطرد البنادقة منها، وعليه فقد سعوا للانتقام من الجنوية في كل مكان، ومن ثم لم تلبث أن اندلعت الحرب ثانية عام٦٦٢هـ (١٢٦٣م) بسبب هجمات البنادقة على ميناء صور لنهب السفن الجنوية، ومن أشهر هذه الحوادث ما جرى في ذلك العام حين قام أميرال البحر البندقي اندريه باروتشي Andre barocio بالاستيلاء على سفينة جنوية أمام صور وحين أراد الجنوية استخدام القوة المسلحة لاستخلاص السفينة أثناهم فليب مونتفرات عن ذلك، على أن يعوضهم عما خسروه من أملاك البندقية الموضوعة تحت حراسته في صور، مما دفع باروتشي يعاونه قوة من بنادقة عكا بحصار صور غير أن أهلها صمدوا، مما اضطر البنادقة إلي رفع الحصار عن المدينة، كما استطاع الجنوية أن يستولوا على قافلة من السفن التجارية كانت متوجهة نحو عكا وبالتالي خرج البنادقة خاسرين من هذه الجولة[٢]. ولعل حصانة ميناء صور ومعاونة فيليب مونتفورت كانت هي السبب في انتصار الجنوية هذه المرة بعد أن ألفوا الهزائم فكانت أول هزيمة يتعرض لها البنادقة منذ بدء الصراع.

ويبدو أن الجنوية قد قرروا توجيه ضربة قاصمة للبنادقة في عكا فقاموا في عام ٦٦٥هـ(١٢٦٦م) نكاية في البنادقة ومن ساندهم من نبلاء عكا، بالتعاون مع الظاهر

---

(١) L'Estoire d'Eracles, p.455; The Templar of Tyre,, pp.30-31. Cf. also, Marshal. Warfare in the Latin East, p.40.

راجع أيضاً: رنسيمان،المرجع السابق، جـ٣، ص٥٥٥.

(٢) L'Estoire d'Eracles, p.447; Annales de Terre Sainte, p.450.

وانظر أيضاً: هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص٣٥٥.

مكتبة المهتدين الإسلامية

بيبرس في الهجوم على عكا، بحيث يهاجم المسلمون المدينة من البر وفي نفس الوقت يهاجمه الجنوية من البحر فتصير المدينة سهلة المنال بعد أن تتشتت القوات المدافعة بين شقي الرحى، غير أن الجنوية لم يفوا بوعدهم(١)، ربما بسبب صعوبات في الوصول إلي ميناء عكا، أو بسبب يقظة الضمير المسيحي لدي بعض من قادة الجنوية مما جعلهم لا يقدمون على هذا الأمر الخطير.

غير أن الجنوية لم ينسوا ثأرهم من البنادقة،فقاموا في عام ٦٦٦هـ(١٢٦٧م) بالاستيلاء على حصن الإخوة ذي(٢) المكانة الاستراتيجية في مدخل ميناء عكا، وعن طريقه فرضوا الحصار على الميناء، غير أنهم لم يبقوا به أكثر من اثني عشر يوما حتى طردهم البنادقة وفكوا الحصار عن الميناء(٣). ولعل هذا الفشل وما سبقه من انتصارات بندقية يوضح أن الأسطول البندقي كان يتفوق على نظيره الجنوي من الناحية النوعية والتكتيكية، وأن بقاء الأسطول الجنوي في ميناء عكا هذه الأيام الاثناعشر قد جاء نتيجة المفاجأة، وليس نتيجة صدام حقيقي، ومع حدوث هذا الصدام تفرق الأسطول الجنوي، وعاد من بقي سالما منه إلي صور.

كما حاول لويس التاسع في عام ٦٦٩هـ (١٢٧٠م) التدخل بين البنادقة والجنوية، لتسوية النزاع، وأسفر ذلك عن عودة الجنوية إلي حيهم في عكا، ولم يعد البنادقة إلي صور قبل ٦٧٦هـ (١٢٧٧م)(٤)، وبالرغم من هدوء العلاقات بين الجاليتين البندقية والجنوية إلا أن التسوية لم يشارك فيها البيازنة، وعليه فقد استمرت العداوة مع الجالية الجنوية مما أدي إلي صدام جديد في عكا عام ٦٨٦هـ (١٢٨٧م) حين قامت جنوة بإرسال أسطول بحري إلي الساحل الشامي في ربيع من ذلك العام، وجاب الساحل السوري كله يأسر ويدمر كل ما يقابله من سفن البيازنة أو حتى المنحدرين من أصل بيزي، وقرر قائد الأسطول الجنوي بيع

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٦٨. وأيضاً: Marshall, Warfare in the Latin East, p.40

(٢) انظر الخريطة رقم (٢)، ص ٣٤٨.

(٣) Runciman, "The crusader States", p.579.

(٤) L'Estoire d'Eracles , p.478.

راجع أيضا: ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٩٤.

http://www.al-maktabeh.com

الأسري إلي مصر لولا تدخل الداوية، وكان في مخطط الأسطول الجنوي اقتحام ميناء عكا، ويبدو أن هذه النية قد تسربت، أو أن البنادقة في عكا قد أخذوا حذرهم وتوقعوا هجوما جنويا عليه، ومن ثم تم تقوية تحصينات الميناء بالتعاون بين البيازنة والبنادقة، لذا حين هاجم الجنوية الميناء في يوم ١٦ جماد الآخر ٦٨٦هـ (٣١ مايو ١٢٨٧م) لم يستطيعوا اقتحام الميناء، فاستبدلوا اقتحام ميناء عكا بفرض حصار على الموانئ الصليبية في الساحل الشامي كله، ولم ينته الحصار إلا بعد تدخل الداوية والاسبتارية ونبلاء الساحل، حتى جمعوا قواهم وعادوا إلي صور حيث مستقرهم ومستودعهم(١).

ولم يعبأ التجار الإيطاليون في الساحل الشامي بالخطر الداهم نتيجة الفتوح المملوكية المتوالية، ومن ثم استمروا في التصارع فيما بينهم بصرف النظر عن نتيجة هذا الصراع، ووصل الأمر إلي التآمر مع المماليك على الوجود الصليبي في الساحل كله، ففي ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) حصل الجنوية على صلاحيات واسعة في ميناء طرابلس بالاتفاق مع وريثتها لوسي الأنطاكية Loucy of Antioch(٢)، وهو اتفاق لم يرض عنه البنادقة، ومن ثم قرروا تدمير الإمارة كلها فكتبوا سراً إلي السلطان قلاوون يحرضونه على غزو طرابلس موضحين له خطورة سيطرة جنوة على المدينة مما يهدد المصالح المملوكية في شرق البحر المتوسط ككل، في ظل علاقات الجنوية الممتازة مع المغول، وما كان لقلاوون أن يتأخر عن غنيمة كهذه، ومن ثم فتح طرابلس يوم الأربعاء ٢٧ ربيع أول ٦٨٨هـ (٢٠إبريل ١٢٨٩م)(٣).

---

(١) The Templar of Tyre,, Pp.92-94.

وانظر أيضاً: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٦٨٠؛ مصطفي الكناني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، ص٢٧٣؛ فهي فتحي الجوهري، إمارة طرابلس في القرن الثالث عشر الميلادي- السابع الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٧، ص٢٨٠.

(٢) في عام ٦٨٧هـ(١٢٨٨م) عقد سفير جمهورية جنوة بنديتو زكريا Benedetto Zaccaria اتفاقا مع قومون طرابلس، حصل بمقتضاه الجنوية على مزيد من الشوارع والمنازل والأسواق، فظلا عن تعيين محافظ لحكم الجنويين، بجانب عدد آخر من الامتيازات، في مقابل اعتراف الجالية الجنوية، بالأميرة لوتشيا في طرابلس. انظر: مصطفي الكناني، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، ص٢٧٢؛ عفاف صبرة، علاقة البندقية بمصر والشام، ص٥٧.

(٣) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، جـ٨، ص٢٢٠؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٤٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٣٧٨. انظر أيضاً:

مكتبة المهتدين الإسلامية

كانت هذه هي أهم وأخطر الصراعات التي تعرضت لها مملكة عكا الصليبية والتي بدأت جذورها في النصف الأول من القرن الثالث عشر وتصاعدت في النصف الثاني من القرن، وكما اتضح من دراسة هذه الصراعات فقد بدا لنا بوضوح أثر هذه الصراعات على المملكة:

أولا: من الناحية الحربية خسرت المملكة عدداً كبيراً من الرجال الأقوياء والفرسان المجهزين بدلا من استخدامهم في الدفاع عنها استخدموا في تدميرها من الداخل

ثانيا: من الناحية الاقتصادية، أوقعت الصراعات الداخلية أضرارا بالغة بالاقتصاد الصليبي جعله عاجزا عن توفير الدعم المالي الكافي للتصدي للتوسع المملوكي المنظم والمستمر

ثالثا: من الناحية السياسية فقدت الثقة بين عناصر المملكة بشكل حال دون توحيد الكلمة، نتيجة التحزب الطويل الأمد والأحقاد المترسبة في النفوس؛ مما أغلق كل باب لاستعادة الثقة بين العناصر المكونة للمملكة مما يسر مهمة الفاتحين المسلمين في الاستفادة من هذه الصراعات لتحطيم الكيان الصليبي، وقد بدا ذلك بوضوح من خلال السياسة المملوكية التي كانت تقوم على عدم التعامل مع الصليبيين على أنهم كيان واحد، ولكن اتبعت معهم سياسة تقوم على استغلال تشرذمهم في تحييد بعضهم، والانفراد بالبعض الآخر في ظل الهدن المتعاقبة التي عقدت في عهدي الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون.

رابعاً: خسرت المملكة عدداً ضخماً من السكان في وقت كانت تعاني فيه أشد المعاناة من جراء العجز الديموغرافي الناتج عن تناقص الوافدين من أوربا وقلة عدد المواليد وارتفاع عدد الوفيات.

هكذا بدت لنا خطورة الصراعات الداخلية على المملكة، مما أسهم في ضعف المملكة من الداخل وساعد على استفحال مشكلات المجتمع الصليبي، وهي موضوع الفصل التالي.

= The Templar of tyre, pp.98-100; Annales des Terre Sainte, p.460; Chronique D'Amadi, p.211. Cf also, Runciman, The Crusader States, p590.

راجع أيضا، رنسيمان، المرجع السابق، جـ٣، ص٦٨٤؛ مصطفى الكناني،المرجع السابق، ص٢٧٣؛ فـي الجوهري، المرجع السابق، ص٢٨٠-٢٨٥.

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفصل الرابع

مشكلات المجتمع في مملكة عكا الصليبية

- التباين السكاني و تناقص أعداد السكان.
- الطبقية.
- التعصب ورفض الآخر.
- مفاسد رجال الكنيسة.
- ارتفاع معدلات الجريمة.

لم تقتصر العوامل الداخلية التي أسهمت في انهيار مملكة عكا – من الداخل، مما ساعد على إسقاطها من الخارج – على ما ورد في الفصول الثلاث السابقة، بل عانت أيضا أشد المعاناة من عدد من المشكلات التي تعلقت بصميم بنائها الاجتماعي، تلك المشكلات التي يدور حولها موضوع هذا الفصل والممثلة في: عدم التجانس السكاني أو ما يعرف بالفسيفساء السكانية، ثم تناقص أعداد السكان، يتلوها الطبقية، يعقبها التعصب ورفض الآخر، ثم تفشي الفساد في الهيئة الدينية، وأخيرا ارتفاع معدلات الجريمة.

التباين السكاني وتناقص أعداد السكان:

لم يكن المجتمع الصليبي في مملكة عكا مجتمعاً متجانساً من الناحية العرقية، بل تكون من عناصر شتى اتخذت من عكا ومدن الساحل التابعة لها مستقراً ومقاماً، بعد تدمير مملكة بيت المقدس على يد صلاح الدين، فقد تجمع في مدن المملكة المحدودة الهيئات الدينية، والجاليات الإيطالية والإنجليزية والألمانية، ورؤساء الأسقفيات التي استولى المسلمون عليها وآلاف من عامة الصليبيين وسفهائهم[1]، وعَبَّرَ يعقوب الفيتري[2] عن هذه الظاهرة أبلغ تعبير قائلاً: "

(١) لطيفة البوعنين، الحياة الاقتصادية، ص ١٢٩، ١٣١؛ محمد مؤنس، "من عوامل إخفاق المشروع الصليبي"، ضمن كتاب الحروب الصليبية، قضايا السياسة والعقيدة والمياه، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٤٤.

(٢) تاريخ مملكة بيت المقدس، ص ٢١٨.

http://www.al-maktabeh.com

إن الأرض المقدسة كانت تحوي مزيجاً من شعوب وأجناس مختلفة، ذات العادات والتقاليد المتباينة بين شعب وآخر"وهو ما عرف اصطلاحا بالفسيفساء السكانية[١]، وذلك نتيجة لتنوع البلاد الأوربية التي قدموا منها إلى الساحل الشامي[٢].

ويؤكد المسح السكاني لمملكة عكا هذه الحقيقية، فقد وجد فيها عناصر أوربية شتى، وفي الوقت نفسه هم امتداد للعناصر التي توافدت منذ الحملة الصليبية الأولى، وعلى رأسهم الفرنسيين الذين شكلوا الجزء الأكبر من الحملة الصليبية الأولى، وجل شهود عيان ذلك العصر نظروا إلى جميع من شاركوا في الحملة على أنهم فرنسيين، حتى من جاءوا من بروفانس وشمال فرنسا وجنوبي إيطاليا[٣]، مما صبغ المجتمع الصليبي – الذي تكون عقب هذه الحملة- بالصبغة الفرنسية لغويا وثقافيا وقانونيا واقتصاديا ومعماريا[٤]، وحرص ملوك فرنسا على استمرار الهيمنة الفرنسية على الحركة الصليبية، وبدا ذلك واضحا من قيادة ملوك فرنسا لكبري الحملات الصليبية، فقد شارك لويس السابع في قيادة الحملة الصليبية الثانية[٥]، وفليب أغسطس في الحملة الثالثة[٦]، وانفرد لويس التاسع بقيادة الحملة الصليبية السابعة، وحاول القيام بحملة ثامنة لكنه لفظ أنفاسه أمام مدينة تونس عام ٦٦٩هـ (١٢٧٠م)[٧]، وبذل أخوه شارل أنجو جهوداً كبيرة حتى اشترى لقب ملك بيت المقدس من

---

(١) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ١٩٣.

(٢) Archer , The Crusades , 298.

(٣) The Templar of Tyre, p. 123. cf. also, Tyeman, England and the Crusades 1095-. 1588, Chicago, 1988,p .15.

(٤) محمود الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٥٠-٥١.

(٥) عن دور لويس السابع في الحملة الصليبية الثانية انظر : وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٢٧١-٣٢٠.

Mayer, The Crusades, p.93-106.

(٦) عن نشاط فليب أغسطس الصليبي انظر : مجهول، الحرب الصليبية الثالثة، جـ١، ص ١٨١-١٩٦؛ جـ٢، ص ١٣-٤٦؛ مجهول، ذيل وليم الصوري، ١٩٢-٢١٧.

Mayer, op.cit., p.138-149.

(٧) حول نشاط لويس التاسع الصليبي انظر: جوزيف نسيم، العدوان الصليبي علي مصر هزيمة، وأيضاً العدوان الصليبي على بلاد الشام.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ماري الانطاكية عام ٦٧٦هـ (١٢٧٧م)[١]، وبالطبع جاء مع هؤلاء الملوك أعداد كبيرة من الفرنسيين، ولم تكن هذه المشاركة المكثفة ابتغاء وجه الله والكنيسة، لكن في سبيل إشباع النهم الفرنسي لالتهام الساحل الشامي في إطار مخطط كبير لمد نفوذ آل كابيه فيما وراء البحار تحت ستار الحرب المقدسة[٢].

ولم تنقطع الصلة يوما بين فرنسا والكيان الصليبي، حتى غدت كبرى الأسر الإقطاعية في مملكة عكا من أصول فرنسية، وعلى رأسها أسرة أبلين التي جمعت بين السيطرة على الجهاز الإداري في مملكتي قبرص وعكا، حتى نهاية الوجود الصليبي في الساحل الشامي عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م)[٣]، كما توافد العديد من النبلاء الفرنسيين إلي عكا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي من بينهم كونت نيفرز The Count Of Nevers، وكونت نانتيل The Count of Nanteuil، وقد توفي الأول في عكا عام ٦٦٤هـ (١٢٦٦م)[٤]. كما وجد في مملكة عكا حامية فرنسية كونها لويس التاسع وترك على رأسها جيفري سارجنيس Geoffery of Sargines للمساهمة في الدفاع عنها، مكونة من مائة فارس وعدد من رماة السهام والمشاة، كانت تتلقى أرزاقها من خزانة ملك فرنسا بشكل مباشر[٥]، وتعاقب على قيادة تلك الحامية عدد من القادة الفرنسيين الأكفاء الذين تولي اختيارهم ملك فرنسا بنفسه، ومن بينهم وليم روسيون William Roiussel الذي توفي في عكا عام ٦٧٦هـ (١٢٧٧م)[٦]، وظلت تلك الحامية موجودة حتى نهاية المملكة عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م)[٧].

---

(١) حول شارل أنجو ومملكة عكا انظر الفصل الأول، ص ٨٨.

(٢) محمد مؤنس، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٣٠٦.

(٣) عن أسرة أبلين وتنامي دورها في مملكة عكا انظر، السيد الباز العريني، نحو طبقة النبلاء الإقطاعيين:
La Monte, "John de Ibelin the Old lord f Beirut".

(٤) The Templar of Tyre, p.48.

(٥) مؤلف مجهول، تتمة كتاب وليم الصوري، ص ١٤٩. انظر أيضا:
L'Estoire d'Eracles , p.441; Annales de Terre Sainte, p. 446.
راجع أيضا، رايلي سميث، ما الحروب الصليبية، ص٩٧؛ جوزيف نسيم، العدوان الصليبي علي الشام،ص٣٤٨.

(٦) L'Estoire d'Eracles , p.478 .

(٧) Von Suchems, Description of the Holy Land, p.55-59.

http://www.al-maktabeh.com

يلي الفرنسيين في مملكة عكا الإيطاليون، من بنادقة وجنوية وبيازنة، وغيرهم من سكان المدن الإيطالية وتجارها، الذين توافدوا على مملكة عكا طوال القرن الثالث عشر الميلادي كما فعلوا في القرن الثاني عشر من قبل، وقد تركز الدور الأساس لهم في عملية نقل التجارة، والاستفادة من رسوم عبور الحجاج والمحاربين إلى الكيان الصليبي في الشرق، وبالرغم من أن أعداد الإيطاليين لم تكن تتضارع أو تتساوى مع أعداد الفرنسيين، فإن نفوذ الإيطاليين لم يكن يقدر بعددهم في الساحل ومدنه بل يقدر بقوة القوميونات الإيطالية[١]، والذي يمكن أن نقرره أن أعداد الإيطاليين قد زادت في مملكة عكا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وبخاصة المقاتلين منهم، الذين كثر تواجدهم في مدن الساحل في ظل سلسلة الحروب المتصلة التي اندلعت منذ مغادرة لويس للمملكة عام ٦٥٢هـ (١٢٥٤م). وتتابعت صعودا وهبوطا حتى حَسَمَ سيفُ الأشرف خليل الأمرَ[٢].

وإمعان النظر في خريطة مملكة عكا السكانية يوضح لنا أن البنادقة قد انتشروا في شتى مدنها، ولم يقتصر ذلك الانتشار على القرن الثالث عشر فقط بل منذ بداية الغزو الصليبي للمنطقة، فقد حصلوا على حي في يافا عام٤٩٤هـ (١١٠٠م)[٣]، وحي في صيدا[٤]، وحي في عكا منذ ٤٩٤هـ (١١١٠م)، ذلك الحي الذي اتسع بعدا اتفاقية ٥١٨هـ (١١٢٤م) وامتد ذلك الحي على طول شاطئ الميناء الخارجي وقد كثرت به الأسواق والتحصينات[٥]، كما امتلكوا ثلث مدينة صور منذ عام ٦٢١هـ (١١٢٤م)، وكذلك ثلث عائدات القرى المحيطة بها، وأقام بها نائباً عن زعيم القوميون البندقي المقيم في عكا[٦]،

---

(١) براور، الاستيطان الصليبي، ص ١١٩.

(٢) انظر الفصل الثالث، ص ١٧٨.

(٣) هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص ١٥٠.

(٤) نفسه، ص ١٥٤.

(٥) Benvenisti , The Crusader in the Holy land , p104.

وانظر الخريطة رقم (٢)، ٣٤٨.

(٦) وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٢، ص٣٨٢ ؛ هايد، تاريخ التجارة، جـ٢، ص ١٥٦، ٣٣٧ ؛ براور، الاستيطان الصليبي، ص ١١٤-١١٥ ؛ عفاف صبره، علاقة البندقية بمصر، ص ٣٢١.

Archer, The Crusade, p.295 .

مكتبة المهتدين الإسلامية

وقد ظل هذا القسم في أيديهم بلا انقطاع حتى اندلعت حرب القديس سابا ونتيجة انحياز فليب مونتفرات للجنوية قام بطرد البنادقة من المدينة وحرمهم من نصيبهم فيها حتى عادوا إليها عام ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) [١]، وخير دليل على اتساع تواجد البنادقة في مملكة عكا في القرن الثالث عشر هو تحول لقب زعيم القوميون البندقي في عكا من Vicecomites – الذي يعني نائب الكونت مما يشير إلى محدودية صلاحياته وضرورة عودته في الأمور العظيمة إلى المدينة الأم – إلى Bajulus Syrioe أي وكيل سوريا – وهو ما يشي باتساع صلاحيته في تصريف شئون الجالية البندقية في الساحل الشامي – وأول من تولي هذا المنصب عرف باسم بانتليوني باربو Pantaleone Barbo الذي كان مقره في عكا وذلك في عهد الملك هنري الشامبني، كما رقي ممثل البندقية في صور عام٦٥٤هـ (١٢٥٤م) إلى نفس المنصب وكان يسمي Andrew Dplfin، حتى اعتبر البعض أن البنادقة كانوا يمثلون القوة الثانية في المملكة بعد فرق الفرسان الرهبان[٢]، كما تمكن البنادقة بعد الانتصار في حرب القديس سابا عام ٦٥٧هـ (١٢٥٨م) من الحصول على اعتراف من السلطات الدينية في المملكة بإشراف كنيسة سان مارك التابعة لقومون البندقية في عكا على باقي الكنائس التابعة لهم في باقي المناطق على حساب نفوذ أسقف عكا[٣].

أما جنوة فقد حصلت على قطاعاتٍ كبيرةً من المدن الصليبية في ظل الخدمات التي قدمتها للصليبيين في مراحلهم المبكرة[٤]، ففي عام ٤٩٥هـ (١١٠١م) حصلوا على حي في قيسارية[٥]،

---

(١) L'Estoire d'Eracles , p.478 .

راجع أيضا: ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٩٤.

(٢) هايد، المرجع السابق، جـ٢، ص ٣٣٦–٣٣٧؛ عفاف صبرة، علاقة البندقية بمصر، ص ٢٢٣–٢٢٤.

Rey, Les Colonies Franques, p.110; Archer, The Crusades, p.297; Jacoby," New Venetian evidence" , p.245.

(٣) Jacoby," The Venetian privileges in the Kingdom of Jerusalem", p.171.

(٤) Archer, The Crusade, p.295 .

(٥) وليم الصوري، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢١٩–٢٢٠.

Caffaro , Annali Genovesidi di Caffaro , Roma, 1890 , P117. Cf. also, Benvenisti , The Crusader in the Holy land , p137, Stevenson, The Crusaders in the East, Beirut 1968,p. 46.

راجع أيضا، هايد، تاريخ التجارة، جـ١، ص ١٥١.

http://www.al-maktabeh.com

وحي في أرسوف في العام نفسه(١)، وفي عام ٤٩٨هـ (١١٠٤م) حصلوا على ثلث مدينة عكا(٢) وضواحيها وثلث إيرادات جماركها(٣)، وكان الحي الجنوي فيها أكبر أحياء المدينة التي شغلتها القوميونات الإيطالية وأقدمها، وامتد من رصيف الميناء حتى قلب المدينة(٤)، وكذلك ثلث يافا وثلث قيسارية(٥)، وكذلك حي في بيروت وآخر في صيدا عام ٥٠٤هـ (١١١٠م)(٦).

في حين حصلت بيزا على ربع مدينة يافا(٧)، وحي في أرسوف٤٩٤هـ (١١٠١م)(٨)، وحي في قيسارية في ظل اتفاق التعاون مع بلدوين الأول(٩)، كما امتلكوا أحياء في صور وعكا(١٠)، وكان حيهم في عكا يقع أقصي غرب المدينة وكان أصغر الأحياء(١١)، كما كان لهم حيا في بيروت(١٢).

---

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٢١٧. Benvenisti , The Crusader in the Holy land., p131.

(٢) انظر الخريطة رقم (٢)، ص ٤٢٧.

(٣) Archer , he Crusade, p. 295 .

(٤) Benvenisti , Op. Cit., p100.

(٥) وليم الصوري، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٢١-٢٢٢، ؛ هايد، المرجع السابق، جـ ١، ص ١٥١-١٥٢، ١٦٣.

(٦) وليم الصوري، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٨٨. انظر أيضا: Albert D' Aix, Historia Hierosolymitana, p. 672.

راجع أيضا، هايد، المرجع السابق، جـ ١، ص ١٥٤

(٧) هايد، المرجع السابق، جـ ١، ص ١٥١؛ علي السيد علي، المجتمع المسيحي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ص ٢٤؛ أسامة سيد علي أحمد، الظهير الشامي ودوره في الصراع الإسلامي الصليبي في القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس ١٩٩٦م، صـ٢٠٦

(٨) هايد، المرجع السابق، جـ ١، ص ١٥١. Benvenisti , Op. Cit., p.131.

(٩) وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٢، ص٢١٧ ؛ هايد، المرجع السابق، جـ١، ص ١٥١.

(١٠) هايد، المرجع السابق، جـ ١، ص ١٦٢-١٦٣؛ علي السيد، المجتمع المسيحي، ص ٢٥ .

Archer, The Crusades , p.295.

و انظر الخريطة رقم (٢)، ٣٤٨.

(١١) Benvenisti , op. cit , p.98.

(١٢) وليم الصوري، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٨٨.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وهكذا توزعت الجاليات الإيطالية بشكل واسع في جميع مـدن المملكـة، واسـتطاعوا الحصول على مساحات كبيرة من تلك المدن حتى نهاية الوجود الصليبي في الساحل الشامي، حتى المدن التي فقدوها في ظل فتوحات صلاح الدين مثل بيروت وعكا، فور استعادتها كاد الوضع يعود إلى حاله ويستولي كل قوميون يمثل مدينة إيطالية على الحي أو القسـم الـذي كان يشغله من قبل، في ظل الحاجة الماسة إلى مساعدة تلك الجاليات في إعادة السيطرة على تلك المدن(١).

كما حصلت تلك الجاليات على امتيازات واسعة في شتى المدن التي تواجدوا فيها، حتى احتكر التجار الإيطاليون التجارة الخارجية لمملكة عكا، كما فعلوا مع مملكة بيت المقدس من قبل(٢)، ولم تقتصر الامتيازات على النواحي التجارية بل امتـدت إلى النـواحي القـضائية وشئون الحياة اليومية بحيث يعتقد الزائر فور دخوله للحي البندقي أنه دخل مدينة البندقية، وكذا الحال مع جنوة وبيزا، أي أن تلك الجاليات قد حصلت على الحكم الذاتي في أحيائهم في شتي مدن المملكة(٣)، وبدون مزايدة ولا اعتساف للأحكام فقد صـارت القوميونـات الإيطالية في المدن الصليبية دولاً داخل مملكة عكا، حقيقة أن الأمر كان موجوداً في عهـد مملكة بيت المقدس، إلا أن الأمر زاد بشكل واضح في القرن الثالـث عـشر، وبخاصـة في النصف الثاني في ظل غياب السلطة الملكية، وسيادة الفوضى السياسية وتلقي تلك الجاليات الدعم العسكري الدائم من مدنها الأم، ولم يعطل استفادة الجاليات الإيطاليـة مـن هـذه الامتيازات، إلا الحقد المتبادل بسبب التنافس التجاري، وعلي سبيل المثال لا الحصر حـرم الجنوية من حيهم في مدينة عكا عقب هزيمتهم في حرب سان سابا، وكذلك خسر البنادقـة نصيبهم في صور في الحرب نفسها، والأمر الأخير الذي نقرره في هذا المقام هو عدم اقتصار

=Albert D' Aix, op. cit., p. 672, Cf. also, Stevenson, The Crusader in the East, p.59.

(١) براور، الاستيطان الصليبي، ص ١١٦-١١٧.

(٢) Archer , The Crusades. , 294.

(٣) براور، المرجع السابق، ص ١١٢-١١٣؛ عفاف صبرة، علاقة البندقية بمصر، ص ٢١٩-٢٢٦.
Archer , Op. Cit., 296.

http://www.al-maktabeh.com

الآثار السلبية للتنافس بين تلك الجاليات عليها فحسب، بل امتدت إلى المملكة ذاتها لتدخلها دوامة الحرب الطائفية، التي تطورت إلى حرب أهلية شاملة أفضت بها إلي الضعف الداخلي، الذي مهد لتقويض البناء كله من الخارج[١].

أما عن الإنجليز فقد استوطنوا في قسم خاص بهم عرف بالربع الإنجليزي، ويقع ذلك الربع في الركن الشمالي الشرقي لمدينة عكا، علي التل المعروف بمونت ميزارت Mont Musart[٢]، والذي تأسس منذ الحملة الصليبية الثالثة، علي يد جماعة فرسان القديس توماس عام ٥٨٥هـ (١١٨٩م)[٣]، لكن بالطبع كانت أعدادهم أقل بكثير من الفرنسيين، ويرجع ذلك إلى ضعف المشاركة الإنجليزية في الحملات الصليبية، منذ البداية سواء من قبل الحكومة أو رجال الدين أو العلمانيين[٤]، وبعد نجاح الحملة الصليبية الأولي لم يستقر من الإنجليز في الأراضي المقدسة عدد يذكر، رغم تعدد رحلات الحجاج الإنجليز الذين كانوا يقدمون بعض المساعدات العسكرية لملوك بيت المقدس، لكنهم سرعان ما كانوا يعودون إلى بلادهم بعد تمام رحلة حجهم[٥]، إلا أن عددا من أكابر الإنجليز قد استقروا في مملكة بيت المقدس مع عدد كبير من اتباعهم مثل ولتر هيرفورد Walter of Herford كونستابل الملك

---

(١) انظر الفصل الثالث، ص ١٦٠.

(٢) هايد، تاريخ التجارة، جـ ١، ص ٣٢٥.

Benvenisti , Op.Cit., p.44: Forey," The Military Order of St. Thomas of Acre", p. 488.

(٣) Tyerman , England and the Crusades, p.85.

(٤) شارك روبرت دوق نورماندي – شقيق وليم الثاني ملك إنجلترا – في الحملة الصليبية الأولي مع عدد من كبار نبلاء انجلترا فليمنج أرنولف أوف هسدين Fleming Arnulf of Hesdin الذي مات عند أسوار أنطاكية،ووليم بيرث William Percy و وثبي بريوري Whitby Priory الذي مات علي أبواب القدس، غير أن ذلك لم يكن يعبر عن مشاركة رسمية للإنجليز في الحملة الصليبية الأولي، ذلك أن ملك إنجلترا كان واقعا تحت الحرمان الكنسي ومن ثم جاءت مشاركة أخيه بصورة فردية، لمزيد من التفاصيل حول مشاركة الإنجليز في الحملة الصليبية الأولي انظر: زينب عبد المجيد، الإنجليز والحروب الصليبية، ص ٩٠-٩١.

Tyeman, Op. Cit., p.15.

(٥) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص١٤١ ؛ زينب عبد المجيد، المرجع السابق، ص ٩٧؛

Tyeman, Op. Cit., p. 27, 28.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الإنجليزي الذي قام عام ٥٥٥هـ (١١٦٠م) بالتخلي عن منصبه والرحيل إلى الأراضي المقدسة مع عدد من حاشيته ومحبيه، وهناك توثقت علاقته بعدد من فرسان الداوية من أصول إنجليزية ويرجح البعض أنه قد انخرط الداوية ولم يقتصر الأمر على مجرد الصداقة[١]، غير أن الإنجليز ظلوا عنصراً غير مؤثر في عدد سكان المملكة حتى الحملة الصليبية الثالثة.

ومع مشاركة ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة جاء معه إلى الشرق جيشٌ جرارٌ، ومع فشل الحملة وبعد ستة عشر شهراً من القتال رحل جل من بقي على قيد الحياة من الإنجليز إلى إنجلترا ولم يبق سوى القليل[٢]، ومن بينهم عدد من التجار الذين استقروا في الحي الإنجليزي في عكا، وشاركوا في المنافسات التجارية التي كانت تشتعل بين التجار من مختلف الجنسيات[٣]، غير أن أعدادهم صارت أكبر من السابق وأكثر تأثيرا وبخاصة مع اعتلاء هنري شامبني ابن أخت ريتشارد لعرش مملكة عكا[٤].

وقد ساعد وجود الربع الإنجليزي في عكا، على استمرار توافد الجماعات الإنجليزية إلى مملكة عكا ليس من الرجال فقط بل أيضا من النساء، ففي عام٦٦٣هـ (١٢٢٥م)، سجلت المصادر خبر امرأة إنجليزية تركت زوجها وأولادها وجاءت إلى الأرض المقدسة[٥]، وبالرغم من أحادية الخبر فإنه يفصح عن الكثير؛ نظراً لندرة التفات المصادر إلى هذه الأمور،

---

(١) Walker (David), A Letter from the holy land , in E.H.R., vol. 72, no.258 (oct. 1957) , p.663.

وأيضاً، زينب عبد المجيد، الانجليز والحروب الصليبية، ص ٩٨.

(٢) ذكر المؤرخ المجهول صاحب الحرب الصليبية الثالثة أن ريتشارد قد وعد بترك حامية عسكرية مكونة من ٣٠٠ فارس و٢٠٠٠ من المشاة، للمساعدة في حماية المدينة من هجمات المسلمين المتوقعة، غير أننا لم تتبين مدي وفاءه بهذا العهد، خاصة أن المؤرخ المجهول صاحب ذيل وليم الصوري لم يذكر شيء عن ذلك ولو حدث ما توانى عن الإشادة بتلك المكرمة، انظر:

مجهول، الحرب الصليبية الثالثة، جـ٢، ص ١٥٨؛ مجهول، ذيل وليم الصوري، ص ٢٣٩.

(٣) هايد، تاريخ التجارة، جـ ١، ص ٣٢٥.

(٤) Adams (G, B), The history of England from the Norman conquest to the death of John (1066-1216) , London , 1905 , p.369.

(٥) Tyerman , The Invention of the Crusades , Toronto, 1998 , p 75.

http://www.al-maktabeh.com

التي ربما لم تكن ذات أهمية لدى من دون أخبار الصليبيين الأواخر. ومع توافد الحملات الصليبية الإنجليزية إلى الأرض المقدسة لقي الربع الإنجليزي الدعم المستمر، في حملة ثيبالد كونت شامبني ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) وحملة ريتشارد كورنوال ٦٣٨هـ (١٢٤٠م)(١)، وفي أثناء الحملة الصليبية السابعة جاء مع لويس التاسع جماعة من عساكر الإنجليز بقيادة وليم لونجيسبي William Longuespee إيرل سالسبوري و روبرت دي فيرا Robert de vere وعدد من أعيان الإنجليز(٢)، كما لقي التواجد الإنجليزي في مملكة عكا دعما كبيراً مع مجيء حملة الأمير إدوارد عام ٦٧٠هـ (١٢٧١م)، على رأس جيش من ألف فارس(٣)، ونظرا لأن معظم من دونوا أخبار الحروب الصليبية كانوا من الفرنسيين، فلم يهتموا كثيراً بإبراز التواجد الإنجليزي في المملكة، لكن من الواضح أن التواجد الإنجليزي لم يكن بالتواجد المحدود وقد وصل عدد منهم لمناصب مهمة في المجتمع الصليبي(٤). وقد وجد في عكا عدد من الإنجليز الذين اندرجوا في سلك الفرسان الاسبتارية، واستمر هؤلاء على علاقة وثيقة بالملك إدوارد ولم تنقطع المراسلات بينهم وبينه، يخبرونه عن أحوال مملكة عكا بصورة تفصيلية وبشكل منتظم(٥)، وكذلك كانت رسائل فرسان القديس توماس تتوالى عليه مخبرة إياه عن أوضاع الأراضي المقدسة وأحوال التنظيمات المالية والإدارية(٦).

---

(١) عن حملتي ريتشارد كورنوال وتيبالد الشامبني انظر :

Painter (Sidney),"The Crusade of Theobald of Champagne and Richard of Comwall, 1239-1241" , in Setton , A history of the Crusades, vol. II, pp. 463-486.

(٢) Matthew Paris , English History ,vol. II, p 311.

(٣) L'Estoire d'Eracles , p.460-461. Cf. also,Rohricht, R, La Croisade des Prince Edward d'Angleterre (1270-1274), in R.O.L., tome II, Paris, 1884, p.268, Prestwich (M), Edward I, p.75.

(٤) لم تصرح المصادر بتولي أي من الإنجليز لمناصب كبيرة في مملكة عكا غير أنها ذكرت اسم أغسطين نوتنجهام Augustine of Notingham الذي تولي منصب أسقف اللاذقية عام٦٥٢هـ (١٢٥٤م) وظل في منصبه حتى فقده بفتح الظاهر بيبرس لها عام ١٢٦٠م، وكان أغسطين أخ شقيق لويلم نوتنجهام William Nottingham الوزير الإقليمي لهيئة الرهبان الفرنسيسكان في انجلترا، لمزيد من التفاصيل انظر:

Hamilton, The Latina Church, p.233; Lloyd , The English Society and the Crusade , 1216-1307 , Oxford , 1988 , p.241-242.

(٥) Letter from King Edward I , to sir Joseph de Cancy , in: Crusades Letter , in P.P.T.S. , Vol.5 , p.14-15.

(٦) Forey, "The Military Order of St. Thomas of Acre", p.494.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وقد شارك الإنجليز بفاعلية في التصدي للأشرف خليل في حصاره الأخير لعكا عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م) حيث إن ملك إنجلترا كان قد أرسل حملة لمساندة مملكة عكا الصليبية، تحت قيادة أخلص أصدقائه أتوجراندسن Otto grandson الذي حمل معه مبلغاً كبيراً من المال وعدد من الفرسان والمشاة، وعهد إليه وإلى حنا جرايللي بقيادة الفرقة الإنجليزية للدفاع عن قطاع خطير من سور عكا، إلى يمين عموري لوزجنان نائب ملك قبرص وأخاه، وفقد الإنجليز عدداً كبيراً من زملائهم في القتال ولما دب اليأس وصار سقوط المدينة أمر واقع لا محالة، فر القادة الإنجليز إلى قبرص مع من تبقي من أتباعه(١).

ومهما يكن من أمر فقد كان التواجد الإنجليزي في مملكة عكا أكبر منه في مملكة بيت المقدس الأولى، بفضل النشاط الصليبي الإنجليزي في القرن الثالث عشر، الذي شهد ثلاث حملات صليبية إنجليزية صغيرة، اثنتان في النصف الأول وواحدة في النصف الثاني، كما اتضح أن هذا التواجد وإن كان قليل من الناحية العددية، إلا أنه لم يكن صغيراً من الناحية الكيفية.

وبجانب الفرنسيين والإنجليز وجد عدد من الألمان في مملكة عكا، وتعود جذور وجودهم إلى فترة مبكرة من التواجد الصليبي في الساحل الشامي(٢)، وكان عدد الألمان في مملكة عكا

---

(١) Von Scheim, Description of the holy land, p. ; Tyerman , England and the Crusades 1095-1588, Chicago, 1988, p.238. Prestwich, Edward I, p.329.

وأيضا : رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٦٩٧-٦٩٨؛ زينب عبد المجيد، الإنجليز والحروب الصليبية، ص ٢٣٧.

(٢) جاء عدد غير قليل من الألمان في صحبة جودفري دي بويون، وشاركوا بفعالية في الحملة الصليبية الأولى، وبالرغم من ذلك لم تكن الأراضي المقدسة مصدر جذب كبير للألمان، وهو أمر تأسف عليه حنا الورزبرجي عام ٥٧١هـ (١١٧٥م) حين زار القدس، حيث لم يجد سوى سلة قليلة من فقراء الألمان يسكنون القدس، وهذا الأمر يشي لنا بأن من تبقي على قيد الحياة من شاركوا كونراد الثالث في الحملة الصليبية الثانية والذي وصل إلي السبعين ألف قد رحلوا جميعاً، انظر : وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٢٧١؛

John of Wurzburg , Description of the Holy Land, p.40-41, Prawer," the settlement of the Latin in Jerusalem in" , Spc. Vol. 27, no. 4 , (Oct. 1952) , p.500.

http://www.al-maktabeh.com

أكثر من مملكة بيت المقدس بكثير، فقد استقر بها عدد من الألمان، بعد استعادتها من يد المسلمين بفضل تأسيس المستشفى الألماني بها، وما منحه جاي لوزجنان لها من امتيازات قبل استعادة الصليبيين لعكا عام ٥٨٦هـ (١١٩٠م)، فصارت تلك المنح أساساً للحي الألماني في عكا[١]، كما أن عام ٥٨٥هـ (١١٩٨م) شهد الاعتراف الرسمي بهيئة فرسان التيوتون التي اقتصرت عضويتها على الفرسان من الألمان فقط[٢]، وقد زادت أعداد الفرسان الألمان بسرعة كبيرة حتى استطاعوا عام ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) تأسيس أكبر قلاعهم في الساحل الشامي ألا وهي قلعة مونتفورت أو القرين[٣]، وذلك في ظل الدعم الذي تلقته الهيئة من الإمبراطور فردريك الثاني خلال حملته الصليبية[٤]، كما ترك فردريك الثاني في مملكة عكا حامية ألمانية كبيرة - بصفته الوصي على ابنه القاصر كونراد- اتخذت من صور مقراً لها[٥]، وبالرغم من طرد تلك الحامية عام ١٢٤٣م (٦٤١هـ) إلا أن جماعة الفرسان التيوتون بقيت تشارك بفعالية في الدفاع عن المملكة، في ظل قيادة أنو سانجر هاوزن لها، الذي وسع أملاكها داخل مملكة عكا وخارجها[٦]، وبالتالي زاد عدد الألمان في مملكة عكا حيث كانت الجماعة ترسل باستمرار إلى أوربا لاستقدام المزيد من الفرسان الجدد لتقوية قبضتها على

=راجع أيضا، صلاح ضبيع، دور الألمان في الحروب الصليبية، ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م - ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة المنيا، ١٩٩٣م / ١٤١٣هـ، ص ٩٤ ؛ محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في العصور الوسطي ، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٣٠؛ حسن البطاوي، التباين الاجتماعي والخلافات المذهبية في بلاد الشام ١٠٩٧-١١٧٧م، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص ١١٠.

(١) حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص٣٥٧، ١٠٠،١٠١.

(٢) King , The Knights Hopitallers , p.305 .

وأيضاً: حسن عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ١١٩؛ محمود الحويري، الأوضاع الحضارية، ص ٧٠-٧١.

(٣) مولر وفيز، القلاع الصليبية، ص٩٨، حسن عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ١٨٨.

King , Op.Cit. , p. 305.

(٤) حسن عبدالوهاب، المرجع السابق، ص ١٧٥.

(٥) فليب دي نوفارا، تاريخ الحرب، ص ٩٣.

(٦) حسن عبد الوهاب، المرجع السابق،ص ٢٧٦-٢٧٧.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أملاكها التي تزداد يوما بعد يوم، مما جعل الظاهر بيبرس يصمم على إسقاط قلعتهم الرئيسة في القرين ولم تهدأ رغبته حتى فتح القلعة عام ١٢٧١م (٦٦٩هـ)[١]، وبتتابع الفتوح المملوكية ضاعت ممتلكات الألمان مع ممتلكات الصليبيين. وقد شارك عدد كبير من الفرسان الألمان في الدفاع عن عكا عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م) قيل إن عددهم كان حوالي ٥٠٠ فارس[٢]، وهذا العدد وإن كان يحمل كثير من المبالغة إلا أنه دلالة على كثرة عدد الألمان المدافعين عن عكا في معركة الصليبيين الأخيرة في الشرق.

مما سبق يتضح أن مملكة عكا الصليبية عانت من عدم التجانس السكاني، ومما لا شك فيه أن سكان المملكة تأثروا بالظروف السياسية لأوطانهم الأم في أوربا، وبصفة خاصة من قدموا من أوطانهم حديثا، وحتى من طالت إقامتهم في ظل الصلة التي لم تنقطع يوما بينهم وبين تلك الأوطان، سواء عن طريق الحجاج القادمين أو بوصول الملوك أنفسهم، أو عن طريق مراسلي الملوك، وقد أسهم كل ذلك في تأجج الصراعات الداخلية في المملكة، كما أسهم في فشل الحملات الصليبية في إنجاز شيء، وخير مثال لذلك ما حدث في الحملة الصليبية الثالثة، حين اختلف ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس، ذلك الخلاف الذي قام على أساس من الصراع المزمن بين إنجلترا وفرنسا في ذلك الوقت، مما دفع فيليب إلى مغادرة عكا وترك ريتشارد يواجه صلاح الدين وحده[٣]، الذي لم يستطع إنجاز شيء بعد مهاجمة فيليب لبلاده، ولعلنا نتلمس أسباب عدم تتويج هنري شامبني ملكا على مملكة عكا في الصراع

العرقي، فقد تولى هنري بدعم من قريبه ريتشارد، في حين كان جل نبلاء المملكة من الفرنسيين، وهم المسيطرون على المحكمة العليا التي كان لها الكلمة الأولى والأخيرة في الأمر، ومن ثم تركوه يحكم بلا تاج حتى توفي[٤]. وفي حملة لويس على مصر حدث صدام بين

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٤-٣٨٥؛ ابن أيبك، كنز الدرر، جـ ٨، ص ١٦٢؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص ٣١١.

(٢) Forey, "The Military of st. Thomas of Acre", p.488 .

(٣) مجهول، ذيل وليم الصوري، ص٣١٥ ؛ مجهول، الحملة الصليبية الثالثة، جـ٢، ص٤٢-٤٦.

(٤) راجع الفصل الأول، ص ٤٤.

http://www.al-maktabeh.com

الإنجليز والفرنسيين نتيجة اعتداء الكونت أرتوا -أخو الملك لويس – على القائد الإنجليزي وليم كونت سالسبري، مما دفعه لترك المعسكر والرحيل مع الإنجليز إلى عكا متهما لـويس بالعجز عن القيادة بعد أن فشل في إعادة حقه إليه [١]، كما يمكن تفسير الصراع بين فردريك الثاني ونبلاء المملكة في جانب منه بالصراع العرقي، فهو ألماني وهم فرنسيون في الأصل وسياسة بلديهما الأم كانت على طرفي نقيض، مما أوجد مسوغا لهم ليخرجوا عليه، حتى ولو لم يعلنوا ذلك، وقد استشرت آثار التنافر السكاني بشكل كبير في تصدي الصليبيين للتوسع المملوكي المستمر، حيث لم يحدث تعاون فعال بين سكان المملكة في التصدي لهم[٢].

أما عن تناقص السكان فقد قامت إحدى الدراسات الحديثة بعمل إحصائية تقريبية حول عدد السكان الصليبيين في مدن مملكة بيت المقدس عقب معركة حطين و قبيل دخول صلاح الدين القدس عام ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، وخرجت بأرقام تقريبية لم تخلو من دلالات على الرغم من عدم دقة هذه الإحصائيات؛ إذ قدرت إجمالي عدد السكان بنحو ١٤٠ ألف نسمة[٣]، في حين أكدت دراسات أخرى أن جملة سكان المملكة في ذلك التوقيت لم تزد عن نصف مليون نسمة، منهم ما بين ٧٥% و٨٥% من المسلمين والمسيحيين الشرقيين[٤]، وهو ما يتقارب مع الإحصاء المذكور حول عدد الصليبيين في المملكة، وبلا شك أن هذا العدد – مع فرض قربه من الصحة – قد تناقص بشكل متتابع؛ وقد ساعد على هذا التناقص عدة عوامل كالتالي:

---

(١) Matthew paris, English Histoty, vol.II, pp.354-356.

وأيضا، جوزيف نسيم العدوان الصليبي علي مصر، ص ٢٥٠.

(٢) The Templar of Tyre, p.108.

(٣) Benvenisti , The Crusaders in the Holy Land , p.26.

(٤) عبد الحافظ عبد الخالق، الأسواق، ص ٦٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أولاً: انخفاض معدلات المواليد وارتفاع عدد الإناث.

فقد عانت مملكة عكا مثلما عانت مملكة بيت المقدس[١] من مشكلة نقص عدد المواليد، فلم يزد عدد ما أنجبته الأسرة الصليبية عن فردين وربما فرد واحد[٢]، ولعلنا نتلمس أسباب هذا النقص في اختلاف الظروف المناخية في الساحل الشامي عن مثيلتها في أوربا مما ترك أثرا سلبيا في عدد المواليد. كما نلحظ ظاهرة أخرى تركت أثرا كبيرا على التواجد السياسي للصليبيين في الشرق سواء في عهد مملكة بيت المقدس أو عكا، وتمثلت هذه الظاهرة في زيادة عدد الإناث عن عدد الذكور، مما جعل ملوك الصليبيين يتدخلون بشكل مباشر في قضية تنظم زواج الوريثات والأرامل، نظرا لما يترتب على هذه الزيجات من مشاكل اقتصادية تتبعها مشاكل سياسية أكثر خطورة[٣]، ولعل تلك الظاهرة كانت تظهر بشكل صارخ في الأسرة الحاكمة، فملوك بيت المقدس التسعة لم ينجب منهم سوى ثلاثة هم: فولك الأنجوي الذي رزق بذكرين هما بلدوين الثالث الذي انجب بدوره إناثاً أربعاً، وعموري الأول الذي رزق بولد وعدة بنات، وبعدها عدم العرش الصليبي الوريث الذكر مما فتح المجال أمام استقدام أزواج لوريثات العرش من قبرص وأوربا، حتى قرابة الربع الأخير من القرن الثالث عشر، حين خلف هيو الثالث ملك قبرص وعكا ولده حنا ثم ولده هنري الثاني[٤]. خلاصة القول أن قلة أعداد المواليد وبخاصة الذكور جلب على مملكة عكا، كما جلب على مملكة بيت المقدس من قبل الكثير من المشاكل التي ارتبطت بصورة أساسية بتوريث العرش، تلك المشاكل التي كان يمكن تجنبها لو كان نسل الصليبيين في حال أحسن مما ذكرنا، وأمر أخير كان له دور مؤثر في نقص النسل – على الأقل في الطبقة الأرستقراطية

---

(١) عندما صار بلدوين الأول ملكا علي مملكة بيت المقدس، سنة ٤٩٣هـ (١١٠٠م)، لم يكن هناك من القوة البشرية ما يكفي لتثبيت أركان المملكة، مما حدي بفوشيه الشارتري إلي وصف الصليبيين بالشعب الصغير، وقد استمرت مملكة بيت المقدس قليلة السكان، ولم يكن هناك من القوة البشرية ما يكفي للدفاع عن المملكة إذا ما فكر المسلمون في مهاجمتها. انظر: قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ١٣١.

(٢) براور، الاستيطان، ص ٤٤٩.

(٣) السيد الباز العريني، نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين، ص ٤٨.

(٤) انظر الفصل الأول، ص ٧٦.

http://www.al-maktabeh.com

الحاكمة – تمثل في القوانين الملكية التي كانت تحظر زواج وريثات الإقطاعيات بمن ليسوا أكفاء لهن[١]، مما أدى إلى كثرة الزيجات المتبادلة بين عدد قليل من الأسر مما نتج عنه انتشار الكثير من الأمراض الوراثية التي لم تسعفنا المصادر في ذكرها، ولعلنا نتلمس سبب إصابة الملك هنري الثاني بالصرع بكثرة الزيجات المتبادلة بين أسرة أبلين وبيت لوزجنان حكام قبرص وعكا في ذلك الوقت[٢].

ثانيا: الحروب المستمرة.

فقد عانت مملكة عكا من كثرة الوفيات في صفوف المقاتلين في ظل المواجهات الحربية المستمرة بين الجيوش المملوكية وجيش مملكة عكا، طوال النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وقد بدأت تلك الخسائر الفادحة بخسائر المملكة من جراء حملة لويس الصليبية على مصر، التي تركت آثارا بعيدة المدى على سكان مملكة عكا، فما خسرته المملكة في تلك الحملة من ناحية العنصر البشري لم يتم تعويضه على الإطلاق ولم تفق المملكة من تلك الكارثة السكانية أبداً[٣]، كما زاد الطين بلة اندلاع الحرب الأهلية عام ٦٥٤هـ (١٢٥٦م)، التي عرفت اصطلاحا بحرب القديس سابا التي راح ضحيتها آلاف السكان، ففي المعارك التي اندلعت في ذلك العام راح ما يقدر بعشرين ألف قتيل من سكان المدينة وحدهم ناهيك عن المقاتلين من الجانبين[٤]، ومع اندلاع حركة الفتوح المملوكية على يد الظاهر بيبرس تتابعت تلك الخسائر بشكل متوال ومتسلسل بحيث كان كل فتح مملوكي يصحبه خسائر كبيرة في السكان، وبصفة خاصة المقاتلين الذين لم يتم تعويضهم أبدا سواء

---

(١) السيد الباز العريني، نحو طبقة النبلاء الإقطاعيين، ص ٤٨.

(٢) Hill, A History of Cyprus , vol. II, p 180 ; Mas Latrie, Genealogie des rois de Chypre de la famille de Lusignan, Venise, 1888, p.2-9; King , The Knight Hospitallers, P. 287 ; Runciman , The Sicilian vespers , P. 258; Read , The Templars ,P. 2.

(٣) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٤٨٤.

(٤) مجهول، تتمة كتاب وليم الصوري، ص ٢٣٧.

L'Estoire d'Eracles, p.445. Cf. also, Mayer, The crusades, p.274 ; Marshall, Warfare in the Latin East, p.41, 228.

مكتبة المهتدين الإسلامية

من جانب السكان المحليين أو الوافدين الأوربيين، فعندما سقطت أرسوف عام (٦٥٤هـ-١٢٦٥م) راحت حاميتها التي كانت مكونة من ٢٠٠٠ فارس من الاستبارية بين قتيل وأسير[١]، وفي عام (٦٦٥هـ-١٢٦٦م) قتل عدد كبير من حامية صفد أثناء الحصار، وعقب سقوط القلعة قام الظاهر بيبرس بقتل من تبقي منهم[٢]، كما قتل عدد كبير من سكان يافا قبل أن تسلم عام٦٥٧هـ (١٢٦٨م) [٣]، وهكذا كان كل فتح مملوكي جديد يعني خسائر بشرية لا تعوض مما أسهم في خلخلة سكانية لم تفق منها مملكة عكا للأبد، ناهيك عن هجمات المماليك على المدن الصليبية سواء بغرض الاستطلاع أو التمويه من أجل صرف أنظارهم عن الهدف الحقيقي للحملة المملوكية، التي كانت لا تمر دون عدد غير محدود من القتلى مثلما حدث عام ٦٨٨هـ (١٢٦٩م) حين أباد حاكم صفد المملوكي كمينا نصبه الصليبيون على بعد ميل من مدينة عكا أسفر عن مقتل كل من كان في الكمين من خيرة الفرسان الصليبيين الذين بلغ عددهم ٢٠٠ فرد، وجرى ذلك دون أن يستطيع أحد الخروج من عكا لنجدتهم خوفا من زيادة عدد القتلى[٤]. وقد بلغت الخسائر البشرية ذروتها في الحصار الأخير لعكا عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م)، ولم تستطع أساليب الإحصاء المعاصرة للحدث أن تعطي رقما محددا لعدد القتلى من الصليبيين غير أن الرقم بلا شك كان

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٤٢. انظر أيضا:

L'Estoire d'Eracles, p.450; The Templar of Tyre, p.44. Cf. also, Marshal, Warfare in the Latin East, p. 217.

راجع أيضا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٥٤٦-٥٤٧.

(٢) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص٢٦١. انظر أيضا:

L'Estoire d'Eracles, p.453. Cf. also, The Templar of Tyre, p.50. Cf. also, Marshal, Op.Cit, p. 217.

راجع أيضا: رنسيمان، المرجع السابق، جـ٣، ص ٥٥١.

(٣) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٩٢-٢٩٥. انظر أيضا:

L'Estoire d'Eracles, p.456. Cf. also, Richard, The Crusades, p.418.

راجع أيضا: رنسيمان، المرجع السابق، جـ٣، ص ٥٥٦.

(٤) L'Estoire d'Eracles, p.457.

http://www.al-maktabeh.com

كبيراً حسبما يُفهم من الإشارات الواردة في المصادر، فقد قدر عدد سكان المدينة بما يتراوح بين ٣٠٠٠٠ و٤٠٠٠٠ نسمة ناهيك عن ٨٠٠ فارس و ١٨٠٠٠من المشاة، ومن قدم من قبرص مع الملك هنري، وعلي وجه التقريب راح جلهم بين قتيل وأسير ولم ينج سوى عدد قليل من النبلاء والأثرياء، ويرجح نجاة عدد قليل من العامة في ظل قلة السفن وارتفاع أسعار النقل(١).

ثالثا: الأوبئة.

أسهمت كثرة الأوبئة في تقليص أعداد الصليبيين في مملكة عكا، ولم يكن جل هذه الأوبئة معروفة الأسباب أو العلاج بالنسبة للصليبيين، مما تسبب في ارتفاع عدد الوفيات(٢)، وقد بدا ذلك واضحا في حملة لويس الصليبية على مصر، التي تفشى فيها وباء قاتل بين الصليبيين، بسبب كثرة القتلي وما نتج عنها من جراثيم قاتلة، ومن كانت تظهر عليه أعراض المرض كان شفائه من الأمور المستحيلة، حتى جوانفيل نفسه قد أصيب بالوباء وأشرف على الموت لولا وقوعه في الأسر وما قدمه له الحراس المصريون من دواء عجل بشفائه(٣)، وفي عام ٦٨٠هـ (١٢٨١م) اشتكي يوسف الكانسي في تقريره إلى إدوارد الأول ملك انجلترا من تفشي الأمراض والأوبئة بشكل خطير في عكا وسائر بلاد الصليبيين في الساحل(٤). كما كان للتفسخ الأخلاقي دور كبير في انتشار عدد كبير من الأمراض

---

(١) حول خسائر عكا البشرية في حصارها الأخير انظر: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٧٠٦-٧٠٨؛ محمد مؤنس، التنظيمات الدينية الحربية في مملكة بيت المقدس، عمان، ٢٠٠٤، ص ١٣١-١٣٣.

De Villiers, Letter of John de Villiers, Master of the Hospital, describing the fall of Acre, pp. 301-302; The Templar of Tyre, p.108-113; Annales de Terre Saint, p.460; Von Suchems, Description of the Holy Land, p.57; Marshal, Warfare in the Latin East, p.219; Mayer, The Crusades, p.286; Hindley, The Crusades, p.210-211;Paine, The Crusades, p.88.

(٢) سعيد محمد الغمري، الطب في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ١٠٩٩-١٢٩١م / ٤٩٥-٦٨٧هـ، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ٢٠٠٣م، ص ٤٨.

(٣) جوانفيل، القديس لويس، ص ١٥٢. راجع أيضا: جوزيف نسيم، العدوان الصليبي علي مصر، ص ١٨٦؛ زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص ٣١٦.

(٤) De Cancy , Crusader's Letter , p.13 .

مكتبة المهتدين الإسلامية

التناسلية التي لم تصرح بها المصادر، ولكن يفهم انتشارها بين ثنايا المصادر، والتي كانت السبب في كثرة الوفيات في المدن خاصة عكا، التي كثر عليها الوافدون ومن بينهم عدد كبير من سيئات السمعة مما ساعد علي انتشار الأمراض المشار إليها[١].

رابعا: العوامل الجوية.

كما أسهمت العوامل الجوية مساهمة فعالة في تناقص أعداد الصليبيين، ويرجع ذلك إلى اختلاف درجات الحرارة في الشرق الإسلامي عن الغرب الأوربي، وبالتالي تعرض الكثير منهم للوفاة بسبب ارتفاع درجات الحرارة والظروف الصحية والعادات الغذائية التي لم يألفوها في بلادهم، خصوصاً إذا ما كانوا من الوافدين الجدد[٢]، فعلى سبيل المثال لا الحصر توفي عدد كبير من الصليبيين المشاركين في حملة الأمير إدوارد عام ٦٧٠هـ (١٢٧١م)، بسبب شدة الحر والعطش مما جعل الأمير يقيم صلوات خاصة باسم مار جرجس ليرفع عنهم الرب هذا البلاء[٣]، كما أسهمت العوامل الجوية في إعاقة نقل الفارين من وجه المسلمين أثناء الحصار الأخير لعكا مما أسهم في قلة فرص النجاة من سيوف المسلمين[٤]. وفي تقرير هامبرت رومانز الذي رفعه إلي مجمع ليون الثاني عام٦٧٢هـ (١٢٧٤م) أشار إلي أن من أسباب إحجام الأوربيين عن الهجرة أو المشاركة في الحروب الصليبية ارتفاع درجة الحرارة التي تعجل بوفاة الوافدين الجدد إلي الشرق[٥].

خامسا: تناقص الوافدين من أوربا.

عانت مملكة عكا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر من تناقص الوافدين من الغرب إلى المملكة، بالرغم من كثرة الرسائل التي تستنجد بالغرب، وكثرة دعوات الباباوات

---

(١) محمد مؤنس، أضواء علي الطب في المناطق الصليبية، ص ١٢٧-١٢٨؛ سعيد محمد الغمري، الطب في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ص٦٨.

(٢) براور، الاستيطان، ص ٨٧؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ٣٨٦.

(٣) L'Estoire d'Eracles , p.461.

(٤) Von Suchem, Descriptionof the holy land, p.58.

(٥) Throop, Criticisms of the Crusade, p. 152 .

http://www.al-maktabeh.com

المتابعة للخروج في حملات صليبية، وقد أسهم في ذلك الأمر عدة أسباب أهمها فشل حملة لويس على مصر، وإحجام الأوربيين عن المشاركة في الحملات الصليبية بعدما حولتها البابوية إلى خدمة أهدافها الخاصة، بصرف النظر عن الصالح الصليبي العام، بجانب حدوث تطور اقتصادي في أوربا زاد من ارتباط الأوربيين ببلادهم، فأوربا في منتصف القرن الثالث عشر لم تعد هي أوربا نهاية القرن الحادي عشر، التي ضاقت بسكانها حيث تطورت الزراعة ونمت المدن، وزادت سيطرة الملوك على النبلاء مما أسهم في الحد من صراعاتهم البينية، بجانب تحسن أحوال الأقنان، مما جعلهم يفضلون البقاء في بلادهم على المخاطرة بالذهاب إلى الشرق، كما أن ملوك أوربا لم يعد اهتمامهم بالحروب الصليبية مثل الماضي فقد غلبوا مصالح بلادهم على إرضاء البابوية، والاستجابة لدعواتها المتتالية للخروج في حملة صليبية، بجانب قيام دولة المماليك التي قامت بنحرٍ متتابعٍ لمملكة عكا بشكل جعل الجميع ينتظرون نهايتها وبالتالي قلت أعداد الوافدين إلى المملكة وساءت نوعيتهم[١]

سادسا: قيام مملكة قبرص الصليبية

نظر كثير من المؤرخين الغربيين والشرقيين[٢] على حد سواء إلى استيلاء ريتشارد قلب الأسد على قبرص ثم قيام مملكة آل لوزجنان فيها على أنه عملٌ إيجابيٌ للصليبيين في الساحل الشامي، إذ عدوها قاعدة مهمة للصليبيين في الشرق حيث أمنت لهم المدد في أشد

---

(١). جوانفيل، القديس لويس، ص ٢٦٦. انظر أيضا:

De Cancy , Crusader's Letter , p.13. Cf. also: Throop, Criticism of the Crusade, p.262-282.

راجع أيضا: زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص ٣٠٤-٣٠٧؛ سميل، الحروب الصليبية، ص ١٠٤؛ رايلي سميث، الاسبتارية، ص ٤٤٠؛ زينب عبد المجيد، الإنجليز في فترة الحروب الصليبية، ص ٢٠٤؛ خير المر، "الفرنجة بين المغول والمماليك، مواقف عشية عين جالوت"، ضمن أبحاث مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي، اربد- الأردن، ٢٠٠٠م، ص ٧٥٢؛ محمد مؤنس، "من عوامل إخفاق المشروع الصليبي"، ص ٤٦.

(٢) سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص ٢٩، زينب عبد المجيد الإنجليز والحروب الصليبية، ص١٢٩-١٣٠.

Grousset , Histoire des Croisades , tome III , pp. 48-49 , Hill , A history , of Cyprus , vol. I , pp. 321; Adams, The History of England, p.367 ; Duggan , The story of the Crusades, London , 1963 , p.183.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الأوقات حرجا في مدة لا تزيد عن يومين، وصارت نقطة انطلاق للحملات الصليبية في المستقبل، وهذا الكلام لا يخلو من صحة غير أنه كان وبالا على مملكة عكا من الناحية السكانية منذ الحملة الصليبية الثالثة وحتى فتح الأشرف خليل لها، ذلك أن قبرص صارت في أعين الصليبيين الملاذ الآمن لهم، ومن ثم كلما تعرضت مدن الساحل للخطر كلما زادت موجة النزوح إلى قبرص، ولم يقتصر ذلك على أوقات الخطر بل بدأت موجة النزوح الجماعي إلى قبرص منذ شراء جاي لوزجنان لها من ريتشارد قلب الأسد، فقد وجه دعوة إلى صليبي الساحل للرحيل إلى قبرص، سعيا إلى زيادة عدد اللاتين في الجزيرة لإحداث نوع من التوازن السكاني مع اليونانيين من سكانها الأصليين بشكل يثبت ملك آل لوزجنان في الجزيرة، وكان لإعلان جاي أنه سوف يمنح الاقطاعات لكل من يستقر في قبرص من الصليبيين دور كبير في رحيل عدد كبير منهم نحو الجزيرة(١)، وترتب على ذلك تفريغ مدن الساحل بصورة تدريجية من سكانه، وبخاصة مع تزايد موجات الفتوح المملوكية بشكل حرم مملكة عكا من جل فرسانها الذين آثروا الاستقرار في قبرص قليلة المشاكل، على البقاء في الساحل حيث يخسرون كل شيء حتى أرواحهم، حتى تحول الوضع من كون قبرص فرع للصليبيين في الشرق يستعينون به في وقت الأزمات، إلى أن صارت قبرص هي الأصل والساحل هو الفرع(٢) وأحجم كثير من نبلاء قبرص وهم في الأساس نبلاء مملكة بيت المقدس عن الدفاع عن مدن الساحل الشامي، وقد بدأ ذلك الأمر منذ عهد عموري الثاني لوزجنان٥٩٤-٦٠٢هـ (١١٩٧-١٢٠٥م) الذي كان أول من جمع عرشي قبرص وبيت المقدس معا تحت سلطانه غير أنه أدار كل مملكة بعزل عن أختها، وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر لقي هيو الثالث(٣)، عنتا من نبلاء قبرص الذين رفضوا معاونته في

---

(١) مجهول، يل وليم الصوري، ص٢٢٣. انظر أيضا: L'Estoire d'Eracles , pp.191.
راجع أيضا: لطيفة البوعنين، الحياة الاقتصادية، ص ٤٤٨.

(٢) سعيد عاشور، قبرس والحروب الصليبية، ص ٣٥.
John of Ibelin : Le Livre des Assises, intro. P.2. Cf. also: Grousset , Histoire des Croisades, tome III,p.138.

(٣) L'Estoire d'Eracles,p462. Cf. also, Runciman, "The Crusader state", P. 582.

http://www.al-maktabeh.com

الدفاع عن مملكة عكا التي صارت مهددة ليل نهار بهجمات المسلمين، مما جعله يلجأ إلى المحكمة العليا في قبرص لإجبارهم على الخروج معه إلى الساحل، فلم تحكم سوى بخروجهم معه أربعة أشهر كل عام، بعدها يتحمل نفقة كل من يبقي معه باختياره ومن أراد الرحيل فليفعل دون حرج[١]، ومع كل فتح جديد للمسلمين في الساحل كان قطاع كبير من السكان يرحل إلى قبرص كما باع كثير من نبلاء الساحل أملاكهم إلى التنظيمات الدينية ورحلوا إلى قبرص[٢].

وهكذا لم تحقق قبرص للصليبيين في الساحل إلا القليل من النفع حيث صارت الملاذ الأخير لهم، في حين صارت عظيمة الضرر عليهم وبخاصة في الناحية السكانية، حين رحل إليها كثير من سكان مملكة عكا واتخذوها وطنا بديلا عن الساحل الشامي الذي صار قاب قوسين أو أدنى من السقوط، مما سبب خلخلة سكانية أثرت على القوة المدافعة عن المملكة التي لم تجد سوى الاستنجاد بالغرب سبيلا، فلم يغثهم الغرب سوى باللصوص وقطاع الطرق.

الطبقية:

كان المجتمع الصليبي ينقسم إلى قسمين: الفرنجة وغير الفرنجة، ويقصد بالفرنجة هنا كل أبناء الأمم الأوربية التي شاركت في الغزو الصليبي للمنطقة العربية واستقروا في الكيانات الصليبية.

أما غير الفرنجة فيقصد بهم السكان الأصليين لبلاد الشام من المسلمين والمسيحيين الشرقيين واليهود، وقد أدرك المعاصرون للحروب الصليبية وضوح هذا التقسيم، ومن ثم لم يطلقوا على الغزاة الأوربيون لفظ نصارى بالرغم من أن المسيحية ديانة الغزاة، لكنهم لقبوهم بالفرنجة تميزا لهم عن المسيحيين المحليين[٣]، و حسبما كان الوضع قائما في المجتمع

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٥٧٥.

(٢) راجع الفصل الثاني، ص ١٠٠.

(٣) Prawer, "Social Classes in the latin kingdom the Franks" ,in Setton , A history of The Crusades, vol. V , p.120.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الصليبي في مملكة بيت المقدس جرى الحال في مملكة عكا حيث قسم المجتمع إلى عدة طبقات هي: طبقة الأرستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان[١]، وطبقة البولان Pullani[٢]، وطبقة الأحرار المعروفين بالبرجوازيين[٣]، ثم القوميونات الوطنية الأوربية[٤]،

---

(١) الأرستقراطية الحاكمة، من النبلاء والفرسان: كانت تمثل الطبقة الحاكمة، تمكنت من السيطرة علي الحكم والإدارة والقضاء والشئون المالية، ويقف علي رأسها الملك يليه كبار النبلاء ثم الفرسان، غير أن أعدادهم كانت قليلة، والوفيات منهم كثيرة سواء بسبب العوامل الجوية أو الحروب المستمرة أو الأوبئة والمراض التي لم يتعارفوا عليها في أوربا أو لم يعرفوا لها علاج في الشرق، وقد استقروا في المدن والقلاع الحصينة، لمزيد من التفاصيل عنهم انظر: براور، الاستيطان، ص ٨٣-٩٩؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ١، ص٣٨٥-٣٨٦ ؛ محمود الحويري، الأوضاع الحضارية، ص ٧٥-٨٠؛ علي السيد، المجتمع المسيحي، ص ٧-١٣.

Prawer, Social Classes , pp. 123-144, Archer, The Crusades, p.296.

(٢) طبقة البولان Pullani (Half-Castes)أو المولدين: وهم أبناء الصليبيين نتيجة الزواج من المسيحيات الشرقيات من الأرمنيات أوالسوريات، وقد حلت هذه الطبقة بمرور الزمن محل آبائهم الذين جاءوا مع الحملة الصليبية الأولي، وشغلوا مكانهم في الهرم الاجتماعي الصليبي، وكانت تلك الطبقة أكثر إقبالا علي التعايش مع المسلمين وأكثر إقبالا علي حياة الشرق، مما جعل الوافدين الجدد ينظرون إليهم نظرة ازدراء واتهام بالتخنث، عن البولان وموقف القادمين الجدد منهم انظر : جاك دي فيتري، تاريخ مملكة بيت المقدس، ص ٢٢٥-٢٢٧؛ سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٣٨٦؛ محمود الحويري، المرجع السابق، ص ٨٠-٨٢ .

Archer, Op. Cit., p.297.

(٣) الطبقة البرجوازية Bourgesses: أو طبقة الأحرار وهم من شاركوا في الحروب الصليبية من عامة الأوربيين من غير العبيد او الإيطاليين، وقد عملوا بالكثير من الحرف والصناعات، وكانت لهم الحرية الكاملة في البيع والشراء والتملك بشرط دفع الرسوم والضرائب التي تحددها المملكة، وان لهم سلطة قضائية منفصلة تعرف بالمحكمة البرجوازية، انظر، براور، الاستيطان، ص ٩٩-١٠٩؛ محمود الحويري، الأوضاع الحضارية، ص ٨٣-٨٤ ؛ علي السيد، المجتمع المسيحي، ص ٤٠-٤٢.

Prawer, Social Classes , pp.145-170.

(٤) القوميونات الوطنية الأوربية: وكانت تشمل ممثلي المدن الإيطالية والبروفنسالية والأسبان، وقد شكلوا طبقة متميزة لها استقلال ذاتي في كافة شئونهم المالية والقضائية، استمدوه من سلسلة المعاهدات الطويلة مع ملوك الصليبيين، عن تلك الطبقة انظر:

براور، الاستيطان، ص ١١٠-١١٩؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٣٨٧؛ علي السيد، المرجع السابق، ص٢٠-٢٨.

Prawer, op. cit , pp.171-192.

http://www.al-maktabeh.com

ثم طبقـــة العبيد[١]، بجانب المسيحيين الشرقيين والمسلمين[٢].

ولم يكن هذا التقسيم مرناً من الناحية الاجتماعية، فقد أصاب المجتمع الصليبي نوع من بطء الحراك الاجتماعي، منع الانتقال بين الطبقات، وأسهم في ترسيخ هذا النظام بـشكل قاس، وقد جسد هذا الجمود الطبقي ما دونه فيليـب النوفـاري حـوالي عـام ١٢٥٨م (٦٥٧هـ) من نقد للإمبراطور فردريك الثاني الذي حاول أن يكسر القاعدة الاجتماعيـة التي سادت في أوربا في عصره التي عرفت بصرامتها وحدتها، حين جنح إلى الرفع من شـأن الأقنان وذوي الأصول غير النبيلة، واعتبر ذلك الأمر من نقائص الإمبراطور التي ارتكبـها بعد تتويجه التي لا تقل خطورة عن تثاقله عن الوفاء بنذره الصليبي[٣].

وبصرف النظر عن سبب لجوء فردريك إلى رفع شأن الأقنان، وغير النبلاء من حيـث كونه جنوح من فردريك نحو ثورة اجتماعية سابقة لعصرها، أو أنه مجرد إجراء لتهديد مكانة النبلاء الذين مالوا إلى البابوية، وبالرغم من أن فيليب ينتقد شخص الإمبراطور الذي لم يُقم في مملكة عكا سوى بضعة شهور، فإن هذا النقد يعبر بشكل واضح عن الانتمـاء الطبقـي

---

(١) العبيد والأقنان: خضع للصليبيين كثير من العبيد الذين تم الحصول عليهم إما بالشراء أو من أسري الحروب مع المسلمين، وكثيرا ما حاول الصليبيون تنصير من صار في أيديهم من المسلمين، أما الأقنان فبعضهم قدم من الغرب مع الحملات الصليبية، وبعضهم كان من أبناء البلاد الأصليين من أصحاب الملكيات الصغيرة، وبمجرد الغزو الصليبي تحولوا إلي أقنان، وقد عانوا أشد المعاناة من السيادة الصليبية التي حرمتهم من كل الحقوق، وألقت علي كاهلهم كثير من الواجبات. لمزيد من التفاصيل عنهم انظر، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٨٧؛ محمود الحويري، المرجع السابق، ص ٨٥-٨٧ ؛ علي السيد، المرجع السابق، ص١٨.

(٢) خضع المسيحيون الشرقيون والمسلمون الذين تمسكوا ببلادهم للصليبيين، غير أن كلا الطائفتين عوملوا معاملة سيئة في أغلب الأحيان، وقليلا ما أحسنوا إليهم، وبقوا طوال الوجود الصليبي طبقة منحطة مصدر للشك والريبة، عنهم انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ١، ص٣٨٧، محمود الحويري، المرجع السابق، ص ٨٨-١٠١؛ علي السيد، المرجع السابق، ص٢٨-٤٠؛ حسن البطاوي، المرجع السابق، ص ٧٨-١٠٧.

(٣) يقول فيليب " بذل — الإمبراطور- غاية جهده في سبيل إيذاء الكنيسة المقدسة والحط من شأنها، وفي سبيل تدمير الرجال النبلاء، وقد رفع من شأن الأقنان والرجال ذوي الأصل الدنيء، واعتني باللصوص ودافع عنهم وكذلك عن القتلة وعن آخرين، لان مثل هذه الأشياء فعلها هو نفسه أكثر من هؤلاء الآخرين الذين دافع عنهم، وأكبر مما استطاعوا أن يفعلوه، فقد كان شريرا بلا حدود" انظر فيليب دي نوفارا، حروب فردريك، الملحق الثاني، ص ١٩٧.

مكتبة المهتدين الإسلامية

لفيليب النوفاري، ذلك النبيل الذي لم يقبل بحال من الأحوال أن يرتفع شأن الأقنان ومن ليسوا بالنبلاء، معتبرا ذلك إثما أو جريمة لا تغتفر، كما تعبر عن إصرار فيليب الذي توفي بعد عام ٦٦٣هـ (١٢٦٤م)(١) على ثبات التقسيم الطبقي المتعارف عليه في مملكة عكا في عصره. وتأكيدا لوجهة نظر فيليب الطبقية، فقد ذكر أن النبيل لا يكون نبيلا إلا بأمور ثلاثة: أن يولد في أسرة من النبلاء، وأن يكون فارسا، وأن يكون له أتباع، كما أكد حنا ابلين المشرع على سمو طبقة النبلاء وأنه لا يجب أن يخضع النبيل إلا لنظيره(٢). كما وفقهما داوي صور المجهول حين انتقد بشدة ارتفاع قدر البرجوازية، بفضل ما حازت من ثروة(٣)

ولم يكن فيليب وتلميذه النجيب حنا ابلين بدعا في رأيهما هذا، بل كان صوتا للطبقة التي انتميا إليها، وإن كان الأخير أعلى قدرا بحكم انتمائه إلى عائلة ابلين التي كان فيليب تابعا لها، والتي حرصت (٤) على نقائها، وتجميع الإقطاعيات في أيدي أبنائها وعدم السماح بتمزيقها، من خلال الزيجات المتكافئة بين أبناء تلك الطبقة وبين بناتها(٥)؛ وقد أدت هذه الظاهرة لدي أسرة أبلين، ونظيراتها من كبرايات الأسر الإقطاعية إلى تجميع الإقطاعيات في يد عدد محدود من الأسر، التي لم يزد عددها عن ست أو عشر أسرات في نهاية عهد مملكة بيت المقدس الأولى(٦).

وفي عهد مملكة عكا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر تقلص عدد هذه الأسر بصورة تدريجية بشكل متوازي مع تتابع الفتوح المملوكية؛ إذ أسرعت كثير من الأسر التي فقدت إقطاعياتها بالرحيل إلى قبرص، وترك ما تبقى من المملكة لمصيرها المحتوم، مثل أسرة

---

(١) فيليب دي نوفارا، حروب فردريك، مقدمة الترجمة العربية، ص ٢٠.

(٢) Prawer, Social clases, p.125, 142.

(٣) The Templar of Tyre, p.125.

(٤) حول نمو وتكوين طبقة النبلاء في مملكة بيت المقدس انظر: السيد الباز العريني، نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين بمملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي، ص ٣٧-٦١.

(٥) The Templar of Tyre, passim.

(٦) براور، الاستيطان، ص٩٤؛ علي السيد، المجتمع الصليبي، ص ٧.

http://www.al-maktabeh.com

إليمان حكام قيسارية التي رحل من بقي من أفرادها على قيد الحياة إلى قبرص عقب فتح الظاهر بيبرس لها عام ٦٦٤هـ (١٢٦٥م) [١]. أما صغار الفرسان فقد كان موقفهم أكثر خطراً بسبب تلك الفتوح إذ ألفى عدد كبير منهم أنفسهم بلا مصدر دخل، مما زاد من مشاكل المجتمع الصليبي، وكانت أحوال الفرسان الصغار تتحسن أوقات الحروب إذ كان يتم استخدامهم كجند مرتزقة، كما حدث في حرب القديس سابا حين دفعت الجالية البندقية مبالغ ضخمة مقابل العمل ضمن جيشهم المضاد للجنوية[٢]. أما في فترات السلام فقد كانت أحوالهم تسوء[٣] وبالتالي كانت اتفاقيات السلام ذات المدد الطويلة مع المسلمين لا تروق لصغار الفرسان بعكس البارونات وكبار الملاك.

وقد حرص ملوك مملكة عكا على التدخل في اختيار أزواج وريثات الإقطاعيات ضماناً لتكافأ هذه الزيجات حرصا على نقاء الطبقة الحاكمة، وعدم تمزيق الإقطاعيات، ولم يكن ذلك بجديد على الصليبيين، فقد سن قانون في عهد مملكة بيت المقدس ينص على حق الملك في التدخل في اختيار أزواج الوريثات، وبالتالي تدخل الملك بشكل صارم في زواج بنات كبار النبلاء؛ ضمانا لعدم انتقال الإقطاع إلى شخص غير كفأ، فعندما كانت تبلغ البنت سن الزواج، أو تترمل صاحبة الإقطاع، أو وريثته، فإنه يصير من حق الملك ترشيح ثلاثة فرسان لتلك الوريثة، ممن يضارعونها في المكانة الاجتماعية[٤].

---

(١) L'Estoire d'Eracles,p.479.

وانظر أيضاً: حسن عبد الوهاب، قيسارية، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) Marshall , Warfare in the Latin East, p.86.

(٣) Prawer, Social Classes, p.140.

(٤) السيد البازالعريني، نحو طبقة النبلاء، ص ٤٩.

جاء في الفصل ٢٢٧ من كتاب الملك في شأن زواج وريثات الإقطاعيات ما يلي:" عندما يقدم السيد زوجاً لامرأة تتبع له وعليها تجاهه حق الطاعة، عليه أن يعرض عليها ثلاثة رجال لتختار منهم زوجاً، وإذا عرض علي المرأة عرض كهذا وحددت مدة معينة ولا تريد أن تختار أحد الرجال الثلاثة ..... عليها أن تأتي أمام السيد وتقول سبب رفضها لهذا العرض.... و إذا لم تأتي المرأة التي قدم لها السيد هذا العرض في المدة المحددة فإنها تكون مقصرة ويصبح من حقه محاكمتها".

Asssises de Jerusalem ,tome II , p.359-361

مكتبة المهتدين الإسلامية

وقد ساعد هذا القانون على أمرين: أولا حدوث صدام بين الملوك ووريثات الإقطاع الصليبيات، مثلما حدث بين هيو الثالث وبين وريثة إقطاع بيروت، التي تحدت سلطة الملك وقوانين المملكة واحتمت بالظاهر بيبرس حتى يتثنى لها فعل ما تشاء[1]، الأمر الثاني محدودية دائرة الزواج التي انحصرت في عدد معين من الأسرات الأرستقراطية، التي أغلقت بابها على كل من يقل عنها ثروة ومكانة اجتماعية، وبالتالي حدث تمايز وتمزيق طبقي لطبقة النبلاء التي انقسمت بين شريحة عليا تحوز الإقطاعيات، وشريحة دنيا من الفرسان الفقراء الذين أغلق باب كبار الأسر الإقطاعية النبيلة في وجوهم، حتى لا ينتقل الإقطاع إلى من هو أقل منهم مكانة وثروة.

وقد زاد من حدة الجمود الطبقي غياب سلطة الملوك طوال النصف الثاني من القرن الثالث عشر تقريبا، مما جعل المحكمة العليا التي سيطر عليها النبلاء تحكم الخناق على المملكة بشكل جعل كل القرارات الصادرة منها بشكل أو بآخر تخدم أهداف هذه الطبقة، ومن المؤكد أن ذلك كان على حساب الطبقات الدنيا[2].

وزاد من حدة التمايز الطبقي في المجتمع الصليبي جمع كبار النبلاء بين الإقطاعيات واحتكار المناصب الإدارية الكبرى، فعلى سبيل المثال جمعت أسرة أبلين بين ملكية عدد من الإقطاعيات الكبرى مثل: بيروت و أرسوف، بجانب عدد من الوظائف القضائية، ووصل عدد من أفرادها إلى وظيفة نائب الملك وكونستابل المملكة ومستشارية الملوك بحكم صلتهم الوثيقة بالبيت الملكي الذي جمع في النهاية بين عرشي قبرص وعكا[3]

وبالرغم من أن طبقة النبلاء والفرسان تعتبر من الناحية القانونية طبقة واحدة، إلا أنها لم تسلم من التمايز والتمزق الطبقي، إذ مزقت إلى ثلاث شرائح: ملاك الإقطاعيات

---

(١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر، ص ٤٤٧.

Hill, A History Of Cyprus , Vol. , II , P. 170-171 I Runciman , "The Crusader state" , P. 584; Holt, "Bybirs's treaty with Lady of Bruit", P. 242.

(٢) prawer, social classes, p.142 .

(٣) براور، الاستيطان، ص ٩٧.

http://www.al-maktabeh.com

والبارونات وصغار الفرسان. ولم يكن الانتقال بين هذه الشرائح بالأمر الهين وندر أن أثبتت المصادر الترقي الاجتماعي لأحد الفرسان ليصل إلى مرتبة البارونية، أو يترقى بارونا ليصير من كبار ملاك الإقطاعيات، ومن حالات الترقي الاجتماعي النادرة حالة فيليب النوفاري، الذي ساعدته كثرة مواهبه - إذ كان شاعرا ومحامي استئناف ومستشارا للملك هنري الأول القبرصي ومشرعاً- على الترقي الاجتماعي، في ظل دوره الكبير في حسم الصراع بين الحزب الإمبراطوري وحزب النبلاء لصالح آل ابلين، فكان جزائه مساعدته في الترقي الاجتماعي بمنحه إقطاعا عينيا من الأرض، في وقت لم يكن يستطيع فيه أمثاله أن يحصلوا سوى على الإقطاعيات النقدية، في ظل ضيق مملكة عكا التي انحصرت في شريط ضيق على الساحل الشامي، لكنه لم يصل أبدا إلى مرتبة تساوى فيها مع أسرة أبلين بل بقي يلهج بتبعيته لهم في كل مكان[1].

وثمة أمر آخر أكد الجمود الطبقي ألا وهو رفض السادة لتحرير العبيد من غير المسيحيين، الذين يقبلون التحول عن دينهم إلى المسيحية، بالرغم من وجود حق قانوني للعبد الذي يعتنق المسيحية بالحصول على حريته، وبالتالي يلتحق بعامة الصليبيين، إلا أن السادة حالوا دون تنفيذ هذا القانون، لأن حرية العبيد تفقدهم جزء من ثروتهم، وكان من بين هؤلاء السادة عدد من رجال الدين، وهو ما جعل البابا جريجوري التاسع يصدر أمرا للسادة بإبلاغ العبيد بأن التحول إلى المسيحية لا يعني حريتهم، وعلي هذا فقد استمرت المشكلة حتى اضطر المندوب البابوي في عكا أدو دي شاترو عام ٦٥١هـ (١٢٥٣م)، إلى إصدار قرار بحرمان السادة الذين يعترضون على تنصر عبيدهم ومنحهم حريتهم[2]، غير أن هذا القانون بقي حبرا على ورق مثل باقي القوانين التي صدرت في هذا المضمار، وبقي شاهدا قويا على الجمود الطبقي الذي ساد المجتمع الصليبي.

---

(١) فيليب دي نوفارا، حروب فردريك، ص ٧١-١٨٩، براور، الاستيطان، ص ٩٠.

Prawer, op. cit, 126.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ١، ص٣٨٧ ؛ حسن عبد الوهاب، المحاولات التبشيرية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص ٢٦-٢٧. انظر أيضا:

Prawer, Crusader and Institutions , p.210, Kedar, "Ecclesiastical Legislation in Kingdom of Jerusalem, the Statutes of Jaffa 1253 and Acre 1245" ,in C.S, p.226.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وفي ظل ضيق الإقطاعيات في مملكة عكا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، التي انحصرت في شريط ساحلي ضيق، تغير موقف سكان المملكة من القادمين الجدد من أوربا، فلم يعد يرحب بهم واعتبرهم النبلاء منافسين لهم أتوا من الغرب لمقاسمتهم مصدر رزقهم، وفي نفس الوقت نظر القادمون الجدد إليهم نظرة احتقار وازدراء بسبب ميل الصليبيين القدامى المستقرين إلى التوائم مع الحياة الشرقية من ملبس ومأكل[1] كما رجح يوشع براور حدوث حراك اجتماعي سلبي نتيجة التدهور الاقتصادي أدى إلى فقدان عدد من الفرسان مكانتهم الاجتماعية وصاروا في عداد عامة الصليبيين[2].

وآخر ما تؤكد به على تمسك الطبقات العليا بوضعها الاجتماعي ما حرص عليه كبار المقطعين على تقنين كل تصرفاتهم، حين كونوا المحكمة العليا تمييزا لهم عن البرجوازيين الذين شكلوا لأنفسهم محكمة عرفت بالمحكمة الدنيا، واستغل النبلاء والبارونات والفرسان هذه المحكمة في إصدار القوانين بما يخدم مصالحهم، وإن تعارضت مع امن واستقرار الصليبيين ومن ثم فقد أوجدوا مبررا قانونيا لكل تصرف يقومون به[3]، وبالتالي يصدق على النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وربما تاريخ مملكة عكا كلها وصف رنسيمان لها بالفوضى المشروعة[4].

ولم يكن من المنتظر أن تقف باقي طوائف المجتمع الصليبي وطبقاته في مملكة عكا موقفاً سلبياً من تعنت طبقة النبلاء والفرسان حيالهم، ومن ثم اتجهت كل طبقة إلى اتخاذ إجراء مضاد لهم، فبالنسبة للطبقة البرجوازية – وكانت أسعد الطبقات حالا بعد طبقة النبلاء كما حاز كثير منهم ثروات تفوق ثروات كثير من الفرسان – فقد استطاعت بفضل تعاون أفرادها الحصول على كثير من الحقوق، وكان أهم هذه الحقوق ما يتعلق بالسلطة

---

(١) جاك دي فيتري، تاريخ مملكة بيت المقدس، ص٢٥١، زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦، ص ١٥٥؛ براور، الاستيطان، ص ٩٥.

Prawer, "social classes", p139.

(٢) prawer, "social classes", p. 141.

(٣) بالار، الحملات الصليبية، ص ٣٢٢. prawer, op. cit p. 144.

(٤) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص٣٥٩.

http://www.al-maktabeh.com

القضائية إذ صار لهم محكمة مستقلة تعرف بالمحكمة البرجوازية، تلك المحكمة التي حكمت بناء على توليفة من القوانين لم تفرضها عليهم طبقة النبلاء لكنهم استمدوها من القانون الروماني، وما كان معمولا به في بلادهم الأصلية[١]، وتمييزا لها عن المحكمة العليا التي ترأسها الملك وسيطر عليها كبار النبلاء عرفت بالمحكمة السفلى Lower court في إشارة إلى وضاعة أصول المكونين للطبقة البرجوازية[٢]، كما استطاعوا الحصول على كثير من الحقوق وصلت إلى حد الحكم الذاتي المحلي، وممارسة شتى المهن المربحة وحتى تكوين قوة عسكرية محدودة[٣].

وقد تصاعدت سلطة الطبقة البرجوازية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر في ظل غياب السلطة الملكية، وتدهور مكانة كثير من النبلاء، في ظل أوضاع المملكة المتردية سياسيا واقتصاديا، وما ساد المملكة من الصراعات مما جعل هذه الطبقة تبحث عن مصالحها فوجدتها مع القومونات الإيطالية، ففي حرب سان سابا تعاون برجوازيو عكا مع البنادقة حسبما أثبتت الوثائق[٤]، وفي ظل تصاعد نفوذ البرجوازية في وجه النبلاء ظهر عدد من الأسر البرجوازية التي اشتهرت وصارت من مراكز القوى المؤثرة في مملكة عكا، مثل عائلة بريسيس Bricius التي ترجع جذورها إلى منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وعائلة كونشيز Conches، التي برز عدد من أبنائها في الشئون القانونية البرجوازية مثل هنري كونشيز Henry de Conches[٥].

أما الجاليات الإيطالية فقد شكلت قوميونات استطاعت انتزاع كثير من الحقوق والامتيازات، بشكل كفل لها حكماً ذاتياً في شتى المدن الصليبية التي استقروا فيها، ولم يسمحوا لكبار النبلاء أن يتدخلوا في شئونهم الداخلية، ودائما كانت تقدم مصلحتهم على كل شيء، حتى لو أضرت هذه المصلحة بالصالح الصليبي العام، كما ظلوا على ارتباط وثيق بالبلاد التي قدموا منها[٦].

---

(١) براور، الاستيطان، ص ١٠٣.

(٢) Prawer, Crusader institutions, p263.

(٣) محمود الحويري، الأوضاع الحضارية، ص ٨٤.

(٤) Rgesta ,no. 1273, p.361; Prawer, Crusader Institutions, p.288.

(٥) Prawer, Crusader institutions, p.289, see also, "Social Classes", p. 169.

(٦) براور، الاستيطان، ص ١١٠.

مكتبة المهتدين الإسلامية

التعصب[١] ورفض الآخر .

من أشد المشاكل التي تعرضت لها مملكة عكا، كانت مشكلة التعصب ورفض الآخـر، وهذا الأمر حين نذكره يتبادر إلى الذهن رفض المسلمين العدو الأساس للصليبيين، وهـذا صحيح غير أن الأمر لم يقتصر في عكا على هذا الجانب بل تعـداه إلى رفـض الـصليبيين لبعضهم، وإذا كان سبب التعصب بين المسلمين والصليبيين قد نتج عن الغـزو الـصليبي للمنطقة وما تعلق به من خلافات أيديولوجية وعقائدية[٢]، وما ارتبط بها من الأفكار النمطية الجامدة، ومن ثم كانت الحروب الصليبية حروباً ذات طابع دموي تعـصبي منـذ الحملـة الصليبية الأولي وحتى آخر مجموعة أرسلتها البابوية لمساندة مملكة عكا عـام(٦٨٩هـــ ١٢٩٠م [٣]، وخير دليل على ذلك مؤرخ الصليبين الكبير وليم الصوري[٤] الذي أبـت عليه عنصريته وتعصبه إلا أن يغمض عينيه عن الحق، ويصف المسلمين بما هم منه براء حين رماهم بالوثنية والنجاسة والدونية والإساءة إلى مقدسات المسيحيين، بالرغم من تبرئته لهـم في مواضع من كتابه من تلك التهمة، ويبدو أنه خشي أن يصف المسلمين بالحق فيتقـاعس الأوربيون عن المشاركة في الحملات الصليبية. وكذلك صور بطريرك بيت المقـدس عـام ٦٠١هــ (١٢٠٤م) في رسالته إلى البابا أنوسنت الثالث أن المسلمين عبدة لـوثن اسمـه محمد[٥]، وأيضا مدون أخبار الحملة الـصليبية الخامـسة أوليفـر بودنبـورن Oliver of

---

(١) التعصب في اللغة من العصبية، ومعناها أ ن يدعو الرجل لنصرة عصبته والتألب علي من يناوئهم ظالمين أو مظلومين، والعصبية من المصادر النسبية، نسبة إلي قوم الرجل الذين يعززون قوته، ويدفعون عنه الضيم والعداء، فالتعصب وصف للنفس الإنسانية، تصدر عن نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه، أما التعصب لدي علماء الاجتماع، فقد اختلفوا حول توصيفه وتعريفه، ومنهم من عرفه علي انه " حكم مسبق قائم علي أساس القرارات والخبرات الفعلية، ومنهم من عرفه بأنه اتجاه سلبي سائد تجاه أعضاء الجماعة الخارجية، وهناك من قال بأنه اتجاه يدفع الفرد إلي أن يسلك سلوكا عدائياً ضد فرد أو جماعة من الأفراد، ممن ينتمون إلي جماعة معينة، لمزيد من التفاصيل حول تعريف التعصب انظر: أحمد زايد، سيكلوجية العلاقات بين الجماعات، الكويت، ٢٠٠٦م، ص ٦٤-٧٨.

(٢) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبي، ص ١١-٥٤.

(٣) يوشع براور، الاستيطان، ص ٢٧؛ محمد مؤنس، من عوامل إخفاق المشروع الصليبي، ص ٤٢-٤٣.

(٤) وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ١، ص ١٠١.

(٥) حسن عبد الوهاب، المحاولات التبشيرية، ص ١٦.

http://www.al-maktabeh.com

Podenborn[١] الذي وسم المسلمين بالهرطقة. وفي تقرير هامبرت رومانز المقدم إلي مجمع ليون الثاني، أكد علي تعرض المسيحيين للاضطهاد في الأراضي المقدسة[٢]، وفي المجمع ذاته أعلن البابا أن المسلمين يذبحون المسيحيين بكل وحشية، بالرغم من أنه كان من قبل بطريركا للمملكة عكا وعلي علم بحقيقة الأمور[٣]، لكن يبدو أن الأمر كان من قبيل استثارة الحماسة الصليبية ليس أكثر.

كل تلك الأفكار التي كانت تزور وترسل إلى أوربا كانت كفيلة بزيادة العداء للمسلمين لدى القادمين الجدد إلى الشرق والشد من تعصبهم وهمهم لسفك دماء المسلمين وكل من يتشبه بهم، وقد بدت تلك الظاهرة بوضوح في عكا زمن الحملة الصليبية الثالثة[٤]، وأيضا في عكا عام ٦٨٩هـ (١٢٨٩م) على يد الوافدين الجدد الذين لم يميزوا بين مسلم ومسيحي شرقي، في مذبحتهم التي جاءت شرارة البدء في العد التنازلي للأيام الأخيرة للصليبيين في الساحل الشامي[٥]، ليعيدوا إلى الأذهان ما فعله الصليبيون الأوائل حين دخلوا القدس عام٤٩٣هـ (١٠٩٩م) [٦] غير أن الزمن كان قد تغير وحال المسلمين قد تبدل من الانشقاق إلى الوحدة والاتفاق.

---

(١) Olever of Padenborn, The Capture of Damietta translate by John Cavigan , Philadelphia, 1948 , p.37, 50.

وانظر أيضا حسن عبد الوهاب، المرجع السابق، ص١٧.

(٢) Throop, Criticism of the Crusade 142.

(٣) The Decrees of Second Council of Lyons on the Crusade 1274, pp.16-21.

Second Council of Lyons 1274, introduction and translation taken from decrees of Ecumenical councils, ed. Norman P. Tanner, at:

http://www.ewtn.comm/library/councils/Lyons2.htm

(٤) حول مذابح ريتشارد في عكا عام٥٨٥هـ (١١٩٠م) انظر: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبي، جـ٣، ص ١٠٦.

(٥) رايلي سميث، الاسبتارية، ص ١٥١؛ حسن البطاوي، التباين الاجتماعي، ص ٩٣.

Prawer, "Social Classes ", p.61.

(٦) مجهول، أعمال الفرنجة، ص ١١٨-١١٩.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ولم يقتصر التعصب الصليبي على المسلمين، وحدهم بل تعصبوا أيضا ضد المسيحيين المحليين، فقد احتقروهم وعاملوهم معاملة سيئة، وقد ساعد على تقوية تعصب المسيحيين ما عرف من خلاف مذهبي بين الغرب الكاثوليكي والطوائف المسيحية المخالفة لها في الشرق[١].

ولم يكن من المنتظر أن يقابل المسلمون التعصب بالرحمة والشفقة، حقيقة إن صلاح الدين قد كسر تلك القاعدة[٢]، لكن حكام المماليك خالفوا صلاح الدين وقرروا عقاب الصليبيين بمثل ما فعلوه في حق المسلمين، وهو ما جعل الظاهر بيبرس يعاملهم بالمثل، فأزهق أرواح كثير من الصليبيين في فتوحاته للمناطق الصليبية[٣]، وكذلك الأشرف خليل الذي قتل من وصلت إليه يده من سكان عكا بعد فتحها عام ٦٨٩هـ (١٢٩١م)[٤].

أما المستوى الثاني للتعصب وهو التعصب بين الصليبيين وبين بعضهم فقد وقفت كثير من العوامل وراء تلك الظاهرة سواء في مملكة عكا أم في مملكة بيت المقدس من قبل:

العامل الأول: التباين بين الجماعات، ذلك أن وجود جماعات تنتمي إلى أعراق مختلفة وثقافات مغايرة يعد تربة خصبة للتعصب[٥]، وقد تعددت عناصر المجتمع الصليبي، مما مزقه شيعا وطوائف كل حسب البلد الذي أتى منه، وقد وضح ذلك في استعراضنا للمشكلة السكانية في المملكة، وعليه فقد تمزقت المدن الصليبية بين حي للإنجليز وآخر للفرنسيين وثالث للإيطاليين، ورابع لتلك الهيئة الدينية وخامس لغيرها، ولم يستطع الصليبيون في الشرق تناسي ما بين الشعوب التي انحدروا منها من عداء ومن ثم انتقلت تلك الخلافات إلى

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ١، ص٣٨٦؛ حسن البطاوي، المرجع السابق، ص ٩٢.

(٢) مجهول، ذيل وليم الصوري، ص ١٠٩.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، متفرق ؛ شافع بن علي، كتاب حسن المناقب، متفرق.

(٤) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ١١٢.

Von Suchem, Description of the Holy Land, p.55-57

(٥) أحمد زايد، سيكلوجية العلاقات بين الجماعات، ص ٨١.

http://www.al-maktabeh.com

الشرق وزاد عليها تنافس تلك الأعراق على الثروة والمال مما زاد الطين بلة[١]، بحيث صارت مملكة عكا عدة ممالك متداخلة منفصلة السيادة يأكل بعضها بعضا بغضا وكراهية.

العامل الثاني: الجمود الطبقي وبطء التغير الاجتماعي: وقد لمسنا ذلك الأمر بوضوح منذ قليل، وتبينا قلة فرص الحراك الاجتماعي في المجتمع الصليبي؛ مما فتح المجال أمام تمزق المجتمع الصليبي، في ظل بحث كل طبقة عن مصالحها الخاصة، بصرف النظر عن الصالح الصليبي العام.

العامل الثالث: كثرة الأقليات، فقد تكون المجتمع الصليبي من أغلبية من أصول فرنسية وأقليات إنجليزية وألمانية وإيطالية، وغيرهم؛ مما جعل كل مجموعة عرقية تتعصب لبنيها وتبحث عما يخدم أهدافهم ويحقق مصالحهم، داخل مجتمع مهدد بالزوال في ظل تهديد المماليك لهم بشكل مستمر، حتى في أشد أوقات الصليبيين حرجا، كانت العرقية والطائفية تطل بوجهها القبيح؛ لتسبب كثير من المشاكل للصليبيين مثل ما حدث بين الصليبيين أثناء حصار المنصورة[٢]، كما كان للتعصب دور كبير في الإمعان في تفتيت المملكة أثناء حرب القديس سابا التي استغلتها الفرق المختلفة لتسوية حساباتها، وكذلك منع التعصب العرقي الصليبيين في حصار المماليك الأخير لعكا من التعاون، وصار كل فريق يقاتل المسلمين على حدة ولا يَخِف لنجدة الفريق المغاير[٣]، حتى صارت العناصر المكونة لمجتمع المدينة كالشياة تقف لتنتظر الجزار.

---

(١) محمد مؤنس، من عوامل إخفاق المشروع الصليبي، ص ٤٤.

Benvenisti, The Crusaders in the Holy Land, p.75-112.

(٢) راجع التمهيد، ص ٣٦ .

(٣) Von Suchem, Description of the holy land, p56 .

مكتبة المهتدين الإسلامية

مفاسد الهيئة الكنسية:

كما كانت مملكة عكا تعاني أشد المعاناة من مفاسد رجال الكنيسة، الذين كان من المفترض أن يصبحوا صمام أمان للمجتمع الصليبي، من خلال الرقابة الأخلاقية وتصحيح مسار المجتمع طبقا للمثل الصليبية التي رسموها منذ مهد الحركة الصليبية، غير أن الأمر كان على خلاف ذلك، فقد تفشت بينهم ظاهرة حب المال واكتنازه، وهو ما أثار عليهم يعقوب الفيتري أسقف عكا الذي شدد النكير على سائر رجال الدين بلا استثناء، حقيقة أن ما دونه كان يتعلق بفترة تسبق منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، لكن كل المؤشرات كانت تدل على تسارع معدل الانحدار، مما يؤكد استمرار تلك المفاسد من قبل رجال الدين في مملكة عكا، وقد عدد لنا يعقوب الفيتري أنواع تلك المفاسد كالتالي:

أولاً: حب المال، حين ذكر أن رجال الدين قد احترفوا جمع المال، وتخلوا عن ميراث السيد المسيح الذي يدعو إلى الزهد والتقشف وأسرفوا في الأكل والشرب حتى سمنوا.

ثانيا: الرشوة وبيع المناصب الدينية، بحيث لا يصل رجل الدين إلى منصبه إلا بعد دفع مبالغ مالية، حتى تحولت مقار الأسقفيات إلى مكاتب مثل مكاتب الصيارفة تبيع الوظائف لمن يدفع أكثر.

ثالثا: تفشي جريمة الزنا والفواحش بينهم وعدم خجلهم من الإنجاب من الزانيات والمحظيات، وتجميع الأموال لرفاهية هؤلاء الأبناء بلا خجل ولا إخفاء.

رابعا: الصراعات المتبادلة بين رجال الدين من أجل عرض الدنيا، والجهر بهذه الخلافات أمام العامة حتى فقدوا احترامهم، ومع تفشي تلك الظاهرة لم يعد الأتقياء والصالحون من رجال الدين إلا ما يشبه الزنبقة في وسط أشجار الشوك على حد تعبير يعقوب.

خامسا: تفشي الفساد في أديرة الرهبان والراهبات على حد سواء، حتى ارتبط بعض الرهبان والراهبات بعلاقات آثمة، حرمت علي عامة المسيحيين فما بالنا بمن انقطع للعبادة وترك الدنيا وراءه، وصارت تلك العلاقات بادية للعيان بلا إخفاء ومواربة، كما حرصت تلك الأديرة على التهرب الضريبي، والتخلص من شتى أنواع الضرائب المفروضة عليهم،

http://www.al-maktabeh.com

والقيام بزيارة المرضي من اجل جمع المال منهم وليس للقيام بواجباتهم الدينية نحو رعاياهم. مما جعل يعقوب الفيتري يرى أن ما يتعرض له رجال الدين والهيئة الكنسية من نكبات على يد المسلمين ما هو إلا جزاء وفاقا لما ارتكبوه من جرائم وآثام[١]. وقد انتقد داوي صور في مرثيته لسقوط عكا كل هذه الأمور، وجعلها من أهم أسباب انهيار المملكة[٢].

وقد حدث تنافس خطير بين الكنائس التابعة للهيئات الدينية العسكرية وبين الكنائس التابعة للمؤسسة الدينية الرسمية في المملكة، وقد زادت تلك الظاهرة بشكل خطير في النصف الثاني من القرن الثالث عشر في ظل توسع الهيئات الدينية في شراء الإقطاعيات، والقلاع التي يعجز حائزيها عن الدفاع عنها[٣].

كما يؤكد فساد الهيئة الكنسية في مملكة عكا عدم ظهور هيئة دينية قوية من رجال الدين المحليين يصل احدهم أو يرقى لمنصب البطريرك، مما جعل البابوية تتحمل دوما مسئولية إرسال بطريرك جديد كلما مات أو عزل البطريك القديم، ولعل مرجع ذلك إلى عدم حرص رجال الدين في الشرق اللاتيني على خلق هيئة تعليمية لتخريج رجال الدين وتأهليهم لتولي المناصب الدينية بالرغم من توفر الإمكانيات المالية مما جمعته الكنائس من هبات وعطايا وما انهال عليها من الغرب الأوربي من تبرعات ومنح[٤].

وخير دليل على نهم رجال الدين في مملكة عكا للمال موقفهم من الأطراف المتناحرة في حرب القديس سابا، ففي هذه الحرب لم يقف رجال الدين على الحياد، كما كان متوقعا ليكونوا حمامة سلام بين الأطراف المتناحرة، لكن يبدو أن أموال البنادقة كانت أشد إغراء

---

(١) جاك دي فيتري، تاريخ مملكة بيت المقدس، ض ٢٢١-٢٢٥.

(٢) The Templar of Tyre, p.123-128.

(٣) براور، الاستيطان، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٤) نفسه، ص ٢٢٤-٢٢٦

مكتبة المهتدين الإسلامية

لديهم من القيام بواجباتهم الدينية ومن ثم مالوا منذ البداية للبنادقة، ومنحـوهم دعمهـم المعنوي على الأقل(١).

كما أن رجال الدين الذين أتوا من أوربا لم يكن لهم هم سوى مصالحهم ومصالح البلاد التي ينتمون إليها، وخير دليل على ذلك أن وليم بيجي مقدم الداوية الذي تسلم منصبه عام ٦٧٢هـ (١٢٧٣م) كان قريبا لشارل أنجو، ومن ثم عمل على إعاقة جهود الملـك هيـو الثالث لإصلاح حال مملكة عكا؛ مما أجبره على مغادرة المملكـة، وتركهـا إلى مـصيرها المحتوم(٢).

ارتفاع معدلات الجريمة:

عانت مملكة عكا أشد المعاناة من جراء ما انتشر فيها من الأمراض الاجتماعيـة، الـتي عصفت بالأمن الاجتماعي داخل المملكة، وقد ساعد على ذلك أن الأرض المقدسة صارت منفىً وعقاباً لكل خارج على القانون في أوربا، فمن يحكم عليه بالإعدام والـسجن لفتـرة طويلة تستبدل عقوبته بالنفي إلى الأرض المقدسة(٣)، أو مملكة عكا في النصف الثـاني مـن القرن الثالث عشر، حتى غدت عكا وكبرى المدن الصليبية مستودعا للنفايـات البـشرية للمجتمع الأوربي؛ ومن ثم انتشرت العديد من الأمراض الاجتماعية:

ومن الجرائم التي شاعت وانتشرت جريمة السرقة، لم تمدنا المصادر بأخبـار وافيـة وحالات تلبس حول تلك الجريمة، غير أن الظروف كانت مهيأة في مملكة عكا لتفشي هذه الجريمة، في ظل تجمع عدد كبير ممن لفظتهم أوربا بسبب جرائمهم من اللصوص والمشعوذين

---

(١) Hamilton, The Latin Church, p.268.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر:

Read, the Templars, P. 236-7; Mas Latrie, Histoire de l'ile de Chypre, I, P 453 ; Hill, A History Of Cyprus, vol. II, P. 172; King, The Knight Hospitallers, P. 280 ; Grousset, Histoire des Croisades, tomp III, P. 669-672; Runciman, The Sicilian Vespers, P. 178 ; Ed-bury, The Kingdom of Cyprus, P. 95.

(٣) جاك دي فيتري، تاريخ مملكة بيت المقدس، ص ٢٥١.

http://www.al-maktabeh.com

والمغامرين والهاربين من العدالة[١] ولم يكن تفشي تلك الجريمة جديداً على الصليبيين بل كانت من المشاكل الكبيرة التي سعى ملوك بيت المقدس للتخلص منها منذ عهد بلدوين الثاني، وظهر ذلك جليا في قرارات مجمع نابلس، التي تشي لنا بتفشي تلك الجريمة على نطاق واسع حتى أن المواد من الثالثة والعشرين إلى الخامسة والعشرين قد خصصت لمقاومة تلك الجريمة كالتالي:

المادة الثالثة والعشرون: من المجلس قد نصت على إذا ما بلغ ثمن المسروقات أقل من ثلاثة دنانير بيزنطية، يكوي الفاعل في وجه ويجرس في المدينة، أو المكان الذي يعيش فيه وترد المسروقات إلى صاحبها، أما إذا بدده السارق فمن حق صاحب المسروقات أن يسترق ذلك السارق، وإذا ما عاد لنفس الجرم تبتر يده ورجله.

المادة الرابعة والعشرون: خصصت للنظر في جرائم القاصرين، فمن تثبت عليه تلك الجريمة منهم "يوضع تحت الوصاية إلى أن ترى دائرة الملك ما العمل في شأنه"

المادة الخامسة والعشرون: خصصت لعقوبة من يقترف هذا الجرم من النبلاء، ونص على رفع أمر النبيل إلى الملك للنظر في أمره دون بتر أعضائه[٢] وتحليل هذه المواد يفضي بنا إلي:أولاً تفشي تلك الجريمة في شتى طبقات المجتمع الصليبي نبلاء وعامة، صغاراً وكباراً. ثانياً: الطابع الطبقي للقانون الذي ميز بين العامة والنبلاء فالعامي تبتر أعضائه، أو يسترق أما النبيل فالأمر إلى الملك دون البتر. وقد تفشت تلك الجريمة بشكل خطير في مملكة عكا، وهو ما دفع جيفري سارجنيس عام ٦٥٨هـ (١٢٥٩م) الذي تولى قضاء مملكة عكا في ذلك العام، إلى عقاب عدد كبير من محترفي السرقة بالسجن والقتل[٣]،ويوحي تنوع العقوبة بتفشي تلك الجريمة بين طبقات المجتمع وبالتالي جاءت نوعية العقاب حسب الطبقة التي كان ينتمي إليها مرتكب الجريمة فإن كان من علية القوم سجن، و إن كان من سفلتهم قتل.

---

(١) لطيفة البوعينين، الحياة الاقتصادية، ص ١٣١-١٣٢.

(٢) Mansi , Sacrorum , p.264.

(٣) L'Estoire d'Eracles , P. 444.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كما شاع الشذوذ الجنسي، وقد حذر الكتاب المقدس من فاحشة الشذوذ وشدد عقابها الذي وصل إلى القتل[١] وبالرغم من ذلك تفشت تلك الجريمة بشكل كبير في مملكة عكـا ومرجع ذلك إلى:

أولاً: طبيعة نُزُل الحجاج الغربيين في المدينة، فقد كانت أماكن النوم مشتركة، بحيث ينام على السرير الواحد ثلاثة أفراد، مما ساعد على انحدار الأخلاق، ونشر الرذيلـة، ومـن ثم غدت نزلهم أو الخانات التي يقيمون فيها مشهورة بسوء السمعة[٢].

ثانياً: وجود عدد كبير من الشباب العزاب بعيداً عن بلادهم لفترات طويلة بلا استقرار مما فتح الباب لانتشار تلك الفاحشة[٣].

ثالثاً: كثرة الغلمان اللقطاء من مختلف البلاد والجنسيات[٤].

رابعاً: عدم تأصل الشعور الديني مما يسر لمرتكبي تلك الجريمة أمرهم[٥].

خامساً: كثرة الأوربيين الوافدين إلى الشرق من الفسقة، الذين أبعدهم الكنيـسة عـن بلادهم تطهيرا لها منهم، وتكفيرا عن الجرم الذي ارتكبوه، ومع مجيئهم إلى الشرق الفرنجي وجدوا المناخ مهيئا لمعاودة تلك الجريمة فانخرطوا فيها بلا رادع ولا وازع[٦].

---

(١) حول موقف الكتاب المقدس من الشذوذ انظر : اللاويين ٢٢/١٨ حيث يقول " لا تضاجع ذكرا مضاجعة أمرأة، أنه رجس "، وأيضا في اللاويين ١٣/٢٠ يقول " وإذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعلا كلاهما رجسا. أنهما يقتلان. دمهما عليهما"

(٢) برارور، الاستيطان الصليبي، ص ٢٤٠.

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٣٨٩؛علي السيد علي، المجتمع المسيحي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٩، ص ١٢٠.

(٤) محمد سيد كيلاني، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، القاهرة، ١٩٨٤، ص٥٠ ؛علي السيد، المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٥) علي السيد، المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٦) نفسه، ص ١٢١.

http://www.al-maktabeh.com

ويبدو أن تلك الجريمة لم تكن جديدة على المملكة بل كانت من الأمراض والجرائم التي انتشرت بشكل كبير في ملكة بيت المقدس لدرجة أن مجمع نابلس ٥١٤هـ (١١٢٠م) قد خصص المواد من الثامنة إلى الحادية عشر للتصدي لهذه الجريمة المنافية للطبيعة الإنسانية، فقد نصت المادة الثامنة على حرق الذين يضبطان متلبسان بتلك الجريمة بالحرق، أما المادة التاسعة فقد نصت على حرق من يمارس هذه الرزيلة مع أحد الأطفال، أما المادة العاشرة فقد نصت على عقاب من يتعرض لتلك الجريمة أكثر من مرة دون رفع الأمر للقضاء، أما المادة الحادية عشر فقد نصت على قبول توبة التائب عن تلك الجريمة وإذا ما اقترفها ثانية يبعد عن المملكة[١]. والتأمل في تلك المواد يفضي بنا إلى عدد من النتائج:

النتيجة الأولي: تنوع حالات الشذوذ التي انتشرت في المملكة فربما تكون بين اثنين من البالغين بالاتفاق فيما بينهما، أو تكون بين طفل وبالغ أو بين بالغين يجبر أحدهما على ذلك الفعل.

النتيجة الثانية: أن العقوبة التي فرضت من الظاهر أنها عقوبة رادعة لكن في الحقيقة أن المادة الحادية عشر قد أطاحت بصرامة تلك العقوبة بل بالعقوبة ذاتها، حين نصت على قبول توبة مرتكب تلك الجريمة، وإذا عاد إليها ينفى من المملكة، وهكذا فرغت العقوبة من معناها ومغزاها، وصارت تهديداً لمرتكب الجريمة لا معنى له، ومن ثم صار كل من تثبت عليه تلك الجريمة يعلن توبته ثم يعود لممارستها دون خوف ولو حدث وكشف أمره ينفى وينتهي الموضوع.

النتيجة الثالثة: إن تفشي تلك الجريمة في ذروة عصر المد الصليبي يؤكد تفشيها في عصر الانحدار والتردي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، لكن على نطاق أوسع، وربما بشكل أكثر تجاهرا، بها بعدما تمزقت الدولة الصليبية إلى قوميونات لكل منها قانونها الخاص،

---

(١) Mansi , Sacrorum , p.263.

يبدو أن مجمع نابلس قد استمد الحكم بالإعدام علي محترف الشذوذ من الكتاب المقدس، انظر اللاويين ٢٠/١٣.

مكتبة المهتدين الإسلامية

بعد أن فقدت المملكة وجود ملك فعلي يصدر قوانين أو يطبق ما صدر من قوانين، وتردي نوعية الحجاج الذين صار معظمهم من نفايات المجتمع الأوربي الذين أفسدوا ولم يعد هنـــاك أمل في إصلاحهم.

ولعل سؤالاً يطرح نفسه حول مدى مقاومة المجتمع الصليبي لتلك الجريمــة، لقــد أدرك عقلاء الصليبيين خطورة تفشي تلك الفاحشة، وكما أوضحنا من قبل، خصصت أربع مواد من قرارات مجمع نابلس لمقاومتها، كما لجأ الصليبيون لحل تلك المشكلة بجلب النساء مــن الغرب، غير أن نوعية تلك النسوة لم تكن فوق مستوى الشبهة، فبدلاً من الزواج بالعزاب احترفوا البغاء، وثبطن المقاتلين الصليبيين عن القيام بواجبهم بدلا من أن يكونوا مجرد وسيلة ترفيه عنهم(١).

أما عن الزنا فقد انتشر في مملكة عكا انتشارا كبيرا،واشتهرت مدينة عكــا بــالانحلال الأخلاقي وازدهر بها الحي الأحمر الذي توافدت عليه محترفــات الــدعارة مــن مختلــف الجنسيات(٢) وقد ساعد على ذلك عدة أمور:

أولاً: أن كثيراً ممن اشتركوا في الحملات الصليبية لم يأتوا إلى الشرق لــتكفير الــذنوب لكنهم جاءوا مرغمين، هروبا من العقوبات التي فرضت عليهم بسبب مــا ارتكبــوه مــن جرائم(٣)، ومن ثم غدت الإمارات الصليبية بشكل عام ومملكة بيت المقدس الأولى أو الثانية _ مملكة عكا _ تستقبل كل عام الآلاف من الوافدين ممن حكمت عليم المحاكم الأوربيــة بالنفي إلى الساحل الشامي بدلا من عقابهم في أوربا، وكذلك فعلت المحاكم الكنسية حــين

---

(١) Richard of Holy Trinity, Itinerary of Richard I, p.80, 167,190,215؛ 225.

والنظر أيضا، العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبيح، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ١٨٤، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٣٨٩.

(٢) سعيد محمد الغمري، الطب في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ٢٠٠٣م، ص ٦٨؛ محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون في العصور الوسطي، دار عين، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٦٠.

(٣) فابري، جولات الراهب فيلكس فابري ورحلاته، ترجمة د.سهيل ذكار، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٣٨، ق٤، دمشق، ٢٠٠٠م، ص ١١٤٢.

http://www.al-maktabeh.com

حكمت على مرتكبي الخطايا بالحج إلى الأرض المقدسة؛ لتطهيرهم، كذلك فرض على كثير من الخارجين على البابوية بعد توبتهم بالمشاركة في حملة صليبية نظير العفو عنهم خاصة الألبيجنسيون[١]، وقد تنبه البابا جريجوري التاسع، إلى خطورة تلك الظاهرة فمنع من أدينوا بالهرطقة من المشاركة في حملة صليبية خشية تظاهرهم بالتوبة وإخفائهم لما يعتقدون، ومن ثم ينقلون بدعهم – من وجهة نظر البابوية – غير أن هذا الحظر لم يستمر فقد ألغاه قرار من البابا أنوسنت الرابع Innocent IV[٢] وسمح لمرتكبي الجرائم بالذهاب إلى الأرض المقدسة بدلا من عقابهم في بلادهم[٣]

ثانياً: ظروف المملكة التي انحصرت في شريط ساحلي ضيق قليل الموارد، جميع مدنه الكبرى عبارة عن موانئ، وجُل سكانها من البحارة، والبحار نادراً ما يلتزم بالخلق القويم ومن ثم صار لكل واحد منهم عشيقة وخليلة في كل ميناء ينزل فيها ومن ثم صارت المدن الصليبية في مملكة عكا وكأنها ماخورا كبيراً[٤].

ثالثاً: كثرة النساء اللائي يقمن بالحج بلا مرافق زوج كان أو أخ أو أب، ففي بداية الحركة الصليبية كانت البابوية حريصة على ألا تخرج النساء في الحملات بدون صحبة

---

(١) عنهم انظر الفصل الخامس، ٢٨٩، حاشية، ١.

(٢) أنوسنت الرابع : تولى منصب البابا عام ١٢٤٣م (٦٤١هـ) خلفا للبابا سيلستين الرابع Celestine IV، وفي عهده تم عقد مجمع ليون الأول عام ١٢٤٥م (٦٤٣هـ)، الذي دعى فيه لحملة صليبية جديدة، وقد عاصر اندفاع موجة الفتوح المغولية التي امتد لهيبها إلى أوربا، ويرجع إليه الفضل في فكرة محاولة تنصير المغول واستخدامهم في تطويق العالم الإسلامي، كما جاءت في عهده الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع على مصر، توفي عام ١٢٥٤م (١٢٥٤هـ) عنه انظر :

Kelly, The Oxford Dictionary of Popes, p. 192-193.

(٣) وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ ١، ص ١٠٤ ؛ جاك دي فيتري، تاريخ مملكة بيت المقدس، ص ٢٥١؛ حسين عطية، "طبائع الفرنج في الحملات الصليبية في ضوء المصادر اللاتينية"، ضمن كتاب: دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص ٢٤،

Throop, Criticism of the Crusade , p.95, 96 note 126 ; Brundage ," Prostitution , Miscegenation and Sexual Purity in the first Crusade" , in C.S , p.58; Archer , The Crusades , 297; Maier, "The Roles of women in the crusade movement: a survey" , in J.M.H., vol.30, 2004, p.68.

(٤) يعود الفضل في هذا التفسير إلى الأستاذ الدكتور حاتم الطحاوي، الذي لفت انتباهي إلى هذه الحقيقة.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أزواجهن وكذلك لا يخرج الرجال المتزوجون بلا إذن زوجاتهن، لكن هذه القيود تركت أثراً سلبياً على أعداد المشاركين في الحملات، فقامت البابوية بإلغاء هذا الشرط، حتى صارت تحذر الرجال من السماع لإغواء زوجاتهم للتقاعد عن الوفاء بالنذر الصليبي، وعلى ذلك فقد جاءت الحملات الصليبية إلى الشرق وفيها النساء على كل الأشكال متزوجات وغير متزوجات، طاهرات عفيفات وداعرات محترفات، مما أسهم في توفير مناخ الانحراف لكثير من العفيفات فتحولن إلى الغواية، ويبدو أن الأمر صار مشهوراً للعالم أجمع حتى شاع مثل شعبي ألماني يقول "يذهبن حجاجاً ويعدن فجاراً" [١].

رابعاً: فساد الهيئة الكنسية التي كان من المتوقع أن تقوم بدور الرقيب الأخلاقي في المجتمع الصليبي، فنجدها تنحرف وتتحول عن غرضها الأساس إلى جمع المال بشتى الطرق حتى تأجير المنازل التابعة لهم لمحترفي الدعارة، مما ساعد على انتشار تلك الحرفة على نطاق واسع في المدن الصليبية[٢].

خامساً: ارتفاع نسبة البطالة بسبب كثرة العاطلين من الصليبيين المحليين أو من الوافدين الأوربيين الذين لا حرفة لهم[٣]، ومن ثم تحولوا إلى ممارسة هذه الحرفة المُربِحَةِ في ذلك الوقت.

سادساً: أن جريمة الزنا لم يكن لها جزاء رادع، فحتى لو ثبتت على امرأة فلم تكن عقوبتها سوى النفي بدلاً من الموت[٤]، فما بالنا بالمحترفات اللائي ليس لهن أزواج يطالبون بحقوقهم في عفاف زوجاتهم.

سابعاً: تعدد العناصر المكونة للمجتمع الصليبي في المملكة، تلك العناصر التي تباينت في العادات والتقاليد، وحياتهم في مجتمع واحد فتحت باب الرذائل بلا كابح ولا رادع[٥].

---

(١) براور، الاستيطان، ص ٢٤٠؛ حسين عطية، المرجع السابق، ص٢٦.

(٢) جاك دي فيتري، تاريخ مملكة بيت المقدس، ص ٢٥١.

(٣) نفسه، ص ٢٢٠.

(٤) جان ريتشار، " وضع المرأة في الشرق اللاتيني "، ترجمة د.حسن عبد الوهاب، ضمن كتاب مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص ١٦٧.

(٥) حسن البطاوي، التباين الاجتماعي ، ص ١٢٤.

http://www.al-maktabeh.com

ثامناً: الحروب المستمرة التي راح ضحيتها عدد كبير من الرجال وبالتالي تقلصت فرص الزواج مما فتح الباب للرزيلة[١].

وعلى هذا فقد تفشت تلك الجريمة تفشياً رهيباً في مملكة عكا، ولم يكن ذلك بجديد على الصليبيين فمنذ الخطوات الأولى للصليبيين نحو الشرق والأتقياء منهم يعزون كل شر يتعرض له الصليبيون إلى انتشار تلك الفاحشة[٢]، ومع استقرار الصليبيين في الشرق عانت مملكة بيت المقدس أشد المعاناة من تفشي هذه الجريمة، حتى أفرد لها مجمع نابلس ٥١٤هـ (١١٢٠م) جزءا كبيرا من قراراته للحد من جريمة الزنى التي تفشت سواء بين العذاب أو المتزوجين، رجال الدين والعلمانيين على السواء، بشكل هدد استقرار المملكة واعتبرها رجال الدين سببا لكل المصائب التي تعرضت لها المملكة[٣].

كما حدثنا أسامة بن منقذ[٤] عن مظاهر الانحلال الخلقي في المجتمع الصليبي كما شاهده من الداخل، وغياب النخوة والغيرة على العرض، وتحايل النساء الصليبيات للهروب من

---

(١) نفسه.

(٢) تفشت جريمة الزنى بين الصليبيين في زحفهم نحو بلاد الساحل الشامي، حيث اعتبر كثير من المشاركين أن القلم قد رفع عنهم بمشاركتهم في الزحف نحو الأرض المقدسة، وأن كافة جرائمهم معفي عنها بموجب الوعد البابوي، وعلي ذلك فقد شاع في المدونات الصليبية عن الحملة الصليبية الأولي أخبار كثير من حالات الزنى، حتى بين الرهبان والراهبات، وكثيرا ما قرر الصليبيون إبعاد النساء عن معسكرهم حين عجزوا عن فتح المدن الكبيرة مثل أنطاكية وغيرها حيث عزوا انكسارهم وما يتعرضون له من مشاكل إلي تفشي تلك الجريمة بينهم، لمزيد من التفاصيل انظر : مجهول، أعمال الفرنجة، ص٥٦، فوشيه الشارتري، الاستيطان الصليبي، ص ١٠٢، ١١١؛ ريموندداجيل، تاريخ الفرنجة، ص ٨٩ ؛ حسين عطية، "طبائع الفرنج "، ص ٢٥.

Brundage , ‘Prostitution” , p.58.

(٣) وليم الصوري الحروب الصليبية، جـ ٢، ص ٣٥٧ ؛ فابري، جولات الراهب فيلكس فابري، ص١١٤٢. وعن نص قرارات المجلس انظر :

Mansi (I.C), Sacrorum Conciliorum nova et amplissima Collectio , Vol. 21, Graz , 1961 , pp.256-266 ; Brundage , Prostitution , p.178-179 ; Kedar , "On the Origins of the Earliest Laws of Frankish Jerusalem : The Canons of the Council of Nablus" , 1120 , in Spc. , vol. 74 , no.2 (April , 1999) , pp. 310-335.

راجع أيضا:حسين عطية، مجلس نابلس ٢٣يناير ١١٢٠م وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ٤٥-٤٧.

(٤) كتاب الاعتبار، تحرير فليب حتي، بيروت، ١٩٩٩م، ص ١٣٥-١٣٦؛ علي السيد علي، المجتمع المسيحي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٩م،

مكتبة المهتدين الإسلامية

عقوبة الخيانة الزوجية بالرغم من ضبطهن متلبسات، إلا أن الأزواج كان يرضيهم أي حجة واهية من زوجاتهم، كما نوه باستشراء تلك الجريمة في مدن نابلس وصور.

وحين زار بن جبير[١] مدينة عكا حوالي ٥٨٠هـ (١١٨٤م) وصفها قائلاً " تستعر كفراً وطغياناً وتفور خنازيراً وصلباناً زفرة قذرة مملوءة رجساً وعذرة " ولم يكن ذلك الوصف إلا نتيجة لانتشار الزنا بالمدينة انتشاراً عاما.

ولم تقتصر جريمة الزنا في مملكة بيت المقدس الأولى على الطبقات الدنيا بل امتدت إلى صفوة المجتمع وفي مقدمتهم رجال الدين، فقد ذكرت المصادر أسماء عدد من رجال الدين الذين مارسو تلك الجريمة ومن أشهرهم البطريرك هرقل Heraclus ٥٧٩–٥٨٧هـ (١١٨٠–١١٩١م) بطريرك المملكة الذي ارتبط بعلاقة آثمة مع باسكودي ريفتي Pasque de Riveti زوجة أحد التجار الصليبيين، وكان يجبرها على البقاء معه مدد طويلة وصلت أحيانا إلى خمسة عشر يوما،وبعد وفاة زوجها اشترى لها دارا في القدس حتى تبقى دائما بالقرب منه[٢] كما أكدت بعض الدراسات الحديثة على أن حرفة البغاء كانت منتشرة في مدينة القدس قبل فتح صلاح الدين لها بشكل خطير حتى أن كبرى العائلات كانت تدفع بناتها إلى ممارسة هذه الحرفة[٣].

والمتتبع السريع للحملات الصليبية المتوالية يلاحظ بوضوح كثرة النساء سيئات السمعة الذين صاحبوا تلك الجيوش خاصة الحملة الصليبية الثالثة التي صحبها عدد كبير من النساء سيئات السمعة للترفيه عن المقاتلين وهو أمر عرفه كل من عاصر الحملة، بالرغم من

=ص١١٩؛ جان ريشار، وضع المرآة في الشرق اللاتيني، ص ١٦٥، سعيد البشاوي، الممتلكات الكنسية، ص٣٧٨.

(١) رحلة بن جبير، ص ٢٥٢؛ سعيد البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٣٧٨.

(٢) L'Estoire d'Eracles , p.60 .

وانظر أيضاً، سعيد البيشاوي، المرجع السابق، ص ٣٧٩.

(٣) علي السيد علي، المجتمع المسيحي، ص ١١٩.

Oldenbourg (Zoe), The Crusades, trans. by Anne Corter, New York, 1966, p.519.

http://www.al-maktabeh.com

حرص رجال الدين الإنجليز على منع النساء من صحبة الجيش الصليبي فيما عدا الغسالات طيبات السمعة فقط[١] لكن يبدو أن تلك التوصيات لم يؤخذ بها، وكان لوجود النسوة في الجيش الصليبي دور كبير في تكاسل كثير من المقاتلين عن الخروج من عكا بعد سقوطها في يد الصليبيين، حتى أجبرهم الملك ريتشارد على الخروج للقتال على ألا يصاحب الجيش الصليبي أية نسوة، وكذلك كثرة الساقطات في يافا بعد موقعة أرسوف[٢] وأسهب المؤرخون في وصف ما انغمس فيه الصليبيون من الفسق والفجور، كما هرب عدد كبير من المقاتلين – بالطبع هم من المياسير والفرسان الذين يستطيعون الدفع للمومسات– إلى عكا لنيل نصيبهم من المتعة المحرمة، وقد تفشت الدعارة حتى صارت الساقطة تحيا حياة وصفت بأنها أفضل من حياة ساقي الملك الفرنسي فليب أغسطس[٣].

ولم تقل الدعارة في الحملة الصليبية الخامسة عن الحملة الثالثة، فقد انتشرت المواخير والعاهرات ولعب النرد في المعسكر الصليبي بشكل جعل الكاردينال هنري دي البانو يصدر قراراً بطرد العاهرات ومحترفي النرد وسيئي السمعة من المعسكر الصليبي أمام دمياط، وبمجرد سقوطها في يد الفرنج تفشت الموبقات بها من كل نوع وشاع العهر في المعسكر[٤].

وتكرر المشهد بشكل واضح في الحملة الصليبية السابعة بالرغم من أن قائد الحملة كان يلقب بالقديس إلا أنه لم يستطع أن يمنع صحبة سيئات السمعة للجيش[٥]، وبالتالي انتشرت

---

(١) زينب عبد المجيد،الإنجليز والحروب الصليبية، ص ١١٠.

(٢) عن موقعة أرسوف أنظر : محمد مؤنس، معركة أرسوف، القاهرة، ١٩٩٧م.

(٣) عن البغاء في الحملة الصليبية الثالثة انظر: مجهول، الحملة الصليبية الثالثة، ص ١٥٣–١٥٤ ؛

Richard of Holy Trinity, Itinerary of Richard I, p.80, 167.190,215, 225.

حسين عطية، طبائع الفرنج، ص ٢٨–٢٩.

(٤) جاك دي فيتري، رسائل جاك ديفيتري، الخطاب الخامس،ص١٠٦–١٠٧؛ حسن عطية، المرجع، ص٢٩.

Larsgatter, Women of Peace And Ware , The roles of European Women at the Siege of Acre. See, http://Moas.athlantia.sca.org/oak/13/acre.htm

(٥) جوناثان ريلي سميث، ما الحروب الصليبية، ترجمة د. محمد فتحي الشاعر، دار الأمين، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٩٠.

مكتبة المهتدين الإسلامية

جريمة الزنا في المعسكر الصليبي في دمياط وبخاصة بين المقربين من لويس الذي لم يستطع منعهم من هذا الفساد، وحين رحل إلى عكا بعد فشل الحملة فإنه قام بعزل كثير من المقربين إليه بسبب ممارستهم للرذائل على رمية حجر من خيمته في اشد أوقات الصليبيين حرجاً(١)، وخشي الملك لويس نفسه أن يتهم بالزنا فكان يترك خيمته مفتوحة خشية أن يتهم بمرافقة إحدى العاهرات(٢)، وقد عاقب لويس في قيسارية أحد الفرسان بسبب ضبطه متلبسا بمرافقة امرأة سيئة السمعة(٣).

وتفشت حرفة البغاء في عكا تفشياً كبيراً، حتى لم يتورع رجال الدين عن تأجير منازلهم لمحترفي تلك الحرفة المشينة، وصار الأمر متفشيا بشكل أقلق البابوية مما جعل البابا أنوسنت الرابع يرسل في منتصف القرن الثالث عشر خطابا إلى رجال الدين الكاثوليك في عكا ينتقدهم بسبب تأجير أملاك الكنيسة للفاسدين أخلاقيا(٤).

ويبدو أن مرسيليا قد صارت مقصداً لكل فاسد وفاسدة يريد الرحيل إلى الأرض المقدسة بدعوة التطهر والتكفير في الظاهر، وممارسة ما ألفوا وألفن من الدعارة بشكل باطن؛ مما جعل حكومة مدينة مرسيليا تصدر أمراً إلى قناصلها على متن السفن بمنع نقل المنحرفين والمنحرفات أخلاقيا، وكذلك إلى المسئولين عن إدارة الفنادق التابعة لقومون مرسيليا في الساحل الشامي بعدم إيواء الفاسدين(٥)، غير أن هذه التعليمات من الواضح أنها كانت حبراً على ورق.

ولم يقتصر الزنا على الدعارة المنظمة في الخانات والحي الأحمر، بل انتشر الزنى في البيوت الصليبية حيث تحايل التواقون إلى هذا الآثم للقيام به حتى المتزوجين والمتزوجات منهن، وقد

=Kedar, The passenger list of a Crusader ship, in S. G, vol.13, 1972, p. 272-274 Maier, The Roles of women, p.74.

(١) جوانفيل، القديس لويس، ص ٩٩.

(٢) نفسه، ١٠٠.

(٣) نفسه، ١٠١

(٤) براور، الاستيطان، ص ٢٤٠.

(٥) براور، الاستيطان، ص ٢٤٠.

http://www.al-maktabeh.com

لجأت كثير من الزوجات إلى وسائل سحرية للخلاص من أزواجهن، وكذلك اتبع كثير من الأزواج عدداً من الوسائل غير المشروعة للخلاص من زوجاهم، كذلك استملح عدد من الرهبان والراهبات هذه الجريمة، فغادروا صوامعهم ونزلوا إلى بيوت الدعارة حتى ينهلوا من معينها الآثم ومن ثرواها المدنسة(١).

ولم تقتصر تلك الخطيئة على الطبقات الدنيا في المجتمع الصليبي والساقطات، بل امتدت إلى طبقة الصفوة في ذلك المجتمع الموبوء، فقد ثبت على الأميرة إيزابيلا ابنة حنا الثاني ابلين وريثة بيروت، وأرملة الملك هيو الثاني، التي تركها أرملةً بكراً، غير أنها فقدت عذريتها في علاقة آثمة مع جوليان حاكم صيدا، واشتهر الأمر حتى وصل إلى مسامع البابا الذي اصدر مرسوما بزواجها، غير أنها تركت جوليان وتزوجت من رجل إنجليزي يدعي هامو رغم انف البابا وأنف ملك قبرص وعكا هيو الثالث(٢)، كما احتج البابا أوربان الرابع(٣) عام ١٢٦١م (٦٦٠هـ) على العلاقة الآثمة التي ربطت بين ملكة قبرص بلايسانس وبين كونت يافا حنا ابلين القانوني الشهير(٤).

---

(١) جاك دي فيتري، تاريخ مملكة بيت المقدس، ص ٢٥١.

(٢) L'Estoire d'Eracles, p.462. Cf. also, Hill, The History Of Cyprus, Vol., II, P. 170-171; Runciman, "the Crusader state" , P. 584 ; Holt ," Bybirs's treaty with Lady of B uirt in 1269",P. 242 .

وانظر أيضاً : رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٥٨٦ ؛ سهير المليجي، المرأة الصليبية، ص ٢٧٤.

(٣) أوربان الرابع: خلف البابا الكسندر الرابع عام ١٢٦١م (٦٦٠هـ)، ولدفي تروا في شابني في أسرة فقيرة، سلك طريق الرهبان حتى صار مطرانا في فردان ومندوبا باباويا في ألمانيا وبطرياركا لبيت المقدس لمدة ستة عشر عاما قبل اختياره لمنصب البابا، حين كانفيروما عند وفاة البابا الكسندر الرابع، توفي عام ١٢٦٤م (٦٦٣هـ)، عنه انظر:

L'Estoire d'Eracles, p.443-446 . Cf. also, Hamilton, The Latin church, p. 270.

(٤) John of Ibelin, Le Livre des Assises, intro. P.1; Mayer, The Crusades, p.275; Edbury, The Ibelin counts of Jaffa: A previously unknown passage from the Lignage d'outremetr, in H.E.R., vol. 89, no.352 (Jul., 1974), p.605-606.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كما ساعد الفساد الأخلاقي في عكا على انتشار الاحتيال وبخاصة أن عدداً كبيراً من النساء المحتالات قد قمن بالحج بسبب رواج الظروف في عكا لذلك، فكان من السهل أن تتدثر أي امرأة في دثار الوقار والغني وتقوم بالنصب على أي من الحجاج الذين ينخدعون بمظهر النساء المحتشم[١]. كما لم يقتصر الأمر علي الوافدات سيئات النية بل نشط السكان المحليون في خداع الحجاج، وغشهم واقتناص ما يحملون من مال بلا جهد، ومن ثم انقطع عدد كبير منهم لهذه الجريمة[٢]، وشاركهم فيها عدد كبير من التجار الإيطاليين، في ظل الامتيازات القضائية التي تمتعت بها تلك الجاليات، والتي فوضت للمحاكم القومونية الفصل في الجرائم دون القتل[٣].

كما أفرط الصليبيون في تناول الخمور[٤]، وساعد على ذلك كثرة محترفي تلك الجريمة الذين تم نفيهم من أوربا إلى الشرق، لتطهيرهم فوجدوا المناخ مهيأ لكل الموبقات، فعادوا لسيرتهم الأولى، ولقيت حرفتهم رواجا في ظل ظروف الفساد المستشري في المملكة[٥].

وكان لارتفاع معدلات الجريمة في عكا دور كبير في تفهم عقلاء القوم لما سوف يكون عليه مستقبل المملكة، ومآلها ولم يكن ذلك في نهاية الوجود الصليبي بل منذ مطلع النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وجاء ذلك على لسان جوانفيل مؤلف سيرة حياة لويس التاسع، الذي ارتاع من كثرة الجرائم التي انتشرت في عكا، وحين صرح بذلك إلى المندوب البابوي رد عليه قائلا: "لم يتسن لأحد أن يبلغ ما بلغته من معرفة كل المعاصي المهلكة التي ارتكبها القوم في عكا، مما سينتقم له الرب انتقاما يطهر به المدينة بغسلها في دم سكانها، وسوف يأتي قوم آخرون بعدهم يسكنوها " وقد قدر لجوانفيل أن يمتد به العمر حتى يعلم

---

(١) براور، الاستيطان، ص ٢٤٠.

(٢) جاك دي فيتري، تاريخ مملكة بيت المقدس، ص ٢٢٧.

(٣) هايد، تاريخ التجارة، جـ ١، ص ٣٤٠-٣٤١.

(٤) جاك دي فيتري، المصدر السابق، ص ٢٢٠.

(٥) Archer , The Crusades , 297.

http://www.al-maktabeh.com

بسقوط عكا حينها كتب وأكد أن ذلك ما تنبأ به المندوب البابوي منذ أربعين عامــا فقــد طهرت عكا بسيف الأشرف الذي غسل المدينة بدماء سكانها[١].

هكذا بدا لنا بوضوح حجم المشكلات التي عانى منها مجتمع مملكة عكــا الــصليبية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، والتي حالت دون استقرار ذلك المجتمع ووحدتــه في وجه المسلمين المتربصين به الدوائر، غير أن مشكلات هذا المجتمع لم تقتصر على ما عرضناه بل وجدت العديد من المشاكل والجرائم التي لم تتوفر لنا المادة التي يوثق بها حتى نتعرض لها، ومن أمثلتها الاغتيالات والرشوة.

وبتمام هذا الفصل تتم العوامل الداخلية التي أدت إلي انهيار مملكة عكا مــن الــداخل، وننتقل إلي العوامل الخارجية التي أدت إلي سقوط المملكة من الخارج وهو مــا ندرســه في الفصلين الخامس والسادس.

---

(١) جوانفيل، سيرة القديس لويس، ص٢٦٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفصل الخامس

اعتماد مملكة عكا على أوربا

- أحوال القوى الأوربية الكبرى في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).
- ضعف أيدلوجية الحروب الصليبية.
- الاستجابة الأوربية للتحديات التي واجهت مملكة عكا ٦٥٢-٦٩٠هـ (١٢٥٤-١٢٩١م).

تناول الباحث في الفصول الأربعة الأولي العوامل الداخلية التي أسهمت في تدهور مملكة عكا وانهيارها من الداخل، والتي تمحورت حول مشكلات توريث العرش، والصراعات الداخلية، والتراجع الاقتصادي، ومشكلات المجتمع. غير أن هذه العوامل وإن تسببت في ضعف المملكة من الداخل، لم يكن لها أن تسقطها إذ كان يمكن للمملكة البقاء بما تعانيه من مشاكل، لولا وجود عوامل خارجية ساعدت على سقوطها، وفي هذا الفصل نتناول أحد العوامل الخارجية المتعلقة بالموضوع، ويتمثل في مشكلة الاعتماد على أوربا،ويضم في ثناياه عدة عناصر: أولها: أحوال القوي الأوربية الكبرى في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، وأثرها على مملكة عكا،ثانياً: تراجع الأيدلوجية الصليبية، وثالثاً وأخيراً: الاستجابة الأوربية للتحديات التي واجهت مملكة عكا ٦٤٨-٦٩٠هـ (١٢٥٠-١٢٩١م).

أولاً: أحوال القوي الأوربية الكبرى في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي):

لا يتثنى لنا التعرف على أسباب تراجع الدعم الأوربي للإمارات الصليبية إلا بقراءة خريطة أوربا السياسية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ففي ذلك الوقت كانت القوي الأوربية الكبرى التي يمكنها دعم الكيان الصليبي بالساحل الشامي تتمثل في: البابا ذلك الحبر الكاثوليكي الأعظم، وإمبراطور ألمانيا أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والملكية الفرنسية والملكية الإنجليزية.

http://www.al-maktabeh.com

ونبدأ بالبابوية تلك القيادة الروحية التي نفخت من روحها في نار الحركة الصليبية حتى أججتها، وبادئ ذي بدء يمكن تقرير عدة حقائق تتعلق بباباوات النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، وهي حقائق لا يتسنى لنا الوصول إليها إلا باستخدام منهج الإحصاء التاريخي أو ما يسميه البعض بالتاريخ الكمي، إذ تسفرالنظرة الإحصائية إلي باباوات النصف الثاني من القرن الثالث عشر عن أمور ثلاثة: أولها: أن إثني عشر فردا تولوا منصب البابوية خلال اثنين وأربعين عاما، أي ما يعادل ثلاث سنوات وستة شهور لكل بابا، على فرض تساوي مدة ولاية كل واحد منهم، وبكل تأكيد لم تكن تلك الفترة كافية لأن يعطي البابا الكيان الصليبي الوقت الكافي للتخطيط والتدبير لتقديم العون مادياً وبشرياً، ناهيك عن مشاكل أوربا التي لا تنتهي، فعلى سبيل المثال دعي البابا جريجوري العاشر إلي مجمع ليون عقب تتويجه مباشرة عام ٦٧٠هـ (١٢٧١م) في الثامن عشر من شعبان (الأول من إبريل) من نفس العام ولم ينعقد هذا المجمع إلا في الثاني والعشرين من شوال من عام ٦٧٣هـ (الأول مايو ١٢٧٤م)، أي أن الدعوة قد جاءت قبل موعد انعقاد المؤتمر بسنوات ثلاث[١]، كما استغرقت الإعدادات الأولية للمجمع وحدها سبعة أشهر[٢]، وهذا وحده دليل كاف على أن البابا – حتى يستطيع أن ينتهج خطا سياسيا، ويتخذ التدابير لتنفيذ مقتضيات ذلك الخط – كان يحتاج البقاء في منصبه عدة عقود، أو أن يكون له عدد من الخلفاء ينتهجون نفس سياسته، وهو أمر لم يحدث في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. أما ثاني الأمور كما يتضح لنا أن هناك ثلاثة باباوات لم تتجاوز مدد ولايتهم العام الواحد وهم: أنوسنت الخامس[٣]

---

(١) Runciman, The Sicilian Vespers, p.148.

(٢) Throop, Criticism of the Crusade, p.215.

(٣) أنوسنت الخامس: تولي المنصب البابوي في الخامس من شعبان من عام ٦٧٥هـ (الحادي والعشرين من يناير ١٢٧٦م)، وكان في الأصل راهبا دمنيكانياً، ونصبه جرجوري العاشر رئيسا لأساقفة ليون ثم كاردينالا لأوستيا، ثم اختير لمنصب البابا بعد وفاة جريجوري العاشر بعشرة أيام، ولم تطل مدته أكثر من عدة أشهر إذ توفي في الثاني والعشرين من يونيو من نفس العام، انظر عنه:

L'Estoire d'Eracles, p.476; The Templar of Tyre, p. 70-71. Cf. also, Mckilliam, A Chronicle of popes, p.323; Kelly, The Oxford dictionary of popes, p. 199.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الذي تولي ستة شهور، وهادريان الخامس[1] الذي لم تزد مدة ولايته عن شهر وسبعة أيـام، وحنا الحادي والعشرون[2] الذي تولي مدة لا تزيد على تسعة أشهر، على الترتيب والتعقيب، وهو ما يوضح إلي أي حد بلغ عدم الاستقرار مداه في مقر البابوية، وهو ما ترك بلا شك ظلالا قاتمة على أحوال مملكة عكا التي كانت تنتظر الدعم البابوي في أحرج فترات تاريخها، وثالثا وأخيراً وجود فجوات زمنية بين فترات ولاية عدد من الباباوات أكبرها الفجوة التي أعقبت وفاة كلمنت الرابع[3]، وسبقت اختيار جريجوري العاشر، والتي بلغت سنتان وتسعة شهور، ويلي تلك الفجوة التي أعقبت وفاة هونوريوس الرابع Honorius IV[4] وقبيل اختيار نيقولا الرابع والتي بلغت تسعة شهور وتسعة عشر يوما، وبلا شك تأثرت مملكة عكا بذلك الأمر في ظل مشاكلها الداخلية وتحدياتها الخارجية[5].

---

(١) هادريان الخامس: هو مواطن جنوي، ابن أخ البابا أنوسنت الرابع، تولي السدة الباباوية في ٧ من صفر من عام ٦٧٥هـ (٢١ يوليو عام ١٢٧٦م)، غير أن العمر لم يطل به، إذ توفي بعد خمسة أسابيع من اختياره، في ٦مارس (١٨ أغسطس) من نفس العام، عنه انظر:

L'Estoire d'Eracles, p.476. Cf. also, Mckilliam, op.cit., p.324 ;Kelly, op. cit., p. 199.

(٢) حنا الحادي والعشرون: تولي منصب البابا في ٢٧ جمادى الأولى ٦٧٥هـ (٨سبتمبر ١٢٧٦م)، درس في جامعة باريس، وصار طبيبا ومدرسا بالجامعة، ثم التحق بسلك الكهانة وترقي في المناصب الكنسية حتى صار رئيساً لأساقفة براغ Barge، ثم كاردينال لتوسكلوم Tusculum، في عهد جريجوري العاشر، وشارك في مجمع ليون الثاني٦٧٣هـ (١٢٧٤م) مشاركة فعالة، غير أنه عقب توليه منصب البابا حسده كثير من الرهبان واتهموه بممارسة السحر، وقد تنبأ لنفسه بطول العمر غير أنه توفي بعد أقل من عام من ولايته في ٩من ذي الحجة ٦٧٦هـ (١٤ مايو ١٢٧٧م)، لمزيد من التفاصيل انظر: Mckilliam, op. cit., p.324; Kelly, op. cit., p. 200.

(٣) كلمنت الرابع: فرنسي الأصل ولد في سانت جيل، بدأ حياته العملية في السلك العسكري، ثم تحول إلى دراسة القانون، وصار مستشارا قانونيا للملك لويس التاسع، ثم دخل السلك الكنسي وصار رئيساً لأساقفة ناربون Narbonne، ثم كاردينالا لسابينا Sabina،حتى تولي العرش البابوي في ١٩ جمادى الآخرة ٦٦٣هـ (٥ فبراير ١٢٦٥م). تحمس بشدة لتولية شارل أنجو عرش صقلية، في ظل رفض غيره من المرشحين لهذا المنصب، وتوفي في ٢٢ جمادى الأولى ٦٦٧هـ (٢٩ نوفمبر ١٢٦٨م)، عنه انظر:

The Templar of Tyre, p.43-57. Cf. also, Mckilliam, A Chronicle of popes, p.319; Kelly, The Oxford dictionary of popes, p. 196.

(٤) هونوريوس الرابع: اسمه جياكومو سارفيلي Giacomo Savelli ولد عام٦٠٧هـ (١٢١٠م)، من أسرة رومانية نبيلة، درس في صباه في باريس، وسلك سلك الرهبان ونصبه البابا أوربان الرابع كاردينالا عام ٦٦٠هـ (١٢٦١م)، كان ابن عم للبابا هونوريوس الثالث الذي حمل اسمه، توفي في إبريل من عام ٦٨٦هـ (١٢٨٧م). عنه انظر: Mckilliam, op. cit., p.239; Kelly, op. cit, p. 204.

(٥) انظر شكل رقم (٤)، ص ٣٥٢.

http://www.al-maktabeh.com

وبمراجعة تاريخ البابوية في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، نجد أن الاهتمام بالصليبيين في الشرق لم يعد في بؤرة الاهتمامات البابوية كما كان في الماضي، فالبابا أنوسنت الرابع – الذي امتدت ولايته اثني عشر عاما،فكان أطول مدة ممن خلفوه في تولي السدة البابوية الكاثوليكية– وكان جل همه الانتصار على الإمبراطور الألماني وتأكيد السمو البابوي، ولم يعط للصليبيين في الشرق إلا القليل من الاهتمام. ذلك العطاء الذي لم يتجاوز الدعوة في مجمع ليون الأول ٦٤٣هـ (١٢٤٥م) لخروج حملة صليبية لاسترداد القدس ثانية من يد المسلمين، الذين استعادوها عام ٦٤٢هـ (١٢٤٤م)[١]، ولم يكن ذلك الإعلان أكثر من تجميل للصورة البابوية، حتى تبدو مهتمة بمصالح العالم المسيحي أجمع؛ في حين لم تتعد أهداف هذا المؤتمر إصدار قرار حرمان ضد الإمبراطور فريدريك الثاني وكسر شوكته ليس أكثر، وإن نوقشت مسائل أخري في المجمع فلم تتعد كونها أكثر من مناقشات ومجادلات بلا طائل[٢]، ولولا وجود لويس التاسع لما تعدت الصرخة الصليبية أبواب قاعات المجمع، ولذهب ذلك النداء أدراج الرياح كما ذهبت صرخات أخري أكثر حرقة وأعلى دويا، حتى هزيمة لويس التاسع وأسره في المنصورة عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) فقد استغلها البابا طعناً في الإمبراطور الألماني، واتهامه كذبا بتحريض سلطان المماليك على الاحتفاظ بلويس في الأسر، بالرغم من مساعي الإمبراطور لإطلاق سراحه[٣].

---

(١) حول فتح القدس ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) انظر: ابن واصل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ٥، ص ٣٣٧، ابن أيبك، كنز الدرر، جـ٧، تحقيق د.سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٣٥٣؛ المقريزي، السلوك، جـ١، قسم ٢، ص ٣١٦. وانظر ايضا:

L'Estoire d'Eracles, pp.428-429, Annales de Terre Sainte, p.441.

وقد ذكر ابن أيبك أن فتح القدس كان عام ٦٤١م (١٢٤٣هـ) بخلاف باقي المصادر التي أجمعت على حدوثه عام ٦٤٢هـ (١٢٤٤م)، وربما يكون ذلك خلط لدي المؤرخ لم يدركه بسبب عدم مراجعة مادون.

(٢) The Templar of Tyre, p.20. Cf. also, Mckilliam, op. cit., p.313; Tout, The Empir and the Papacy, p.387

راجع أيضا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٤٤١؛ جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص ٥٦؛ رأفت عبد الحميد، الفكر السياسي، ص ٦٣.

(٣) جوانفيل، القديس لويس، ص ٢٠٠. انظر أيضا:

Wiegler, The infidel emperor, p.261.

مكتبة المهتدين الإسلامية

غير أن سوء النية كانت مبيته من قبل البابوية، ومن ثم لا طريق إلي صلاح ذات البين بينهما. وقد حنق المؤرخون المعاصرون لأنوسنت الرابع من جراء سياسته وفي مقدمتهم متي الباريسي الذي أكد رفض البابا لمساعي الصلح التي بذلها فردريك الثاني، إذ قرر تحطيم مكانته ونفوذه حتى يكون عبرة لكل ملوك الغرب وقال متى في هذا الصدد: " كل ذلك لسعادته هو وحده،إن جشعه وحبه الشديد للمال هما السبب في كل هذه الكوارث.... لقد أغشى المال على بصيرته – إن البابا هو المسؤول عن كل هذا القلق والاضطراب الحادث في العالم، ولم لا ؟ لقد سار على خُطي قسطنطين، وترك درب القديسين"[١].

أما خلفه ألكسندر الرابع Alexander IV[٢] فلم يكن بوسعه سوى اقتفاء أثر سلفه في المضي في تحطيم ما تبقي للأباطرة الألمان من نفوذ، وبصفة خاصة تصفية مانفرد ابن الإمبراطور فريدريك، وحاكم صقلية والوصي على العرش الألماني، الذي أذل أنف البابوية عقب هزيمته لقواتهما عام ٦٥٢هـ (١٢٥٤م) مما جعل أنوسنت الرابع يموت كمدا وغيظا وحسرة على ما ألم بسمعة البابوية[٣]،ومن ثم لم يكن للصليبيين في الشرق نصيب من سياسته؛ حتى أن داوي صور – مؤرخ النصف الثاني من القرن الثالث عشر- لم يعره اهتماما ولم يذكر عنه شيئا سوى خبر وفاته عام ٦٦٠هـ (١٢٦١م)[٤]، وحسبنا دليلا –

---

(١) Mathew paris, English History, vol.II, p.67.

وأيضا انظر: جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص ٥٧؛ رأفت عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٢) الكسندر الرابع: تولي منصب البابا في يوم ٦٥٢هـ (١٢ ديسمبر ١٢٥٤م) خلفا لأنوسنت الرابع، وكان الكسندر من أقارب البابا جريجوري التاسع، وبالرغم من ضعف شخصيته إلا أنه ورث مشاكل البابوية مع الإمبراطورية الألمانية التي قضي فترة ولايته في معالجة تقلباتها، حتى توفي في ٦٦٠هـ (٢٥ مايو ١٢٦١م)، لمزيد من التفاصيل انظر:

L'Estoire d'Eracles, p 442, 445; The Templar of Tyre, p. 39; Annales des Terre Saint, p.447, 450. Cf. also, Mckilliam, A chronicle of the Popes, pp.314-315; Kelly, The Oxford dictionary of popes, pp. 193-194.

(٣) Tout, The papacy and the Empire, p.480-481; Mckilliam, op. cit., p.313

راجع أيضا، رأفت عبد الحميد، الفكر السياسي الأوربي، ص ٦٥.

(٤) The Templar of Tyre, p.39.

http://www.al-maktabeh.com

على فشل السياسة البابوية حيال الصليبيين في الشرق- عجز هذا الحبر الروماني عن وضع حد لحرب سان سابا التي أكلت أحشاء الشرق اللاتيني(١).

أما أوربان الرابع Urban IV(٢) فلم يقض في منصبه إلا سنوات ثلاث، وكان من المنتظر أن يعطي الصليبيين في الشرق قدرا أكبر من الاهتمام، بحكم توليه وظيفة المندوب البابوي، ثم منصب بطريرك المملكة الصليبية منذ ٦٥٣هـ (١٢٥٥م) حتى اختير لمنصب البابا ٦٦٠هـ (١٢٦١م)(٣)، ومن ثم كان على دراية بمشاكلها الداخلية، وما تعانيه من تهديدات خارجية، غير أن هذا لم يحدث في ظل تركة ألكسندر الرابع الثقيلة، من مواجهة مفتوحة مع آل هوهنشتاوفن، ناهيك عن باقي مشاكل أوربا، ومن ثم قضي البابا مدة ولايته الصغيرة في تدبير وسيلة لطرد مانفرد هوهنشتاوفن من صقلية(٤).

مجمل القول: إن أوربان الرابع كان أضعف من أن يقدم العون للصليبيين في الشرق، في وقت كانت فيه بلاد الشام تموج بالتغيرات من جراء الغزو المغولي ومعركة عين جالوت، ونهاية الأيوبيين في الشام وتوحيد مصر والشام بقبضة قوة المماليك الفتية، وهي أمور كانت تستحق الانتباه لكن هيهات أن ينتبه البابا إليها في خضم ما يعانيه من مشاكل في أوربا، حتى إن انتبه فلم يكن يملك سوى تلقي الوعود الزائفة من ملوك أوربا بالخروج في حملات صليبية، تلك الوعود التي جمعوا باسمها أموالاً ضخمة أنفقت في غير محلها.

---

(١) راجع الفصل الثالث، ص ١٦٠.

(٢) أوربان الرابع: من أصل فرنسي، كان والده اسكافيا، لكنه نبغ وتخصص في القانون، وسلك سلك الرهبان، حتى وصل إلى منصب رئيس أساقفة ليج Liege، ثم مندوبا بابويا في بولندا، وتدرج حتى عين أسقفا لمملكة عكا، حتى اختير لمنصب البابا ٦٦٠هـ (٢٩ أغسطس ١٢٦١م)، وقد سار على سياسة أسلافه في تصفية أسرة الهوهنشتاوفن، حتى توفي في ٦٦٣هـ (٢ أكتوبر ١٢٦٤م)، عنه انظر:

L'Estoire d'Eracles, p 448; The Templar of Tyre, p. 39, 41,43; Annales des Terre Saint, pp.450, 451. Cf. also, Mckilliam, op. cit., pp.317-318;Kelly,op. cit., pp. 194-196.

(٣) The Templar of Tyre, p.39,41. Cf. also, Hamilton, The Latin Church, pp.270-271.

(٤) L'Estoire d'Eracles, pp. 455-456. Cf. also, Mckilliam, A chronicle of the Popes, pp.315-314; Tout, The Empire and the Papacy, p.384, Runciman, The Sicilian Vespers, p.78.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وإذا كان أوربان الرابع على دراية بمشاكل الصليبيين ولم يقدم لهم شيئا يــذكر، فــإن كلمنت الرابع لم يأت إلي الشرق ولم يدرك حجم المشاكل التي يعانيها، وبالتالي لم يلتفت إلي الشرق بالكلية وسار على خطي أسلافه، في أمر الخلاص من آل هوهنــشتاوفن إلي غــير رجعة، ومن ثم في ١٦ ذي القعدة ٦٦٤هـ (١٨ سبتمبر ١٢٦٦م) أعلن لعن كــل مــن يعاون كونرادين هونشتاوفن ليتولى المنصب الإمبراطوري على ألمانيا، أو يعاونه في العــودة إلي إيطاليا[١]، ذلك أنه قرر إتمام ما بدأه سلفه كلمنت الرابع، من منح صقلية لشارل أنجــو وبالفعل كان قد توجه ملكا علــى صــقلية في ٢٧ ربيــع أول ٦٦٤هـــ (٦ ينــاير ١٢٦٦م)[٢]؛ حتى ينهي أمر الهوهنشتاوفن ووجودهم في إيطاليا إلي الأبد؛ وبالفعل تمكــن شارل من هزيمة مانفرد في معركة بنفنتو Benevento في ٥ جماد الأولي (١٢ فبراير) مــن نفس العام، ولقي مانفرد مصرعه في نهاية المعركة بعد أن قاتل مقاتلة اليأس من الحياة[٣]، ولم يفارق كلمنت الرابع الحياة حتى أدخل آخر أفراد أسرة الهوهنشتاوفن القبر بعد مــا شــنق كونرادين عام ٦٦٧هـ (١٢٦٨م)، في أعقاب هزيمته عل يــد شــارل أنجــو في موقعــة Tagliacozzo[٤].

---

(١) Ibid, p.103.

(٢) L'Estoire d'Eracles, p.452; The Templar of Tyre, 48. Cf. also, Tout, The Papacy and the Empire, p.485; Kelly, The Oxford dictionary of popes, p.196.

ومن الجدير بالذكر أن داوي صور قد ذكر أن تتويج شارل أنجو وزوجته بياتركس ملكا وملكة صقلية قد تم في ٦٦٤هـ (١٢٦٥م) وذلك ليس بصحيح، إذ تم ذلك يناير عام ٦٦٥هـ (١٢٦٦م) كما ذكرنا أعلاه، ويبدو أن سبب الخطأ هو بطء نقل المعلومات وتتويج شارل في وقت مبكر من عام ٦٦٥هـ (١٢٦٦هـ). بعد مفاوضات استمرت بعض الوقت خلال العام السابق، ومن ثم اعتقد الداوي أن ذلك كان عام ٦٦٤هـ (١٢٦٥م).

(٣) L'Estoire d'Eracles, p.452; The Templar of Tyre, p.49. Cf. also, Tout, op. cit., p. 486; Runciman, opc.it.,pp.94-95; Franzius (Enno), History of the Byzantine Empire mother of nation, New York, 1967, p.373.

ذكر ماكليم أن معركة بنفنتو قد جرت في ٦٦٣هـ (فبراير ١٢٦٤م)، ومن الواضح الجلي أن ذلك التاريخ خطأ، واغلب الظن أنه خطأ مطبعي. انظر:

Mckilliam, A chronicle of the Popes, p. 320.

(٤) L'Estoire d'Eracles, p.456 , The Templar of Tyre, pp.56-68 ; Tout, op. cit., p. 487.

http://www.al-maktabeh.com

وإذا كان البابا كلمنت الرابع قد شهدي بعيني رأسه تحقق حلم طالما راود أسـلافه، وتخلص من أسرة الهوهنشتاوفن بسيف الطموح الطماع – شارل أنجو- إلا أن مملكة عكا في عهده توالت خسائرها، في ظل تنامي قوة الظاهر بيبرس[١]، دونما عون فعال مـن البابـا الذي رأي أن سمو البابوية في أوربا أولى من إنقاذ الصليبيين في الشرق، ولم يلتفت أوربان إلي أن كونردادين ملك ألمانيا المغضوب عليه هو الملك الشرعي لمملكة عكا المتداعية، ومن الأولي التصالح معه وتوجيه جهوده نحو الشرق، لكن هيهات أن يلتفت البابا إلي ذلك. فليـذهب الصليبيون في الشرق إلي الجحيم، ولتبق يد البابا فوق يد الجميع.

وعقب وفاة كلمنت الرابع بقي العرش البابوي شاغرا قرابة ثلاث السنوات في ظل عجز مجمع الكرادلة – الذين لهم حق اختيار البابا- عن اختيار من يخلف البابا الذي قضي نحبه[٢]، وبالتالي لم تحصل مملكة عكا على أي دعم بابوي خلال تلك الفترة، التي جرت فيها أحداث جسام كانت ذات أثر سلبي على الصليبيين في الشرق بصفة عامة وفي مملكة عكـا بـصفة خاصة. فقد دخلت عكا في مشكلة توريث العرش في أعقاب شنق كونرادين، وما ترتـب عليه من تنافس بين هيو الثالث وماريا الأنطاكية[٣]، كما شهدت فترة الـشغور البـابوي خروج لويس التاسع في حملته الصليبية الثانية نحو تونس، وبالطبع لم تجد الحملـة التوجيـه البابوي الذي وجدته الحملات الصليبية السابقة، وربما يكون عدم وجود بابا في روما سـببا في انحراف الحملة من طريقها المتوقع نحو مصر إلي تونس، كما وصـل إلي عكـا حملتـان صغيرتان الأولي حملة ولدي ملك أراجون، والثانية حملة الأمير إدوارد، ولم تصيبا نجاحـا ولم تحققا للصليبيين ما كان يرجى منهما[٤].

---

(١) تمكن السلطان بيبرس خلال عهد البابا كلمنت الرابع من فتح كل من :قيسارية- حيفا- صفد- يافا بجانب عدد كبير من الحصون الصغير وتخريب الظهير الريفي لمملكة عكا والمعاقل الصليبية، انظر الملحق رقم (٩)، ص٣٥١ .

(٢) Mckilliam, op. cit, p.321; Kelly, The Oxford dictionaryof popes,, p.197

(٣) أنظر الفصل الأول، ص ٦١.

(٤) انظر ما يلي في هذا الفصل .

مكتبة المهتدين الإسلامية

ومهما يكن من أمر فبعد طول انتظار تم تنصيب جريجوري العاشر في ٢٤ محرم ٦٧٠هـ (١ سبتمبر ١٢٧١م)، ذلك البابا الذي لمس عن قرب حرج وضع مملكة عكا وضرورة تقديم العون لها بكل الأشكال لتتمكن من التصدي للتحدي المملوكي، فقد درس جيدا أحوال المملكة أثناء مشاركته في حملة الأمير إدوارد[1]، وأدرك ضرورة توحيد كلمة أوربا بشأن المسألة الصليبية، وفور علمه باختياره لمنصب البابا كتب إلي سائر أوربا يطالب الناس بالخروج في حملة صليبية غير أنه وجد آذانا صما[2]، وعليه فقد قرر عقد مجمع ديني لنظر المسألة مع باقي مشاكل العالم الكاثوليكي، ذلك المجمع الذي افتتح في مدينة ليون الفرنسية في ٢٨ شوال ٦٧٢هـ (٧ مايو عام ١٢٧٤م)[٣].

وحرصا من جريجوري العاشر على نجاح مجمع ليون طلب من عدد من المقربين إليه إعداد تقارير حول أسباب إحجام الأوربيين عن المشاركة، وعلى رأس هذه التقارير التقرير الذي كتبه هامبرت أوف رومانس Humbert of Romans [٤]، الذي سجل فيه أسباب تراجع التأييد الشعبي والرسمي للحرب الصليبي، وجعل في مقدمتها الجشع والشهوانية، وظلام العقول الذي ساد أوربا خصوصا في أوساط العامة.

---

(١) L'Estoire d'Eracles,p.471. Cf. also, Throop, Criticism of the Crusade ,p12; Kelly, The Oxford dictionary of popes, p.197.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٨٠.

(٣) فابري، رحلات الراهب فيلكس فابري، جـ٤، ص ١١٧٠. وأيضا:

The Templar of Tyre, p.69; Cf. also, Tout, The History of England, p.142; Throop ,op. cit., P. 214-281; King : The Knight Hospitallers , P. 274 Setton, The papacy and the Levant, 1204-1571, Philadelphia, 1976, p.111.

وانظر أيضاً: أمل أحمد البيلي، مجمع ليون الثاني ١٢٧٤م، ص ٦٩-٧٨.

(٤) هامبرت أوف رومانز: هو خامس مقدم لهيئة الرهبان الدمنيكان، ولد عام ٥٩١هـ (١١٩٤م) في رومانز، درس في باريس حوالي لعام ٦١٢هـ (١٢١٥م)، وفي عام ٦٢١هـ (١٢٢٤م) دخل سلك الرهبان الدمنيكان، وفي عام ٦٢٥هـ (١٢٢٧م)، وتدرج في الوظائف داخل الهيئة حتي تولي منصب المقدم عام ٦٥٢هـ (١٢٥٤م) واستقال منه عام ٦٦٢هـ (١٢٦٣م) زهدا في المنصب، واعتكف في دير فالنز the monastery of Valence، حيث مكث هناك ما تبقي من حياته، ورفض منصب بطريرك مملكة عكا، وانقطع لكتابة عدة دراسات نقدية عن هيئة الدمنيكان، هدف من ورائها إلي إصلاح الهيئة وتقويم ما اعوج من سلوك أعضائها، ومن بين كتاباته تقريره الذي رفعه إلي جريجوري العاشر حول أسباب ؛إحجام الأوربيين عن المشاركة في الحروب الصليبية ، وتوفي في ٨ شعبان ٦٧٦هـ (١٥ يناير ١٢٧٧م). عنه انظر:

Ott (Michel)," Humbert of Romans", in C.E., on http://www.newadvent.org

http://www.al-maktabeh.com

أما السبب الثاني فهو خوف الأوربيين من الموت بعيداً عن ديارهم وأبنائهم وأموالهم سواء أثناء رحلتهم إلي الشرق من جراء غدر البحار والعواصف الهوجاء، أومن جراء حرارة الجو في الشرق التي لم يألفها الأوربيون في أرض غريبة لا يجنون من ورائها شيئاً، أما ثالث الأسباب فهو حب الوطن والمال والولد والعشيقة، وتفضيل البقاء في وسط كل ذلك على المجازفة برقابهم في حرب صليبية نتيجتها غير مضمونة بل معلومة ومحكوم عليها مسبقا بالفشل، كما أكد ذلك كل من ذهب للشرق حاجا أو محاربا، وسرت نغمة قوية أنكرها هامبرت بشدة مؤداها تساؤل حول فائدة ترك الراحة في بلادهم إلي أرض بها كثير من المسلمين الذين ينتظرونهم لقطع رقابهم، وكانت أكثر القطاعات هربا من الحرب -كما قرر هامبرت- هم الإقطاعيون الذين هبوا في السابق للاستيلاء على الساحل، غير أنهم في ذلك الوقت صاروا أكثر الناس تقاعسا عن الخروج، وقدموا كثير من الحجج المختلقة غير الحقيقة مثل عدم امتلاك المال الكافي، أو نقص الرجال.

ولم يتوقف الأمر عند الأسباب السابقة، بل تعداها إلي ظهور فريق من المثبطين الذين دعوا إلي عدم الخروج في الحملات الصليبية، وكان هذا الفرق في نظر هامبرت من الهراطقة، وأخيرا أكد هامبرت ظهور فريق من الناس مضي خطوات أبعد حين أكد أن الحرب الصليبية ليست إرادة إلهية ولا يرضي عنها الرب، فلو رضي عنها لأيدها ولانتصر لعباده[١].

وفي هذا الإطار ظهر كثير من الأسئلة المحرجة التي لم يستطع دعاة الحرب الصليبية الإجابة عنها مثل: لماذا لم يؤيد الرب لويس التاسع في حملتيه على مصر وتونس ولم يكن ينقصه المال ولا الرجال ؟ بل لماذا لم تنتصر جيوش ألمانيا وإنجلترا وفرنسا على صلاح الدين؟ بل ظهر اتجاه جديد سري في أوربا مؤداه أن الأرض المقدسة في بلاد الإسلام ومن ثم لا يجب قتال المسلمين في بلادهم، ولكن يقاتل المسلمون إذا ما غزوا أوربا نفسها وظهرت من الأغاني ما حمل هذا المعني[٢].

---

(١) Throop, Criticism of the Crusade , p.151-153.

(٢) من أغني الفريق الذي يري قتال المسلمين في أوربا وليس في الشرق:

مكتبة المهتدين الإسلامية

كما كتبت عدة تقارير، من بينها التقرير الذي كتبه جيلبرت تورناي Gilbert de Tournay، أحد الرهبان الفرنسيسكان، والذي أكد فيه على أن النزاعات بين الملوك هي السبب الأساس في تراجع الحماسة الصليبية، وما نحاه رجال الدين من منحي أظهرهم في صورة جباة ضرائب وليسوا رعاة روحيين للشعب المسيحي في الغرب، كما امتنعوا عن دفع الضرائب التي توجه لدعم الحملات الصليبية فما بالنا بالعلمانيين، ومن ثم لم تعد كلمتهم ذات أثر[١]. وثمة تقرير آخر أعده راهب دمنيكاني قضي فترة من عمره في عكا يسمي وليم الطرابلسي William of Tripoli، أظهر فيه شكه في اجتماع أوربا على الخروج في حملة صليبية، وأكد على جوانب غيبية منها قرب دمار الإسلام والمسلمين على يد المغول، وشدد على ضرورة تكثيف البعثات التبشيرية[٢]. ومهما يكن من أمر فقد اجتهد جريجوري العاشر لتحديد أسباب تراجع فكرة الحروب الصليبية في الغرب؛ حتى يعرضها على المجمع ويبحث في الوسائل اللازمة لعلاجها.

وكان البابا جريجوري العاشر شديد الحرص على حضور أكبر عدد من ملوك أوربا، غير أن ما تمناه لم يتحقق، فلم يحضر المجمع من الملوك سوى جيمس الأول James ملك أراجون[٣]، الذي لم يطل به المقام في المجمع فغادر قاعة الاجتماع ولم يرجع إليها

- أخبر السلطان.
- اني لا أخشي من قمديده ،
- إذا جاء هنا سوف يكون غير محظوظ ،
- لكنني لن أهاجمه في بيته.

انظر: Throop, Criticism of the Crusade , p.165.

(١) Ibid, pp. 69-104.

رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٥٨٠-٥٨١

(٢) Throop, op. cit., pp.115-132.

وأيضا راجع رنسيمان، المرجع السابق، جـ٣، ص ٥٨٢.

(٣) جيمس الأول ملك أراجون: حكم مملكة أراجون منذ عام ٦٠٩هـ (١٢١٣م) حتي توفي عام ٦٧٤هـ (١٢٧٦م)، وقد استطاع أن يخرج بلاده سالمة من كثير من المشاكل التي أحاطت بها في عصره، كما زاد من رقعة

http://www.al-maktabeh.com

أبدا[1]، كما حضر سفراء عن ملوك فرنسا وإنجلترا وصقلية وقبرص ووفد من مملكة عكا، شمل ممثلين عن المحكمة العليا ومقدم الداوية وإمبراطور القسطنطينية ميخائيل باليولوجوس[2]، واتخذ المجمع كثيراً من القرارات من بينها عدة قرارت لدعم مملكة عكا وإخراج حملة صليبية إلي الشرق[3]، غير أن هذه القرارات لم يكتب لها أن تنفذ، إذ لم يمهل القدر جريجوري

=بلاده بالاستيلاء على جزر البليار عام ٦٣٠هـ (١٢٣٣م) وبلنسية ٦٣٥هـ (١٢٣٨م) من يد القوي الإسلامية، كما حصل علي مونبليه من لويس التاسع وطمع في عرش صقلية فزوج ابنه بدرو من ابنة مالفرد هوهنشتاوفن، وهو ما فتح باب الصراع على صقلية بين أراجون من جهة وبين شارل أنجو وخلفائه والبابوية من جهة أخري. لمزيد من التفاصيل عنه انظر:

The Chronicle of James I of Aragon, Translated by John Forster, on L.I.R.O., http://libro.uca.edu/chronicleofjames/chronicle.htm

(١) ذكر رنسيمان أن سبب مغادرة جيمس لجلسات المجمع هو السأم من المناقشات العقيمة، فهرع إلي أحضان محظياته بدلا من حضور جلسات المجمع، غير أنه بالرجوع إلي سيرة جيمس الأول التي دونها بقلمه، تبينا أن سبب المغادرة هو عدم قيام البابا بتلبية رغبة جيمس في تتويجه بتاج ذهبي أنفق عليه الكثير، بالإضافة إلي مطالبة البابا له بإرسال ٥٠٠فارس وألفين من المشاة لحماية قلاع وحصون مملكة عكا لحين خروج الحملة الصليبية التي سوف يدعو إليها لإنقاذ مملكة عكا من مصيرها السيء، فغضب جيمس من هذا المطلب وأكد أنه قدم للمسيحية ما هو جدير بالثناء لا المطالبة بالأموال – ربما يشير إلي حملته الصليبية الفاشلة– أو ما قام به من إسقاط للمعاقل الإسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية، والأخيرة هي الأرجح لدي الباحث خصوصا ،أن جيمس حمل لقب الفاتح. انظر.

The Chronicle of James I of Aragon, pp.640-654.

راجع أيضا، رنسيمان، الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٨٥؛ محمد النشار، علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٩٥

(٢) L'Estoire d'Eracles, p.472; The Templar of Tyre, p.69; Annales des Terre Sainte, p.456. Cf. also, Diehl, History of Byzantine Empire, p.153; Franzius, History of Byzantine Empire, p.374.

راجع أيضاً: أمل البيلي، مجمع ليون الثاني، ص ٧٩.

(٣) من أهم قرارات مجمع ليون لدعم الأرض المقدسة وإعداد حملة صليبية:

-تخصيص المبالغ التي يتم جمعها في سائر أوربا تحت مسمي عشور الكنائس لمدة ست سنوات.

- يتبرع كل مسيحي بقطعة نقود واحدة مما يتم تداوله في البلد المقيم فيه.

- وضع صندوق في كل كنيسة مخصص للتبرعات لإعداد الحملة الصليبية.

- يتعرض كل من يتاجر مع المسلمين للحرمان.

- مصادرة مواريث الخارجين عن الكنيسة لصالح الأراضي المقدسة.

حول قرارات المجمع انظر:

مكتبة المهتدين الإسلامية

طويلا بعد مجمع ليون إذ توفي عام ٦٧٥هـ (١٢٧٦م) ولم يجن من مجمعه سوى الوعود الكثيرة بحمل الصليبيين لقتال المسلمين لم ينفذ منها وعدا واحدا[١]، حتي صح لدينا بألا يسمي بمجمع ليون ولكن بمجمع الوعود.

ولم تكن وفاة جريجوري العاشر وحدها سبب عدم تنفيذ قرارات مجمع ليون الثاني، بل كانت ظروف أوربا السياسية في ذلك الوقت لا تسمح بخروج حملة صليبية جديدة في ظل الصراعات البينية والحروب الأهلية، كما لم يتبن خلفاء جريجوري العاشر نفس السياسة التي سار عليها، إذ لم يلمس خلفاؤه أحوال مملكة عكا عن قرب كما لمسها هو، وبالتالي تغلبت لديهم الأولويات الأوربية على دعم الكيان الصليبي في الشرق[٢]، وبالتالي توجهت أنظار القوي الأوربية نحو قوة المغول ليقنعوهم بالمسيحية دينا، ويقوموا هم بمهمة الاستيلاء على الأراضي المقدسة، ويقدموها هدية بلا شوكة للبابوية[٣].

وثمة تساؤل يطرح نفسه وهو ماذا لو امتدت الحياة بجريجوري العاشر هل كان باستطاعته إخراج حملة صليبية فعلا؟ أغلب الظن أنه ما كان ليحقق شيئاً من أهدافه الخاصة بالصليبيين في الساحل الشامي، نظرا لحتمية حل مشاكل أوربا قبل الشروع في الخروج في حملة صليبية، وهذا الحل كان سيستغرق وقتا طويلا نظرا لعمق الخلافات البينية الأوربية وتعقدها وتشابكها، ولو استطاع إنجاز هذا الحل كان سيواجه بتحدٍ أصعب وهو الصراعات داخل

=L'Estoire d'Eracles, p.472-743; The Decrees of Second Council of Lyons on the Crusade 1274, in: Documents on the Later Crusades, 1274-1580, ed. , pp.16-21; Second Council of Lyons 1274, introduction and translation taken from decrees of Ecumenical councils, ed. Norman P. Tanner, at:

http://www.ewtn.comm/library/councils/Lyons2.htm

راجع أيضاً: أمل البيلي، مجمع ليون الثاني، ص ٨٦-٩٢.

(١) The Templar of Tyre, p.70. Cf.also, Mckilliam, A Chronicle of popes, p. 321-322;

راجع أيضا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٥٨٤-٥٨٦؛ جرجس فام، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس، ص ٢٤١.

(٢) Setton, The papacy and the Levant, vol.I, p. 128; Adel Hilal, Sultan Al-Mansour Qalawun's policy, p. 44-45.

(٣) وانظر ما يلي حول الصراعات البينية الأوربية.

http://www.al-maktabeh.com

الدول الأوربية ذاتها، وهو ما كان يحتاج عقوداً عديدة لتصفية تلك الصراعات، وعلى فرض تمكنه من التغلب على كل تلك المشكلات ولو بصورة مرحلية، وبالفعل أخرج حملة صليبية لنفرض أنها في قوة وحجم الحملة الصليبية الثالثة، فمما لا شك فيه أنه سرعان ما كانت الخلافات الكامنة تطل برأسها لتمنع التنسيق والتعاون بين تلك الجيوش غير المتجانسة والمختلفة قلبا وقالبا، ولم تكن الظروف في مصر والشام تسمح بنجاح تلك الحملة في ظل وجود دولة المماليك الفتية، وإحكام سيطرتها على مصر والشام، وتمكنها من كسر شوكة المغول. ومهما يكن من أمر فلم تكن كل الظروف والملابسات تسمح بنجاح أي حملة صليبية تأتي إلي الشرق في ذلك الوقت.

كما لم تنفع الخطوة التي خطاها جريجوري العاشر حين توسط في صفقة تنازل ماري الأنطاكية عن حقوقها في عرش مملكة عكا في شيء، فلم يتجاوز فعل شارل أكثر من إرسال حامية تثبت تواجده في المملكة بقيادة روجر سان سفرينو.

أما المماليك فقد حافظ على صداقتهم ولم يقم أبدا بأي محاولة جادة لاسترداد ما أخذ من الصليبيين، ومرجع ذلك إلي مشاكله في أوربا وخلافاته مع آل هوهنشتاوفن، وأطماعه في استعادة التواجد اللاتيني في القسطنطينية، وأخيرا خسارته لصقلية بسبب عجرفته وقسوته في التعامل مع أهالي الجزيرة، مما زاد من حرج موقف شارل فأمر روجر سان سفرينو بترك عكا والعودة إلي أوربا، والحقيقة أن الفترة التي تواجد فيها روجر سان سفرينو في المملكة كانت تمثل فترة سلام، بفضل الاحترام المتبادل بين شارل والمنصور قلاوون، وهو أمر رحب به كلا الطرفين في ظل مشاكل قلاوون الناتجة عن المواجهات مع المغول[١]، وما يعاني منه شارل أنجو في أوربا، حتى إذا انهار سلطان شارل أنجو عقب مذبحة المساء الصقلية، وتخلص قلاوون من خطر المغول مرحليا لم يعد هناك ما يصده عن أملاك الصليبيين[٢].

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٦٦١.

(٢) راجع الفصل الأول، ص ٩١.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ومهما يكن من أمر ففي أعقاب وفاة جريجوري العاشر دخلت البابوية فترة من عدم الاستقرار، تعاقب فيها ثلاثة من الباباوات على السدة البابوية خلال فترة لم تزد على السنة والتسعة أشهر، وهم أنوسنت الخامس، و هادريان الخامس وجون الحادي والعشرون [١] وبالطبع هذا الاضطراب ذهب بكل ما خطط له جريجوري العاشر من أجل الكيان الصليبي في الشرق، ولم يتح القدر الفرصة لأي من الباباوات الثلاث أن يقدم شيئاً يستحق الذكر لمملكة عكا التي تنتظر سيف الجلاد.

أما البابا نيقولا الثالث فلم تمكنه مدة ولايته القصيرة من تقديم شيء للمملكة الصليبية في الشرق، في ظل مشاكل أوربا المتفاقمة وبصفة خاصة خلافه مع شارل أنجو حول منصب سيناتور روما، الذي انتهي بإصدار قرار بابوي يمنع أياً من الملوك أو الأمراء أو الأدواق أوالكونتات أو البارونات من تولي أي منصب إداري في روما، بجانب محاولة التوفيق بين شارل أنجو ورودلف هابسبورج ملك ألمانيا Rudolph of Hapsburg king of Germany [٢]، كما قضي جل وقته في توسيع وعمارة المقر البابوي في الفاتيكان، ومحاولة تحقيق الوحدة الكنسية مع القسطنطينية التي جري التفاوض عليها مع جريجوري العاشر في مجمع ليون الثاني٦٧٣هـ (١٢٧٤م)، ناهيك عن توزيع عدد من الأملاك البابوية بين أقاربه وبيع كثير من المناصب الدينية[٣]. ولهذا لم يجد البابا وقتا كافيا لتنفيذ قرارات مجمع ليون الثاني لدعم

---

(١) L'Estoire d'Eracles, pp.476-477. Cf.also, Kelly,The Oxford dictionary of popes, p.201.

(٢) رودلف هلبسبورج : ابن ألبرت الرابع مؤسس أسرة الهابسبورج، و إمبراطور ألمانيا الغير متوج ٦٧٢-٦٩٠هـ (١٢٧٣ -١٢٩١م)، كان في بدايته مؤيدا للهوهنشتاوفن، ولما خلا العرش - ولم تظهر شخصية ذات اعتبار لتتولي المنصب الإمبراطوري بعد شنق كونرادين هوهنشتاوفن - سعي إلى تقوية أسرته، حتى اختير لمنصب الإمبراطور بإجماع ستة من الأمراء الألمان وامتناع واحد عن التصويت، وصف بأنه كان محاربا متميزا ودبلوماسيا ماهرا، وحاول الجمع بين رضي الأمراء الألمان وبين رضي البابوية ومع ذلك لم ينجح في الحصول على التاج الإمبراطوري أبدا، لمزيد من التفاصيل عنه انظر:

Redlich, Rudolf von Habsburb ,Innsbruck, 1902; Kampers (Franz),"Rudolf of Habsburg", trans by Gerald Rossi, in C.E., At: www.newadvent.org

(٣) Mackilliam, A Chronicle of the popes, pp.326-327; Stephenson, Mediaeval history , p.513; Kelly, The Oxford Dictionary of popes, p.202 Runciman, The Sicilian Vespers, p.182.

http://www.al-maktabeh.com

مملكة عكا المتداعية، ولم تلق رسالة الملك هيو الثالث إليه التي شكا فيها من عرقلة الداوية لإدارة مملكة عكا أذنا صاغية(١)، كما لم يسع لحل المشكلة التي ظهرت من جراء وجود ملكين شرعيين للمملكة، شارل أنجو الذي اشتري حقوق ماري الأنطاكية، وهيو الثالث الذي نصبته المحكمة العليا في المملكة عقب وفاة كونرادين هوهنشتاوفن(٢).

وعقب وفاة نيقولا الثالث بذل شارل أنجو جهوده لاختيار بابا على هواه يحقق له ما يريد، ومن ثم عطل أعمال مجمع الكرادلة، وتدخل في أعمالهم حتى يحقق مآربه، وبالفعل اختير رجل فرنسي حمل اسم البابا مارتين الرابع(٣)، الذي قضي فترة ولايته ينفذ رغبات وتمنيات شارل أنجو فقد أعاده إلي منصب سيناتور روما، وضرب بقرارات البابا السابق عرض الحائط، كما فرض عقوبة الحرمان على إمبراطور القسطنطينية ميخائيل باليولوجوس تمهيدا لمساعي شارل لإعادة المملكة اللاتينية في القسطنطينية، ولم يترك مجالا للتفاوض كما حدث مع الباباوات منذ جريجوري العاشر، ورغم كل ذلك شهد عهد نيقولا الثالث بداية تلاشي أحلام شارل أنجو مع اندلاع مذبحة المساء الصقلية في ٢٣ ذي القعدة ٦٨١هـ (٥ مارس ١٢٨٢م)، التي كانت على وشك التحقق فقد ملك صقلية، وصارت له اليد الطولي في إيطاليا وتجهز لغزو القسطنطينية، وبالرغم من ذلك واصل مارتن الرابع دعمه لشارل، فأصدر قرارا بالحرمان في حق بطرس الثالث ملك أراجون Peter III of Aragon(٤)،

---

(١) The templar of Tyre, p. 74.

(٢) انظر الفصل الأول، ص ٦١.

(٣) مارتن الرابع: رجل فرنسي كان يسمي سيمون البريوني، نال العرش البابوي بناء على تدخل من شارل أنجو في ١ ذي القعدة ٦٧٩هـ ٦٨٠هـ (٢٢فبراير ١٢٨١م)، ومن ثم لم يلق قبول شعب روما فمنعوه من دخول المقر البابوي فاستقر في أورفيتو Orcieto، وقضي فترة بابويته أسيرا لرغبات شارل أنجو، حتى توفي في ٢٠ محرم ٦٨٤هـ (٢٨ مارس ١٢٨٥م)، عنه انظر:

Mckilliam, A Chronicle of the popes, pp.327-329; Kelly, The Oxford Dictionary of popes, p. 204; Runciman, The Sicilian Vespers, pp.190-321; Ott (Michael), Pope Martin IV, in C.E., on www.newadvent.org

(٤) بطرس الثالث: حكم مملكة أراجون في الفترة بين عامي ٦٧٥-٦٧٤هـ (١٢٧٦-١٢٨٥م)، تزوج من ابنة مانفرد هوهنشتاوفن الأميرة كونستانس، واعتبر نفسه الوريث الشرعي لجزيرة صقلية بعد مصرع مانفرد، ووصولا لهدفه شجع الثورة في صقلية ضد شارل أنجو، وفي أعقاب مذبحة المساء الصقلية استولي على الجزيرة مما

مكتبة المهتدين الإسلامية

لمساعدته في نجاح الثورة الصقلية، غير أن مساعي شارل باءت بالفشل، وهزم ملك أراجون قواته وأسر ولده شارل أنجو الثاني فمات شارل كمدا وغيظا في ٢٨ شوال ٦٨٣هـ (٧ يناير ١٢٨٥م) وتبعه مارتن الرابع في ٧ المحرم ٦٧٤ (١٥ مارس ١٢٨٥) من نفس العام[١]. وهكذا انقضت فترة بابوية مارتن الرابع دون تقديم شيء لمملكة عكا التي زادت عليه ضغوط المماليك بشكل أنذر بالخطر، لكن مشاكل أوربا كانت هي الأولى بالحل في نظر البابا كما رأي أسلافه من قبل، وحسبنا دليلا على سلبية مارتن الرابع حيال مملكة عكا إهمال دواي صور لذكر شيء عنه ولو حتى خبر وفاته كما فعل مع الباباوات السابقين.

وحين تولي هونوريوس الرابع العرش البابوي عام ٦٨٤هـ (١٢٨٥م)، لم يكن في حالة صحية تمكنه من القبض على الأمور كما ينبغي، إذ كان يعاني من النقرس ولا يحرك أطرافه إلا بمساعدة آخرين، كما لم يلمس أحوال الشرق عن قرب، ومن ثم لم يتمكن من تقديم العون المادى والبشري لمملكة عكا، وإن كان خطا خطوة لا باس بها تمثلت في السماح بتدريس اللغات الشرقية في جامعة باريس لتأهيل المبشرين للعمل بين الأمم المتحدثة بها[٢]، مجمل القول أن هونوريوس الرابع قد فشل مثل أسلافه في تقديم العون لمملكة عكا.

ولم تكن الظروف ملائمة في روما لاختيار البابا الجديد في ظل ارتفاع الحرارة وانتشارا أمراض الصيف بين الكرادلة، ومن ثم بقي الكاثوليك في العالم بلا بابا لمدة عام على وجه التقريب، حتى اختير البابا نيقولا الرابع في عام ربيع أول ٦٨٧هـ (إبريل ١٢٨٨م) لشغل

=جعله يدخل في مواجهة مفتوحة مع البابوية أنصار الانجويين، ولهذا فقد صدر في حقه قرارا بالحرمان، ودعي إلي حملة صليبية ضد بطرس الثالث ومن يؤيده. لمزيد من التفاصيل عنه انظر: سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطي، جـ١، ص ٥٦١.

Bisson (T.N.), The medieval Crown of Aragin, pp. 86-90

(٣) The Templar of Tyre, pp.80-81; Annales des Terre Saint,p.458. Cf. also, Mckilliam, op. cit., p. 329; Franzius, History of Byzantine Empire, p.337; Runciman, The Sicilian vespers, pp.211-255.

وانظر أيضا: أمل البيلي، مجمع ليون، ص ١٤٣.

(١) Mckilliam, A Chronicle of the popes, pp. 329-330 .

http://www.al-maktabeh.com

المنصب الخالي[١]، ولم يختلف نيقولا كثيرا عن سابقيه من الباباوات إذ كانت أوربا أهم لديه من أي شيء آخر ومن ثم شغله أمر صقلية، وإن لم يكن أحسن حظا من أسلافه إذ استمر الخلاف بين شارل انجو الثاني وبين ألفونسو الأراجوني[٢] على عرش الجزيرة، وبالرغم من دور إدوارد الأول في عقد معاهدة بين الطرفين عام ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) لتصفية النزاع إلا أن البابا أبطل الاتفاقية وتوج شارل انجو الثاني ملكا على صقلية على أن يكون فصلا للبابا وبالتالي استمر الصراع[٣]، لا لشيء إلا لأن الحبر الروماني يريد أن يكون لـه مثلـه مثل قسطنطين تاركا درب القديسين، يريد أن تكون له اليد العليا دون النظـر لـثمن هـذه السيادة حتى لو كان الطريق ملطخا بدماء أتباعه المخلصين، فرغبات البابا أشد حرمة مـن دماء المسيحيين، ومن ثم حين التقي بروبان صاوما سفير المغول في عام ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) لم يستطع تقديم شيء سوى وعود – غامضة بالتعاون مع المغول – لقتال المماليك، بالرغم مما في العرض من فائدة للصليبيين في الشرق في حالة تنفيذه[٤]. ولم يكن ذلك مبعثه من فراغ بل جاء نتيجة عدم تيقن البابا من استعداد القوي الأوربية للقيام بحملة صليبية لدعم ما تبقي من مملكة عكا وإمارة طرابلس، وحين سقطت طرابلس لم يستحب لدعوة البابا لحملة صليبية سوى رعاع شمال إيطاليا ولصوصها، فدقوا المسمار الأخير في نعش مملكة عكا[٥].

هذا عن البابوية أما عن أحوال القوة الأوربية الثانية وهي الإمبراطورية الرومانية المقدسة فقد كانت في هذا العام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) غارقة في صراعها مع الإمبراطور فريـدريك الثاني في إطار النزاع طويل الأمد الموسوم بالصراع بين البابوية والإمبراطوريـة، في إطـار

---

(١) Runciman, The Sicilian vespers, p.264; Mackilliam, op.cit., pp.330-331.

(٢) ألفونس الثالث، خلف والده بطرس الثالث في حكم أراجون عام ١٢٨٥م، حتي عام ١٢٩١م. لمزيد من التفاصيل عنه انظر:سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطي، جـ١، ص ٥٦٢.

(٣) Runciman, op.cit., p.265.

(٤) Sawma, The monks of Kublai khan emperor of China, trans by Wallis Budge, Cambridge, 1928, pp.189-196.

(٥) The Templar of Tyre, p.101. Cf. also, Runciman, The Sicilian vespers, pp. 266-269; Weber (N.A), "Pope Nicholas IV", in C.E. , on: www.newadvent.org.

مكتبة المهتدين الإسلامية

تمسك حبر روما الأعظم بالسمو البابوي على السلطة الإمبراطورية الدنيوية، بجانب تمسكه بمنع توطيد النفوذ الإمبراطوري في الممتلكات الممتدة من صقلية جنوبا حتى ألمانيا في الشمال، وهو ما يعني ابتلاع أملاك البابوية ووقوعها تحت المطرقة الإمبراطورية، ولم يكن ذلك الصراع وليد عهد فريدريك الثاني بل ضرب بجذوره في التاريخ بعيداً بعيدا(١).

وقد بلغ ذلك الصراع ذروته في عهد الإمبراطور فر يدريك الثاني؛ الذي لم تشفع له إنجازاته في حملته الصليبية محدودة العدد والعدة وكبيرة الأثر والنتيجة في عام ٦٢٧هـ (١٢٢٩م)، ولم ترض منه البابوية بأقل من الخضوع الكامل، وترك صقلية خالصة للبابوية وهو أمر لم يقبله الإمبراطور فردريك الثاني، ومن ثم لم تفلح اتفاقية سان جرمانو ٦٢٨هـ (١٢٣٠م) في تصفية الصراع بين الطرفين، مما دفع الطرفين إلي خطوات أبعد جعلت البابا عام ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) يفرض الحرمان من جديد على الإمبراطور، وفي ٦٣٨هـ (١٢٤٠م) دعا إلي حرب صليبية على الإمبراطور، وغذى البابا أنوسنت الرابع الثورة على الإمبراطور في إيطاليا وألمانيا، ومضي في سبيله وترك إيطاليا. وبعيد عن يد الإمبراطور في فرنسا عقد مجمع ليون الأول عام ٦٤٣هـ (١٢٤٥م) الذي أعلن فيه البابا خلع الإمبراطور وتعيين إمبراطور منافس هو هنري راسب Henry Rasp(٢)، مما وسع نطاق

(١) منذ فجر المسيحية الأول وعلى لسان السيد المسيح نفسه تم الفصل بين حقوق الله وحقوق الملوك حين قال السيد المسيح – عليه السلام- :" أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" وبذلك فصل بين حقوق الله وحقوق الحكام، فلا يتعدي أحدهما على الآخر، غير أن آباء الكنيسة الكاثوليكية لم يعجبهم ما رسمه السيد المسيح – عليه السلام – لأتباعه وطمعوا في السيادة الدينية والدنيوية، وهو أمر لم يسكت عنه الملوك، فقارعوهم باللسان والسنان دفاعا عن حقوقهم وردا إياهم إلي صوابهم، ومن هنا نبتت شجرة الصراع بين البابوية والهوهنشتاوفن، ذلك الصراع – الذي بدأ منذ ١٠٧٣م عام ولاية البابا جريجوري السابع في وقت كان فيه هنري الرابع إمبراطورا لألمانيا، وكان جوهر الخلاف بينهما حول مسألة تدخل العلمانيين في تنصيب رجال الدين، وهو ما اعتبر نوع من السيمونية أي بيع المناصب الدينية بالمال،

Kington, life of Frederick II, vol. II, pp.499-517.

وانظر أيضا: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ١، ص ٤٠٢-٤٠٣؛ موريس كين، حضارة أوربا، ص ١٧٥ومابعدها.

(٢) هنري راسب : كان أمير إقليم ثورنجيا الألماني منذ ٦٤١هـ (١٢٤٢م)، وبتوجيه من البابا أنوسنت الرابع أقدم عدد من الأمراء الألمان على انتخابه إمبراطورا منافسا للإمبراطور فريدريك الثاني عام ٦٤٤هـ

http://www.al-maktabeh.com

الصراع بين البابوية والإمبراطورية ومن ثم ظل فردريك يقاتل حتى توفي عام ١٢٥٠م (٦٤٨هـ) بعد أن أفني عمره في الصراع مع البابوية سعيا وراء أمل زائف أراد من خلاله استعادة السمة العالمية للإمبراطورية الرومانية التي قضي نحبها، ومن ثم شغل عن ألمانيا بمشاكله الخارجية مما أعطي الفرصة لأفصاله المتطلعين لمزيد من الحرية ليؤكدوا من قوة موقفهم في وجه الإمبراطور، الذي توفي وتركهم أقوياء في وجه خلفه الضعفاء[١].

وعقب وفاة فر يدريك الثاني ٦٤٨هـ (١٢٥٠م)، صار استئصال شأفة الهوهنشتاوفن الشغل الشاغل للبابوية، وبصفة خاصة من صقلية التي طالما بقيت محكاً للصراع بين الطرفين، ومن ثم لم تحاول البابوية التفاهم مع كونراد الرابع ابن فرديريك الثاني وخليفته، وساندت الحزب المنافس لكونراد بقيادة وليم الهولندي William of Holland –الذي اختير منافسا للإمبراطور الهوهنشتاوفني منذ عام ٦٤٥هـ (١٢٤٧م) في وقت زادت فيه قوة الهوهنشتاوفن في صقلية بزعامة مانفرد الابن غير الشرعي لفردريك، وفي عام ٦٥٢هـ (١٢٥٤م) توفي كونراد الرابع[٢]، وبالرغم من ذلك لم ينته الصراع في ظل وجود مانفرد في صقلية وكنرادين ابن كونراد في ألمانيا والذي لم تعطف عليه البابوية بالرغم من صغره لا لشيء إلا أنه من نسل الهوهنشتاوفن[٣]، غير أن المشكلة كانت تتمثل في من يتولى ملك صقلية وتحمل نفقات الدفاع عنها والتصدي للهوهنشتاوفن من خلفاء فر يدريك، وقد

=(١٢٤٦م)، وإمعانا في دعمه قدم له البابا ٢٥٠٠٠مارك فضي، وقد استطاع أن يكون شوكة قوية في حلق فردريك الثاني، بل ستطاع هزيمته في موقعة فرانكفورت، غير أن الأجل لم يطل به إذ وافته المنية عام ٦٤٥هـ (١٢٤٧م)، عنه انظر :

Frassetto (Michael),"Henry The Raspe", in Medieval Germany An Encyclopedia, ed. John Jeep, London, 2001, p.348.

(١) Wiegler, The Infidel Emperor, p.265; Kington, op. cit., p.408; Tout, The empire and the papacy, p.391.

وأيضاً: سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطي، جـ١، ص ٤٠٣-٤٠٤.

(٢) L'Estoire d'Eracles, p.443 ; Annales des Terre Sante, p.446.

(٣) Runciman, The Sicilian vespers, pp. 115-116.

وأيضا: رأفت عبد الحميد، الفكر السياسي، ص ٢٣٣.

مكتبة المهتدين الإسلامية

عرض الأمر مرتين على ريتشارد كورنوال، غير أنه تزرع بمختلف الحجج حتى يتخلص من الأمر دون إغضاب البابا[١]، ولم يكن ذلك من فراغ فقد أدرك ريتشارد بثاقب بصره أن صقلية فخ، من يدخله لا يخرج منه إلا خاسرا، ومن ثم تخلي عن أي مكاسب عاجلة أو ألقاب زائفة يمكن أن يجنيها من وراء هذه المخاطرة. غير أن هنري الثالث Henry III ملك انجلترا، كان أقل حيطة وحذراً، من ثم قبل هذا الشرف الذي عرضته البابوية عليه، ومنح الجزيرة لابنه إدموند كورشباك Edmund Crouchback، وحين أعلن عام٦٥٣هـ (١٢٥٥م) ذلك الأمر بصفة رسمية، لم يلق الأمر قبولا لدي رجال الدين الإنجليز وكذا العلمانيين، الذين رأوا أن صقلية سوف تحمل الأراضي الإنجليزية مالا تطيق، وباندلاع ثورة البارونات الإنجليز عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) انتهي المشروع للأبد[٢].

وفي ظل فشل المشروع الإنجليزي تطلعت البابوية إلي شارل أنجو ليتولى حكم صقلية وينتزعها من الهوهنشتاوفن، وأقنعت الملك لويس التاسع بضرورة ذلك الإجراء في سبيل استقرار أوربا، وتهيئة الظروف لخروج حملة صليبية جديدة لدعم الكيانات الصليبية في الشرق[٣]، وكان للبابا أوربان الرابع الدور الأكبر في ذلك الأمر، حين أقنع لويس بأن الخلاص من بقايا الهوهنشتاوفن في لإيطاليا سوف تفتح الطريق لخروج حملة صليبية وهو أمر أوقد حماسة لويس الذي تمني قبل موته أن يثأر لشرفه الذي لطخته أوحال دلتا النيل، فبذلت كل جهودها حتى قبل شارل تاج صقلية[٤]، ومن ثم قدم لويس الدعم الكامل لأخيه وإمعانا في دعم شارل منحت المساندين له امتيازات المحاربين الصليبيين المتوجهين إلي الشرق، ولم تهدأ حتى انتصر شارل على مانفرد في عام٦٦٥هـ (١٢٦٦م) في موقعة بنفنتو

---

(١) Mathew Paris ,English History, vol. III, p.89 Cf. also, Davis, England, vol.2, p.445.

(٢) Davis, England, vol.2, p. 446, Tout, The Empire and the Papacy, 480-482; Tyerman, English society , p.118.

(٣) Runciman, The Sicilian vespers, pp. 65-77.

محمود سعيد عمران، شارل كونت أنجو، ص ١٧٢.

(٤) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٥٠٠.

http://www.al-maktabeh.com

Beneventum [١]، ثم سحق المحاولة الأخيرة التي قام بها كونرادين عام ٦٦٥هـ (١٢٦٦م) لاستعادة صقلية غير انه هزم في موقعة تاجلياكوزو Tagliacozzo، وقبض عليه وسيق أسيرا في موكب نصر شارل أنجو الذي لم يتوان في إعدامه وحسم قضية الهوهنشتاوفن لأبد[٢].

وهكذا ولت عهود الأباطرة العظام الذين خرجوا في حملات صليبية، ودخلت ألمانيا فترة من الفوضى اشتهرت " بالعهد المرعب الذي لا سادة فيه"، فقد قدم فيه الأمراء الألمان الولاء لكل مستضعف يمنحهم مزيداً من الحرية، وقد أوجدت البابوية منافساً لحاكم ألمانيا منذ عهد فردريك الثاني، مما ساق ألمانيا إلي هاوية الصراعات بين المتنافسين، ومن ثم عكر وليم الهولندي William of Holand على كونراد صفو حكمه لألمانيا بعدما تزوج من ابنة أوتو دوق برنسويك Duke Otto Of Brunswick المنتمي لأسرة ألمانية عريقة سعيا لتقوية موقفه أمام كونراد بن فردريك المغضوب عليه من البابا، وعقب وفاة كونراد عام ١٢٥٤م (٦٥٢هـ) استمررت منافسة وليم الهولندي لكونرادين ابن كونراد، حتي إذا توفي وليم عام ١٢٥٦م (٦٥٤هـ) حدث نزاع جديد بين ألفونسو القشتالي وريتشارد كورنوال – الذي أخذه بريق اللقب الإمبراطوري فقرر الدخول في سباق اللقب من جديد بعدما رفضه في الماضي– على العرش الألماني منافسة لكونرادين مما مزق ألمانيا بين الاثنين.

وبالرغم من تغلب كفة ريتشارد كورنوال وتتويجه ملكا على ألمانيا إلا أن الأمر لم يصف له في ظل الرافضين لحكمه من الأمراء، وعليه فقد شغل بمشاكل إنجلترا أكثر من ألمانيا التي هشتها نار المنافسات المحلية في ظل عدم وجود سلطة عليا يجتمع الجميع تحت لوائها، وهو

---

(١) L'Estoire d'Eracles, p.452;The Templar of Tyre, p.49. Cf. also, Runciman, opc.it.,pp.94-95; Tout, The empire and the Papacy, p. 486.

ذكر ماكليم أن معركة بنفنتو قد جرت في فبراير ١٢٦٤م (٦٦٣هـ)، ومن الواضح الجلي أن ذلك التاريخ خطأ، واغلب الظن أنه خطأ مطبعي. انظر:

Mckilliam, op. cit., p. 320.

(٢) The Templar of Tyre, p.58. Cf. also,Tout, op. cit, p.487.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أمر لم يحرص عليه الأمراء الألمان حتى يبقي كل منهم ملكا غير متوج لإمارته[١]، حتى إذا جلس رودلف هابسبرج على العرش الألماني عام ١٢٧٣م (٦٧٢هـ) قدم كل فروض الطاعة للبابا في سبيل الحصول على لقب الإمبراطور بحلول عام ١٢٧٩م (٦٧٨هـ)، تلك الفروض التي أطاحت بكل ما حارب من أجله الهوهنشتاوفن فقد تخلي عن كل مطالبهم في إيطاليا وصقلية وصار التابع الذليل للبابا الذي لم يمنحه لقب إمبراطور أبدا، ومن ثم عكف على أحوال ألمانيا المتردية يرتبها ويعيد إليها النظام[٢].

وهكذا انتهي الصراع البابوي مع أسرة الهوهنشتاوفن ذلك الصراع الذي أنهك إيطاليا وألمانيا وامتدت آثاره إلي سائر أوربا، غير أن آثاره على دعم الكيان الصليبي في الشرق كانت بعيدة المدى، إذ عجز كل من كونراد الرابع وابنه كونرادين عن القيام بواجباتهما حيال مملكتهما البعيدة في عكا، وبالتالي لم تجن المملكة من وراء ملكهم لها سوى الإهمال والضياع وتركها للصراعات الداخلية تفتك بها، دونما تعيين نائب يدبر المملكة في غيابهما، ومن ثم ترك الأمر في يد بارونات المملكة ومحكمتها العليا كما أتضح لنا[٣]، ومجمل القول إن الصراع بين البابوية أباطرة أسرة الهوهنشتاوفن قد أخرج ألمانيا من اللعبة الصليبية.

أما عن الوضع في صقلية فلم تكن ولاية شارل أنجو نهاية المطاف، بل بداية لحالة من عدم الاستقرار في صقلية وجنوب إيطاليا، وذلك في ظل حكمه الظالم[٤]، ومن ثم وجد تحريض بطرس الثالث ملك أراجون أرضا خصبة مما هيأ الفرصة لثورة عامة شبت في صقلية في ٢٩ ذي الحجة ٦٨١هـ (٣٠ مارس ١٢٨٣م) قضت على كل نفوذ فرنسي بالجزيرة، والتي عرفت باسم مذبحة المساء الصقلية، وعلى الفور سارع ملك أراجون بطرس الثالث،

---

(١) Davis, England, Vol. II, p.446; Tout, The Empire and the Papacy, p. 40-491.

راجع أيضا، كين حضارة أوربا، ص ١٨٧-١٨٨.

(٢) ديورانت، قصة الحضارة، جـ١٥، ص ١٧٦.

(٣) انظر الفصل الأول، ص ٦٢.

(٤) Read, The Templar, p.238.

رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٦٦٤.

http://www.al-maktabeh.com

بإرسال جيوشه إلي صقلية، مما أدى إلي دخول شارل أنجو وولده من بعده في حرب مفتوحة ضد أراجون قوضت كل أمل في تقديم العون لمملكة عكا من جانب الغرب الأوربي(١).

ولم يكن تشجيع الملك بطرس الثالث ملك أراجون للصقليين على الثورة من فراغ، وإنما حزنا على ما ألم بأخوال أبيه من الهوهنشتاوفن على يد شارل دانجو، ناهيك عن الدعم النقدي الذي قدمه الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجوس لمملكة أراغون، في سبيل فتح جبهة جديدة على شارل الذي تأكدت أطماعه في الإمبراطورية البيزنطية ومساعيه لإحياء المملكة اللاتينية في القسطنطينية بمساندة من بلدوين الثاني Balduin II(٢).

أمام مساندة ملك أراجون للثورة الصقلية على شارل أنجو – الذي اعتبر منفذاً للسياسة البابوية في الجزيرة – أعلن البابا مارتن الرابع حربا صليبية على بطرس ملك أراجون الذي تحدى البابا ولقب نفسه بملك صقلية، بل ووصل الأمر بالبابا إلي منح المشاركين في الحملة على ملك أراجون نفس الميزات الروحية التي يتمتع بها الصليبيون الذاهبون للقتال في الشام، غير أن الرأي العام الأوربي لم يعر الدعوة اهتماما، ذلك أن هذه الدعوة أكدت لهم أن البابوية صارت تستخدم الشعار الصليبي لتحقيق أطماعها الدنيوية، وليس لمنحهم السلام السماوي كما ادعت، ولقد سحبت البابوية مبالغ ضخمة من مخصصات الحرب الصليبية التي جمعت لنجدة مملكة عكا وتم منحها لشارل أنجو وولده لاستعادة صقلية، وهو ما أثار أحد فرسان الداوية – ويدعي بارتليميو نيكاسترو Bartholomew of Neocastro – على البابا نيقولا الرابع، ووجه إليه كلاما لاذعا بسبب تفضيل محاربة الملوك المسيحيين في أوربا على قتال المسلمين في الشرق، ومن ثم لم يلق شارل

---

(١) The Templar of Tyre, p.80. Cf. also, Mckilliam, A Chronicle of the Popes, p.328; Setton, The Papacy and the Levant, p.140; Read, The Templar, p.238.

راجع أيضا، هسي، العالم البيزنطي، ترجمة وتعليق وتقديم د.رأفت عبد الحميد،دار المعارف، ١٩٨٢م، ص٢١٦.

(٢) Runciman, The Sicilian Vespers, p.215; Franzius, History of Byzantine Empire, p.373; Bisson , op. cit. , p87.

راجع أيضا، هسي، المرجع السابق،ص ٢١٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أنجو الدعم الكافي، مما منح الفرصة لانتصار بطرس ملك أراجون على شارل الذي لم ينفعه دعم ملك فرنسا له، فلم يجد البابا حلا سوى حرمان بطرس من رحمة الكنيسة دون جدوى.

وأخيرا تلقى شارل الضربة القاضية حين وقع ابنه وخليفته وسميه في الأسر عقب هزيمته في موقعة فوجيا البحرية ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) فمات شارل وتبخرت أحلامه في إمبراطورية بحرمتوسطية، ذلك الحلم الذي أيقظته منه مذبحة المساء الصقلية[1].

ومهما يكن من أمر فقد تركت مذبحة المساء الصقلية أثرا مباشرا على مملكة عكا إذ اضطرت شارل أنجو إلي استدعاء قائد حاميته في عكا روجر سان سفرينو وترك الصنجيل أودو بوليشيان في مكانه[2]، ومع انشغال شارل بمحاولة استعادة صقلية ثم وفاته عام ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) ومع انغماس ولده شارل أنجو الثاني في الحرب مع أراجون رأى نبلاء عكا أن لا جدوى من الارتباط بملك لا يعر المملكة اهتماما، ومن ثم قرروا العودة ثانية إلي التبعية لأسرة لوزجنان في قبرص، ومن ثم طردوا أدو بولشيان، واعترفوا بهنري الثاني لوزجنان ملك على عكا كما هو على قبرص[3]، وبذلك انتهى كل أثر لسيطرة الأنجويين على مملكة عكا، تلك السيطرة التي لم تنفع المملكة النفع الذي رجته القوي الصليبية في عكا حين اعترفوا بحق شارل أنجو في حكم البلاد على أمل تقديم العون اللازم للصمود أمام التحدي الإسلامي الذي أوشك على الإجهاز على ما تبقي من ممتلكات للصليبيين في الشرق.

---

(١) The Templar of Tyre, p.85. Cf. also, Mckilliam, A chronicle, p.329; Runciman, The Sicilian vespers,p.250; Read, op. cit., p.238; Hindley, A history of Armed.pilgrimage, p.209, Strayer (J.R.), "The Crusade Against Aragon", in Speculum , vol28. no.1, (Jan. 1953), pp.102-113.

(٢) The Templar of Tyre, p.81. Cf. also, Runciman, op. cit. ,p.254.

راجع أيضا: محمود سعيد عمران، شارل أنجو، ص ١٩٠.

(٣) Read, The Templar, p.238 .

أيضا، محمد سعيد عمران، المرجع السابق، ص٧٩.

http://www.al-maktabeh.com

أما عن أحوال فرنسا فقد كانت أكثر بلدان أوربا استقرارا، في عهد لـــويس التاســـع، الذي استطاع اتباع سياسة خارجية حكيمة حالت دون اشتباكه مع جيرانه في الفترة، بين عامي٦٤١-٦٦٩هـــ (١٢٤٣-١٢٧٠م)[١]، بل شغل لويس نفسه بتسوية الـــصراعات البينية الأوربية، غير أن سوء تقديره دفعه للقيام بحملـــتين صـــليبيتين ٦٤٦-٦٥٢هــــ (١٢٤٨-١٢٥٤م)، والثانية على تونس٦٦٩هـــ (١٢٧٠م)، ولم يكن يبالي بارتفاع كلفة تلك الحملات ولا ما يهدد جسده العليل من أمراض لنتيجة اختلاف طقس الـــبلاد الـــتي هاجمها عن نظيره في بلاده، بل أنه قد أعطى الفرصة لأفضاله للخروج عليه، ولم يحفظ لـــه بلاده سوى قوة شكيمة أمه بلانش القشتالية التي أحكمت وثاق البلاد في غيابه[٢]، حـــتى توفيت.

ولما توفيت الملكة الأم لم يجد بدا من العودة إلي بلاده عـــام ٦٥٢هـــــ (١٢٥٤م)، في وقت لم يكن فيه أخواه كونت أنجو و كونت بواتو مؤهلين للقيام بأعباء الحكم في غيابـــه ؛ ذلك أن كونت أنجو قد أعماه جشعه وطموحه المتهور ومن ثم سلك سياسة غـــير حكيمـــة أضرت بالبلاد، أما كونت بواتو فقد كان مريضا مرضا أقعده عـــن التـــأثير في الـــسياسة الفرنسية التي سارت في طريق تهدده المخاطر، ناهيك عما ساد فرنسا من قلق مـــن جـــراء تصاعد الصراع بين البابوية والهوهنشتاوفن[٣]، وفي ظل سياسته السلمية مع جيرانه غـــدت فرنسا أكبر وأقوي بلاد أوربا في نهاية حياته، لا لأن فرنسا كانت دولة قوية لكـــن نتيجـــة لمشاكل ألمانيا الداخلية من جهة وصراعاتها مع البابوية من جهة أخري، أمـــا انجلتـــرا فقـــد أرهقتها ثورة البارونات[٤].

---

(١) ديورانت، قصة الحضارة، جـ١٥، ص ٢٣١.

(٢) Tout, The empire and the Papacy, p.427.

فيشر(هـ أ ل)، تاريخ أوربا العصور الوسطي، ترجمة محمد مصطفي زيادة، السيد الباز العريني، إبراهيم العدوى، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٢٩٢-٢٩٣.

(٣) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص ٣٤٢-٣٤٣

(٤) Tout, op. cit. p. 421.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أما فيليب الثالث ابن وخليفة لويس التاسع ٦٦٩هـ- ٦٨٤هـ (١٢٧٠-١٢٨٥م)، فقد انكب على مصالح بلاده يرتبها مستفيدا من نتائج حملة تونس، التي هلك فيها والده مع عدد من كبار أفصاله الإقطاعيين، ومن ثم استولى على أملاكهم ليزيد من اتساع سلطة الملك الفرنسي، أكثر من هذا لم يفعل سوى القبض على الأمور، وتركها تسير كما خطط لها والده من قبل[١]، أما سياسته الخارجية التي خضع فيها لرغبات ومصالح عمه شارل كونت أنجو فقد باءت بالفشل[٢].

وأول هذه المساعي هو الدخول في سباق منصب إمبراطور ألمانيا بتشجيع من عمه شارل أنجو الذي أكد له انه يستطيع الحصول على دعم البابا، وعدد من الملوك شريطة ترك صقلية وإيطاليا في يديه، ومن ثم أرسل فيليب الثالث سفارة عام ٦٧٢هـ (١٢٧٣م) إلي البابا جريجوري العاشر حول هذا الأمر، غير أن الرد بقدر ما كان لبقا بقدر ما كان فارغا من المعنى[٣]، ومن ثم ضاعت تلك الآمال العريضة التي مني بها فيليب الثالث نفسه بالجمع بين ملك فرنسا وبين الإمبراطورية الرومانية المقدسة، أي على ألمانيا وإيطاليا، ومن ثم يصير اكبر ملك في أوربا، ويبدو أن البابا قد أوجس في نفسه خيفة من هذا الملك المنتظر ومن ثم لم يرحب بالفكرة.

كما لم يف بنذره الصليبي الذي قطعه على نفسه عام ٦٧٤هـ (١٢٧٥م) إرضاءً للبابا جريجوري العاشر[٤]، إذ كان المجال أرحب له في أوربا للانخراط في حملة صليبية فاشلة على أراجون عام ٦٨٤هـ (١٢٨٥م)، من جراء دعم الملك بطرس للثورة الصقلية، تلك الحملة التي كللت بكل فشل، وأعادت إلي أذهان الفرنسيين ما حدث في تونس منذ خمسة عشر عاما، ومن ثم مات فيليب الثالث في ٤ شعبان ٦٨٤هـ (٥ أكتوبر ١٢٨٥م) كمدا

---

(١) Setton , The Papacy and the Levant, p.128; Adil Hilal, Sultan Al-Mansour, p.44-45.

(٢) Thorndike, Medieval Europe , London, 1920 ,p.47.

(٣) Runciman, The Sicilian vespers, p.153.

(٤) Throop, Criticism of the Crusade, p.269 .

راجع أيضا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٥٨٥.

http://www.al-maktabeh.com

وغيظا لما ألم بسياساته الخارجية من فشل[1]. الشاهد من كل ذلك أن دعم الكيان الصليبي في الشرق لم يكن في بؤرة اهتمام فرنسا في عهد فيليب الثالث – كما حدث في عهد لويس التاسع– في ظل الاختلاف البين بين لويس وولده الذي قضي فترة حكمه ليذوق مر الإخفاقات المتوالية من جراء سياساته وأهدافه الطائشة.

وهكذا أصيبت فرنسا بعقدة فشل كل حملة تلقب بالصليبية في الشرق وفي الغرب على حد سواء، أما ولده فليب الجميل ٦٨٤- ٧١٤هـ (١٢٨٥-١٣١٤م) فقد قرر أن ينتهج سياسة يصل من خلالها إلي أن تكون فرنسا أكبر البلدان الأوربية، ومن ثم كان صدامه بالملك الإنجليزي لا ريب فيه[2] وهو ما كان حائلا دون دعم الكيان الصليبي بالشكل الذي يعينه على الصمود أمام التحدي المملوكي.

وبالطبع كان لهذه السياسات التي انتهجها ولد لويس التاسع وحفيده دور كبير في إهمال أمر مملكة عكا وسائر الصليبيين في الساحل الشامي، ويبدو أن خسائر لويس كانت أكبر رادع لهم عن تقديم العون الحقيقي للصليبيين في تلك المنطقة، وهو ما يوحي بنفض فرنسا يديها من القضية الصليبية بالكلية، وهو ما يفسر لنا تركيز البابوية على إدوارد ملك إنجلترا ليقوم بحملة صليبية إلي الشرق وليس ملك فرنسا كما كانت تفضل البابوية من قبل.

أما عن انجلترا فقد عانت طوال النصف الثاني من القرن الثالث عشر من ثلاث مشكلات رئيسة، تمثلت المشكلة الأولي في الحفاظ على الممتلكات الإنجليزية في الأراضي الفرنسية، ومشكلة النبلاء الإنجليز المتطلعين لمزيد من النفوذ على حساب الملك كانت الثانية، أما ثالث المشاكل فتمثلت في توحيد الجزر البريطانية في يد الملك الجالس على عرش لندن.

---

(١) Runciman, op. cit, p.158.

(٢) Lloyd, English society, p.235.

وأيضاً، زينب عبد المجيد، الإنجليز، ص ٢٣٢.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وفيما يخص المشكلة الأولي المرتبطة بالممتلكات الإنجليزية في فرنسا، فقد اشتعل الصراع الإنجليزي الفرنسي من جراء تداخل المملكتين، في أعقاب الغزو النورماني لانجلترا عام٤٥٩هـ (١٠٦٦م)[١]، وما ترتب عليه من بقاء مساحات واسعة من أراضي غرب فرنسا في يد ملوك انجلترا، الذين صاروا في انجلترا ملوكا وفي فرنسا ظلوا أفصالا[٢]، وهو أمر لم يقبله الملوك الفرنسيون باعتبار التواجد الإنجليزي في غرب فرنسا مانعا لوحدة البلاد ووصولها إلي حدودها الطبيعية، ونعني بذلك المحيط الأطلسي وبحر المانش في الغرب، وهو ما أدى إلي نشوب سلسلة من الحروب المتوالية بين البلدين، بشكل متتال حتى حسمت حرب المائة عام الأمر بالكلية[٣].

---

(١) بعد انتصار وليم الفاتح في معركة هاستنجز عام ٤٥٩هـ (١٠٦٦م)، حدثا بالغ التأثير في التاريخ الأوربي في ظل ما تمخض عنه من نتائج أهمها القضاء على الملكية الأنجلوسكسونية، و ما فرضته من عزلة لأمد طويل على الجزر البريطانية، وإقامة ملكية نورمانية فرنسية الطابع والثقافة والإدارة؛ تلك الحكومة التي اتسمت بالطابع المركزي الصارم الذي لم تألفه الملكيات الأوربية المعاصرة، وذلك بمباركة البابوية التي اعتقدت أن تأييدها للغزو النورماني لتلك الجزر سوف يساعد على انضواء الكنائس الإنجليزية تحت عباءة البابوية؛ بفضل تدين وليم وتقواه، غير أن الحال بعد نجاح الغزو لم يكن كما اشتهت البابوية. لمزيد من التفصيل انظر:

Painter, A history of the Middle ages 284-1500; New York, 1954,p.134; Stephenson, Medieval history, Washington, 1944; p. 249; Davis, England, pp.1-30; Feilng, A History of England, pp. 97-111.

وأيضا: كانتور، التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٣٧٥-٣٨ ؛ سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطي جـ١، ص٤٦٥-٤٧٠.

(٢) بيشوب، تاريخ أوربا، ص ٦٧.

(٣) حرب المائة عام: هي حرب اشتعلت بين انجلترا وفرنسا في الفترة بين عامي ٧٣٨هـ (١٣٣٧م) و٨٥٧هـ (١٤٥٣م)، كنتاج طبيعي للصراع بين الدولتين على ممتلكات إنجلترا في غرب فرنسا، وأسفرت في النهاية عن فقدان إنجلترا لتلك الممتلكات للأبد، لمزيد من التفاصيل انظر :

Painter, A history of the Middle Ages ; pp. 323-363; Fowler, The hundred years war, London, 1971; Neillands, The hundred years war, London . 1991;Curry, The hundred years war , London, 1993.

http://www.al-maktabeh.com

وترسخ هذا الأمر بزواج إليانور صاحبة أكواتين Eleanor of Aquitaine[(١)] من هنري الثاني قبل توليه العرش فلما تولي عرش إنجلترا عام ٥٤٩هـ (١١٥٤م)، صارت أملاك زوجته في فرنسا الممتدة من بحر المانش إلي جبال البرانس تابعة للتاج الإنجليزي[(٢)]، وهو ما لم يكن يسمح به ملوك فرنسا، ومن ثم اندلعت صراعات بين التاجين على حلقات تراوحت بين تأليب القوي السياسية في انجلترا على الملك وبين الحرب المباشرة، في عهدي لويس السابع وفيليب أغسطس على التوالي، وفي ضوء هذا الخلاف يمكن تفسير سبب سرعة عودة فيليب أغسطس إلي بلاده، ومن ثم لم يطل المقام بريتشارد في حملته الصليبية إلي الساحل الشامي، وعاد إلي بلاده عام ٥٩٤هـ (١١٩٤م) ليستعد لقتال ملك فرنسا، ذلك القتال الذي أفضي إلي وفاته متأثرا بجراحه في عام٥٩٦هـ (١١٩٩م)[(٣)].

وفي عهد يوحنا الأول فقدت إنجلترا جل ممتلكاتها في فرنسا، على يد فيليب أغسطس عام ٦٠١هـ (١٢٠٤م)[(٤)]، الذي نوع وسائله بين الرشوة وتأليب أفراد الأسرة الملكية

---

(١) ولدت إليانور عام ٥١٦هـ (١١٢٢م) في يوم عليه خلاف بين المؤرخين، توفي والدها وليم العاشر William X دوق أكواتين وهي في الخامسة عشر من عمرها ومن ثم صارت كونتيسة لبواتوPoitou وديتشيس Duchess في أكواتين Aquitaine بجانب جاسكوني Gascony، تزوجت من لويس السادس في ١٥ يوليو ١١٣٧م (٤٢٩هـ) ومن ثم صارت كل أملاكها في حوزة ملك فرنسا، وفي صحبة لويس السادس سافرت إلي الساحل الشامي أثناء الحملة الصليبية الثانية، لكنه طلقها ٥٤٧هـ (١١٥٢م) ذلك أنها لم تنجب وريثا ذكرا يرث العرش، ناهيك عن تنافر طباع الزوجين، فتزوجها هنري صاحب أنجو في ٢١جماد الأولى ٥٤٨هـ (١٨ مايو من عام ١١٥٣م)، الذي صار فيما بعد ملكا لإنجلترا عام٥٤٩هـ (١١٥٤م) و أنجبت له ولديه رتشارد قلب الأسد وحنا، توفيت في ٢٨ جماد الآخر ٦٠٠هـ (١ إبريل ١٢٠٤م)، لمزيد من التفاصيل انظر:

Feiling (Keith),A History of England, London, 1948; Meade (Marion), Eleanor of Aquitaine: A biography, London , 1977; Weir (Alison), Eleanor of Aquitaine, 1st. edition, London, 2000.

فيشر(هـ أ ل)، تاريخ أوربا العصور الوسطي،جـ٢، ص ٢٨٦؛ سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطي، جـ١، ص ٢٦٠.

(٢) فيشر، المرجع السابق، ص ٢٨٦؛ كانتور، التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٥٢٩.

(٣) Feiling, History of England, p. 136.

(٤) Davis, England, vol.2 , pp. 330-346.

كانتور، التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٥٣٢-٥٤٩،٥٣٣ ؛ بيشوب، تاريخ أوربا، ص ٦٩.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الإنجليزية على بعضهم، لاقتضام ممتلكات التاج الإنجليزي في فرنسا بشكل تدريجي حسب مقتضي الحال وظروف العلاقات بين البلدين، كما تمكن فيليب من ضرب التحالف الذي شارك فيه حنا الأول لينتقم لشرف إنجلترا الذي مرغه فيليب أغسطس في التراب، لكنه لم يكن أسعد حظا هذه المرة أيضا وتلقى هزيمة ثقيلة في موقعة بوفان Bouvines ٦١١هـ(١٢١٤م)[١]، وما أن اشتد ساعد هنري الثالث حتى سعى لاسترداد ما فقدته انجلترا من ممتلكات في فرنسا في عهد أبيه، لكن خاب مسعاه[٢].

وظلت مشكلة ممتلكات إنجلترا في فرنسا قائمة في عهد إدوارد الأول، ومن ثم مثلت جزءاً ثقيلاً من إرث المشاكل الضخمة التي تركها له والده، وقد وضع حلا مؤقتا لها حين قدم فروض الولاء للملك الفرنسي عنها في طريق عودته من الأراضي المقدسة عام٦٧٣هـ (١٢٧٤م)، غير أن الوضع تفاقم بسرعة في تلك الأملاك، ومن ثم انشغل بمشاكل إقليم جاسكوني – وهو ما تبقي للتاج الانجليزي من أملاك في فرنسا– وعاد إلي بلاده ولم يحضر مجمع ليون الثاني بحجة تسوية مشاكل هذا الإقليم، ناهيك عن الخلاف الذي شب بينه وبين أخيه إدموند حول توزيع العشور الصليبية التي سمح لهم بها البابا جريجوري العاشر[٣]، هذا ولم تحل مشكلة ممتلكات التاج الإنجليزي في فرنسا إلا بحرب المائة عام المشهورة[٤].

أما المشكلة الثانية التي أعاقت الدعم الإنجليزي لمملكة عكا فقد تمثلت في البارونات الإنجليز دائمي الثورة، ومن الواضح أن قوة الملك الجالس على العرش كانت هي الفيصل في أمر إحكام السيطرة على البارونات، ففي القرن الثاني عشر وبالتحديد في عهد هنري الثاني ٥٤٩–٥٨٥هـ (١١٥٤–١١٨٩م) كان الأمر مستقراً والبارونات في طاعة الملك يتمنون رضاه في ظل موارده الضخمة وإمكانياته الهائلة، غير أن أبناءه لم يكونوا في قوته ولا

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٤٧٢–٤٧٩؛ كانتور، التريخ الوسيط، جـ٢، ص ٥٨٧.

Feiling, A history of England, p. 158; Davis, England, Vol.2, p.272.

(٢) Davis, op. cit, vol. II, p.431-2.

(٣) Throop, Criticism of the Crusades, p. 220-221; Tout, The History of England, p.140; Setton, The Papcy and the Crusades, p.112.

(٤) انظر ما تقدم ص ٢٥٣.

http://www.al-maktabeh.com

حكمته، فوريثه ريتشارد قلب الأسد أضاع فترة حكمه في حملة صليبية فاشلة، وحروب واسعة في فرنسا لم تجن منها المملكة غير الخسائر، وعليه فقد بقي معظم فترة حكمه بعيدا عن بلاده ؛ مما مكن المعارضة البارونية من النمو والاستفحال، كما أسهمت سياسة أخيه يوحنا في تفاقم ثورة البارونات وتحول كثير من الأسر الحاكمة إلي ثوار خارجين على الملك رافعين راية العصيان[١]، وأجبروه على تقديم كثير من التنازلات في الوثيقة المشهورة بالعهد الأعظم Magna Carta عام ٦١٢هـ (١٢١٥م)[٢].

وفي ظل ضعف موقف خليفته الملك هنري الثالث لم يجد وسيلة لإجبار البارونات للاجتماع تحت رايته سوى القسم الصليبي الذي بذله مرات ثلاث لتحقيق نفس الغرض أولها في جماد الآخر ٦١٣هـ (أكتوبر ١٢١٦م) وهو قسم لم يف به لحداثة سنة[٣]، غير أنه حقق به فائدة مزدوجة تمثلت في إحراج البارونات فكفوا أيديهم عن عرشه المترنح، بجانب توقف التهديد الفرنسي بطرد الإنجليز من آخر ممتلكاهم في الساحل الأوربي– إلي حين –[٤]،وفي عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) أعلن للمرة الثانية اتخاذه للصليب، واعتزامه الرحيل إلي الأراضي المقدسة، في وقت كان فيه لويس التاسع أسيرا في المنصورة، وهو ما كان يحتم مساندة البابا أنوسنت الرابع تأييد هذه الحملة المزعومة، غير أن البابا رفض ذلك الوعد وطلب من الملك الإنجليزي البقاء في بلاده ليكون درعا للبابوية تحتمي به إذا ما ساء موقفها أمام خصمها اللدود الإمبراطور فريدريك الثاني[٥].

---

(١) The Chronical of Bury st. Edmunds, p.2.

راجع أيضا: كانتور، التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٥٢٩، ٥٣٢.

(٢) Davis, England, vol. II, pp.374-380.

راجع أيضا: بيشوب، تاريخ أوربا، ص ٧٠

(٣) Lloyd, English society and the crusades, p.208; see also, "Political crusades in England 1215-1121, 1263-5", in CS, p.113-116.

(٤) زينب عبد المجيد، الإنجليز، ص ١٧٢.

(٥) Lloyd, English society and the crusades , p. 211.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ولم يكن اتخاذه للصليب أكثر من مناورة يريد من ورائها الحصول على الدعم البابوي للتصدي لنبلائه الثائرين، الذين استطاعوا أن يجبروه على طرد الأجانب،الذين كثروا في البلاد في ظل رعايته لهم، بجانب كثرة الأموال التي جبتها البابوية من بلاده مما جعل البرلمان يتولى توجيه السياسة الإنجليزية باسم الملك، واستطاعوا عقد سلام مع فرنسا عام ٦٥٨هـ (١٢٥٩م)[١]، ناهيك عن الحصول على كثير من الأموال التي جباها تحت مسمى الإعداد للحملة الصليبية، مما زاد من غضب رجال الدين والعلمانيين على حد سواء، خصوصا أن جل هذه الأموال لم توجه للغرض الذي جمعت من أجله بل وجهت لحل عدد من المشاكل الداخلية[٢].

مما أدى إلي ثورة النبلاء الذين استطاعوا هزيمة الملك وأسر ولي عهده الأمير إدوارد عام ٦٦٣هـ (١٢٦٤م)[٣]، مما أدى بالملك إلي مزيد من التنازلات لصالح البارونات أدت بسلطة الملك إلي التناقص، وبقيت إنجلترا في حالة من عدم الاستقرار، الداخلي، ناهيك عن مشاكله مع فرنسا حول الممتلكات الإنجليزية فيها سواء ما انتزع بالقوة أو ما بقي في حوزته، ومن ثم أقسم أن يحمل الصليب مرة ثالثة عام ٦٦٩هـ (١٢٧٠م)، وهو قسم كان الوفاء به ضربا من المستحيل في ظل شيخوخته، ومن ثم حمل الصليب نيابة عنه ولده إدوارد بالرغم من معارضة البابوية لذلك الأمر في ظل ضعف والده واقترابه من النهاية الحتمية، غير أن إدوارد كان بعيد النظر إذ حاول تفريغ طاقة كبار البارونات الثائرين في حرب خارج البلاد، وفي خضم هذه المشاكل رأت البابوية أن هنري الثالث قد استُنفِذت قوته، وأن دعمه للحرب الصليبية يأتي من ضمانه لاستقرار مملكته وتسوية مشاكلها المتشعبة، وعلى هذا لم تستفد الإمارات الصليبية من الدعم الإنجليزي إلا القليل الذي بلغ ذروته في حملة الأمير إدوارد الصليبية المحدودة[٤]، وحين عاد إدوارد إلي بلاده قرر توجيه قوة البارونات الإنجليز نحو توحيد الجزر البريطانية وهي المشكلة الثالثة التي نتحدث عنها.

---

(١) عاشور، أوربا العصور الوسطي، جـ١، ص ٤٨٧.

(٢) Lloud, op. cit., p.213-214.

(٣) Tout, The history of England, p.117-119.

راجع أيضا: زينب عبد المجيد، الانجليز، ص ١٨٩.

(٤) Mattew Paris, English history, vol.III. Cf. also, p.273; Tout, The history of England, p.134-135; Tyerman, England and the Crusades, p.124-127.

http://www.al-maktabeh.com

تعمقت الخبرة السياسية واللإدراية، التي اكتسبها إدوارد الأول في حياة أبيه، ومـــن ثم جعل مصالح بلاده فوق كل شيء لكنه كان أذكى من الدخول في مواجهة مع البابوية حتى لا يقع تحت عقوبة الحرمان، وفي هذا الإطار لم يتوان عن إخضاع أمير ويلز الــذي رفــض تقديم فروض الطاعة له عقب تتويجه بالرغم من تبعيته له بحكم اعتراف ذلك الأمير بتبعيتــه للتاج البريطاني، ومن ثم شن إدوارد عليه حربا في الفترة بين عامي ٦٧٢هـــ (١٢٧٦م) و ٦٨٣هـــ (١٢٨٤م)، ونظرا لارتفاع كلفة هذه الحرب لم يتردد إدوارد في الاستيلاء على العشور الصليبية، لتحقيق غرضه بالرغم من رفض البابوية الجازم لهذا التصرف، فوعد بردها وتخفيفا من حدة النزاع مع البابا أرسل إليه يقترح إرسال أخيه أدموند في حملة صليبية[١].

يتضح مما سبق حجم المشاكل التي أعاقت إنجلترا طوال النصف الثاني من القرن الثالــث عشر عن تقديم الدعم الفعلي للحملات الصليبية، التي كثرت الدعوة إليها، والتي لم تجد إلا الوعود الجوفاء من الملوك، الذين جعلوا أولويات بلادهم السياسية مقدمة على دعم بقايــا الوجود الصليبي في الشرق، وكان إدوارد الأول أعلم الناس بأحوال الصليبيين في ظل كثرة الرسائل[٢]، التي كانت توافيه من هناك عن طريق جواسيسه الذين زادوا من تصميمه علــى تقديم مصالح بلاده على الصالح الصليبي، فلماذا يتحمل هو مسؤولية إنقاذ الــصليبيين دون باقي دول أوربا التي أهمتها أنفسها؟ وهذا ما يفسر لنا كثرة وعود إدوارد وقلة دعمه المحدود لمملكة عكا، والذي كان ذرا للرماد في عيون البابوية حتى تخفف من حدة مطالبها بخروجــه في حملة صليبية.

---

(١) The Chronicle of Bury St. Edmunds, pp. 62-80. Cf. also, Tout, The history of England, pp. 155-168; Feiling, A history of England, pp. 188-193; Lloyd, English.society, p.234.

(٢) Crusader's letter from the holy land, pp.1-18.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ثانيا: ضعف أيدلوجية(١) الحروب الصليبية .

خرجت الحملات الصليبية من أوربا نحو الشرق الإسلامي في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، نتيجة لأوضاع أوربا الداخلية، وانعكاسا للمد الأيديولوجي الذي غذى الفكرة ودفع بالغرب الأوربي ليلقى بالآلاف من أبنائه في نيران حرب دارت رحاها على أرض الساحل الشامي قرابة القرنين من الزمان، وقد قامت تلك الأيديولوجية على عدة دعائم تمثلت في: أولاً، الأفكار الألفية التي دارت حول قرب نهاية العالم مع حلول نهاية الألف الأول من ميلاد المسيح، ومن ثم شارك كثير من العامة والمتمسكين بالدين في الحملة الصليبية الأولي على أمل أن تقوم القيامة وهم في الأرض المقدسة فيكونون أقرب إلي الرب، ويتمتعون بميزة خلاص الجسد والروح. ثانيا، نمو فكرة الحج المسيحي تكفيرا عن الذنوب الكبيرة، تلك الفكرة التي نمت وتطورت وجعلت المشاركة في الحملات الصليبية، أو رحلات الحج المسلح هو المكفر عن الذنوب، أما الرافد الثالث للأيديولوجية الصليبية فقد تمثل في فكرة الحرب العادلة على المسلمين، التي روجت لها البابوية بدعوى عدالة السبب وشرعية السلطة التي دعت إليها وسلامة القصد منها، فمن وجهة نظرهم كانت عادلة لأنها هبت من أجل تيسير طريق الحج إلي فلسطين، ومساعدة المسيحيين الشرقيين ضد المسلمين المعتدين كما روج بينهم على يد دعاة الحرب الصليبية، ودعت إليها سلطة شرعية وهي البابوية، تلك السلطة التي عدت في العصور الوسطي الأوربية أعلى سلطة دينية بلا منازع، وقصدها مبررا لأنها هبت لانقاذ قبر المسيح من أيدي من يدنسونه كما روج فيما بينهم[2].

---

(١) أيديولوجيا: هي كلمة معربة ذات أصل فرنسي مركبة من جزأين idée وتعني فكرة و logie وتعني فكرة، ومن ثم حين يجتمعان يكوّنان ما يعرف بعلم الأفكار، أما من الناحية الاصطلاحية فقد تعددت معانيها ودلالتها حسب المجال إلي تستخدم فيه، غير أننا نتفق مع الدكتور قاسم عبده قاسم على أنها تعبير عن مجمل الأفكار التي تحرك مجتمع ما، لمزيد من التفاصيل حول الأصل اللغوي والتعبير الاصطلاحي انظر : قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيدولوجية للحروب الصليبية، دراسة عن الحملة الصليبية الأولي ١٠٩٥-١٠٩٩م، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٧،٨.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول روافد الأيدلوجية الصليبية انظر: قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيدولوجية، ص١١-٦٣، وايضا، ماهية الحروب الصليبية، ص ١١-٥٥.

http://www.al-maktabeh.com

وهكذا اندفعت الحركة الصليبية باعتبارها حربا عادلة على المسلمين – من وجهة نظر البابوية و من وافقها– وظلت تتمتع بالاحترام في أوربا طالما ظلت توجه لضرب المسلمين – بالرغم من الإفلاس الأيديولوجي الذي اعتري الصليبين منذ مسيرهم الأول نحو الشرق [١]، ودعم الكيانات الصليبية في الساحل الشامي، غير أن تحول الدعوة إلي الحروب الصليبية من قتال المسلمين إلي قتال الخارجين على البابا أفقد الحروب الصليبية مصداقيتها – في نظر الأوربيين– مما أدى إلي إحجام العامة والخاصة عن المشاركة في الحملات الصليبية التي كثرت الدعوات إليها، ولم تقابل إلا بالوعود الكثيرة من قبل الملوك واستجابات فعلية محدودة لم تكن تتناسب مع التحدي الإسلامي الذي واجهته مملكة عكا[٢].

ولعلنا نتلمس التراجع الأيديولوجي للحركة الصليبية في الآداب الأوربية المعاصرة للحروب الصليبية، ففي مطلع الحركة الصليبية وفي القرن الثاني عشر ردد الفنانون أغنيات تتغنى بالغفران الشامل الذي يحصل عليه من يحمل الصليب[٣]. ومن خلال المدونات الأدبية

---

(١) حول الإفلاس الأيدولوجي المبكر للحروب الصليبية انظر: قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيدولوجية، ص ١٧٩-٢٣٤.

(٢) زينب عبد المجيد، الإنجليز و الحروب الصليبية، ص ٢٠٣.

Adil Hilal, Sultan Al-Mansour Qalawun's policy with the Latin States of Syria 1279-90, and the fall of Acre, M.A. unpublished, The American university of Cairo, 1983, p.42.

(٣) من أغنيات الحث على المبادرة لحمل الصليب لقاء الغفران.

- التاجر الحاذق سيكون هناك.
- ذلك الذي يريد شراء الحياة.
- ولأخير سيكون الأول.
- والأول أخيرا.
- لكن طريقة الدفع ستكون واحدة.
- لأن كل العاملين (الصليبيين).
- سينالون ثمن الحياة.

وفي أغاني الشاعر الألماني الجوال فريدريك فون هاوزن المعاصر للحملة الصليبية، الثالثة خير تعبير عن الحماسة الصليبية إذ يقول :

مكتبة المهتدين الإسلامية

يمكن رصد منحنى التراجع الأيديولوجي منذ فشل الحملة الصليبية الثالثة، إذ عبرت بعض الأشعار عن رفض قتال المسلمين والتمسك بالوطن الأم[١]، كما حملت كثير من القصائد البابوية مسؤولية فشل الحملة الصليبية الخامسة على دمياط[٢].

ومع توالي إخفاقات الحروب الصليبية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر زادت النغمة النقدية للحروب الصليبية حدة، فنجد الشاعر الجوال روتبيف Rtebeuf يرفض الخروج في حملة صليبية أو دفع مبالغ مالية للرهبان المتسولين الداعين لدعم الحركة الصليبية،

= - مستعد للموت أنا في القتال.

- في القتال من أجل المسيح.

- جميع من ضميرهم غير نقي.

- من يتخفون في وطنه.

- أبواب الجنة مغلقة أمامهم.

- أما نحن، فإن الرب سيستقبلنا في الجنة

وقد قتل ذلك الشاعر بالفعل في الحملة الصليبية الثالثة.

انظر : زابوروف، الصليبيين في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، موسكو، ص ٣٠٧ ؛ قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ٣٦-٣٧.

(١) من بين القصائد قصيدة تقول :

- "من صلاح الدين شبعنا

- أرض الوطن عزيزة على النفس".

زابوروف، الصليبيين في الشرق، ص ٣٠٧.

(٢) يقول أحد الشعراء يسمي وليم فيجيرا حول هذا المعني:

- روما أنت المذنبة.

- في خسارة دمياط.

- نصائحك تهددنا.

- دائما بالمصيبة.

زابوروف، المرجع السابق، ص ٣٠٨

http://www.al-maktabeh.com

بعد ما تأكد أن جماعة منهم تحتفظ بالمال الذي جمعوه باسم الصليب في جيوبهم الخاصة بدلا من دعم الخارجين للقتال(١)، كما عبر في إحدى قصائده عن معني مؤداه أنه من الحماقة أن يعرض الإنسان نفسه للخطر في حرب دينية خارج بلاده طالما كان بإمكانه أن يعيش في وطنه بسلام(٢)، كما عبرت كثير من أغنيات الشعراء الجوالين عن رفض الخروج في الحملات الصليبية(٣) بل ذهب بعضهم مذهباً بعيداً حين أعلنوا في أغانيهم أن الله لم يعد له أهمية في الحروب الصليبية على حد تعبير رنسيمان(٤) وساد التشاؤم التام حول مصير مملكة عكا حتى سقطت عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م) فقال أحد الشعراء:

- آنت ساعتنا
- عسكر بعد عسكر
- لنغادر الأرض المقدسة(٥)

وأخيرا أبلغ دليل على هذا التراجع الأيديولوجي هو رفض رجال الدين في مختلف الدول الأوربية دفع العشور الكنسية، التي طالبت بها البابوية، التي جمعت بناء على الدعاية التي بثتها في كل مكان(٦)، ومن أمثلة هذا الرفض ما حدث من رجال الدين الإنجليز من رفض تمويل الحملة الصليبية التي دعا إليها البابا جريجوري العاشر، في أعقاب مجمع ليون الثاني(٧).

---

(١) Maier (Christoph), Preaching the Crusades Mendicant friar and the cross in the thirteen century, Cambridge, 1997, p.158.

(٢) جوزيف نسيم، لويس التاسع في الشرق الأوسط، ص ١٠٠

(٣) حول هذا المعني يقول شاعر يسمي سورديلو Sordello :

" قل للكونت (شارل أوف أنجو) يتركني، فليس لدي ميل للذهاب فيما وراء البحار، فالموت يرعب، الرجال جميعا يفرون من البحر، ولذلك لا اسعي إلي العبور وأنا على قيد الحياة" انظر:

Throop, Criticism of the Crusade, p. 153.

(٤) الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٥٨٣.

(٥) زابوروف، المرجع السابق، ص ٣٠٨.

(٦) Chateauroux, Sermon I, in: Maier, Crusade Propaganda and Ideologyp.126

(٧) Throop, op. cit., p. 239

وأيضاً: زينب عبد المجيد، الانجليز، ص ٢٢١.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ولقد انهارت الأسس الأيديولوجية للحروب الصليبية الواحد تلو الآخر، بصورة يمكن أن يلمسها المرء بوضوح منذ مطلع القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وكان أول أسباب انهيار هذه الأسس هو اتجاه البابوية إلي شن حملات صليبية داخل أوربا، وقد بدأت تلك الظاهرة بوضوح منذ الحملة الصليبية الرابعة ٦٠١هـ (١٢٠٤م) التي توجهت نحو القسطنطينية[١]، فها هي الحملة الصليبية التي هبت لاستخلاص القدس من يد المسلمين تتوجه سهامها نحو المسيحيين الذين ادعت البابوية عند الدعوة إلي الحملات الأولي أنها قد خرجت إنقاذهم، وهو ما أثار موجة من الاستياء المباشر داخل أوربا من ابرز أعلامها الراهب الكولوني[٢] جيوت دي بروفي Guyot de Provins الذي كتب بالفرنسية القديمة كتاباً يسمي Bible يهجو فيه البابوية ويتهمها بالجشع، و يسألها مستنكراً لماذا وجهت سيوف الصليبيين نحو البيزنطيين؟[٣]، ,كما كان عامة الأوربيين هم أكثر قطاعات المجتمع الأوربي تأثرا بالدعاية الصليبية، التي بثتها البابوية بحكم رغبتهم في خلاص أجسادهم التي أنهكها السادة، وخلاص أرواحهم المتطلعة إلي الرب العلى، ما أن رأوا سيوف المسيحيين تتوجه نحو صدور إخوانهم حتى أحجموا ليتبينوا من يوجه إليه سيف الصليب، أهو المسلمون

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن الحملة الصليبية الرابعة وبصفة خاصة موقف البابا أنوسنت الثالث منها انظر الدراسة التفصيلية التي قام بها ألفريد جون أندرو بعنوان أنوسنت الثالث صليبي وقانوني، علاقته باليونانيين في القسطنطينية،

Andrew(Alfred John), pope Innocent III as Crusader and Canonist : his relation with the Greeks of Constantinople , 1198-1216, Ph. D. thesis , Cornell University, 1969.

(٢) الرهبان الكولونيون: ينتسبون إلى حركة الإصلاح الديري المعروفة بالكولونية، التي ظهرت في دير كلوني في برجنديا في غالة، لتمثل الطور الثاني من أطوار الديرية الأوربية في العصور الوسطي، والتي تطورت إلى حد كبير في إنجلترا على يد لانفرناك Lanfrank رئيس دير كانتربوري في القرن الحادى عشر، وكانت تهدف إلى تشديد الرقابة على المقيمين في الدير ووضع حدا للتهاون في الأديرة وتوحيد النظام في جميع الأديرة التابعة للنظام الجديد مع تحديد وتوزيع أعباء الحياة الديرية على المقيمين في الدير، كل حسب دوره المنوط به، لمزيد من التفاصيل انظر:

Smith, The Early History of the Monastry of Cluny , Oxford, 1920.

كانتور، التاريخ الوسيط، جـ١، ص ٣٠٣-٣٠٦؛ كين، حضارة أوربا العصور الوسطي، ص ٦٧-٦٨؛ سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطي، جـ٢، ص ٣٠-٣١.

(٣) Brehier, L'eglise et l'Orient au Moyen Age, p. 144; Throop, Criticism of the Crusade, p. 30.

http://www.al-maktabeh.com

كما كان في الماضي أم جماعات من إخوانهم تصفية لحسابات أوربية مبعثها المطامع الدنيوية(١).

ففي ظل النجاح الذي حققته الحركة الصليبية في مهدها وما تبعها من استجابة عدد من ملوك أوربا للخروج لدعم الكيانات الصليبية في الساحل الشامي، رأت البابوية أن لا ضير من استخدام نفس السلاح داخل أوربا ذاتها(٢)، ولم لا؟ فإذا كان الناس يحملون الصليب لمساعدة الصليبيين في الأراضي المقدسة، فلما لا يحملوه لمساندة البابوية الداعية الأصلية للحرب الصليبية وتحقيق مآربها، ومن ثم توسعت البابوية منذ عام ٦٠٤هـ (١٢٠٧م)، في منح الغفران الصليبي لمنفذي رغبات البابوية، ذلك الغفران الذي كان مقصورا حتى هذا العام على الصليبيين المتوجهين إلي فلسطين دون غيرهم، غير أنه في هذا العام قرر البابا أنوسنت الثالث منح هذا الغفران للصليبيين المشاركين في الحملة الألبيجنسية(٣) على

---

(١) زابوروف، الصليبيين في الشرق، ص ٢٨٣.

وحول هذا المعنى يقول أحد الشعراء:

روما، لقد فعلت القليل من أجل حرب المسلمين،

لكنك ذبحت اليونانيين واللاتين.

لتتبوئي مقعدك في النار والخراب يا روما.

Throop, op. cit., p.31.

(٢) Maier, Preaching the Crusades, p.3.

(٣) دعت البابوية منذ عام ٦٠٠هـ (١٢٠٤م) إلي حرب صليبية على الهراطقة المناوئين للكنيسة الكاثوليكية، في جنوب فرنسا، تلك الحرب التي عرفت بالحرب الصليبية الألبيجنسية، وكان هؤلاء الهراطقة فريقين، فريق يعرف بالوالدنيسسن Waldensian نسبة إلي بيتر فالديز Peter Valdez وقد هب هذا الفريق لإعادة المسيحية إلي عهدها الأول من السماحة والدعوة للبساطة والتقشف، ومن ثم انتقدت بشدة رجال الدين الذين أتخموا بما جمعوه من أموال رعاياهم، وصاروا يفوقون أمراء الإقطاع عددا وعدة وثروة ونفوذا، وفي البداية عطفت عليهم البابوية، لكن يبدو أن رجال الكنيسة في جنوب فرنسا قد ألبوا البابوية عليهم حتى صدر عليهم قرار بالحرمان عام٥٧٧هـ (١١٨١م)، مما زاد من غضب هذه الفرقة، واختلف أعضاؤها حول موقفهم من البابوية فانقسموا فرقاً عدة تطرف معظمها في عداء الكنيسة الرومانية ومن ثم لم يعد هناك مجال سوى السيف للفصل في الأمر بين الفريقين، أما الفريق الثاني وهم الكاتاريين Cathari فقد نحو منحى أكثر تطرفا ودعي لمذهب جديد متأثر بالمانوية الفارسية الداعية لثنائية القوي المسيطرة على الكون، ومع يأس البابا انوسنت الثالث من إصلاح حال الخارجين على البابوية قرر شن حرب صليبية عليهم، ومن ثم دعت لحرب صليبية منذ ١٢٠٤م عليهم لم تخرج سوى عام ١٢٠٩م (٦٠٥هـ). لمزيد من التفاصيل عن الحروب الألبيجنيسية انظر:

مكتبة المهتدين الإسلامية

الهراطقة ومساواقم بالمدافعين عن الأرض المقدسة، ومن ثم أسيلت دماء الآلاف من أبناء الغرب الأوربي لا لشيء إلا لأهم سلكوا مسلكا لا يرضي عنه الحبر الأعظم، لهذا وعن غير قصد من البابوية صارت القسطنطينية في حوزة السيادة الروحية الكاثوليكية، بسيف صليبي الحملة، فلما لا يستخدم نفس السيف لقطف رؤوس من تطاولت أعناقهم ليجاهوا الكنيسة الكاثوليكية، وما المانع من أن تتعدد أغراض مقاتلي الصليب ما بين قتال المسلمين المخالفين في العقيدة، و إخماد أصوات الخارجين على الحبر الروماني الذين لا يقلون خطورة عن المسلمين من وجهة نظر البابا؟ وحتى تؤكد البابوية أن سياستها لم تكن نشازا ولا عزفا منفردا على – وتر السياسة الأوربية – ضغطت على حضور مجمع الاتيران الرابع ٦٧٢هـ (١٢١٥م)، ليقروا ذلك التوجه البابوي[١].

من هنا بدأت الظنون تتلاعب بالعقلية الأوربية التي اصطدمت بالقرار البابوي وتثنية مجمع الاتيران عليه، إذ كيف يتساوى من بقي في بلاده – ولم يتحمل عناء الرحلة المحفوفة بالمخاطر إلي الأراضي المقدسة – بمن خاطر وذهب فيما وراء البحار لمصير مجهول أغلب الظن أنه لن يخرج منه معافى؟ وهل يتساوى المسيحيون المخالفون للبابا في المذهب مع المسلمين المخالفين له في العقيدة حتى تشن عليهم حرب صليبية؟ وكان حرياً بالبابا أن يجد مسمي جديدا لما يقوم به من حملات عسكرية على مخالفيه في المذهب من بني جلدته، لكن يبدو أنه لم يكن مقدراً لخطورة استخدام مصطلح حرب صليبية في أوربا ذاتها، ومن ثم وقع في الشرك الذي نصبه لنفسه، وللحركة الصليبية ككل دون أن يدري.

=Kington, Life of FrederickII, vol. I, pp. 74-76; Sismondi (J.C.L.), History of the Crusades against the Albigenses in the Thirteen Century, Boston, 1833; Tout, The Empire and the Papacy 918-1273, London, 1917, p.215-217,332-333; Strayer (Joseph), The Albigensian Crusade, Michigan, 1992.

وانظر أيضا: سعيد عاشور،أوربا العصور الوسطي، جـ١،،ص ٢٦٧-٢٧١.

(١) Riely-smith , The Crusades A short history, London, 1980, p.133-139; what were the Crusades?, 3rd ed. New York, 2002, p.19; Adel Hilal , Sultan Al-Mansour Qalawun's policy, p. 42; Barber (Malcolm), The Albigensian Crusades: Wars Like Any Other, from: Dei gesta per Francos, (2001), on :
http://www.deremilitari.org/RESOURCES/ARTICLES/barber2.htm

وراجع أيضا، كانتور، التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٥٦٠-٥٦١؛ قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ٣٨.

http://www.al-maktabeh.com

ويبدو أن النجاح الذي حققته الحملات الألبجنسية، قد أغري خلفاء أنوسنت الثالث بالسير في نفس الطريق، إذ صار السيف الصليبي سيفا بابويا تضعه على رقاب من يخالفها حتى لو كان كاثوليكيا من أتباعها، وفي نفس الإطار دعت البابوية عام٦٢٧هـ (١٢٣٠م)، إلي حرب صليبية على مجموعة من الفلاحين في شمال ألمانيا الذين وسموا بالهرطقة، بالرغم من أن الخلاف كان ذا طابع اقتصادي مرتبط بالضرائب ولا شأن له بالعقيدة، كما رفع نفس السيف على الإمبراطور فردريك الثاني الذي حقق بالدبلوماسية ما لم تحققه الجيوش الجرارة حين استرد القدس من يد المسلمين، ومع ذلك ونتيجة لتمسك البابوية بالسيادة الدنيوية وليس الاكتفاء بالسيادة الروحية رفعت عليهم السيف الصليبي، وأكد البابا جريجوري التاسع في رسالته إلي المجر عام ٦٣٨هـ (١٢٤١م) مساواة كل من يقاتل الإمبراطور بمن يخرج للشرق(١).

وسار على دربه البابا أنوسنت الرابع الذي شن حرباً صليبية على كونراد الرابع بن فردريك الثاني، ووعد كل من يشارك فيها بمنحه صكاً بغفران ذنوبه، تماثل الصكوك التي تمنح من يتعهد بالخروج إلي الساحل الشامي لقتال المسلمين باسم الصليب، ثم خطا خطوة أبعد حين باع صكوك الغفران لكل من يدفع ليحصل على إعفاء من الذهاب إلي الساحل الشامي، فما كان من الملكة بلانش أم لويس التاسع، سوى شن هجوم دعائي على البابا الذي كان يقيم في ليون الفرنسية، واتخذت الملكة – بالاتفاق مع باروناتها – إجراءات حازمة حيال كل من يثبت حمله الصليب على إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وقامت عام ٦٤٩هـ (١٢٥١م) بمصادرة أملاك كل من استجاب للبابا، كما شددت في التضييق على الرهبان الفرنسيسكان و الدمنيكان الذين حملوا على عاتقهم التبشير بهذه الحرب، ونتج عن ذلك فشل دعوة البابا(٢).

---

(١) رأفت عبد الحميد، الفكر السياسي الأوربي، ص ١٢٤.

(٢) Matthew Paris, English History, vol. II, p462-463.

رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٤٨١؛ جوزيف نسيم، لويس التاسع في الشرق الأوسط، ص٩٢-٩٣؛ قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ٣٩.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وهذا الموقف من أنوسنت الرابع حيال الهوهنشتاوفن، و موقف القوي المسيطرة على فرنسا منه، يوضح بجلاء إدراكهم لتحول الحركة الصليبية عن طريقها الذي أراده لها البابوات منذ أوربان الثاني، وأنها صارت سيفا تسلطه البابوية على خصومها حتى لو كانوا كاثوليكيين من أتباعها، ومن ثم يجب التصدي لها، والحذر حيال كل دعوة ينادى بها البابا لحمل الصليب للتعرف على نواياه ومصير ما سوف يجمعه من مال. ولا شك أن هذا الأمر حين يسود في فرنسا- التي انحدر منها الصليبيون الأوائل وساند ملوكها الحركة الصليبية منذ البداية بالدعم المالي والبشري والسياسي - يؤكد على أن فرنسا قد أدركت أن الحركة الصليبية قد فقدت معناها ومغزاها وبالتالي وجب التخلي عنها، وإن لم تصرح بذلك في وثيقة رسمية. وعليه حين دعا البابا كلمنت الرابع إلي حملة صليبية على مانفرد هوهنشتاوفن لانتزاع صقلية منه لم يستجب له أحد في فرنسا ذاتها[١]، فما بالنا بباقي أوربا؟ فها هو هاكون ملك النرويج Hakon IV king of Norway ٦٠١-٦٦١هـ (١٢٠٤-١٢٦٣م) الذي توجه البابا أنوسنت الرابع ملكا على أمل قبول العرش الألماني ليزيح الإمبراطور فردريك من الساحة السياسية الأوربية يعلن فور تتويجه بالحرف الواحد:" أنه كان دائما مشتاقا لقتال أعداء الكنيسة وليس كل أعداء البابا"، ولم يكن ريتشارد إيريل كرنوال – ذلك الصليبي القديم- بأقل بصيرة من هاكو حين رفض تلقي التاج الإمبراطوري من البابا المذكور[٢]، وبالتالي خاب أمل البابا فيهما، غير أن هذه العبارة توضح إلي أي حد نفاذ بصيرة ملك النرويج، وإيريل كرنوال اللذين أدركا البون الشاسع بين العداء للكنيسة وبين العداء لشخص البابا نفسه، وهو أمر لم يدركه من استجاب لسحر الدعوة البابوية دون تقدير لعاقبة الأمور فكانت عاقبة أمرهم خسرا.

وكما كان استعمال مصطلح الحرب الصليبية وسيلة لتصفية الحسابات داخل أوربا بين البابوية وبين أعدائها سببا في التراجع الأيديولوجي للحركة الصليبية، فإن خطورة طريق

---

(١) Kelly, The Oxford dictionary of popes, p.196.

(٢) Matthew Paris, English history, vol. II, P.415; Tout, The Empire and the Papacy, p.383.

http://www.al-maktabeh.com

الحج في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) سببا في تراجع فكرة الرحيل إلي الأراضي المقدسة، فإذا كان دعاة الحرب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر قد ادعوا أن طريق الحج لم يعد آمنا إلي القدس، ولهذا وجب عليهم الخروج لتيسيره[١]، فالأمر في النصف الثاني من القرن الثالث عشر صار أسوأ بكثير، في ظل الغزو المغولي للمنطقة، وصعود دولة المماليك التي أخذت في تصفية المعاقل الصليبية الواحد تلو الآخر، تلك المعاقل التي توافدت أخبار فتح المسلمين لها، مع من نجا بنفسه من الصليبيين أو مع من ذهب إلي أوربا مبعوثا من بقية الكيانات الصليبية يطلب العون والمدد، يحملون معهم أخبار مئات بل آلاف من القتلى من الصليبيين، فلماذا يغامر المرء بروحه وجسده في رحلة العودة منها ضرب من الخيال؟ ومن ثم انتشر رأي عام رافض للخروج في الحملات الصليبية، عبرت عنه الأغاني الشعبية التي شاعت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي[٢].

ولم تكن أخبار أخطار الوضع في الساحل الشامي وحدها السبب وراء تراجع رحلات الحج بل إن الطرق لم تعد آمنة برا وبحرا إلي الأراضي المقدسة في الساحل الشامي، وفيما يخص الطريق البري عبر الراضي اليونانية قد أغلق تماما مع عودة الإمبراطورية البيزنطية ثانية إلي القسطنطينية عام ٦٥٩هـ (١٢٦١م)، وبصفة خاصة في ظل أطماع شارل أنجو في إعادة المملكة اللاتينية إلي الحياة بالتعاون مع بلدوين الثاني ملك القسطنطينية الفار[٣].

---

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ١، ص ٨٣-٩٢؛ وراجع أيضا، قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية نصوص ووثائق، ص ٧٣-٩٠؛ ماهية الحروب الصليبية، ص ٣٢.

(٢) Throop, Criticism of the Crusade, p. 153 .

وعبر عن هذا المعنى المؤلف المجهول لإحدى الأغاني التي جاء فيها:" عندما تذهب لسماع الموعظة، كن حذراً، فبكل طريقة سوف يحاول المبشر بقوة فصاحته أن يجعلك سجينا للصليب، أعرني أذنيك وفكر كم هو رهيب طريق الصليب، من يعرف أنك سوف تعود منه، إذا ما سرت فيه فسوف تجد الأخطار برا وبحراً"، انظر :

Pflaum, "A strange Crusaders' song", in Speculum , vol. 10, no.3,(Jul., 1935), p.338.

(٣) Runciman, The Sicilian vespers, p.137.

راجع أيضا، محمود سعيد عمران، "شارل كونت أنجو"، ص ١٧٥.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أما الطريق البحري للحج نحو فلسطين فقد صار من الصعوبة بمكـــان في ظـــل تـــأجج الصراع بين المدن التجارية الكبرى، وبصفة خاصة المدن ذات الجاليات الكبيرة في الساحل الشامي وعلى رأسها جنوة والبندقية اللتان تربصتا ببعضهما الدوائر، وقد كان لهما البـــاع الأكبر في نقل الحجاج في أوقات السلم، أما وقد اشتعل الصراع بينهما، وخـــسر البنادقـــة مكانتهم في القسطنطينية وحل محلهم الجنوية بفضل معاونتهم في القـــضاء علـــى المملكـــة اللاتينية فيها، فقد تأزم الموقف وكثرت المعارك البحرية بينهما،بحيث صار الحج إلي الأراضي المقدسة من الصعوبة بمكان[١]، ناهيك عن أخطار الطبيعة وكثرة العواصف البحريـــة الـــتي حطمت أساطيل ضخمة أعدها الملوك لحرب المسلمين، فما بالنا بسفن الحجاج، وقد حدث ذلك مرارا وخير مثال على ذلك تراجع ملك أراجون – جيمس الأول–، عن الوفاء بقسمه الصليبي، بسبب عاصفة شديدة واجهته وهو بعد في أول رحلته فقرر عدم تعـــريض قواتـــه لعاصفة أشد في عرض المتوسط لا يستطيع النجاة منها[٢] وكذلك تحطم جل الـــسفن الـــتي حملت بقايا حملة لويس على تونس وهي عائدة إلي السواحل الفرنسية[٣].

ولعل خير دليل على تقلص أعداد الحجاج من العامة النقص الحاد الذي عانت منه مملكة عكا في الناحية السكانية طوال النصف الثاني من القرن الثالث عشر بحيث لم نعد نسمع عن جماعات الحجاج التي كانت تتوافد طوال النصف الأول من القرن الثاني عشر، والتي كان لها الدور الكبير في سقوط عدد من المدن الشامية في يد الصليبيين الأوائل[٤]،ودليل آخر وهـــو عدد مدوني الرحلات من الحجاج، ففي القرن الثاني عشر يمكننا إحصاء تسعة من الحجـــاج المشاهير وعدد غير محدود من المجاهيل الذين لم نعرف أسماءهم، أما في القرن الثالث عشر فلا يمكننا إحصاء أكثر من ثلاثة[٥].

---

(١) انظر الفصل الثالث، ص ١٥٤ وما بعدها.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٥٦٧.

Richard, The Crusades, p.426.

(٣) انظر ما تقدم عن حملة لويس على تونس.

(٤) Albert d'Aix, pp.542-707;Caffaro, Annali Genovesidi ,pp.117-128;

وأيضا راجع أيضا، هنادى السيد، مملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الأول، ص ٢٧–٦٨

(٥) محمد مؤنس، الرحالة الأوربيون في العصور الوسطي، ص ٥–٩٦.

http://www.al-maktabeh.com

ونتج مما سبق تحول قطاعات كبيرة من الحجاج من الذهاب إلي الأماكن المقدسة في فلسطين إلي الحج إلي أضرحة القديسين داخل أوربا، في ظل نمو تيار يدعو إلي تفضيل الحج إلى القديس المحلي على الحج خارج البلاد، ووصل الأمر إلى حد الدعاية للقديس المحلي ونشر أخبار المعجزات التي تتم في رحابه، وما يتعرض له من يحج ويحصل على خدمة أو ينال الشفاء ببركة هذا القديس، ولا يدفع مقابل هذه الخدمة من عقاب هذا القديس. ومما لاشك فيه أن رجال الدين المحليين قد شجعوا على ذلك لما يعود عليهم من أرباح من هذا التيار سواء مقابل ما يؤدون من خدمات دينية[١]، أو على الأقل عدم اقتطاع أجزاء من دخولهم تحت مسمي الحملات الصليبية والتي لم تعد توجه إلي الغرض الذي جمعت من أجله[٢].

ومن أمثلة المزارات ضريح القديس توماس بيكت Thomas Becket[٣] في إنجلترا الذي ظل طوال القرون من الثاني عشر حتى الخامس عشر يجتذب إليه آلالاف الزوار لمختلف

---

(١) Life of St. Mary the younger, trans. By Laiou, in A. Talbot,(ed) Holy Woman of Byzantium, D.O. , Washington, 1996, p.272. Cf. also, Abou-El-Haj, The medieval cult of saints, Cambridge, 1997, p.25.

وراجع أيضاً: الأمين أبو سعدة، "التوظيف السياسي لرفات القديسين ومتعلقاتهم في أوربا العصور الوسطي"، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد ٣٥، ٢٠٠٤م، ص ٤١-٤٢.

(٢) Throop, Criticism of the Crusades, p.26; Read, The Templar,p.238.

(٣) توماس بيكيت: ولد في لندن يوم ٦رمضان ٥١٢هـ (٢١ ديسمبر ١١١٨م)، كان جيلبرت بيكت والد توماس على ما يرجح نوليس Knowles من المغامرين النورمان الذي عمل بالتجارة ثم دخل سلك الشرطة وصار رئيسا لشرطة المدينة، وفي عام ٥٦١هـ (١١٢٨م) عهد والد توماس إلي الراهب روبير Robert ليعلمه مبادىء القراءة والكتابة والعقيدة الكاثوليكية، ثم التحق بمدرسة سان بول St. Paul في لندن، وحين أتم تعليمه بها أرسله والده ليتعلم في باريس، و عاد إلي إنجلترا ليتولى منصب سكرتير أسقفية كانتربوري، ثم عينه الملك هنري الثاني مستشارا ملكيا ثم رئيسا للكنيسة الإنجليزية، غير أنه لم يخضع للملك الإنجليزي وتمسك بمبدأ السمو الكنسي، ورفض محاكمة = رجال الدين أمام المحاكم المدنية، وانتهي به الأمر إلي النفي من إنجلترا إلي فرنسا ثم عاد إليها ليثير مزيدا من المتاعب في وجه الملك، فقام بعض الفرسان بقتله إرضاء للملك عام ٥٦٥هـ (١١٧٠م). لمزيد من التفاصيل عنه انظر :

Robertson, James C. (ed.)., Materials for the History of Thomas Becket. Ed. by J. C. Robertson and J. B. Sheppard. 7 vols. , in (R.S., vol.67), London, 1875-1885; Thomas Becket, Thomas Saga Erkibyskups. A life of Archbishop Thomas Becket, in Icelandic, with English translation, Notes and Glossary. Ed. by Eirikr Magnusson. 2 vols. In R.S. , vol. 65, London, 1875-1883. Cf. also, Knowles, Thomas Becket, California, 1970;Davis, England, vol.2, pp. 199-222;

وراجع أيضا:كانتور، التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٥٣٠.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الأغراض بل حتى العهد المعاصر [١] وضريح القـــديس أمانـــد Saint Amand في شمـــال غرب فرنسا[٢]، وضريح القديس يعقوب Saint James of Compostela في شمال غـــرب أسبانيا[٣] وروما نفسها حيث كنيسة القديس بطرس ومقر البابوية[٤]، ناهيكَ عن عدد كبير من المزارات والأضرحة التي انتشرت في أنحاء أوربا[٥]. ولعل ما شجع على تنشيط رحلات الحج المحلي داخل أوربا قيام الرهبان الكولونيين ببناء كثير من الاستراحات علـــى طـــول الطرق نحو المزارات الشهيرة لتيسير رحلة الحجاج، حيث يجد الحاج في كل محطة ما يحتـــاج من طعام وشراب وراحة حتى الاسكافيين والحلاقين تواجدوا في هذه الاستراحات [٦]، فلما

---

(١) كانتور، المرجع السابق، جـ٢، ص ٥٣١؛ بيشوب، تاريخ أوربا، ص ٦٧

(٢). Abou-El-Haj, op. cit., p.9.

القديس أماند، ولد في بواتو Poitou عام ٥٨٤م، وتوفي في دير إلنون Elnone عام ٦٧٩م، كان ينتمي إلي أسرة نبيلة، غير أنه ترك الدنيا وزخارفها في سن العشرين، وعاش في بورج Bourges راهبا لمدة خمسة عشر عاما، قبل أن يباشر عمله كمبشر في سن الخامسة والأربعين في الفلاندرز، ثم عين لوقت قصير أسقفا في مستاريخت Maastricht، وقد واجهته كثير من الصعوبات في إقناع الناس بالتنصر، حتى أشيع أنه قد أعاد الحياة إلي شخص قد شنق فافتتن به الناس وكثر مريدوه، ولتدعيم رسالته التبشيرية بني العديد من المنشآت الدينية في مونت بلاندن Mont-Blandin وغيرها، وتوفي عن عمر يقارب التسعين، وعد من القديسيين، وصار قبره مزاراً من المزارات الشهيرة في شمال غرب فرنسا، لمزيد من التفاصيل عنه انظر:

Attwater, The Penguin Dictionary of Sants,p.179; Campbell, St. Amandus, in C.E., www.newadvent.org.cathen.04546c.htm

(٣) Abou-El-Haj, op.cit, pp.19,20

القديس يعقوب: كان القديس يعقوب الأكبر، المتوفي في القدس عام ٤٤م أخا وصديقا للقديس يوحنا، ولقب بالأكبر لتميزه عن القديس الرسول يعقوب الأصغر، وقد اختاره السيد المسيح مع بطرس وحنا ليكون شاهدا على تجلي المسيح وآلامه، في الحديقة،وعد من الحواريين الإثنا عشر، وكان أول من استشهد منهم، حين قتل بالسيف بأمر من الملك هيرود الأول إرضاء لليهود، وطبقا للرواية الأسبانية فإن القديس يعقوب قد زار أسبانيا ليبشر فيها-بالمسيحية، وكان أولُ ظهور لتلك القصة في القرن السابع الميلادى، وهناك ادعاء بأن جسده قد نقل بعد استشهاده إلي أسبانيا، وكان ضريحه من أكبر المزارات التي يحج إليها في أواخر العصور الوسطي، عنه انظر :

Attwater, The Penguin Dictionary of Sants,p.179 .

(٤) بيشوب، تاريخ أوربا في العصور الوسطي، ص ١٧١.

(٥) Abou-El-Haj, op. cit., p.9.

(٦) بيشوب، تاريخ أوربا في العصور الوسطي، ص ١٧١.

http://www.al-maktabeh.com

يترك الأوربي كل ذلك ويذهب إلي الشرق لتزهق روحه أو على الأقل يضيع ماله، وربما يقع في أسر المسلمين فيلقي به في غياهب السجون فيأتيه الموت من كل مكان[١]؟.

ولعل أبلغ تعبير عن تدهور أيديولوجية الحرب الصليبية، هو دراسة هذا التدهور والتعرف على أسبابه بأمر من جريجوري العاشر، و ذلك الطرح الذي قدمه له وليم الطرابلسي قبيل مجمع ليون٦٧٢هـ (١٢٧٤م)، والذي أكد فيه أن سيوف الصليبيين لن تنجح في تحقيق شيء على أرض الواقع يفيد الصليبيين في الشرق، وأن الطريق الأيسر والأكثر جدوى هو التبشير لتحويل المسلمين إلي العقيدة الكاثوليكية[٢].

أما ثالث أسباب تراجع الأيديولوجية الصليبية فهو ارتفاع تكاليف الحملات الصليبية، في وقت ثبت فيه بما لا يدع مجالا للشك فشل العسكرية الصليبية في تحقيق شيء ذي قيمة بعد الحملة الصليبية الأولي، في ظل الصحوة الإسلامية وظهور عدد متتابع من القادة المسلمين الذين حولوا وضع المسلمين من المدافع إلي المهاجم، وحولوا تاريخ الصليبيين إلي سلسلة من الخسائر المتوالية، حتى فتح صلاح الدين القدس، وبالرغم من جهود ملوك أوربا الكبار في الحملة الصليبية الثالثة، فإن حجم الإنجاز لم يتناسب أبدا مع ما أنفق عليها، إذ تركت الحملة الصليبيين في شريط ساحلي عرضة لسيف المسلمين المشهر الذي لم يخفضه إلا الصراعات البينية التي اشتعلت بين المسلمين. وحتى حملة لويس التاسع الذي تميز عمن سبقوه من ملوك أوربا بإظهار التدين والتماس خطي القديسين، وبالرغم من ذلك هزم في المنصورة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) ومات في تونس ٦٦٨هـ (١٢٧٠م)، فلو كان الرب راض عن الحركة الصليبية لنصرها. هكذا أخذت العقلية الأوربية تحدث نفسها، وإذا كان الرب قد تجهم للحرب الصليبية ككل، فلماذا يهلك الأوربيون أنفسهم في حرب غير راضياً عنها الرب؟ ومن ثم تعرض دعاة الحرب الصليبية بعد هذه الخسائر الفادحة للإهانة من عامة الأوربيين وللتجاهل من الحكام[٣].

---

(١) Throop, Criticism of the Crusades, p.151-153.

(٢) Ibid, p.122.

(٣) Throop, Criticism of Papal Crusades policy in old France and Provencal, in Speculum , Vol.XIII, no.4, (October, 1938), pp.379-380.
راجع أيضا، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٤٨٤.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كما كان للتطور الاقتصادي الذي شهدته أوربا في القرن الثالث عشر دور كبير في تراجع الأيديولوجية الصليبية، فإذا كانت أحوال أوربا الاقتصادية البالغة الصعوبة في نهاية القرن الحادي عشر من أهم الأسباب التي دفعت الأوربيين دفعا إلي الخروج من أوربا – والمشاركة في المغامرة الصليبية(١) – فإن الوضع أخذ يتغير بصورة تدريجية مع حلول النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، إذ حدث نوع من التطور الاقتصادي في ظل اتساع رقعة الأراضي الزراعية على حساب الغابات، مما أدى إلي التوسع في تربية الحيوان وإنشاء العديد من القرى والمدن الجديدة، وبصفة خاصة في مناطق شمال وشرق أوربا وإيطاليا وإنجلترا وفرنسا، حيث زاد إنتاج القمح عن الحاجة في ظل اتساع مساحات الأراضي مما أدى إلي التوسع في تصدير هذا القمح خاصة من مناطق شرق أوربا، وكان الرهبان السسترشيان Cistercian(٢) لهم قصب السبق في هذا المجال في ظل منهجهم الصارم في بناء أديرتهم في مناطق منعزلة بعيدة عن المدن المأهولة، ومن هنا كانت الغابات ميدانا رحبا لهذه الأديرة التي حرص رهبانها على توفير احتياجاتهم بالاعتماد على أنفسهم، من خلال قطع الغابات المحيطة والقيام بالزراعة(٣)، وفي ظل هذا التطور الزراعي تحول عدد كبير من الفرسان المنتمين إلى مختلف الأصول من الأعمال الحربية إلى ملتزمين أو مقاولي أنفار للعمل في الأراضي الجديدة، كما نقل الفرسان التيوتون نشاطهم بصورة تدريجية من الساحل الشامي إلي ساحل بحر البلطيق، حيث وجهوا نشاطهم إلي القيام بحملات عسكرية صليبية لإجبار سكان هذه المناطق على اعتناق المسيحية(٤).

---

(١) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ٥٦.

(٢) الرهبان السسترشيان: أسس هذه الطائفة أو الجماعة الرهبانية روبرت موليسم Robert of Molesme ٤١٨–٥٠٥هـ (١٠٢٧–١١١١) في السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر الميلادي، الذي حاول إصلاح الأديرة البندكتية، ومن ثم اتجه إلي إنشاء أديرة جديدة في مناطق منعزلة يستطيع من خلالها توطيد طريقته الرهبانية بعيداً عن مشاكل الاحتكاك بالنظم القديمة، انظر :

Attwater, The Penguin Dictionary of Saints, pp.287-288, Gildas, F.M., St. Robert of Molesme, CE, on www.newsdvent.org.

(٣) Christiansen (Eric), The Northern Crusades, 2nd Edition, England, 1997, pp. 59-62

راجع أيضا، كين، حضارة أوربا العصور الوسطي، ص ٩١.

(٤) عن نشاط التيوتون في ساحل بحر البلطيق انظر:

http://www.al-maktabeh.com

ولم يقتصر التطور الاقتصادي على القطاع الزراعي، بل حدث تطور صناعي خاصة في قطاع المنسوجات اعتمادا على التوسع في تربية الأغنام، وكانت أكبر مراكز هذه الصناعة في منطقة الفلاندرز في فرنسا التي صُدّر إليها الصوف الإنجليزي بغرض تصنيعه، وقد ساعد هذا التطور الاقتصادي التجار على تحويل مبالغ ضخمة من رؤوس أموالهم إلى الاستثمار في القطاع الصناعي، نظرا لما يدره هذا القطاع من أرباح هائلة، ناهيك عن دخول المنتجات الصناعية في الحركة التجارية النشطة آنذاك[١]، وقد ساعد على التطور الصناعي بلا شك الاتصال بالمسلمين، ونقل كثير من أسرار مختلف الصناعات إلى أوربا خاصة صناعة السكر، التي نقلها البنادقة من مدن الساحل الشامي إلى العديد من المدن الإيطالية[٢]

وبالتوازي مع التطور الصناعي والزراعي حدث تطور في الأنشطة التجارية، فلم يعد الأمر مقصورا على تجار المدن الإيطالية المتناحرة بل حدث تطور للتجارة في شمال أوربا، في رحاب المدن الجديدة، التي كثرت فيها الشركات التجارية التي تمول المشروعات الصناعية، وتتولى عملية نقل و تسويق المنتجات، والتي نشطت أيضا في تسويق الأسماك المجففة، التي لقيت سوقا رائجة في المناطق الداخلية، وقد ساعد النشاط التجاري الواسع على اتساع نشاط الشركات التجارية لتتجه إلى فتح فروع لها في العديد من المدن الأوربية الكبرى[٣].

وبالطبع استتبع النشاط الاقتصادي المتنوع حدوث نوع من التطور الاجتماعي الذي ساعد على ارتفاع مكانة التجار الأثرياء على حساب النبلاء القدامى الذين أخذوا في تقديم التنازلات بصورة تدريجية لهذه الطبقة الغنية المتنامية[٤] حيث تمكن هؤلاء التجار بفضل ما

=Christiansen, The Northern Crusades, pp.233-241

كين، حضارة أوربا، ص ٩٤.

(١) إداور بري، القرون الوسطي، ضمن كتاب: تاريخ حضارات العالم، إشراف موريس كروازيه، جـ٣، ٢٠٠٣، ص ٣٩٤.

(٢) عفاف صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢٥٣-٢٥٤.

(٣) Cheyney (Edward), The New Era, New York, 1936;

إدوارد بري، المرجع السابق، ص ٣٩٤.

(٤) كين، حضارة أوربا، ص ٩٩-١٠٠.

مكتبة المهتدين الإسلامية

تراكم في أيديهم من ثروات من الحصول على تصاريح من الملوك والأباطرة بحكم المدن التي يقيمون فيها حكما ذاتيا، وقد بدأ هذا الأمر في إيطاليا في عام ٥٧٩هـ (١١٨٣م) حين منح الإمبراطور فردريك بربااروسا، عددا من مدن إقليم لمبارديا الإيطالي هذا الحق، وسرعان ما شاعت هذه الظاهرة في باقي البلدان الأوربية، وقد استتبع ذلك موجات من النزوح أو الهروب الجماعي من الريف الإقطاعي، إلى المدن الجديدة الحرة على أمل تحسن الأحوال في ظل تنامي القطاعين الصناعي والتجاري، اللذين استوعبا عددا هائلا من سكان أوربا في تلك الآونة(١).

الشاهد من كل ذلك أن التطور الاقتصادي الأوربي بدأ من النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي قد ساعد على تراجع تأييد الحركة الصليبية، التي لم تؤت ثمارها بالرغم من النفقات الهائلة التي تكبدها الأوربيون في حملاتهم المتوالية، في سبيل تثبيت التواجد الصليبي في الساحل، ومن ثم صم الرأي العام الأوربي أذنيه عن الدعوات المتوالية للخروج في حملات صليبية، بالرغم من تكثيف تلك الدعاية على يد المبعوثين البابويين، وعلى يد جماعات الرهبان المتسولين، وبصفة خاصة جماعتا الفرنسيسكان والدمنيكان، وهذا الأمر لفت النظر وارتاع منه الباباوات طوال النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وحاول البابا جريجوري العاشر استكناه أسبابه قبل انعقاد مجمع ليون الثاني لإيجاد الوسائل الكفيلة بالتصدي له. وهكذا وضح لنا أنه إذا كان الوضع الاقتصادي الحرج في أوربا في نهاية القرن الحادي عشر سببا في خروج الأوربيين إلى الشرق، كان التطور الاقتصادي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر سببا في قبض الأوربيين أيديهم عن تأييد هذه الحركة التي كانت في طريقها للفشل، ومن ثم شدد دعاة الحركة الصليبية على ضرورة ترك المال والزوجة والأولاد في سبيل الحصول على الغفران الذي لا يتم إلا بالخروج في حملة صليبية(٢)، لكن هيهات أن يستجيب لهم الشعب الأوربي كما استجاب لهم من قبل، فالزمن قد تغير ولم يعد الناس هم الناس.

---

(١) The Cambridge Economic History, vol. III, 1965, pp.3-41

راجع أيضا، سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطي، جـ٢، ص٩٦-١٠١

(٢) Chateauroux, Sermon I, pp.128-141.

http://www.al-maktabeh.com

ثالثاً: الاستجابة الأوربية للتحديات التي واجهت مملكة عكا ١٢٥٠-١٢٩١:

كان من الطبعي أن ترتبط مملكة عكا بالغرب الأوربي مثلما حدث مع مملكة بيت المقدس من قبل، ولم لا وهي قطعة من أوربا انتقلت واستقرت في الشرق؟ وبالرغم مما اعترى المملكة من تأثيرات شرقية إلا أنها بقيت أوربية السكان و اللغة والقانون والعادات والتقاليد، وبالتالي اعتمدت مملكة عكا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر مثل الفترة السابقة على أمها أوربا، سياسيا، واقتصاديا، واجتماعيا، وسكانيا، وماليا وعسكريا. وقد زادت تلك الحاجة إلي المساعدة نتيجة لعدة أمور، أولها ما عرضناه في الباب الأول من معضلة توريث الحكم، وفشل الاقتصاد الصليبي في تحقيق الاكتفاء الذاتي والصراع الداخلي الذي وصل ذروته في حرب سان سابا، وأخيرا ما ألم بالمجتمع الصليبي من مشكلات، وثانيها تنامي قوة دولة المماليك التي استطاعت صد المغول والتفرغ لتصفية البقايا الصليبيين في الساحل سواء في مملكة عكا أو إمارتي إنطاكية وطرابلس، وفي ظل هذا الاعتماد توالت الرسائل على أوربا، لطلب العون طوال النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ومن بينها الرسالة التي حملها لويس التاسع مع أخويه – شارل كونت أنجو و أفونس كونت بواتيه، إلي البابا أنوسنت الرابع يطلب المال والرجال لتعويض ما فقدته مملكة عكا من قوة عددية في المال والرجال من جراء فشل حملته على مصر(١).

كما تطلعت الهيئات الدينية إلي المعونة الغربية البشرية قبل المادية في ظل النقص السكاني الخطير الذي عانت منه مملكة عكا، ففي عام ٦٥٧هـ (١٢٥٩م) ونتيجة لمصرع كثير من الداوية في صراعهم مع الاسبتارية على – هامش حرب القديس سابا- أسرعت قيادة الداوية في عكا إلي طلب جميع الإخوة من كل أوربا حتى لا يؤثر النقص البشري في عدد الفرسان الداوية على توازن ميزان القوي بينها وبين الاسبتارية، في مملكة عكا وباقي الكيانات الصليبية في الساحل الشامي(2). ومع تنامي مد الفتوح المملوكية كتبت المحكمة

---

(١) Wiegler, The Infidel Emperor , p.261.

راجع أيضا، جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص ١١٦؛ جرجس فام، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس، ص ١٩٠-١٩١.

(2) Mathew Paris, English history, vol.3, p. 328.

مكتبة المهتدين الإسلامية

العليا في عكا في ٢٣ جمادى الأولي ٦٦١هـ (٤ إبريل ١٢٦٣م) وممثلي الجماعات الدينية ومن بينهم هارتمان أوف هلدرنج القائد العام للجماعة الألمانية ونائب المقدم الأعلى، خطابا إلي هنري الثالث ملك إنجلترا يشرحون فيه تردي أوضاع مملكة عكا، ونقص الأموال وقلة الرجال المقاتلين في مواجهة بيبرس وجيوشه الجرارة وإماكنياته الضخمة، بجانب ما تعرضت له بلادهم من دمار اقتصادي من جراء الاجتياح المغولي للمنطقة كلها، كما كتبوا رسائل مماثلة إلي البابا أوربان الرابع[١].

وفي أعقاب فتح المنصور قلاوون لطرابلس ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) أرسل الملك هنري الثاني – ملك قبرص وعكا– إلي الغرب رسائل يستنجد فيها بالقوي الأوربية لتقديم الدعم لمملكة عكا المتداعية، وكان رسوله جون جرايللي قائد الحامية الفرنسية في عكا[٢].

غير أن الوضع في أوربا في ذلك الوقت لم يكن ليسمح برد يتناسب مع الأهوال التي واجهت مملكة عكا وسائر صليبي الساحل، ففي الماضي في عهد مملكة بيت المقدس ردت على فتح الرها ٥٣٩هـ (١١٤٤م) بالحملة الصليبية الثانية، وعلى فتح القدس ٥٨٣هـ (١١٨٧م) بالحملة الصليبية الثالثة، أما في عهد مملكة عكا في النصف الأول من القرن الثالث عشر، فقد خرجت الحملات الصليبية نتيجة ما ألم بالصليبيين من ضعف[3]. والتي تمثلت في الحملة الصليبية الرابعة ٦٠١هـ (١٢٠٤م) والتي تحولت عن أهدافها نحو القسطنطينية بدلا من مصر، ثم بالحملة الخامسة على دلتا النيل ٦١٦–٦١٨هـ (١٢١٩–١٢٢١م) والحملة السادسة ٦٢٥هـ (١٢٢٨م) بقيادة الإمبراطور فرد يريك الثاني التي كانت أصغر الحملات الأوربية على الإطلاق لكنها كانت أنجحها بعد الحملة الأولي، ثم الحملة الصليبية السابعة ٦٤٦–٦٤٨هـ (١٢٤٨–١٢٥٠م). والذي يهمنا هنا ليس الحملات في حد ذاتها بل حجم الحملات، والتي تعبر عن حجم الاستجابة الأوربية لما ألم بالكيانات الصليبية من أخطار، وضخامة عدد وعدة تلك الحملات لا مجال للشك فيه كدلالة على ضخامة الرد الأوربي على ما يعانيه الصليبيون في الساحل من مشكلات.

---

(١) حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص ٢٩٣.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٦٨٩.

(٣) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ١٥٨.

http://www.al-maktabeh.com

أما الاستجابة الأوربية لما حل بمملكة عكا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر فلم تكن بنفس المستوي الذي كانت عليه في الماضي، بالرغم من فداحة الخطوب التي ألمت بها، في وقت لم يستطع صليبيو الساحل الشامي – فيه – أن يعتمدوا على أنفسهم في مجابهة التصفية المملوكية المتتابعة لما يسيطرون عليه من بلاد، وبالتالي تطلعوا إلي العون الأوربي. ومن جراء فتوح بيبرس المتوالية كتب بطريرك بيت المقدس جيمس بانتلون James Pantaleon[١] في ٦٥٩هـ (مايو ١٢٦١م) إلي البابا أوربان الرابع يطلب نجدة صليبي الشام من يد الظاهر بيبرس[٢] غير أن هذه الصرخة لم تحرك ساكناً.

وفي ظل الدوى الهائل لفتح الظاهر بيبرس لأنطاكية عام ٦٦٦هـ (١٢٦٨م) حمل الصليب للمجيء إلي الشرق كل من لويس التاسع ملك فرنسا، وأخيه شارل ملك صقلية وملك أراجون، والأمير إدوارد وكونتات من أسبانيا وألمانيا(3)، غير أن تلك الوعود الضخمة لم تفد مملكة عكا في شيء، ففيما يخص مملكة أراجون فقد خرج ملكها في حملة ضخمة لكنها لم تبتعد كثيرا عن السواحل الأيبيرية حتى دهمتها عاصفة عنيفة أجبرت الملك جيمس وجل قواته على العودة إلي بلادهم، و لم يواصل الرحلة إلا ولداه غير الشرعيين سانكيز وبدرو فرنانديز، اللذان واصلا رحلتهما إلي بلاد الشام مع عدد قليل من الجنود، ولم يستطيعا أن ينجزا به شيئا لصالح الصليبيين؛ مما أدى في النهاية إلي عودهما إلي بلادهما دون إنجاز شيء يذكر، بعد أن بقيا فوق أسوار عكا لا يستطيعان أكثر من مشاهدة الحامية الفرنسية، وهي تباد في كمين نصبته لهم القوات الإسلامية بقيادة الظاهر بيبرس، بعدها أدرك الأخوان أن لا جدوى من البقاء في المملكة، وعادا من حيث أتيا لينقلا إلي والدهما صورة قاتمة عن حال الصليبيين في الشرق[4]. ولعل فشل هذه الحملة يعود بشكل أساس إلي

---

(١) جيمس بانتلون، تولي منصب بطريرك بيت المقدس الاسمية (مملكة عكا) في الفترة بين عامي ١٢٥٥-١٢٦٢م (٦٥٣-٦٦٠هـ). عنه انظر:

Hamilton, The Latin Church , p.356;

(٢) ممدوح حسين، الحروب الصليبية في شمال افريقيا، ص ٢٤٥.

(٣) The Templar of Tyre, p.62. Cf. also, King, The Knights Hospitallers, p.265.

(٤) The Templar of Tyre, p.53-48; L'Estoire d'Eracles, p.457-458; Annales des terre Saint, p.454. Cf. also, king, op. cit. , p.266;Hill, A history of Cyprus, vol. II, p. 160; Edbury, The kingdom of Cyprus and the Crusades, p.92.

مكتبة المهتدين الإسلامية

صغر حجمها وفقدان التنسيق بينها وبين قوات مملكة عكا والحامية الفرنسية، غير أنه من الواضح أن ابني ملك أراجون لم يكونا قليلي الخبرة ولا ينقصهما التعقل، ولو لم يتوفر فيهم ذلك الأمر لاندفعا لمعاونة القوات الفرنسية خارج أسوار عكا دون النظر في عواقب الأمور ؛مما كان يودي بهما، أو على أقل تقدير يقعان في الأسر.

أما حملة لويس التاسع الصليبية التي تحسب لها الظاهر بيبرس فقد تحولت نحو تونس[(١)]، لإجبار ملكها على اعتناق المسيحية حتى يسهل غزو مصر من الغرب، غير أن الحملة لم تنجز شيئاً من أهدافها، في ظل تفشي الوباء بين الصليبيين فقطف زهرة المشاركين في الحملة وعلى رأسهم الملك لويس نفسه وولده حنا، ومن ثم عقد شارل أنجو -أخو الملك لويس والذي

وقد أخطأ داوي صور في تحديد سنة وقوع تلك الأحداث حين جعلها ضمن أحداث ٦٦٥هـ (١٢٦٧م).

(١) ثمة خلاف حول أسباب تحول حملة لويس نحو تونس، ففي حين يري كينج king وريد Read أن شارل أنجو هو سبب تحول هده الحملة نحو تونس لتحقيق أغراضه الشخصية في السيطرة على تلك الأرض المواجهة لأملاكه في صقلية، ومن ثم استغل تدين لويس وأرسل إليه من يقنعونه باستعداد حاكم تونس لاعتناق المسيحية إذا ما مر الجيش الصليبي بتونس، أما ماير فيرى خلاف ذلك وأكد أن هده الوجهة كانت من اختيار ملك فرنسا، وأن شارل لم يكن يعلم شيئاً عن دلك الأمر حتى أخبره أخوه به كما أكدت وثائق ديوان شارل أنجو، غير أن سترايرStrayer يدحض وجهة نظر ماير ويؤكد لويس لم يكن لديه ما يجعله يهتم بأمر تونس في حين أن شارل أنجو كان لدية عدة أسباب لينتقم من الحفصيين حكام تونس : أولها علاقة الملك محمد الأول الحفصي الوثيقة بآل هوهنشتاوفن حكام صقلية القدامى ومساندته لهم في محاولة استرداد الجزيرة، ثانيها رفض حاكم تونس دفع ضريبة السنوية التي كانوا يدفعونها للهوهنشتاوفن من قبل، ثالثها، مساندة الحفصيين حكام تونس للخارجين على نفوذ شارل أنجو في صقلية، وتميل الدكتورة سامية عامر بقوة إلي تأييد دور شارل القوي في تغيير وجهة الحملة نحو تونس، أما الدكتور ممدوح حسين فيؤكد على أن الأمر كله من بنات أفكار لويس ولا شأن لشارل بها، وأن رغبة لويس في تنصير أهل تونس كان هو السبب الرئيسي تعضده دوافع سياسية واقتصادية، غير أننا نميل إلي دور شارل أجز في هذا التحول، ذلك أن هم لويس هو إنقاذ الصليبيين في الشام بكل وسيلة، ومن ثم وجب أولا القضاء على مصر قبل تنصير تونس حتى يتسنى للصليبيين البقاء في فلسطين، كما يبدو أن المسلمين كانوا على علم بسبب التحول حتى ذكر مفضل ابن أبي الفضائل ما نصه:" تطلع لويس لغزو مصر من جديد ومن ثم جمع الجموع لكن كبراء دولته أقنعوه بغزو تونس والاستيلاء عليها، مما يسهل غزو مصر من البر"، ومهما يكن من أمر وبصرف النظر عن سبب توجه الحملة إلي تونس فهي حملة قد جاءت لنهب خيرات الشرق باسم الدين سواء في تونس أو هدفها التالي في حالة نجاحها وهو مصر. انظر :

مفضل ابن أبي الفضائل، النهج السديد، جـ١، ص ٤٦٣: ماير، الحروب الصليبية، ص ٤٠٣؛ ممدوح حسين، الحروب الصليبية، ص ٢٦٠-٢٧٣؛ سامية عامر، الصليبيون في شمال إفريقيا ، ص ٧٩.

king , The Knights Hospitallers, p.266, Read, The Templars, p.232.

http://www.al-maktabeh.com

وصل بعد وفاته– صلحا مع حاكم تونس، وعاد من حيث أتي[1]، وهكذا ذابت حملة لويس في رمال تونس ولم تقدم شيئا لمملكة عكا. ولا شك أن تلك الحملة لو قدر لهـا التوجه مباشرة نحو مصر، لكانت عائقا كبيرا في طريق الفتوح المملوكية، ولمثلت استجابة قوية من جهة أوربا لما تعانيه مملكة عكا، وحتى لو فشلت تلك الحملة كما حدث في الماضي، فمما لا شك فيه أنها كانت سوف تؤخر الفصل الأخير من عمر مملكة عكا بضع سنوات.

غير أن الأمر الذي يجدر الإشارة إليه أن تلك الحملة لم تكن تحمل في طياتها ما يمكنها من إنجاز شيء لمساندة مملكة عكا في الاستجابة الإيجابية للتحدي الإسلامي، وذلك الأمر له عدة مبررات: أولها، موقف البابا أوربان الرابع من الحملة، فلم يوافق على خروجها من أجل إنقاذ عكا من مصيرها المحتوم بل للتخلص من منافس خطير ألا وهو لويس الذي علا شأنه وارتفعت هامته حتى ناطح البابوية في مختلف الأمور، حتى رفض السياسة البابوية حيال الهوهنشتاوفن، إذ رأي لويس أن هذا الخلاف قد جر أوربا إلي كثير من الويلات بلا طائل سوى محاولة إثبات السمو البابوي ليس أكثر، ووصل به الأمر أن هدد بطرد البابا أنوسنت الرابع من مدينة ليون الفرنسية بسبب انشغاله عن دعمه في الشرق بالصراع مع كونراد هوهنشتاوفن، ولا شك أن الباباوات المتعاقبين رأوا أن ذلك مؤشر خطير على اهتزاز هيبتهم، وبالتالي خروج حملة صليبية جديدة برئاسته سوف تخلصهم من منافس خطير يصعب التصدي له بعدما حاز الشهرة الواسعة والشعبية الجارفة، اللتان تمنعا البابوية من الوقوف في وجهه بشكل علني، فكان دفعه لحرب صليبية مصلحة من كل النواحي فتتخلص من

---

(١) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٧٣-٣٧٤: مفضل ابن أبي الفضائل، النهج السديد، جـ١، ص ٤٦٣. انظر أيضا:

L'Estoire d'Eracles,p458-458; The Chronicle of Bury st. Edmunds, p.47. Cf. also, King, op. cit.,p. 265-268; Mayer, The crusades, p.270; Armstrong , Holy ware, p.449; Strayer, The Crusade of Louis IX, pp.512-516; Ziada, "The Mamluk Sultans to 1293", in: Setton, A History of the Crusades, vol.II, p.749; Runciman, "The Crusader states", p.581

وراجع أيضا: ؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٠٢ ؛ ممدوح حسين، المرجع السابق، ص ٢٣٣-٣٥٦، سامية عامر، المرجع السابق، ص ١٧٣-١٩٧.

مكتبة المهتدين الإسلامية

منافسته لها، وإن نجح كان فخار لها، وان فشل تضحك حينها في كمها في شماتة غير معلنة لكنها ملموسة(١)، فكانت الثانية،

وعليه فإننا نثني على ما رجحه بل أكده أحد الباحثين من أن البابوية كانت المسؤول الأول عن فشل العديد من الحملات الصليبية التي قادها الملوك، وأنها دفعتهم دفعا للخروج في حملات صليبية لتحقق أغراض في نفسها قضتها، وليس من أجل الرب والصليبيين في الشرق(٢)، ومن هذا المنطلق يري الباحث أن ما أعلنته البابوية من تخصيص جزء كبير من العشور الكنسية لدعم حملة لويس لم يكن أكثر من ارتكاب أخف الضررين.

وكان الأمر الثاني من عوامل فشل حملة لويس هو ظروف تونس نفسها، التي كانت في حالة من الرخاء والقوة الاقتصادية بشكل لا يستهان به، فقد كانت في عهد المستنصر الحفصي(٣) في رخاء اقتصادي انعكس بالإيجاب على قوة ومنعة حصون المملكة الحفصية وعلى عدد وعدة الجيش، بشكل كان يجعل إحكام السيطرة على تونس من الصعوبة بمكان(٤)، كذلك كان تكوين جيش لويس في تلك الحملة ثالث أسباب فشلها، فلم تكن الحملة مكونة من جيش واحد بل من جيوش عديدة(٥)، ظنت جميعا أنها في طريقها إلي

---

(١) حسن حبشي، حملة القديس لويس، ص ٢٧، ٢٨؛ جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٧٠-٧٢؛ وانظر أيضا، العدوان الصليبي على مصر، ص ٥٥-٥٦؛ سامية عامر، الصليبيون في شمال إفريقيا، ص ٨٦-٨٧.

(٢) رأفت عبد الحميد، الفكر السياسي الأوربي في العصور الوسطي، ص ٦٧.

(٣) المستنصر الحفصي، ينتمي إلي أسرة بني حفص البربرية، حكم تونس بين عامي ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) إلي ٦٧٦هـ (١٢٧٧م). عنه انظر: الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس، ١٩٦٦م، ص ٣٢-٤٠.

(٤) سامية عامر، الصليبيون في شمال أفريقيا، ص ٦٥

(٥) تكونت حملة لويس على تونس من عدد من الجيوش جاءت من مختلف دول أوربا، فقد شارك ألفونس كونت تولوز وبواتييه وهو أحد اشقاء لويس، و ايسوفي Issovy كونت الفلاندرز، وهيذي Hize كونت لوكسمبرج، وملك أراجون جيمس الأول James I of Aragon، وملك أسونسا = وثوروك وملك برشلولة ويوحنا كونت بريتاني وثيبوت ملك نافارا وغيرهم، لمزيد من التفاصيل عن العناصر المكونة للحملة انظر

Nangis, p.445; Cambridge medieval history, vol. VI, p.415 .

وأيضا، سامية عامر، الصليبيون في شمال افريقيا، ص ٩٧-٩٨.

http://www.al-maktabeh.com

الأراضي المقدسة، ولما أعلن لويس الطريق هو تونس أحدث حالة من الجـزع في صـفوف المشاركين في الحملة، كما يسر هذا الجزع أمر الاضطرابات التي عمت الجيش الصليبي، وساهمت في العديد من الصدامات بين أهالي ميناء اجمورت الفرنسي، وبين الجنود الصليبيين الراغبين في نهب بلد مسيحي لا لشيء سوى أنهم صليبيون، ومن ثم يريدون الحصول على كل شيء بالسعر الذي يرضونه إن لم يكن بالمجان، وأدت هذه الصدامات إلي مقتل العديد من الجنود وقرابة المائة من أهالي المدينة، في ظل عجز لويس عن إحكام قبضته على تلك الجيوش، وقد أسهمت تلك الأحداث في زيادة مرض لويس وهو بعد في بلاده، ومع بقاء الحملة ثلاثة أشهر في أجمورت كانت مؤن الحملة قد ذهب الجزء الأكبر منها، وتفشي الوباء بين جنودها وهم بعد في أوربا – وهو ما يذكرنا بنفس الشيء الذي حدث في قبرص أثناء حملة لويس الأولي نحو مصر– وبالتالي وصل الجنود إلي تونس وهم في حاجة إلي من يمرضهم، لا من يدفعهم لقتال المسلمين(١)، وقد دل ذلك على أن لويس لم يكن يصلح قائدا عسكريا بالمرة.

ولنفرض جدلا أن الحملة استطاعت الاستيلاء على تونس، فهل كان يكتب لحملة كهذه أن تستمر لتحقق أغراضها وتتقدم إلي مصر لتستولي عليها ثم تصل للأراضي المقدسة؟ أغلب الظن أن هذا مستحيل بل أرجح لا بل أكد أن هذا النجاح المرحلي لو تم لعجل بنهاية الكيان الصليبي في الساحل الشامي قبل ٦٩٠هـ (١٢٩١م) ؛ ذلك أن النجاح الجزئي في تونس كان سوف يستهلك قوة الجيوش المهاجمة في إحكام السيطرة على تلك البلاد، بجانب ما يترتب على هذا النجاح من اختلاف حول تقسيم الغنيمة كما حدث من قبل عند دمياط، ومن ثم يمنعهم من إتمام طريقهم نحو مصر، بجانب أن تونس بلد مسلم وهو ما يدعو داعي الجهاد إلي استنفار سائر بلاد المغرب الإسلامي، وتدخل المنطقة من حدود مصر الغربية حتى البحر المحيط في دائرة الجهاد، لتوقف تقدم الصليبيين نحو الشرق بل لتلقي بهم إلي البحر، ولهذا تتوالي النجدات على الصليبيين في تونس بدلا من مملكة عكا، وهو ما يدفع سلطان مصر إلي زيادة الضغط على مملكة عكا لتحقيق غرض مزدوج، شقه الأول

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول تجمع الحملة وتقدمها نحو تونس انظر:

L'Estoire d'Eracles, p. 458; Archer, The Crusades, p.441-450.

مكتبة المهتدين الإسلامية

تخفيف الضغط الصليبي عن تونس، والثاني وهو الهدف الأكبر وهو تصفية الوجود الصليبي في الساحل كله.

ومهما يكن من أمر لم يصل إلي مملكة عكا لنجدها سوى حملة الأمير إدوارد الـتي بلغ إجمالي المشاركين فيها نحو ١٠٠٠ رجل، وما أن وصل إدوارد إلي عكا حتى بـدا لـه ضعف المملكة وتدهور حالها، و إصرار التجار البنادقة على الاستمرار في تـصدير الـسلع الاستراتيجية من عبيد وحديد وخشب وغيرها إلي مصر، وحين أبدي اعتراضه أخرج لـه البايل البندقي في عكا قراراً من المحكمة العليا بالاستمرار في هده التجارة، وبالتالي لم يستطع إدوارد إنجاز شيء سوى مهاجمة الناصرة واللد والرملة وحصن قاقون فوق جبل الكرمـل، بالتعاون مع هيو الثالث ملك قبرص وعكا، ولما أدرك أن لا جدوا من متابعة الهجوم عاد إلي عكا، ورأى أن الحل لن يكون سوى بالتعاون مع المغول[1]، غير أن هدا الأمر لم يجد بشيء، فقرر عقد صلح مع الظاهر بيبرس في ٢٢رمضان ٦٧٠هـ (٢٢إبريـل ١٢٧٢م) لـمدة عشرة أعوام، وقرر العودة إلي بلاده غير أنه تعرض لمحاولة اغتيال على يد الحشاشين، إلا انه نجا منها، وما أن بريء من جراحه حتى عاد إلا بلاده ليعلم في الطريق أن والده قد مات وأنه صار ملكا على إنجلترا[2].

وهناك عدة أسباب حالت دون نجاح إدوارد في تغيير الوضع في مملكة عكا: أولا، صغر جيشه في مواجهة الظاهر بيبرس بكل إمكانياته وأعداد جيوشه التي يصعب حصرها. ثانيـا، فشل جهوده الدبلوماسية حين أراد التفاهم مع المغول لإحراج موقف الظاهر بيبرس، ثالثا، تعجله العودة إلي بلاده في ظل ما بلغه من نوم والده على فراش الموت وضرورة عودتـه إلي بلاده بأقصى سرعة.

---

(١) انظر الفصل الأول، ص٦٩.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٩٠، ٣٩٨-٤٠١. انظر أيضا:

The Templar of Tyre, p.67-69; L'Estoire d'Eracles, p461-462;The chronicle of Bury st. Edmunds, p.46-54. Cf. also, King, op. cit. p.270-272;Turner, "Unpublished Notices of the Edward I", pp.45-51; Rohricht,"La Croisade du prince Edward, de Angleterre", pp.617-629; Prestwich, Edward I, p. 72-80; Read, The Templar, p.233; Hindley, A History Of Armed Pilgrimage, p.206-207 ;Runciman.

وراجع أيضا؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٥٧٣-٥٧٩؛ زينب عبد المجيد، الإنجليز والحروب الصليبية، ص ٢١١-٢١٦.

http://www.al-maktabeh.com

وقد حاولت فرنسا في عهد فيليب الثالث ١٢٧٠-١٢٨٥م أن تظهر بمظهر عدم التفريط في القضية الصليبية فأرسلت في أكتوبر من عام ٦٧٥هـ (١٢٧٦م) السيد وليم روسيليني William Roussillon على رأس عدد من الفرسان والمشاة[1] لدعم الحامية الموجودة بالمملكة منذ ٦٥٢هـ (١٢٥٤م)، غير أن هذا الدعم ما كان أبدا ليوقف من التوسع المملوكي الذي عجزت الجيوش الكبرى عن صده.

على هذا فلم تقدم أوربا الدعم الكافي لمملكة عكا، ولم يؤخر نهايتها سوى وفاة بيبرس ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) وانشغال قلاوون بالمغول الذي ما لبث عقب فراغه منهم أن أنهى التواجد الصليبي في طرابلس عام ٦٨٨هـ (١٢٨٩م)، مما أثار موجة من الغضب في أوربا من جراء رسائل مملكة عكا التي حملها حنا جرايللي مبعوثا من ملك عكا وقبرص هنري الثاني[2]، غير أن أحدا لم يحمل السلاح ويخرج لمساندة مملكة عكا، ولم يحصل البابا نيقولا الرابع إلا على الوعود المعتادة من كبار ملوك أوربا بالخروج في المستقبل في حملة صليبية، ولم يستجب لهم سوى مجموعة من رعاع شمال إيطاليا من اللصوص والقتلة لم ينجزوا شيئا سوى القضاء على الهدنة مع قلاوون ليعطوا المماليك مبررا شرعيا لنقض الهدنة، لينهي الأشرف خليل كل شيء[3].

هكذا أتضحت لنا أوضاع أوربا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وأثر تلك الأوضاع على فكرة الحروب الصليبية داخل أوربا، ورد فعلها حيال التحديات التي تعاقبت على بقايا الكيان الصليبي في الساحل الشامي، ذلك الكيان الممزق الذي كان أشبه بالابن المبتسر ناقص النمو الذي سئمته أمه، ولم تعد تريد الالتفات إليه وتمنت الخلاص منه، وإن لم تصرح بذلك حتى لا يلومها الناس، ومن ثم تركته يصرخ ليلفظ أنفاسه الأخيرة، دون أن تكلف نفسها النظر إليه إلا من طرف عينها، تبكي عليه وتندب وتحمد الرب أن لفظ أنفاسه واستراح.

---

(١) The Templar of Tyre, p.70.

(٢) رنسيمان، الحروب الصليبية، جـ ٣، ص ٦٨٩.

(٣) The Templar of Tyre, p.101-102; Von Schem, Description of the holy land, p.55.

مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، جـ٢، ص٥٣٢؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ ٨، ص ٩٣.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفصل السادس

فشل مشروع التحالف الصليبي المغولي وصعود دولة المماليك البحرية

- فشل مشروع التحالف الصليبي المغولي:
  * مراحل المشروع.
  * أسباب فشل المشروع.
- صعود دولة المماليك البحرية:
  * مصادر قوة دولة المماليك.
  * إستراتيجية تصفية مملكة عكا.

انتهي الباحث في الفصل السابق إلى نتيجة مهمة مؤداها أن أوربا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) لم تكن على استعداد لتقديم تضحيات ذات قيمة تساعد في تدعيم ما تبقى للصليبيين في الساحل الشامي، وبالتالي لم تكن الاستجابة الأوربية متناسبة مع التحديات التي واجهت مملكة عكا مما عجل بنهايتها، وفي هذا الفصل يواصل الباحث دراسة بُعدين جديدين تركا أثرا واضحا في سقوط مملكة عكا في الفترة المذكورة، هذان البعدان تمثلا في فشل مشروع التحالف الصليبي المغولي، والعوامل التي ساعدت دولة المماليك البحرية على الإجهاز على ما تبقى من الكيانات الصليبية على أرض الساحل الشامي في بداية العقد الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي.

فشل مشروع التحالف الصليبي المغولي:

وفيما يخص البعد الأول والمتعلق بأسباب فشل مشروع التحالف بين الصليبيين وبين المغول، فدراسته من الأهمية بمكان، ذلك أن مشروع التحالف لو تحقق لوضع قوة المماليك الفتية بين شقي الرحى، ولأعطى الصليبيين أملا جديدا في استمرار البقاء في الساحل، إن لم يكن عودة حدود مملكة بيت المقدس إلى سابق عهدها قبل فتوح صلاح الدين. وفي الصفحات التالية يلقي الضوء على مراحل مشروع التحالف الصليبي المغولي، وأسباب فشل

http://www.al-maktabeh.com

هذا المشروع. وبصفة عامة يمكننا تقسيم تلك المحاولات إلى مرحلتين مختلفتين، الفاصل بينهما معركة عين جالوت ٦٥٩هـ (١٢٦٠م)(١).

وتبدأ المرحلة الأولى - ما قبل عين جالوت - من عام ٦٤٣هـ (١٢٤٥م)، وقد كان رائد هذه المرحلة البابا أنوسنت الرابع، الذي قرر تحويل مسار التعامل مع الكارثة المغولية التي اجتاحت شرق أوربا(٢)، من التأهل للمواجهة العسكرية، إلى محاولة احتواء المغول وتحويلهم إلى حلفاء، وربما أتباع، وذلك بإقناعهم بالمسيحية الكاثوليكية في ظل وجود تشابه بين ديانة المغول الوثنية والمعتقدات المسيحية(٣)، ووجود عدد كبير من المسيحيين النساطرة

---

(١) عن معركة عين جالوت انظر: أبو شامة، الذيل علي الروضتين، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢٠، تحقيق د.سهيل ذكار، دمشق، ١٩٩٥م، ص٤١١؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٦٥-٦٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ٢٤٨- ٢٥١؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٤٢٩- ٤٣٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ٧٨- ٨٠. وأيضاً:

L'Estoire d'Eracles, p.445; The Templar of Tyre, pp.38-39; Annales des Terre Saint, p.449. Cf. Also, Grousset, Histoire des Croisades , Tome III, pp. 586-587; Smith J. M., "Ayn Jalut: Mamluk Success or Mongol Failure?", in H.J.A.S., Vol. 44, No.2 (Dec., 1984), pp. 307-345.

راجع أيضا: محمد فتحي الشاعر، مصر قاهرة المغول في عين جالوت، القاهرة، د.ت.

(٢) بدأ المغول في غزو أوربا منذ عام ١٢٢٣م حين اجتاحوا جنوب روسيا، ثم اقتحموا روسيا نفسها بين عامي ١٢٣٦-١٢٤٠ وبولندا عام ١٢٤٠و١٢٤١ والمجر عام ١٢٤١-١٢٤٢م، لمزيد من التفاصيل حول غزو المغول لهذه الأماكن. انظر:

Mathew Paris, The English history, vol. II, pp.28-31. Cf. also: Saunders, op.cit., pp. 73-89; Guzman, "Simon of Saint-Quentin and the Dominican mission to the Mongol Baiju: A Reappraisal", in: Speculum, vol.46 (April, 1971), pp. 232-249

وراجع أيضا: عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا، ص ٣٥-٥٩.

(٣) ورد في رسالة المغول إلي حاكم موسكو أن هناك حاكماً واحداً للعالم، وأنهم يعتقدون أن " الرب وابنه في السماء، وجنكيز خان في الأرض" حسبما ذكر متي الباريسي، غير أن ماركو بولو كان أكثر إطلاعا علي ديانة المغول بحكم توغله في بلاده، ومن ثم قدم تفاصيل أكثر فائدة إذ يذكر أنهم:" يؤمنون بإله له طبيعة رفيعة وسماوية. وهم يحرقون البخور في المباخر، ويرفعون إليه الصلوات، ويعبدون آخر بالمثل يسمي " ناتيجاي " وهم يضمون إلي هذا الإله زوجة وأطفالا، واضعين الزوجة عن يساره والأطفال أمامه، وهم في وضع من التحية المترعة بالتوقير". وبصرف النظر عن التفاصيل فالتشابه واضح وقريب بين ديانة المغول وبين المسيحية من حيث وجود فكرة الإله والابن ومن ثم رأي البابا أن أساس العقيدة موجود وإن كان خطأ يمكن تصحيحه إلي الإله الحق بدلا من الإله الوثني. انظر: ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ترجمها إلي الإنجليزية وليم مارسدن، ونقلها إلي العربية عبد العزيز جاويد، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ١٣٧.
Matthew Paris, English History, vol. II, p.29.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الذين تولوا عدداً من المناصب المهمة في البلاط المغولي، بجانب زواج عدد من القادة المغول من نسطوريات، ناهيك عن تأثير أسطورة الكاهن يوحنا Prester John[(١)]، وما أشيع عن زواج جنكيز خان بإحدى حفيداته، بجانب إدراك البابا استحالة تَوحُد أوربا تحت قيادة واحدة، بسبب مشاكل الصراع البابوي الإمبراطوري، ووجود عدو مشترك للطرفين ألا وهو المسلمون[(٢)]، ومن ثم أرسل البابا أنوسنت سفارات أربع إلى المغول لتحقيق هذا الهدف: الأولى بقيادة الراهب الفرنسيسكاني لورنس البرتغالي Lawrence of Portugal في ٤ شوال ٦٤٢هـ (٥ مارس ١٢٤٥م)[(٣)].

أما السفارة الثانية فقد خرجت بعد السفارة الأولى ببضعة أيام في ١٢ شوال (١٣ مارس)، وعلى رأسها يوحنا بيان الكاربيني John of Pian del Carpine – وهو أيضا من

---

(١) أسطورة الكاهن يوحنا: دارت هذه الأسطورة حول وجود مملكة مسيحية نسطورية – خلف الدول الإسلامية وممالك والمغول – يمكن التعاون معها لوضع القوي الإسلامية بين شقي الرحى،والتي طالما دار حولها جدل واسع حول ما إذا كانت حقيقة أو ظل من حقيقة. هي في أغلب الظن أمنية أرادت الدوائر الدينية الأوربية من ورائها أن يجدوا وسيلة لتحفيز الأوربيين للمبادرة بالخروج لحرب المسلمين، الذين تلقوا علسى أيديهم هزائم متكررة دفعت بالكثيرين إلي التراجع عن حمل الصليب، ومن ثم أشيعت هذه الأسطورة، غير أن الأحداث في النصف الثاني من القرن الثالث عشر أكدت فشل تلك الأسطورة في تحقيق الغرض منها فلم يهب الشعب الأوربي ثانية لمساندة الكيانات الصليبية المتداعية في الشرق. لمزيد من التفاصيل حول أسطور الكاهن يوحنا انظر:

Nowll, "The historical Prester John", in: Speculum , vol. 28, no. 3 (jul., 1953), pp.435-455; De Rachewiltz , Papal envoys to the great khans , London , 1941, pp.14-40.

راجع أيضا: عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا، ص ١٨–٢٦.

(٢) Guzman, , "Simon of Saint-Quentin"., p.233.

(٣) كان هدف سفارة لورنس البرتغالي الأول هو التبشير بالمسيحية الكاثوليكية بين المغول، غير أن تلك السفارة التي لم تصل إلى بلاد المغول ولم تحقق هدفها، ولا نعرف علي وجه التحديد الأسباب التي منعت لورانس من مواصلة الرحلة إلى بلاد المغول والعودة إلى أوربا؛ دون تجاوز ميناء إياس الأرميني، مما يجعلنا نتفق مع الدكتور عادل هلال في ترجيح إلغاء البابا مهمة لورنس وتكليفه بمهام تبشيرية في مناطق أسيا الصغرى وبلاد الشام، علي أن يقوم بأمر السفارة إلى المغول من هو أخبر منه وأفضل إعدادا، وهو ما يوحي بتعجل البابا في إنفاذ هذا السفير دون الإعداد الكافي ربما بسبب ظروف أوربا ومشاكل الصليبين في الشام، ويرجح هذا الفرض أن السفارة الثانية قد خرجت بعد السفارة الأولي بأحد عشر يوما فقط، ومهما يكن من أمر فلم تصل تلك السفارة إلي مدي أبعد من ميناء إياس في أرمينيا. لمزيد من التفاصيل انظر: عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا، ص ٣٥–٥٩ ؛ محمود سعيد عمران، المغول والأوربيون والصليبيون وقضية القدس، الإسكندرية، ٢٠٠٣، ص ٣٠٧–٣٠٨.

Baldwin, "Mission in the Thirteen Century" , in: Setton, A History of the Crusades, vol.V, 472; Phaire, Papal Motivation for an Asian Apostolate ,pp.28-39.

http://www.al-maktabeh.com

الرهبان الفرنسيسكان – في ٢٧رمضان ٦٤٣هـ (١٦ إبريل ١٢٤٥م)، وقد استطاع هذا الرسول الوصول إلى بلاط الخان الأعظم، ليكون أول مبعوث أوربي يصل إلى هذا المكان[١].

أما عن السفارة الثالثة التي أرسلها البابا أنوسنت الرابع إلى المغول فكانت تحت قيادة أندريه لونجيجيمو Andrew of Longiumean الراهب الدمنيكاني، وقد خرجت في توقيت قريب من السفارتين السابقتين، ولم يمض أبعد من تبريز[٢] حيث التقي بقائد فرقة مغولية صغيرة سلمها الرسائل وعاد من حيث أتي دون لقاء أي مسؤول مغولي كبير[٣]، أما السفارة الرابعة فهي سفارة أسلين اللومباردي Ascelin ، وقد خرجت في توقيت قريب من سفارة أندريه، ووصل إلى تبريز حيث مقر بايجو Baiju القائد المغولي – حيث سلمه رسائل البابا بناء على أوامر بتسليم هذه الرسائل إلى أول من يقابله من قادة المغول– وعاد وهو يحمل رداً محزناً يحتم على البابا وملوك الغرب الخضوع للمغول[٤].

---

(١) اختلفت سفارة الكاربيني عن سفارة أسلين من حيث الهدف قليلا، حين جعل من أهدافها إقناع المغول بوقف توسعاتهم وتوجيههم نحو قتال المسلمين، بجانب جمع مزيد من المعلومات حول المغول، وهو ما يفسر لنا سبب تدوين يوحنا لأخبار رحلته، ناهيك عن محاولة إقناع المغول بالمسيحية، وبالرغم من وصول هذه الحملة إلى بلاط الخان الأعظم كيوك Guyuk في قراقورم، إلا أنها باءت بالفشل الذريع، في ظل طلب الخان من البابا وجميع ملوك أوربا المثول في حضرته وتقديم فروض الطاعة والولاء، ومن ثم لم تحقق هذه السفارة من أهدافها سوي الهدف الأخير وهو جمع مزيد من المعلومات حول المغول وقد بدا ذلك واضحا مما دونه يوحنا عن المغول. انظر:

John Of Plano Carpini, History of the Mongols; in: Dawson, Mission to Asia, Toronto, 1980, pp.3-72. Baldwin, " Mission in the Thirteen Century", p. 473; Cahen (Claud), "The Mongols and the Near East", in Setton, vol. II, p.722 De Rachewiltz , Papal Envoys, pp. 89-110.

(٢) تبريز: هي مدينة تقع في شمال غرب إيران، شمال جبل سهند، وتقع على بعد ٢٠٠ كيلومتر جنوب مراغة، و ٣٠٠ كيلومتر جنوب مهاباد، كما تبعد عن شمال غرب خوي بحوالي ١٥٠ كيلومتر;, . وكانت تعد في العصور الوسطى عاصمة إقليم أذربيجان، كما كانت " مدينة عامرة ذات أسوار محكمة بالآجر والجص، وفي وسطها عدة أنهار جارية، والبساتين محيطة بها والفواكه بها رخيصة" انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٢، ص ١٣؛ مادة تبريز في دائرة المعارف الحرة علي الانترنت. http://ar.wikipedia.org

(٣) Guzman, "Simon of Saint-Quentin", pp235-7; De Rachewiltz , Papal envoys, pp.112-114.

(٤) والحقيقة أن أسلين هو المسؤول الأول عن فشل سفارته بسبب فقدانه للكياسة في الحوار مع القائد المغولي وكبار موظفيه حين كرر مرارا أن البابا هو أعلي قدرا من أي سلطة أخري علي وجه الأرض، كما رفض الركوع

مكتبة المهتدين الإسلامية

مما سبق يخلص الباحث إلى أن أنوسنت قد سعي إلى تحويل المغول إلى المسيحية، وكانت أداته في ذلك سفارات أربع، علي رأس كل منها اثنان من الرهبان الفرنسيسكان وآخران من الدمنيكان نظرا لخبرتهم الواسعة في هذا المجال، غير أنه لم يصل منهم إلى بلاط الخان الأعظم، سوى سفارة واحدة وهي سفارة يوحنا الكاربيني، وبالرغم من جهود الرهبان ومرافقيهم إلا أنهم جميعا عادوا خائبين، ومن ثم فشلت مساعي أنوسنت الرابع في ترويض المغول وإقناعهم بالمسيحية الكاثوليكية في هذه المرحلة، غير أنه استطاع الحصول على قدر كبير من المعرفة بالمغول لم يكن متاحا من قبل، من خلال ما دونه يوحنا الكاربيني وسيمون سانت أكواتين المرافق لسفارة آسيلين.

وثمة تساؤل يطرح نفسه قبل الاسترسال في استعراض باقي المرحلة تتمثل في أسباب إرسال البابا لأربع سفارات إلى المغول في توقيت واحد تقريباً ؟ ثمة أمران يرجح أنهما سبب تصرف البابا على هذا النحو: الأول هو خطورة الطريق وجهل الغرب الأوربي به، ومن ثم إرسال أكثر من سفارة يعطي فرصة أكبر للوصول إلى الهدف، بجانب أن تنوع انتماءات الرسل وعلمهم بخروج بعضهم يعطيهم قدرا كبيرا من روح المنافسة والإصرار على النجاح؛ نظرا لما يعود على الهيئة التي يتبعونها من أرباح مادية ومعنوية. الأمر الثاني وهو غرض تجسسي بحت أراد البابا من ورائه الحصول على أكبر قدر من المعلومات الأكيدة عن المغول، وإمكانياتهم الفعلية عن طريق عدد من السفراء يسلكون سبلا مختلفة، وبالتالي يمكن المطابقة بين ما يحملون من أخبار.

أما ثاني من اهتم بمشروع التحالف الصليبي المغولي في مرحلة ما قبل عين جالوت، فكان لويس التاسع الذي رأي في المغول حليفاً قوياً يساعد على دمار المسلمين، واستعادة ما فقده

=أمام القائد،والمغول مازالوا في أوج مجدهم، ومن ثم كان للموت من نصيبه لولا تدخل كبيرة زوجات الخان بايجو Baiju النسطورية ومبعوث الخان الأعظم المسمي بالجيجداي Eljigidei الذي طلب من بايجو كتابة رد علي رسائل البابا تتشابه مع رد الخان كيوك علي يوحنا الكاربيني، وأرسل معه رسولين إلى البابا يرجح أنهما كانا للتجسس علي أحوال أوربا والبابوية التي كانت مجهولة للمغول في ذلك الوقت. انظر:

Guzman, "Simon of Saint-Quentin", pp.235-; Baldwin, "Mission in the thirteen century" , p.474; De Rachewiltz , Papal envoys, pp.115-118

http://www.al-maktabeh.com

الصليبيون من مغتصباتهم القديمة، وقد شجعه على ذلك خبر مكذوب بأن كيوك الخان الأعظم ٦٤٤-٦٤٧هـ (١٢٤٦-١٢٤٩م) قد تنصر[١]، ومن ثم اعتقد لويس أن التحالف صار وشيكا مع المغول فأرسل سفارة إليهم، اختار لها أندريه لونججيمو السفير البابوي السابق للمغول، محملا ببعض الهدايا التي اعتبرها المغول دليل تبعية، فطلب المغول متابعة إرسال مثل هذه الهدايا لضمان الرضا عن لويس، وعاد أندريه لونججيمو وسفارته إلى لويس بعد عامين ليجدوه في عكا يضمد جراحه التي أصيب بها في المنصورة، فجرحوه جرحا جديدا بفشل سفارته إلى المغول التي اعتبرت دليل تبعية وليست جسرا للصداقة[٢].

ومهما يكن من أمر فلم تكن سفارة أندريه لونججيمو هي الأخيرة من قبل لويس، فقد أرسل الملك لويس التاسع سفارة ثانية عام ٦٥٠هـ (١٢٥٢م) إلى المغول، في ظل الأوضاع السيئة التي كانت تعاني منها الكيانات الصليبية في بلاد الشام، وسلبية الردود التي واجهتها طلبات لويس بالحصول على الدعم سواء من بلاده أو البابوية[٣]، فلم يجد أمامه سوى القيام بمحاولة يائسة لإعادة التفاهم مع المغول. وقد شجعه على ذلك ما أشيع عن اعتناق سرتاق أمير مغول القبيلة الذهبية[٤] للمسيحية، فقرر لويس التحقق من الأمر لعله

---

(١) يرجح الباحث أن الملك لويس قد خدع علي يد جاسوسين أرمينيين، أرسلهما الجيجداي — قائد مغول فارس— يحملان رسالتين إحداهما شفوية والأخرى مكتوبة تذكر أن — الخان الأعظم – كيوك خان قد تنصر وأرسل الجيجداي لمساعدة الصليبيين في الأراضي المقدسة، ومن هنا اعتقد لويس أن التحالف صار وشيكا مع المغول، فأرسل سفارة إلى المغول. انظر :جوانفيل، القديس لويس، ص ٨٣–٨٥؛ متي الباريسي، التاريخ الكبير، ق٥، ترجمة د.سهيل ذكار، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٤٠، دمشق،٢٠٠١م، ص ١٨٨٢ . وانظر الترجمة العربية للخطاب في الملحق رقم (٣)، ص ٣٨٠.

(٢) جوانفيل، السابق، ص ص٢١٨–٢١٩.

(٣) جوزيف نسيم، العدوان الصليبي علي بلاد الشام، ص ١١٥.

(٤) مغول القبيلة الذهبية (القفجاق): هم جماعة من القبائل المغولية، كانت تسكن الهضاب الروسية، وهم أبناء جوجي بن جنكيز خان، الذي كان من نصيبه مناطق من تركة والده مناطق غرب بحر قزوين، وحوض نهر الفلجا، حيث أسس في هذه المنطقة دولة المغول القفجاق، الذين اشتهروا أيضا باسم القبيلة الذهبية، Golden Hored نسبة إلي الخيام التي كانوا يسكنونها وكانت تطلي باللون الذهبي. وانتشر الإسلام بين أبناء هذه القبيلة عقب اعتناق بركة خان بن جوجي له، وهو ما يسر أمر التفاهم مع دولة المماليك، وقد نشأ الخلاف بين مغول القبيلة الذهبية وبين هولاكو وورثته من بعده بسبب استيلاء هولاكو علي آذربيجان وهو من حق ورثة جوجي، لمزيد من

مكتبة المهتدين الإسلامية

يكون فاتحة خير للتحالف مع المغول؛ ليقوموا بما عجز الغرب الأوربي عنه حيال الكيانات الصليبية المتداعية في بلاد الشام، واختار لهذه المهمة الراهب الفرنسيسكاني ولـيم ربـروك William of Rubruck، وجعل في رفقته راهب دومنيكاني يسمي بـارثيلميو الكـاريموني Bartholomew of Carmona، وبالفعل سارت السفارة إلى بلاط سارتاق الذي فـوجيء بالسفارة الفرنسية وما تطلبه من التعاون ضد المسلمين، وما تتحدث عنـه مـن اعتناقـه للمسيحية، فقرر الخلاص من السفارة بإرسالها إلى بلاط الخان الأعظـم مـانكو ٦٤٩-٦٥٩هـ (١٢٥١-١٢٦٠م) وبالفعل وصلت السفارة في رجب ٦٥١هـ (سبتمبر ١٢٥٣م)، غير أنها لم تخرج بردٍ مُرضٍ من الخان وعادت خاوية الوفاض[1]. وبالتالي في حالة تقييم هذه السفارة فإننا نضمها إلى السفارات الأوربية الفاشلة إلى البلاط المغولي، والـتي لم يجن منها الأوربيون سوى مزيد من المعلومات عن أخبار المغول وجغرافية بلادهم المجهولـة لديهم في قطاع كبير منها.

ومهما يكن من أمر فإنه بفشل هذه السفارة تنتهي المرحلة الأولى من السفارات المتبادلة بين الأوربيين والمغول، والتي بدا من خلالها فشل مساعي الأوربيين لإيجاد أرضية مـشتركة للتفاهم مع المغول. وبالرغم من هذا الفشل الدبلوماسي إلا أن هذه السفارات كانت مفيدة في الجانب المعلوماتي والاستخباراتي، أدرك منه الأوربيون حجم قـوة المغـول، وضـخامة إمكانياتهم البشرية والمادية.

أما عن اتصالات ما بعد عين جالوت، فكما كان انتصار المماليك في عين جـالوت - ٦٥٩هـ (١٢٦٠م)- بداية لانحسار موجة المد المغولي الذي نشر الرعب والدمار في كـل مكان، فإنه أيضا كان سببا في حدوث تحول في مسار الاتصالات المغولية الأوربية، بغـرض

=التفاصيل انظر: صبري أبو الخير سليم، قيام دولة المغول القفجاق في روسيا وسياستها الخارجية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م؛ فؤاد الصياد، الشرق الإسـلامي في عهـد الإلخـانيين، ص٤١.

Spuler (Bertold), Die Golden Hord die Nongolen in Eubland, Wiesbaen, 1965.

(١) William of Rubruck, The Journey of William of Rubruck, in: Dawson, Mission to Asia, London, 1980, pp.89-223; Rachewiltz, Papal envoys, pp.125-142.

http://www.al-maktabeh.com

التفاهم لإيجاد وسيلة لبناء الثقة المتبادلة لتوحيد جهودهما لضرب المسلمين، في ظل الصراع بين هولاكو ٦٥٤-٦٦٤هـ (١٢٥٦-١٢٦٥م) وبين أقاربه والتي ومنعته من الثأر من المماليك. أما ابرز السفارات في هذه المرحلة فقد جاءت على يد هولاكو وولـده أبغـا[١] وحفيده أرغون[٢] فما أن دمر الجيش المغولي في عين جالوت حتى حدث تطور في السياسة المغولية تجاه الغرب الأوربي – في أمر التحالف المضاد للمسلمين– حين أرسل هولاكو سفارة إلى ملك فرنسا عام ٦٦١هـ (١٢٦٢م) تحمل خطابا يطلب منه فيه توجيه نظر الصليبيين في الشام إلى استخدام قوقم البحرية لضرب المماليك في حالة تقدم القوات المغولية لضربهم، وبالتالي يقع المماليك بين شقي الرحى وتسحق قوهم[٣]، غير أن هذه السفارة لم يكتب لهـا النجاح[٤].

(١) أبغا خان: هو الأبن الأكبر لهولاكو خان وأمه تسمي سونجين خاتون، كانت تقيم في منغوليا ثم انتقل بعـد ذلك إلي إيران، اختاره هولاكو واليا لعهده، ثم خلف والده في حكم دولة مغول فارس منذ ٦٦٤هـ (١٢٦٥م) حتي توفي ٦٨١هـ (١٢٨٢م)، لمزيد من التفاصيل عنه، انظر، رشيد الدين، جـامع التـواريخ، جـ١، ص ٢٢٣ومابعدها؛ فؤاد الصياد، الشرق الإسلامي في عهد الإلخانيين، ص ٣٣-١١٧؛ عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، (٢٠٥هـ/ ٨٢٠م- ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م)، ترجمة وتعليق د.محمد علاء الدين منصور، مراجعة د.السباعي محمد السباعي، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٤٤٣-٤٤٩.

Howorth, History of the Mongols, part III, pp.218-284; Saunders, The history of the Mongols, p129

(٢)أرغون خان: هو الابن الأكبر لأبغا خان بن هولاكو، و رابع خانات المغول الإلخانيين حكام فارس، تولي الحكم عقب اغتياله لعمه أحمد تكودار ٦٨٣هـ (١٢٨٤م)، وقد توفي مشلولا في نهاية حياتـه عـام ١٢٩١م (٦٩٠هـ) علي إثر تعاطيه لتركيبة كميائية زعم المحيطون به من البوذيين أنها تطيل العمر، وقد فشل أرغـون في التحالف مع أوربا، كما فشل في فل شوكة المماليك، وقد كان شغوفا بالعمارة فترك عدداً كبيراً مـن المنـشآت والقصور في تبريز وغيرها من بلاد الخانيين. لمزيد من التفاصيل عنه انظر: رشيد الدين، جامع التواريخ، مجلـد٢، جـ٢، ص ١٢٣-١٦٧؛ وانظر أيضا، فؤاد الصياد المرجع السابق، ص ١٥١-٢٠٤؛ عباس إقبـال، المرجـع السابق، ص ٤٥٢-٤٥٤.

(٣) Meyvaert, "An unknown letter of Hulagu, Il-Khan of Persia to king Louis IX of France", in Viator, (Vol.11, 1980), pp.245-261 ; Richard, The Crusades, p.421 .

(٤) لم يحدث أن وصلت الرسالة المذكورة أبدا إلي يد ملك فرنسا، ذلك أن هذه الرسالة قد وقعـت في يـد مانفرد هوهنشتاوفن عدو البابوية اللدود، ومن ثم منع وصولها إلي يد البابا، وقد استطاع أحد أفراد البعثة حاملـة الخطاب والمسمي بجون الهنجاري John the Hungarian، الفرار إلي البابا أوربان الرابع وحكـي لـه فحـوي الخطاب، فما كان من أوربان الرابع سوي كتابة رسالة إلي هولاكو يطلب منه التعميد، إذا كان حقـا يرغـب في

مكتبة المهتدين الإسلامية

وإذا كان هولاكو عقب عين جالوت قد حاول التفاهم مع الغرب للإطباق علي المماليك– تلك الصخرة التي تحطمت عليها أسطورة الجيش المغولي الذي لا يقهر– فقد صارت المسألة أشد إلحاحا في عهد ولده أبغا خان ٦٥٤-٦٨١هـ (١٢٦٥-١٢٨٢م) ويرجع ذلك إلى عدة أمور: أولا، تصاعد خلافاته مع المغول القفجاق في الشمال، ثانيا تهديد المغول الجغتائيين[١] له من الشرق، ثالثا، مشاكله مع المماليك في الغرب الغرب[٢]: إذن وجد أبغا نفسه في حالة لا يحسد عليها ومن ثم حاول بكل السبل الصمود في هذه الجبهات الثلاث فبحث عن حلفاء، ولم يجد بداً من إعادة فتح باب التفاهم مع الغرب الأوربي وفي هذا الإطار، أرسل سفارات أربع أعوام٦٦٥هـ (١٢٦٧م)[٣].

=التنصر طبقا لما رواه جون الهنجاري، نظرا لضياع الرسالة الأصلية التي أرسلها، وعليه يجب أن يرسل كل هذه التوضيحات إلي المندوب البابوي في مملكة بيت المقدس (عكا)، وسوف يتولى هو اتخاذ اللازم حيال تنصر هولاكو، ومهما يكن من أمر فلم يرد هولاكو علي رسالة البابا ومات ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) دون رد إيجابي علي رسالة البابا. انظر

Howorth, history of the Mongols, vol.III, p210; Boyle, "the Il-Khans of Persia and the Christian west", in H. T., XXIII, 8 , 1973, p.556

وراجع أيضاً عادل هلال، العلاقات بين المغول وأربا، ص ١٠٦-١٠٧

(١) الجغتائيين: نسبة إلي جغتاي أكبر أبناء هولاكو، وكانت أملاكهم تمتد بين بلاد الإيغور وأقاليم ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنة، وكانوا علي خلاف دائم مع الإلخانيين وطالما هددوا حدود الخانيين من الشرق، انظر، فؤاد الصياد، الشرق الإسلامي في عهد الإلخانيين، ص ٤٤.

(٢) رشيد الدين، جامع التواريخ، مجلد٣، جـ٢، ص ١٣-٨٢؛ ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، جـ٣، ص ١١٠. راجع أيضا: فؤاد الصياد، المرجع السابق، ص ٤١-٨٠.

(٣) وكانت أولي المحاولات لإتمام هذا التحالف الصليبي المغولي في عهد أبغا خان السفارة التي أرسلها عام ٦٦٦هـ (١٢٦٧م) إلي البابا كليمنت الرابع، ونظرا لأنها كتبت بالمغولية، فلم يتمكن أحد من ترجمتها الترجمة الصحيحة، ومن ثم أطلق حامل الرسالة لنفسه العنان ليحقق غرض الرسالة، وهو عقد تحالف مغولي أوربي ضد المماليك في مصر، فادعي اعتناق أبغا للمسيحية، ولما لم تكن ظروف أوربا تسمح بالتحالف الفعلي، فقد ركز البابا في رده علي قضية التنصر، ولم يحدد معالم معينة لطريقة إتمام التحالف، وطلب أن تدون الرسائل التالية باللغة اللاتينية. وهكذا لم تثمر المحاولة الأولي لأبغا للتحالف مع الغرب عن نتيجة واضحة، بسبب مشكلة عدم وجود من يستطيع الترجمة بدقة عن المغولية إلي اللاتينية، وعدم فهم البابا لمحتوي الرسالة علي نحو دقيق، بجانب أن البابا لا يستطيع الوعد بتحالف لا يملك مقوماته المادية والبشرية. انظر:

Howorth, history of the Mongols, pp.278-279; Boyle, "the Il-Khans of Persia", p556 ; Sinor," Mongols and western Europe",p530

انظر أيضا: محمود سعيد عمران، المغول والأوربيون، ص ٣٤٨.

http://www.al-maktabeh.com

و ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) [1] و٦٧٣هـ (١٢٧٤م)[2] و ٦٧٦هـ (١٢٧٧م)[3] لتحقيق هذا الغرض غير أنه لم يكتب لإحداها النجاح.

---

(١) جاءت سفارة عام ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) عقب فتح الظاهر بيبرس لإنطاكية، فاعتقد أبغا أن ذلك سوف يثير الغرب، ويدفعه إلي إرسال حملة صليبية كبرى، تكون فرصة للإطباق علي المماليك، لكسر شوكتهم أو سحقهم إن واتتهم الظروف، ومن ثم كتب إلي البابا كلمنت الرابع لتنظيم أمر الحملة المشتركة، غير أن السفارة وصلت عام ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) في وقت مات فيه البابا، ولم تجد من تقابله، فسار الرسل إلي ملك أراجون، الذي كان قد أشيع عزمه علي الخروج في حملة صليبية، ويبدو أن ملك أراجون كان جادا في حملته الصليبية، ومن ثم أرسل بعد قليل عدد من الرسل إلي أبغا، لتنسيق هجوم مشترك علي المماليك، وكما فشلت المحاولة الأولي فشلت هذه المحاولة أيضا، فقد تراجع ملك أراجون عن حملته كما قدمنا، أما جيش لويس فقد أكلته الأوبئة فوق رمال تونس، ولم يواصل الطريق سوي إدوارد بن ملك انجلترا الذي وصل بالفعل إلي عكا ٦٦٩هـ (١٢٧٠م). انظر:

Boyle, "The Il-Khans of Persia", p.557.

وأيضا: عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا، ص ١١٢.

(٢) أرسل أبغا وفدا إلي مجمع ليون٦٧٣هـ (١٢٧٤م)، وقرأت رسائل أبغا أمام مجمع ليون، والتي دارت حول ضرورة التحالف ضد المسلمين، وركز التقرير علي خبر تدمير الخلافة العباسية علي يد المغول وإخضاعه لسلاجقة الروم وبلاد الشام، وادعي التقرير أن أبغا قد انتصر علي أعدائه الذين يفوقون ملك مصر عددا وعدة ولم يبق سوي ملك مصر، واقترح السفراء إرسال الأوربيين سفراء إلي أبغا لدراسة وسائل عقد التحالف. ومهما يكن من أمر فلم تؤد هذه السفارة إلي نتيجة ذات قيمة، بالرغم من تعميد ثلاثة من رسل المغول أمام المجمع، جلبا لعطف القوي الغربية، غير أنه في ظل وفاة البابا عام ٦٧٥هـ (١٢٧٦م) دخلت كل خططه معه القبر. انظر:التقرير الذي قرأه سفير أبغا خان أمام مجمع ليون الثاني (المجمع المسكوني الرابع عشر، ١٢٧٤م)، ضمن كتاب عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٣) ومع سوء أحوال الإلخانيين وتشديد بيبرس الضغط علي أتباعهم من سلاجقة الروم، أرسل أبغا سفارة إلي ملوك الغرب ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) كمحاولة رابعة للتحالف مع الغرب ضد المماليك، وصلت إلي ملك فرنسا ثم ملك الجلترا، ويذكر صاحب حولية Bury st. Edmounds أن عدد السفراء الذين وصلوا إلي إنجلترا بلغ ستة ومعهم المترجمين، تحمل رسائل تعبر عن أسف أبغا عن عدم مشاركته بنفسه في الحملة المغولية علي سورية عام ٦٧٠هـ (١٢٧١م) مما حال دون لقائهما في عكا، ثم طلب مساعدته لقتال المسلمين، غير أن هذه السفارة لم تنل إلا التقدير دون أي وعد بعمل عسكري مشترك حيال المسلمين، ولم يرد الغرب إلا بعدد من المبشرين في ظل إصرار البابا نيقولا الثالث علي التنصر قبل التحالف، بعدما أرسل عدد من المبشرين إلي أبغا لتعميده شخصيا ثم التبشير بين شعبه بالمسيحية الكاثوليكية، ولم يكن ذلك سوي رفض للتحالف وهروب من حملة صليبية لا يريدها البابا وملوك الغرب ؛ ومن ثم قرر أبغا القيام بعمل منفرد حيال المماليك فأرسل حملة علي حمص بقيادة منكوتمر ٦٨٠هـ (١٢٨١م) استطاع قلاوون التصدي لها وقتل منكوتمر وهو يفر من المعركة، وتوفي أبغا ٦٨١هـ (١٢٨٢م) حزنا وكمدا علي ما جناه من محاولة التفاهم مع الغرب. انظر:

The Chronicle of Bury st. Edmonds, p.63. Cf. also: Howorth, History of the Mongols, part III, p 281;Throop, Criticism of the Crusades, 280 .

مكتبة المهتدين الإسلامية

أما عن عهد أرغون بن أبغا فقد واصل سياسة والده في محاولة التفاهم مع الغرب وإيجاد وسيلة للتحالف ضد المماليك[1]، في ظل عجز الإلخانيين عن كسر شوكتهم نظرا لمشاكلهم الخارجية التي منعت تفرغهم لقتال المماليك وسياسة التوسع غربا، ومن ثم أرسل سفارات أربع متتالية مثل والده إلى أوربا، الأولى عام ٦٨٤هـ (١٢٨٥م)[2] والثانية ٦٨٦هـ (١٢٨٧م) [3].

---

(١) Sinor," Mongols and western Europe",p.531.

(٢) توجهت هذه السفارة إلي البابا هونوريوس الرابع وأرخت ب١٥ مايو ١٢٨٥م، وضح فيهـا أرغـون الخطة التي وضعها الخان الأعظم قبيلاي، التي تنص علي تنسيق هجوم أوربي مغولي علي مصر والشام، في توقيـت واحد، ، ولما كان البابا عاجز عن حل مشاكل أوربا لم يكن بوسعه الوعد بأي تحالف مع المغول ، ومن ثم لتفق مع الدكتور عادل هلال حول أن البابا قد صرف السفراء إلي المغول دن رد مكتوب، ولم يسمح لهم بالتجول في أوربا حتي لا يطلعوا علي نيران الفتن التي تفتك بهم، وبالتالي لم نجد رداً مكتوباً علي سفارة أرغون هذه. انظـر: فـؤاد الصياد، الشرق الإسلامي، ص ١٩٢؛ ١٢٠؛ عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوروبا، ص ١٢٠. وأيضاً:

Sinor, "Mongols and western Europe",p.531.

(٣) لم ييأس أرغون من فشل سفارته السابقة وعليه فقد قرر اختيار مبعوث أكثر ثقة وأكثر علمـا بالديانـة المسيحية، فوقع اختياره علي الراهب النسطوري روابان صوما Rabban Mar Sauma، ليرسله سفيرا إلي البابا في روما بغرض عقد تحالف لتحقيق الحلم الذي طالما رواد أباه من قبل، ذلك التحالف الذي يضع المماليك في مـصر والشام بين شقي الرحي، ولما وصل روبا صاوما إلي بلاط البابا هونوريوس الرابع ألفاه قـد مـات في ٣ إبريـل ١٢٨٧، ومن ثم اجتمع به مجلس الكرادلة – المكون من أثني عشر كردينالا الذين لم يكونوا قد اختـاروا أحـد لمنصب البابا بعد– فدخل معهم في مناقشات لا هوتية صرفه، وبعدها، أذنوا له بالرحيل إلي ملك فرنسا فيليـب، فتوجه للقائه في نهاية أغسطس ١٢٨٧م الذي أحسن استقباله، وتسلم منه رسائل أرغون وهداياه، وبعد جولة في باريس أبلغه الملك أنه سوف يرسل معه سفيرا إلي المغول، لدراسة هذا الأمر مع أرغون، بعدها سـار صـاوما إلي الملك إدوارد الذي كان مقيما في أملاكه الفرنسية في بوردو Bordeaux – في ذلك الوقت – وقد فـاق حـسن ترحابه ما فعله ملك فرنسا، غير أنه عاد من عنده دون أن يحقق غرض سفارته. وحين عاد إلي روما ألفـي البابـا نيقولا الرابع قد توج لكن لم ينلٍ منه سوي إرسال عدد من المبشرين وعدد مـن الرسـائل لأرغـون وزعمـاء النساطرة. . حول تفاصيل تلك السفارة انظر:

Rabban Sawma, The Monks of Kublai Khan, pp182-196. C.F. Ryan, The Interrelation of the Oriental, pp.18-25; McLean, "An Eastern Embassy to Europe in the Years 1287-8", in E.H.R, vol.14, no. 54 (Arr., 1899), pp.307-313; Ryan, The Interrelation pf the Oriental, pp.9-13

راجع أيضا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣ ص ٦٧٥؛ فؤاد الصياد، الشرق الإسلامي، ص ١٩٤؛ عادل هلال، العلاقات بين لمغول وأوربا، ص ١٢٠–١٢٢.

http://www.al-maktabeh.com

والثالثة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م)[1] والرابعة نهاية عام٦٨٩هـ (١٢٩٠م)[2] يلح فيها بشدة على ضرورة القيام بعمل عسكري مشترك لسحق دولة المماليك، غير أن السفارات الأربع لم تكن أحسن حظا من نظيراتها في عهد والده أبغا.

---

(١) بالرغم من فشل سفارة روبان صاوما لم ييأس أرغون واستغل فرصة فتح المنصور قلاوون لطرابلس ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) وأرسل سفارة بقيادة جنوي اسمه بوسكارلو جيزولف Buscarello of Gisulfo وحمله رسائل بالغة المغولية إلي البابا وملكي فرنسا والجلترا، يحاول أن يحرج فيها ملوك الغرب إذ وضع بنفسه جدولا زمنيا لحملة علي الشام في يناير ١٢٩١م، وأنه إذا أرسل الغرب جيوش لمساندة المغول وقاموا بغزو مصر حال غزو المغول للشام فسوف يسلم إليهم القدس حال أخذها من يد المماليك، أما إذا تكاسلوا عن المشاركة وفشلت الحملة فسوف ينزل بهم عقاب أرغون، وحاول تقديم كل المغريات ليخرج ملك فرنسا في حملة صليبية، منها كما جاء في رسالة أرغون له أن سوف يخرج في حملة علي الشام وسوف يهب اثنان من ملوك جورجيا المسيحيين التابعين له في صحبتهما ما يزيد علي العشرين ألف فارس، وتوفير من ٢٠٠٠٠ إلي ٣٠٠٠٠ حصان للجيش الفرنسي المشارك في الحملة كهدية أو بثمن مخفض للغاية، بالإضافة إلي عدد كبير من البقر والثيران والجمال، كما أشار إلي حسن معاملته للمسيحيين ومصاهرته لبيت جورجيا الحاكم إذ تزوجت أخته من ابن داود ملك جورجيا وصارت مسيحية، لكن كل تلك المغريات لم تكن لتدفع فليب الجميل ملك فرنسا إلي الخروج في حملة صليبية في ظل مشاكله مع أراجون ودعمه للأنجويين لاستعادة صقلية المنزوعة منهم، وأخيرا الذكريات الأليمة التي خلفها الحماس الصليبي للويس التاسع في مصر وتونس، حتي ظهر تيار قوي في فرنسا يعادي الحرب الصليبية في الشرق خاصة بين المشاركين القدامى من أمثال جوانفيل، أما ملك انجلترا والذي وصلته سائل مشبهة لما وصل ملك فرنسا فقد كان لديه ما يكفيه من مشاكل بلاده ومسألة الحرب الاسكتلندية ما يمنعه من ترك بلاده ليحارب في ارض بعيدة سبق له الفشل فيها، فاكتفي بإنفاذ الهدايا إلي العاهل الإلخاني، وشكره علي ما عرض من تسهيلات في سبيل غزو الأراضي المقدسة، دون تحديد موعد محدد للخروج في حملة صليبية ومن ثم عاد بوسكارلو إلي روما خاوي الوفاض ,غير أن بوسكارلو بعد لقاءه بالبابا وبملكي انجلترا وفرنسا عاد دون رد مبشر إلي أرغون، فلم تتحسن أحوال الغرب حتى يستطيع أن يقدم جديدا للشرق الصليبي، ومن ثم انضمت تلك السفارة إلي المحاولات الفاشلة للتحالف الصليبي المغولي. لمزيد من التفاصيل انظر: خطاب أرغون إلي فيليب الرابع عام ١٢٨٩، في: عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوروبا، ص ٢٨٤. وأيضا:

The Templar of Tyre, pp.100-101. Cf. also: Ryan, The interrelation of the oriental , p.71-82; Turner, "Unpublished notices of the Edward I , especially of his relation with the Mongols sovereigns of Persia" , in A.J.(vol. VIII, 1851) , p.48.

راجع أيضا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣ ص ٦٧٧-٦٧٨.

(٢) سفارة ٦٨٩هـ (١٢٩٠م):أرسلها أرغون مع نفس المبعوث السابق بوسكارد، ومعه اثنين من المغول، يحملون رسائل حول نفس موضوع السفارة السابقة، هذا ويري الباحث سورنزو أن بوسكاريللو لم يرجع إلي الخان عقب سفارته الأولي لأن الوقت بين نهاية السفارة الأولي ومجيء السفارة الثانية لا يكفي لرحلة الذهاب إلي البلاط الإلخاني والعودة منه، وهو ما يجعلنا نتفق مع الدكتور عادل هلال فيما ذهب إليه من أن بوسكاريللو قد بقي في إيطاليا حتي جاءت سفارة أرغون والتقي بها في إيطاليا، ومهما يكن من أمر فقد جاءت السفارة الثانية فرافقها

مكتبة المهتدين الإسلامية

ومهما يكن من أمر فيمكن إجمال عدد من الأسباب لفشل محاولات التحالف الصليبي المغولي في التالي:

١- الصدام الأيديولوجي بين الطرفين: فلقد تزامنت الاتصالات البابوية الباكرة مع فورة التوسع المغولي، وما ارتبط بها من أساطير الجيش المغولي الذي لا يقهر، وأن مؤسس دولتهم جنكيز خان هو ممثل الله على الأرض، وأن ما يفعلونه من دمار وخراب هو إرادة الله وهم منفذوها، ومن ثم يجب على جميع حكام الأرض الخضوع للمغول خضوعا لأمر الرب(١)، وهي نغمة ظلت مصاحبة لكل الردود المغولية حتى انتصار المماليك في عين جالوت(٢)، التي لم تقض على هذه النغمة تماما لكنها بدأت في التراجع، كما ظهر من رسالة هولاكو إلى الغرب طالباً التعاون بين الغرب والمغول لكسر المماليك، وهو مطلب لم يكن ليتقدم به قبل عين جالوت في ظل ارتفاع المد الأيديولوجي، غير أنه هدد في حالة عدم الاستجابة فسوف تكون الدائرة على الغرب حين يفرغ هولاكو من أمر المماليك(٣)، وبالرغم من أن أرغون بن أبغا قد اجتهد للتحالف مع الغرب، إلا أن النغمة الاستعلائية التهديدية، لم تختف، كما بدا في رسالته إلى فليب الرابع ملك فرنسا، حين هدد أنه في حالة الإجابة بالسلب على مقترحاته فسوف ينزل بهم العقاب حين يفرغ لهم(٤).

بوسكاريللو، فاستقبلهم نيقولا الرابع وحملهم رسائل تركية إلي ملك انجلترا الذي أرسلت إليه رسائل لأغون =هذه المرة دون ملك فرنسا، نظرا لما بدا من فتور حماسه للحملة الصليبية، ولما وصل إليه وجده منشغلا بمشاكل اسكتلندا فعادوا إلي روما وقضوا بها فصل الصيف ليعلموا بخبر فتح الأشرف خليل لعكا. لمزيد من التفاصيل انظر:

The Chronicle of Bury St. Edmunds, p.97.Cf. Also: Ryan, The interrelation of the oriental, pp.93-119،

وراجع أيضا، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣ ص ٦٧٩؛ عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا، ص ١٢٧.

(١) Narrative of brother Bendict the pole, p.83.

(٢) رشيد الدين، جامع التواريخ، المجلد الثاني، جـ١، ص ٣١٠، جوانفيل، القديس لويس، ص ٢١٨-٢١٩.

(٣) Meyvaert, "An unknown letter of Hulagu, Il-Khan" ,pp.245-261.

(٤) خطاب أرغون إلي فيليب الرابع عام ١٢٨٩، ص ٢٨٤.

http://www.al-maktabeh.com

وفي المقابل كانت البابوية في الغرب في أوج تحديها للسلطة الزمنية، ذلك التحدي الذي ظفرت فيه البابوية في أعقاب وفاة الإمبراطور فردريك الثاني وهزيمة ولده مانفرد في معركة بنفنتو ٦٦٦هـ (١٢٦٦م) وإعدام حفيده كونرادين ٦٦٧هـ (١٢٦٨م)، ومن ثم انتشت بالبابوية وظنت أنها مُسيرة الكون، وأن الجميع يجب أن يخضع لإرادتها، إذا أرادوا الهداية إلى الصواب، وهو التنصر الكاثوليكي لا غيره، وهو ما بدا من رسائل البابا أنوسنت الرابع، فهذا يوحنا الكاربيني يخبر المغول أنه مرسل من قبل البابا سيد وأب كل المسيحيين، أي أن الكاربيني هنا يقر جمع البابا بين السيادة الروحية والسيادة الزمنية على كل المسيحيين، وعليه يطلب من المغول التنصر حتى ينالوا الخلاص[١]، وتتابعت تلك النغمة في جل الردود الأوربية على مقترحات الإلخانيين في عهدي أبغا وأرغون كما بدا لنا. إذن مشروع التحالف منذ البداية كُتب عليه الفشل بسبب عقدة الاستعلاء بين الطرفين، كل يريد أن يتعامل مع الآخر كسيد وليس كصديق، وبالتالي لم تتوفر الأرضية المشتركة بين الطرفين للالتقاء الذي ييسر نجاح مشروع التحالف الفعال ضد المماليك.

٢- الذكريات الأليمة التي خلفها الغزو المغولي لشرق أوربا أثناء غزوهم له، مما كون عقدة من الشك حيال المغول، أدت إلى عدم وجود ما يشجع على التحالف معهم فمن يضمن للشعوب الأوربية ألا يتجه المغول من جديد لغزوهم إذا ما كسروا المماليك الذين استطاعوا وقف موجة التوسع المغولي غربا، حتى وإن اكتفوا بغزو الشام فمن يضمن وفاء خانات الإيلخان بوعودهم حول تسليم القدس إليهم، في وقت هم على علاقة قوية بالنساطرة الذين يعج بهم بلاط الإيلخان، والبيزنطيين حلفاء الإيلخان وكلا الطرفين (النسطوري والبيزنطي) على خلاف مذهبي مع الكاثوليك الغربيين، ولم تنجح محاولات الاتحاد بين كنيستي القسطنطينية وروما التي بذل من أجلها جريجوري العاشر كثير من الجهود[٢]، وهو ما أدى نظر الأوربيين بتشكك إلى أي محاولة لتقرب المغول منهم، ومن ثم اعتبر بعضهم الرسل المغول ما هم إلا جواسيس[٣].

---

(١) John Of Plano Carpini, History of the Mongols , p.53-54.

(٢) أمل البيلي، مجمع ليون الثاني ١٢٧٤م، ص١٤٣.

(٣) Throop, Criticism of the Crusades, p.280.

مكتبة المهتدين الإسلامية

٣- قصر مدة ولاية الباباوات، وبعد المسافة بين بلاد الغرب وبين بلاد المغول، فكما أتضح لنا من الفصل الخامس، أن النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر) قد شهد حالة من عدم الاستقرار في ظل تتابع وفيات اثني عشر بابا خلال أربعين عاما وواحد، ناهيك عن الفجوات بين الباباوات التي بقي فيها العالم الكاثوليكي بلا قيادة روحية عليا[١]، وفي ظل بعد الشقة بين روما المقر البابوي وبين بلاط الإيلخانيين في فارس، وكانت الردود على الرسائل المتبادلة تؤخر دوما وهو ما قلل فرص نجاح مشروعات التحالف الصليبي المغولي، وذلك الأمر يمكن رصده منذ السفارات البابوية الأولى إلى الغرب الأوربي، فقد استغرقت سفارة يوحنا الكاربيني عامين وسبعة أشهر، وسفارة آسلين اللومباردي ثلاثة أعوام وستة أشهر على وجه التقريب، وسفارة وليم روبروك أربع سنوات، وسفارة روبان صاوما عامين، وهذه الفترات كانت كافية لكي يقوم المماليك بأي عمل عسكري، والاستعداد للتصدي لرد الفعل عليه من أي من الطرفين أو كلاهما.

٤- مشاكل أوربا، كانت أيضا حائل دون اتخاذ خطوات فعالة حيال مقترحات التحالف مع المغول، وكما بدا لنا كانت كل سفارة تصل من المغول إلى أوربا، تجد كل ملك من كبار ملوك الغرب لديه من المشاكل المعقدة داخليا وخارجيا، تلك المشاكل التي تحتاج سنين عديدة للتوصل إلى حل لها، وخير مثال مشاكل فرنسا وانجلترا البينية التي لم تحل إلا بحرب المائة عام، والصراع الفرنسي الأرغوني على صقلية وغيرها[٢] ومن ثم لم تلق الاستغاثات الصليبية من أوربا الرد المناسب.

٥- اختلاف اللغات، كان هناك حاجز لغوي بين المغول والغرب الأوربي، خاصة في الفترة الباكرة من المحاولات البابوية للتفاهم مع المغول، وهو ما يتضح من رد كيوك الخان المغولي على سفارة أنوسنت الرابع عام ٦٤٣هـ (١٢٤٤م) التي حملها يوحنا الكاربيني، حيث يؤكد الخان أنه لم يفهم صلواتهم التي أرسلت في رسائلهم، كما لم يستطع الخان فهم سبب استنكار البابا لغزوه لبلاد المسيحيين[٣]. وفي ظل شدة اللهجة الأوربية في الحديث إلى

---

(١) انظر الفصل الخامس ص ٢٢٦.

(٢) Throop, op. cit., p.280.

(٣) Guyuk Khan's letter to pope Innocent IV 1245, in Dawson, Mission to Asia, p.85.

http://www.al-maktabeh.com

المغول كان المترجمون يلجأون إلى تحوير الألفاظ خوفا من نقمة الحكام المغول إذا ما سمعوا فحوى بعض الخطابات(١)، ونظرا لقلة المترجمين اللاتين كان الإيلخانيون يرسلون رسائلهم أحيانا باللغة المغولية كما حدث في سفارة ٦٦٥هـ (١٢٦٦م) من أبغا إلى البابا كليمنت الرابع، وهو ما حال دون فهم الغرب لفحوى رسائلهم، ذلك الأمر الذي أفسح المجال لحاملي الرسائل لإطلاق العنان لأنفسهم لاختلاق الحجج التي تكفل لسفاراتهم النجاح، حتى لوكانت هذه الحجج ملفقة، مثل ادعاء حامل رسالة٦٦٥هـ (١٢٦٦م) بأن أبغا قد تنصر بالفعل(٢).

٦- الإصرار على تنصر المغول كأساس لقبول الغرب للتحالف معهم، وهو أمر نلمسه في المراسلات الموجهة من الغرب إلى المغول منذ عهد أنوسنت الرابع، وحتى عام ١٢٨٩هـ (١٢٩٠م)(٣)، ولم يتخل عن هذا المطلب سوى جريجوري العاشر غير أن الأجل لم يمهلنه لإنجاز ما خطط له، وبالتالي وأدت الفكرة ولم تخرج إلى النور، وعليه فقد استمرت النغمة الغربية، ورد فعل المغول عليها كما هو، بالرغم من تأكيد ماركو بولو رفض خانات المغول للتنصر، وعلى رأسهم الخان الأعظم قبيلاي ٦٥٩-٦٩٤هـ (١٢٦٠-١٢٩٤م)، الذي ذكر ماركو بولو سبب عدم تنصره بأن المسيحيين لا يستطيعون القيام بالمعجزات مثل الوثنيين الذين برعوا في أعمال السحر، فأتوا بأعمال إعجازية، رآها عين الخان مثل تحرك الأقداح لتقدم الشراب للخان دون أن تمتد إليه يد البشر، وكذلك التحكم في العواصف

---

(١) William of Rubruck, The Journey of William of Rubruck, p.128 .

(٢) Abaga (Ilkhan de Perse), Une letter de l'Iljahn de Perse Abaga addressee en 1268 au Pape Clement Iv, dans Museon, vol.59 , 1946, pp.547-556

وتوجد ترجمة عربية لهذا الخطاب لدى الأمين عبد الحميد أبو سعدة، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والقوي الإسلامية، ص ٣٨٥-٣٨٦؛

CF, Howorth, History of Mongols, p.278; Boyle, "The Il-Khans of Persia", p.556،

وأيضا، عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا، ص ١١٠.

(٣) Sinor," Mongols and western Europe",p.532; Throop, Criticism of the Crusades, p.28.

مكتبة المهتدين الإسلامية

والأمطار، وما تكهن به هؤلاء الكهان من علم الغيب، وعدم قدرة المسيحيين على فعل أي من المعجزات يستطيع الخان أن يعتمد عليها إذا ما أراد التنصر، كما أن هؤلاء الكهان يمكنهم الإجهاز على الخان بوسائلهم السحرية ولا يستطيع أي مسيحي إنقاذه[١]، ولما كان قبيلاي هو الخان الأعظم وأبغا وأرغون تابعين له، ويعتبرونه مثلهم الأعلى، فمن السهل أن تنتقل تلك الأفكار إلى أذهانهم مما يحول دون تنصرهم.

٧- قوة دولة المماليك، كانت قوة دولة المماليك الفتية لها الدور الأكبر في فشل محاولات التحالف الصليبي المغولي، طوال النصف الثاني من القرن الثالث عشر، تلك القوة التي نتجت عن قوة الجبهة الداخلية، ووجود جيش قوى بجانب نشاط دبلوماسي واعٍ، ساهم المساهمة الفعالة في تشتيت جهود أعداء المسلمين؛ مما يسر مهمة المماليك في تصفية المعاقل الصليبية بالتتابع كما سيتضح في الصفحات التالية.

صعود دولة المماليك البحرية:

في عام٦٤٨هـ (١٢٥٠م) قفز المماليك على كرسي السلطة في مصر وانتزعوها من سادتهم الأيوبيين[٢]، وعقب عين جالوت تمكنوا من بسط سيطرتهم على بلاد الشام[٣]، وبذلك توحدت مصر والشام مرة ثانية، كما كانتا في عهد صلاح الدين من قبل، وبعدها

---

(١) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، جـ ٢، ص ١٥-١٦.

(٢)حول قيام دولة المماليك البحرية انظر: الحريري، الإعلام والتبيين، ص ٣٤٦؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٣٥٨-٣٦٩؛ الخطط المقريزية، ص ٢٢٢-٢٢٣؛ العيني، عقد الجمان، جـ١، ص ٢٦-٣٤، ١٥٩-١٦٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٦، ص ٣٧٠-٣٧٩.

راجع أيضا: سعيد عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص ١٧٥-١٩١؛ فايد عاشور، الجهاد الإسلامي، ص ٦١-٦٩؛ قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص ١١-٢٤؛ هولت، عصر الحروب الصليبية، ص ١٨١-١٨٥؛ محمد مؤنس، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٣٢٧-٣٣٠.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٦٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ٢٥١؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٤٣٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص ٨٠-٨٤.

راجع أيضا: هولت، عصر الحروب الصليبية، ص١٩٣؛ قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك، ص ٧٢؛ مصطفي الحناوي، الفرسان الاسبتارية، ص ٤٣٥.

http://www.al-maktabeh.com

بدأت عملية التصفية النهائية للمعاقل الصليبية المتمثلة في مملكة عكا وبقايا إمارتي أنطاكية وطرابلس. غير أن هذه التصفية لم تأت من فراغ بل وقفت من خلفها عدة مقومات تمتعت بها دولة المماليك مكنتها من تحقيق الدور الذي قبلها من أجله الشعب في مصر والشام .

أما عن المصدر الأول: من مصادر قوة دولة المماليك فقد تمثل في الحفاظ على وحدة مصر والشام، فبالرغم من ظهور عدد من الحركات الانفصالية التي تركزت في بداية تولي السلاطين استغلالا للفترة الانتقالية قبل استقرار الأمور، إلا أن السلاطين تصدوا لكل هذه الحركات بكل حزم، ولم يألوا جهدا في بقاء البلاد متحدة فقد وعوا الدرس، وأدركوا أن تمزق مصر والشام معناه العجز عن مواصلة تصفية المعاقل الصليبية، وهو أمر لم يكن لهم بديل عنه فهي المبرر الأقوى في قبول الشعب في مصر والشام لهم كحكام بالرغم من أصولهم الرقية كما أشرنا من قبل[١].

أما الاستقرار الاقتصادي فكان ثاني أهم العوامل التي وقفت وراء قوة دولة المماليك خاصة القطاع التجاري[٢]، فقد كانت التجارة الخارجية أهم مصادر الدخل المملوكي، ذلك أن قيام دولة المماليك تواكب مع ازدهار تجارة البحر الأحمر وانتعاش حركة البيع والشراء في الموانئ المصرية، نتيجة لظهور المغول على الساحة وغزواتهم المدمرة مما أدى إلى تدهور الطريق التجاري بين الصين وآسيا الصغرى وموانئ البحر الأسود[٣].

وقد جنت دولة المماليك من وراء هذا الازدهار عدة مكاسب على رأسها استمرار تدفق السلع الإستراتيجية من رقيق وأخشاب وحديد، وهي سلع كانت ضرورية في بناء

---

(١) عن هذه الحركات انظر:ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١١٣-١١٤، ١٢٢-١٢٣، ١٣٣-١٣٥؛ شافع بن علي حسن المناقب، ص ٥١، ٦٢؛ الفضل المأثور، ص ٦٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ٢٥٩، ٣٢٤-٣٢٧؛ ابن الفرات، تاريخ بن الفرات، جـ٧، ص ١٧٠؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٤٣٨، ٤٨٢-٤٨٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ١٠٧-١٠٨، ١١١، ٢٩٤؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص٣١٢ .

(٢) سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ٣١١-٣١٧؛ محمود الحويري، مصر في العصور الوسطي، ص ٢٩٠-٢٩٣.

(٣) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٣١٣؛ محمد حمزة الحداد، السلطان المنصور قلاوون، ص ٦٨.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الجيش المملوكي وتجهيز الجيوش لتحقيق هدف المماليك الأكبر المتمثل في تصفية المعاقل الصليبية، أما المكسب الثاني فتمثل في المبالغ الطائلة التي تم جبايتها في صورة جمارك أو أرباح متاجر شاركت فيها الحكومة، وقد استخدم هذه العائدات في تمويل الحملات العسكرية التي نشطت في عهود الظاهر والمنصور والأشرف[١].

أما المصدر الرابع من مصادر قوة الدولة المملوكية فقد تمثل في نمو روح الجهاد، وهي سمة غلبتْ على ذلك العصر[٢] فقد كثر التحريض من الأدباء والعلماء على جهاد أعداء الإسلام، وكان ذلك منصبا على الصليبيين طوال القرن الثاني عشر والنصف الأول من القرن الثالث عشر فلما ظهر المغول على الساحة شملهم الأمر، ويعد الجهاد الإسلامي لدى الدكتور محمد مؤنس عوض[٣] هو الأيديولوجية الإسلامية التي نمت كرد فعل لفكرة الحرب المقدسة في الغرب الأوربي، والتي ترجمت في صورة الحروب الصليبية في القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين)، ومن ثم جاء رد الفعل الإسلامي في صورة قادة الجهاد الذين لمعوا في تصفية المعاقل الصليبية بدءا من عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، في القرن الثاني عشر الميلادي، وفي صورة بيبرس وقلاوون والأشرف خليل في القرن الثالث عشر[٤]. ونحن نتفق معه كل الاتفاق، إذ ثمة تناسبا عكسيا بين روح الجهاد الإسلامي، وبين الأيديولوجية الصليبية، فالأخيرة نمت في نهاية

---

(١) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، جـ٢، ص ٣٦-٣٧.

(٢) Nicolle, Acre 1291, p.12.

(٣)"فكرة الجهاد الإسلامي ودورها في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية"، ضمن كتاب، عصر الحروب الصليبية، بحوث ومقالات، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٩.

(٤) محمد مؤنس عوض، " من عوامل إخفاق المشروع الصليبي" ص ٥٢.

وقد حاول عدد من الباحثين الغربيين التقليل من قيمة روح الجهاد لدي قادة المسلمين، مثل نورمان هاوسلي Norman Housely، الذي أكد أن الدوافع الإستراتيجية كانت في مقام الصدارة لدي الظاهر بيبرس، غير أن الأستاذ الدكتور محمد مؤنس قد تكفل بالرد عليه، وأكد أن قادة الجهاد الإسلامي مثلوا عقدة لدي المستشرقين، ومن ثم حاولوا التخلص منها بالتشكيك في ذلك الدافع لديهم بالرغم من وجود الأدلة التاريخية سواء كانت في الروايات الرسمية أو الشعبية. انظر:

Hously , Later Crusades1274-1580, Oxford 1992, p.10.

وراجع أيضا، محمد مؤنس، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٣٣٢.

http://www.al-maktabeh.com

القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ونتج عنها الهجوم الصليبي على بلاد الشام في وقت تمزقت فيه القوي الإسلامية الكبرى وساد بينها الشك والريبة[١] وقد صادف تطور روح الجهاد[٢] في القرن الثاني عشر والثالث عشر، تراجعا في الأيديولوجية الصليبية وضعف في التأييد الغربي للفكرة الصليبية[٣].

وبجانب ما سبق تأتي الإدارة المملوكية لتكون خامس عوامل قوة الدولة، فقد كان الجهاز الإداري المملوكي في مصر والشام خير معين للسلطان، وخير حافظ للجبهة الداخلية في ظل تتابع المواجهات المملوكية مع الصليبيين والمغول، في عهدي بيبرس والمنصور قلاوون، فقد استعان السلطان بعدد من النواب مثل نائب القاهرة ونائب دمشق وعدد من النواب الأقل درجة في عدد من المدن الشامية مثل حلب وصفد والكرك، أما الأقاليم فقد عهد بإدارالها إلى عدد من أمراء المماليك يعاونهم عدد من الموظفين، بجانب وجود عدد من الدواوين مثل ديوان الجيش وديوان الإنشاء وديوان الأحباس وديوان النظر، كما وجد نظام قضائي راسخ وضع الظاهر بيبرس دعائمه منذ عام ٦٦٥هـ (١٢٦٥م)[٤] كل هذه الأمور ساعدت على استقرار أحوال البلاد الداخلية؛ مما ساعد على خروج السلاطين وهم مطمأنين لقتال المغول والصليبيين.

---

(١) محمد فوزي رحيل، إمارة بني مزيد، ص ١٥٨.

(٢) وقفت عوامل كثيرة وراء نمو وتطور روح الجهاد في القرن الثاني عشر منها: فظاعة المذابح التي ارتكبها الصليبيون في حق المسلمين في إنطاكية القدس وغيرهما، بجانب تغيير ملامح الأرض العربية ومحاولة صبغها بالصبغة اللاتينية، والاعتداء علي مقدسات المسلمين وتحيلها إلي كنائس خاصة المسجد الأقصى، السياسة العدوانية الهجومية التي اتبعها الصليبيون تجاه المسلمين طوال إقامتهم بالساحل الشامي كلما آنسوا في أنفسهم قوة علي فعل ذلك، وأخيرا حركة الإحياء السني خاصة في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي وما ارتبط بها من إنشاء المدارس التي خرجت جيلا يحض الناس علي الجهاد ويرغبهم فيه ويتقدم خطاهم إذا عظم الخطب. انظر:

محمد مؤنس عوض، فكرة الجهاد، ص ١٤-٢٨.

(٣) راجع الفصل الخامس ٢٨٤.

(٤) حول الإدارة المملوكية وتفصيل التعريف بالوظائف المذكورة أعلاه انظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٣٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٣-٣٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ١٨٣-١٨٦.

راجع أيضا: عبد الطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر، ص ٤٩-٥١؛ سعيد عاشور، الأيوبيين والمماليك، ص ٣٣٢؛ هولت، عصر الحروب الصليبية، ص ٣٠٧-٣١١.

مكتبة المهتدين الإسلامية

استراتيجية تصفية المعاقل الصليبية:

١- الدبلوماسية المملوكية

لم يعتمد سلاطين المماليك في تصفية الوجود الصليبي على مجرد الأعمال العسكرية، بل لجأوا أيضا إلى النشاط الدبلوماسي، الذي لم يقف على جبهة واحدة بل شمل عدة جبهات، وقد هدف كل ذلك إلى فرض طوق من العزلة على الكيانات الصليبية؛ حتى يمكن تصفيتها الواحد تلو الآخر، دون أن تجد أي عون من قوى خارجية. وقد أدرك الظاهر بيبرس أن هذه العزلة لا تتم إلا بمنع أي تعاون صليبي مغولي، وضرب كل أشكال التحالف التي يمكن أن تؤدي إلى تقوية الصليبيين في الشام، ومن ثم تعوق مخططاته لتصفية تلك المعاقل[١]،ويمكننا أن نقسم الدبلوماسية المملوكية إلى ثلاث أنواع: النوع الأول غرضه تمزيق القوي الصليبية، أما النوع الثاني فهدفه تحييد القوى الأوربية أو على الأقل التعرف على تحركات تلك القوى وعلى رأسها البابوية، أما النوع الثالث فهدفه تخفيف الضغط المغولي عن بلاد الشام.

وفيما يخص النوع الأول الهادف إلى تمزيق القوي الصليبية فقد تمثل في الهدن[٢] التي عقدت بين دولة سلاطين المماليك وبين مملكة عكا في عهدي الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون، وقبل الخوض في تفاصيل تلك الهدن هناك ثلاث ملاحظات عامة علي هذه الهدن: الملاحظة الأولى أن الفضل يرجع إلى الظاهر بيبرس في استخدام الدبلوماسية كوسيلة لتصفية المعاقل الصليبية، ونهج نهجه المنصور قلاوون، وقوام هذه السياسة استغلال التمزق السياسي الذي عانت منه مملكة عكا، من جراء تداخل السلطات والنفوذ بين الجهاز الحكومي وبين ممتلكات الهيئات الرهبانية العسكرية وبين ممتلكات كبار النبلاء، ومن ثم لم يكن السلطان يعقد هدنة واحدة تشمل كل الكيانات الصليبية دفعة واحدة بل كان يتعامل معها بشكلها

---

(١) الأمين أبو سعدة، العلاقات بين بيزنطة والقوى الإسلامية في المشرق، ص ٢٢٢.

(٢)حول الهدنة لغة اصطلاحا انظر: القلقشندي، صبح الأعشي، جـ١٤، ص ٢-٨.

راجع أيضا: يوسف غوانمة، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج.

Cf. Also: Holt, "The Treaties of the Early Mamluk Sultans with the Frankish States", in BSOAS , vol. 43, no.1 (1980), p.67.

http://www.al-maktabeh.com

المزرق، بحيث يهادن البعض حتى يتفرغ لقتال البعض الآخر، حتى لا يشتبك مع الصليبيين مجتمعين في معركة واحدة، وهو ما أعطى السلطان المملوكي مرونة أكثر في التصرف معهم[١].

أما الملاحظة الثانية فهي حرص السلطان المملوكي على أن تكون له اليد العليا فلا يكون هو طالب الهدنة، بل يضغط على الصليبيين بشدة مما يجعلهم يطلبونها هم حتى لو كان في حاجة إليها ومن بالتالي يفرض شروطه عليهم كيفما يشاء، ولا يملكون سوى الاستجابة. الملاحظة الثالثة والأخيرة هي أن السلطان لم يكن يلتزم بالهدنة إلا ريثما يفرغ من السبب الذي دفعه إلى قبولها، وكثيرا ما أضاف بندا إلى عهوده معهم ينص على إلغاء الهدنة إذا أراد السلطان ذلك بلا سبب أو أن ينقض الصليبيين أحد بنود الهدنة[٢].

وقد بدأت الصلات الدبلوماسية بين الطرفين منذ وقت مبكر من ولاية الظاهر بيبرس غير أن هذه الصلات لم تثمر إلا عام ٦٦٥هـ، فعقب فتوح الظاهر عامي ٦٦٣هـ (١٢٦٤م) و ٦٦٤هـ (١٢٦٥م) التي فتح خلالها قيسارية، وأرسوف، وصفد[٣] لم يجد الصليبيون بدا من مهادنته؛ لالتقاط الأنفاس،كما أن السلطان رأى ضرورة إراحة العسكر بعد ما بذلوه من جهود مضنية في فتوح العامين السابقين[٤]، وعليه فقد عقد الظاهر معهم ثلاث هدن منفصلة عام ٦٦٥هـ (١٢٦٦م)، وكما كان السيف وسيلة لاستخلاص عدة بلاد من يد الصليبيين، كذلك كانت الهدن وسيلة لاستخلاص العديد من المناطق دون إطلاق سهم واحد أو إراقة قطرة دم، وهذا ما حدث في الهدن الثلاث ففي إحداها مع

---

(١) فايد عاشور، الجهاد الإسلامي، ص ١٥٩؛ مصطفى الحناوي، الفرسان الاسبتارية، ص ٤٤٦.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ١، ق١، ص ٥٥٠.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٢٩-٢٤٤، ٢٥٤ ؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٩٥-٩٦، ١٠٤؛ مختار الأخبار، ص ٢٩-٣٦.

Khowaiter, Baibars the First, pp.86-91.

(٤) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ١٠٨.

مكتبة المهتدين الإسلامية

حكومة عكا أسفرت عن اتفاق لمناصفة عائدات صفد وهدم قلعة الشقيف[١]، وفي الثانية مع صور لمدة عشر سنين مقابل حصول السلطان على عدد من المكاسب، منها تنازل صاحب صور عن ادعاءاته في هونين[٢] وتبنين، ومكاسب مالية حيث تعهد حاكم صور بدفع مبلغ مالي بجانب إطلاق عددا من أسري المسلمين في صور[٣] كما عقدت هدنة ثالثة في نفس العام مع هيئة الفرسان الإسبتارية في ٤ رمضان ٦٦٥هـ (٢٩ مايو ١٢٦٧م)[٤].

غير أن المعاهدات الثلاث لم تحم الصليبيين من الظاهر الذي ما لبث أن ضرب بالهدنة مع مملكة عكا عرض الحائط[٥]، بعد عام واحد وفتح يافا والشقيف وأنطاكية عام ٦٦٦هـ (١٢٦٧م)، دون أن يتحرك أحد من الغرب لإنقاذهم، وعليه فلم تجد مملكة عكا بدا من استخدام الدبلوماسية مع السلطان بيبرس فطلبت تجديد عقد الهدنة، وسبب التجديد - حسبما يروي شافع بن علي[٦]- أنه قبل التاريخ المذكور لم يكن هيو الثالث ملكا شرعيا غلى مملكة عكا بل وصيا عليها لحين وصول الملك كونرادين الذي قتل عام ٦٦٧هـ

---

(١) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ١٠٧.

عن المناصفات كمظهر من مظاهر العلاقات الدبلوماسية بين المماليك والصليبيين انظر الدراسة الرائعة التي قام بها الدكتور علي السيد علي عن هذا الموضوع. علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، ص ٤٠-٧٤.

(٢) هونين ، بالضم ثم السكون ونون ثم ياء ونون أخرى، بلد في جبال عاملة مطل على نواحي مصر. انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٤٢٠.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٨٢؛ شافع بن علي، حسن المناقب، ص ١٢١؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ١٠٨ المقريزي، جـ١، ق٢، ص ٥٥٩

(٤) شملت المعاهدة حصني الأكراد والمرقب لمدة عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات، وكان شرط السلطان لقبول الهدنة تنازل الإسبتارية عن الجزية المفروضة علي حصون الإسماعيلية وشيزر وفامية وعينتاب. انظر:

ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٨٣؛ شافع بن علي، حسن المناقب، ص ١١٣-١١٤؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ١٠٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ١٤، ص ٣١-٣٩؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص ٥٥٠.

(٥) The Templar of Tyre, p.59.

(٦) حسن المناقب، ص ١٣٩-١٤٠.

http://www.al-maktabeh.com

(١٢٦٨م)، فقررت المحكمة العليا في عكا تنصيب هيو الثالث ملكا شرعيا، ومـــن ثم رأى ضرورة تجنب شر الظاهر بيبرس بتجديد الهدنة معه، وكان فيليب مونتفرات حاكم صور هو الواسطة في عقد الصلح إذ كتب إلى الظاهر يشرح له حسن نية الملك الجديد، وسياسته التي تخالف ما سبق أن انتهجه الصليبيون حيال المسلمين، فقبل السلطان وساطة حـــاكم صـــور وعُقدت هدنة مدهًا عشر سنين شملت مملكتي عكا وقبرص[١].

وقد كانت الهدنة ضرورية للطرفين في ذلك الوقت، فبالنسبة للصليبيين كانوا في حاجة إلى ترتيب أمورهم وتصفية خلافاهم؛ للحفاظ على ما بقي لهم من بلاد في ساحل الشام لحين وصول نجدة من الغرب، أما المماليك فقد كانوا في حاجة إلى راحة بعد عناء فتوح الشقيف ويافا وأنطاكية، بجانب الاستعداد لرد فعل أوربا، ناهيك عن تـــوارد الأخبـــار بتحركـــات المغول[٢].

وكعادته انتهز بيبرس الفرصة لمناصفة ضواحي عدد من مدن مملكة عكا ثمنا للهدنة، ومن الجدير بالذكر أن الظاهر بيبرس قد أكد على مهاراته الاستراتيجية العظيمة، وظهر ذلك من البند الخاص بصيدا حيث اتفق على أن تكون بلادها مناصفة بين السلطان وبين مملكة عكا، على أن تكون المرتفعات للسلطان والمناطق المنخفضة للفرنج[٣]، وهذا الاختيار فيه مصلحة كبيرة للمسلمين، إذ مكن الجيش المملوكي من مراقبة أية تحركات عسكرية تتم في السهل، والتصدي لها في الوقت المناسب، علاوة على إمكانية استخدامها بصفتها ملجـــأ للقـــوات المملوكية إذا دهمها داهم. والجدير بالذكر أن هذه المعاهدة لم يحترمها الظاهر ســـوى ســـنة واحدة، أعاد بعدها الهجوم على مملكة عكا في جماد الأولى ٦٦٨هـــ (ديسمبر ١٢٦٩م)[٤].

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٣٢-٣٣٣.

Khowaiter, Baibars the First, p.102.

(٢) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـــ٣، ص ٥٦٠.

(٣) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ١١٦؛ العيني، عقد الجمان، جـــ١، ص ٣٢.

(٤) رنسيمان، الحروب الصليبية، جـــ٣، ص ٥٦٧.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كما استخدم الظاهر بيبرس الدبلوماسية كوسيلة للتدخل في شؤون مملكة عكا الداخلية حين قبل عقد هدنة مع إيزابيلا أبلين Isabella of Ibelin – وريثة بيروت – يوم الخميس سادس رمضان عام ٦٦٧هـ (٩ مايو ١٢٦٩م) وذلك دون الرجوع إلى ملك عكا[١]، وهو ما يوضح أن بيروت وإن كانت ضمن حدود مملكة عكا إلا أن ملك عكا لا سلطان له عليها، وهو مؤشر قوي آخر على التمزق السياسي الذي كانت تعاني منه المملكة، وكان ذلك في صالح المسلمين دون أدنى شك، وبالرغم من تعدد بنود المعاهدة إلا أنها شملت بنداً يمنع أن تكون صور موطأ قدم لأي قادم من الغرب بغرض غزو بلاد سلطنة المماليك[٢]، وهو ما ترتب عليه أن أمن الظاهر جانب مدينة بيروت، ولم تقف الفائدة عند هذا الحد إذ بمقتضى هذه المعاهدة تدخل الظاهر بيبرس في الشئون الداخلية لمملكة عكا، ومنع الملك هيو الثالث من ممارسة سلطاته على حاكمة بيروت بحجة أن المعاهدة وضعت بيروت تحت حمايته[٣].

وفي إطار استخدام الدبلوماسية لتصفية المعاقل الصليبية قبل عام ٦٦٩هـ (١٢٧١م) عقدة هدنة جديدة مع صور بناء على طلب من يوحنا مونتفورت John of Montfort ، حاكم المدينة الشاب الذي أدرك أن لا سبيل إلى مواجهة الظاهر إلا بالمهادنة[٤].

---

(١) بن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٥٨؛ شافع بن علي، حسن المناقب، ص ١٤٨.

See also: Holt, "Bybirs's Treaty with Lady of Burit", pp.242-244 .

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٤، ص ٣٩-٤٢

(٣) Holt, op. cit, p.244; Edbury, The Kingdomof Cyprus, p. 91.

(٤) يوحنا مونتفورت: ورث حكم صور عام ٦٦٩هـ (١٢٧٠م) عقب اغتيال والده فيلب مونتفورت علي يد الحشاشية بتحريض من الظاهر بيبرس، وكان قد تزوج في حياة أبيه من مارجريت الأنطاكية Margaret of Antioch أخت الملك هيو الثالث، ظل في حكم المدينة حتي توفي بلا وريث عام ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) بجوار أبيه، فانتقل حكم صور إلي أخيه همفري Humphrey حاكم بيروت. راجع في ذلك:

The Templar of Tyre, pp 61-82. See also: Edbury, op. cit., pp.91-93.

راجع أيضا: رنسيمان، الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٥٦٤-٦٦٦.

http://www.al-maktabeh.com

وفي ظل فشل حملة لويس التاسع على تونس عام ٦٦٩هـ (١٢٧٠م) - وعدم ظهور بوادر حملة تأتي من أوربا وتتابع صلح المدن التابعة لمملكة عكا مع الظاهر- اضطر الملك هيو الثالث إلى طلب عقد الهدنة، وعلى غير عادته تنازل الظاهر عن منطقة شفرعم[(١)] بأكملها لملك عكا، ودخل في الهدنة كما يبدو الداوية والاسبتارية والتيوتون، ومن ثم طلب السلطان أن لا يكتفي بيمين هيو على الوفاء بالهدنة لكن يحلف أيضا مقدمو الهيئات الثلاث كل على حدة[(٢)]، والحقيقة أن قبول الظاهر لهذه الهدنة لم يكن من فراغ، بل جاء نتيجة خشيته من قوة إدوارد التي وصلت إلى عكا بعد وقت قصير من توقيع الهدنة. ومع فشل إدوارد في إنجاز شيء في مملكة عكا قبل الظاهر بيبرس عقد مع المملكة بوساطة شارل لأنجو حرصا منه على التفرغ لتوجيه ضربات مؤثرة إلى المغول الإيلخان، الذين حاولوا الإيقاع بالمماليك أثناء وجود إدوارد في عكا[(٣)].

وسار المنصور قلاوون على سيرة سلفه بيبرس في استخدام الدبلوماسية كوسيلة من وسائل تصفية المعاقل الصليبية، أو تحييدهم وقت ظهور الأخطار وبخاصة خطر الإيلخان، ويمكن وصف السنوات الأولى من حكمه الممتدة بين عامي ٦٧٨-٦٨٤هـ (١٢٧٩-١٢٨٥) بسنوات الدبلوماسية في التعامل مع الصليبيين، ولم يكن ذلك من فراغ فقد كان لديه الكثير من المشاكل التي كان حلها أمرا حتميا قبل التوجه لمواصلة تصفية المعاقل الصليبية، وعلى رأسها تمرد سنقر الأشقر[(٤)]، ثم خطر الإيلخان الذين استغلوا فرصة انشقاق

---

(١) شفرعم: شفرعم بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الراء ثم عين مهملة مفتوحة وميم مشددة ، وفي زمن ياقوت الحموي كانت قرية كبيرة بينها وبين عكا بساحل الشام ثلاثة أميال، وهي حالياً مدينة عربية تقع شرق الشمال الشرقي لحيفا وعلى بعد ٢٥كم منها. أنشئت في الطرف الشرقي لسهل عكا وبالقرب من أقدم مرتفعات الجليل الغربي. وهي نقطة انقطاع بين بيئتي السهول غربا والجبال شرقاً. تبعد عن حيفا ٢٠كم وعن الناصرة ٢١كم وعن عكا ٢١كم. لمزيد من التفاصيل عنها انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٣ ، ص٣٥٣ ؛ وانظر أيضاً ، شفا عمرو، مركز المعلومات الوطني الفلسطيني، علي الانترنت

:http://www.pnic.gov.ps/arabic/palestine/town40.html

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٩٨

(٣) نفسه ، ص ٣٣٦.

(٤) Hilal, Sultan Al-Mansour Qalawun, p.79 .

مكتبة المهتدين الإسلامية

سنقر لتصفية حساباتهم المعلقة مع سلطنة المماليك[١]، بجانب محاولة السعيد بركة بن الظاهر بيبرس استعادة ملك أبيه[٢]، وفوق كل ذلك العلاقات الدبلوماسية الطيبة مع شارل أنجو ونائبه في عكا روجر سان سفرينو. ومن ثم فقد شهدت الفترة المذكورة عقد عدد من الهدن، أولها الهدنة التي عقدت بين سلطنة المماليك من جهة وبين الإسبتارية بمملكة عكا من جهة أخرى عام ٦٨٠هـ (١٢٨١م)[٣]، وأغلب الظن أن وجود روجر سان سفرينو نائبا عن شارل كونت أنجو في عكا كان له دور في تجديد الهدنة، تنفيذاً لتوجيهات سيده بعدم التصادم مع المماليك، ومن ثم حين عرض ممثلو المملكة وهيئة الفرسان الاسبتارية تجديد الهدنة مع سلطنة المماليك، قبلها المنصور قلاوون على الفور نظراً للظروف المذكورة من قبل، غير أن قلاوون لم يكن البادىء بطلب الهدنة بل بدأ الإسبتارية بذلك، ومهما يكن من أمر فقد عقد معهم هدنة لمدة عشر سنوات وعشر شهور وعشرة أيام[٤]، غير أن تلك الهدنة لم يلتزم بها الاسبتارية، وخرقوها حينما ساندوا المغول الإيلخان في معركة حمص ٦٨٠هـ (١٢٨١م) وهو ما يعني نقض الهدنة معهم[٥].

---

(١) أحمد عبد الكريم، المغول والمماليك، ص ١٧.

(٢) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٧، ص ١٦٨.

Hilal, op.cit p.81.

(٣) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ١٨٩.

Hilal, op.cit., p.81.

(٤) بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص ١٩١؛ ابن الفرات، المصدر السابق، جـ٧، ص ٢٠٤؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٣، ص ٦٨٥؛ راجع أيضا رنسيمان، الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٦٦١؛ مصطفى الحناوي، الفرسان الاسبتارية، ص ٤٥٧. وأيضاً:

King, The Knights Hospitallers, p.282; Hilal, op. cit., p.91 .

ومن الجدير بالذكر أن رنسيمان قد ذكر أن قلاوون كان البادىء بطلب الهدنة غير أن مراجعة المصدر الذي اعتمد عليه رنسيمان وهو المقريزي بالإضافة إلي ما دونه كل بيبرس المنصوري وابن الفرات تبينا أن الفرنج كانوا البادئين بطلب الهدنة وليس المنصور قلاوون كما ذكر رنسيمان

(٥) حول خرق الداوية لهدنتهم مع المنصور قلاوون ومشاركتهم في مساندة الإلخان في موقعة حمص ١٢٨١م، هناك تقريران يوضحان هذا الأمر كلاهما وجه إلي ملك إنجلترا إدوارد الأول، الأول كتبه نيقولا لورجاني Nicloas Lorgane مقدم هيئة الفرسان الاسبتارية، والثاني كتبه أحد الفرسان الاسبتارية وهو يوسف الكانسي Joeseph de Cancy، حول نص الخطابين انظر:

http://www.al-maktabeh.com

غير أنه في عام ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) ألحت مملكة عكا وقادة الاسبتارية والداوية في طلب إيفاد الرسل إلى مصر لعقد هدنة مع المنصور قلاوون، وسبب ذلك أن الهدنة السابقة التي كانت قد عقدت بين مملكة عكا وبين الظاهر بيبرس قد انقضى أمدها، كما أن الهدنة المعقودة مع الإسبتارية قد خرقوها[١]،إلا أن المنصور قلاوون كان على درجة عالية من الفطنة حين طلب من الرسل الحضور فقط عن طريق البحر لا عن طريق البر[٢]، وبالرغم من عدم ذكر صاحب تشريف الأيام والدهور سبب ذلك. لكن الراجح لدى هو أن المنصور خشي من وجود جواسيس بين الوفد فتكون رحلتهم عن طريق البر وسيلة للإطلاع على عورات الطريق بين مصر والشام، ومن ثم ربما يستخدموها في الغارة على مصر، أو ربما يرسلوها إلى الغرب للاستفادة منها في حملات صليبية متوقعة. ومهما يكن من أمر فقد عقد المنصور قلاوون معهم المعاهدة التي بلغت مدتها عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام، وشملت المعاهدة الكثير من النقاط[٣]، من أهمها:

أولا: شرط أن يوقع على الهدنة نائب شارل أنجو بها أودو بولشيان ومقدم الداوية ومقدم الاسبتارية ومقدم التيوتون[٤]، وهو ما يوضح إلى أي حد فقدت فيه مملكة عكا مركزية الحكم والإدارة ؛ مما جعلها على صغرها عدة ممالك متداخلة.

=Cartulaire General des Hospitaliers, no.3781-3782 , pp. 423-425; A Crusader's Letter from the Holy Land, 1281, pp.7-14.

وراجع أيضا: مصطفي الحناوي، الفرسان الاسبتارية، ص ٤٥٨.

(١) رنسيمان، الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٦٦٥؛ مصطفي الحناوي، المرجع السابق، ص ٤٦٠.

(٢) ذكر رنسيمان أيضا في خبر تلك الهدنة أن المنصور قلاوون قد ألح علي نائب شارل أنجو في عكا أودو بولشيان في أمر تجديد الهدنة مع مملكة عكا، غير أن المصادر العربية – ومن بينها المقريزي- تذكر أن الصليبيين هم من ألحوا علي ذلك، وبالتالي لم يخالف قلاوون سياسة الظاهر بيبرس في عدم البدء بطلب الهدنة مع الصليبيين حتي تبقي اليد العليا للمسلمين ويظهر أن طلبهم نوع من الضعف.

(٣) ورد نص المعاهدة كاملاً عند كل من: ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والدهور، ص ٣٤-٤٣؛ ابن الفرات، تاريخ بن الفرات، جـ٧، ص ٢٦٣-٢٧٢؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٤، ص ٥١-٦٣.

(٤) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والدهور، ص٣٤ ؛ ابن الفرات، تاريخ بن الفرات، جـ٧، ص ٢٦٢؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٤، ص ٥١. وأيضاً: Holt, "Qalawan's Treaty with Acre in 1283", p.805.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ثانيا: حدود مملكة عكا عام ٦٨٢هـ (١٢٨٣هـ) التي اقتصرت فقط على مدينة عكا وضواحيها الزراعية، حيفا وضواحيها، مارسا وضواحيها، ثلاث عشرة ناحية من جبل الكرمل، عثليث وقلعتها وبساتينها بعض نواح قيسارية ونصف مدينة الإسكندرية الساحلية ومناصفة بعض المناطق مع السلطان صيدا وما حولها المنخفضات وبساتينها للصليبيين والمناطق المرتفعة للسلطان[1] وهذه الحدود تعبر بوضوح عما ألم برقعة مملكة عكا من جراء الفتوح الظاهرية التي تركت ممتلكات سلطنة المماليك متداخلة بشكل أفضى إلى تقلص العمق الدفاعي لمملكة عكا وجعلها تحت رحمة السلطان المملوكي، يقتطع منها ما يشاء حسبما تقتضي الظروف.

ثالثاً: ضرورة إخبار السلطان بأي محاولة أوربية لإعداد حملة صليبية[2]، وهذا البند وحده كان كفيل بأن تتخذ أي حركة من قبل الأوربيين نحو الشرق بأنها دلالة على خرق الفرنجة وهو ما يتيح للسلطان الهجوم على مملكة عكا وهو ما حدث عام٦٨٩هـ (١٢٩٠م).

رابعا: التشديد على الصليبيين بضرورة إبلاغ السلطان بأي تحركات لملوك الغرب بغرض الخروج في حملة صليبية قبل شهرين من خروج هذه الحملة، وفي حالة حدوث هجوم مغولي على بلاد الشام يلتزم الصليبيين بالدفاع عن أنفسهم، وفي حالة هزيمة السلطان وفرار جنوده إلى مدن الصليبيين يلتزم الصليبيون بإخفائهم وعدم التعرض لهم بالأذية[3]، وهذا البند كفيل بإغلاق أبواب التفاهم مع المغول، واتخاذ كل حركة للتفاهم على أنها خرق للاتفاق بين الطرفين، ومن هنا يكون السلطان بريء من الهدنة ويحق له غزو بلاد الصليبيين دون أدنى حرج.

---

(١) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والدهور، ص ٤٠-٤١؛ ابن الفرات، تاريخ بن الفرات، جـ٧، ص ٢٦٤-٢٩٥؛القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٤، ص ٥٥-٥٦.

Hill, A History of Cyprus, p.176; Holt, "Qalawan's Treaty with Acre in 1283", p.805.

(٢) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٤٢؛ ابن الفرات، المصدر السابق، جـ٧، ص ٢٦٨؛ القلقشندي، صبح الأعشي، جـ١٤، ص ٦٠. Holt, op. cit, p.808

(٣) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص٤٢ ؛ القلقشندى، المصدر السابق، جـ١٤، ص ٦٠

http://www.al-maktabeh.com

خامسا: عدم القيام بأية تحصينات دفاعية جديدة، أو إصلاح ما يتهدم[١].

سادسا: فيما يخص صيدا اشترطت الهدنة ترك مدينة صيدا وخمس عشرة ناحية للصليبيين بما فيها قنوات المياه والبساتين والطواحين أما السلطان فيكون له المناطق المرتفعة[٢] وهذا الشرط ليس بجديد فقد سبق أن اشترطه الظاهر بيبرس في هدنة ٦٦٧هـ (١٢٦٨) لما في ذلك من الأهمية الإستراتيجية كما سبق أن ذكرنا، غير أن الدكتور أسامة زكي زيد [٣] يرى في هذا البند إجحاف بحق المسلمين باعتبارهم الطرف الأقوى، ويرجع سبب ذلك في رغبة المنصور قلاوون في تحسين علاقته بالصليبيين حتى يتفرغ لتوطيد نفوذه في مصر والشام، غير أن هذا الترجيح ليس في محله لعدة أمور: أولها أن موقف المنصور قلاوون كان في هذه الفترة بالغ القوة والاستقرار[٤]، ومن ثم فقد قوي مركزه في مواجهة الكيان الصليبي الممزق سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وهو ما جعله يهتم بالشؤون الداخلية للسلطنة، ويقوم بعدد من أعمال البر من بينها بناء عدد من المنشآت المهمة في مصر وعلى رأسها البيمارستان المنصوري الشهير عام ٦٨٢هـ[٥]، أي أن الأحوال كانت في غاية الاستقرار بالسلطنة في عام عقد الهدنة، ومن هنا يبقى الأرجح أن سبب شرط صيدا، هو الموقع الإستراتيجي لمرتفعات صيدا، ذلك الموقع الذي دفع المنصور قلاوون أن يضع هذا الشرط مقتدياً بما فعل الظاهر بيبرس من قبل.

أما النوع الثاني من أنواع الدبلوماسية المملوكية فقد هدف إلى تخفيف الضغط المغولي عن بلاد الشام، وفي هذا السياق تأتي العلاقات الدبلوماسية مع المغول القفجاق، فقد كان من

---

(١) ابن الفرات، تاريخ بن الفرات، جـ٧، ص ٢٦٥؛ القلقشندي، صبح الأعشي، جـ١٤، ص ٥٦.

See also, King, The Knights Hospitallers, p.284.

(٢)ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والدهور، ص ٤١.

(٣) صيدا، ص ٢٥٦.

(٤) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ص ١٨٢، ١٩٣، ١٩٤-٢٠١، ٢١٦-٢٢٢،

Holt, " Qalawun Treaty with Acre" , p.802.

(٥) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٤-٢٦؛ ابن الفرات، المصدر السابق، جـ٧، ص ٢٦٠.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الضروري وضع حد للخطر المغولي الذي تربص بدولة المماليك وحال دون تصفية مملكة عكا، ولما كان الظاهر بيبرس يريد ادخار قوته العسكرية لكي لا تتبدد في المواجهة مع مغول فارس، فإنه لجأ إلى الدبلوماسية لتساعده في تحقيق مرماه، ولم يجد خير من المغول القفجاق لعدة أسباب، منها العداء المشترك الذي جمع بين المماليك وبين المغول القفجاق ضد الإيلخانيين، ومن ثم فقد هدف التحالف بين القوتين إلى الوصول إلى نوع من توازن القوى، فإذا كان المغول الإيلخان يتصلون بأوربا والصليبيين في الشرق في إطار مشروعات لضرب المماليك ووضعهم بين شقي الرحى، فالمماليك يتحالفون مع القفجاق ويضعون الإيلخانيين بين المطرقة القفجاقية والسندان المملوكي بالمثل. وقد ترتب على اعتناق بركة خان حاكم المغول القفجاق للإسلام قيامه بدور كبير في التقارب بين المماليك وبينهم[١]، يضاف إلى ذلك أصل الظاهر بيبرس الذي يعود إلى بلاد القفجاق، مما أوجد نوعاً من الارتباط العاطفي مع دولة المغول القفجاق، وأخيرا هناك سبب أكثر أهمية وهو رغبة الظاهر بيبرس في استمرار تدفق الرقيق من بني جنسه، وبخاصة من مصدره في منطقة القفجاق، ومن المعروف أهم عماد الجيش المملوكي وبدونهم تتعرض الدولة للاهتزاز، وتتزلزل قوتها ويعاني الجيش المملوكي من تدهور في بنيته البشرية، وهو ما يهدد بضياع أحلام تصفية المعاقل الصليبية[٢]. هذا ولم تقتصر فائدة سيولة التجارة بين مصر وبلاد القفجاق على استمرار توارد الرقيق بل أمن توريد السلع الاستراتيجية المهمة في بناء الآلات الحربية خاصة الخشب[٣].

ولهذه الأسباب التقت الأهداف المملوكية مع الأهداف القفجاقية فأخذت الرسائل المتبادلة تأخذ مجراها طوال عهود الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف، ولقيت هذه الرسائل على الدوام ردا إيجابيا من بركة خان وخلفائه[٤].

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٣٩.

Irwin, The Middle East in the Middle Ages, p.51; Nicolle, Acre 1291, p.12.

(٢) فؤاد الصياد، الشرق الإسلامي، ص ٤٢؛ هولت، عصر الحروب الصليبية، ص ٢٠٣ .

Nicolle, Acre 1291, p.12.

(٣) Irwin , The Middle East in the Middle Ages, p.51.

(٤) حول تفاصيل هذه المراسلات انظر، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر؛ تشريف الأيام والدهور بسيرة الملك المنصور، ٨٨، ١٧٠ومابعدها؛ شافع بن علي، حسن المناقب السرية، المقريزي، السلوك، جـ١، ق١، ق٢

http://www.al-maktabeh.com

وقد كان لهذا التقارب بين القوتين دور كبير في تخفيف الضغوط الإيلخانية عن الدولة المملوكية، في ظل الضربات المستمرة التي كالها القفجاق للإيلخانيين، حقيقة أن تحريض سلاطين المماليك لم يكن الدافع الأساس لما نشب بين الطرفين من قتال، إلا أن تحريض المماليك للقفجاق على قتال الإيلخان وتأكيد أن ذلك نوع من الجهاد الإسلامي بحكم وثنية الإيلخان وضرورة محاربتهم عقابا لهم على ما فعلوه بالمسلمين وبالخليفة العباسي، بجانب حصول بركة وخلفائه على كتب التقليد من الخليفة العباسي الاسمي في القاهرة أوجد غطاء شرعياً لهذه الهجمات، وبالفعل أدى الصدام العسكري بين الإيلخان في عهد هولاكو وبين القفجاق بقيادة بركة إلى انشغال الإيلخان عن الثأر لما حل بهم في عين جالوت[١].

كما توالت الصدامات بين الإيلخان والقفجاق في عهد أبغا خان بن هولاكو بشكل جعل الإيلخان يعجزون عن القيام بحملة كبيرة على شمال بلاد الشام، في ظل كثرة مشاكلهم على الجبهتين الشمالية المتمثلة في القفجاق والشرقية ممثلة في الجغطائيين، وهو ما أدي إلي كثرة الكتابة إلى الغرب للقيام بعمل حربي مشترك موجه ضد دولة المماليك، كما مكنت هذه المشاكل الظاهر بيبرس من تدمير قوة مملكة أرمينيا الصغرى عام ٦٦٤هـ (١٢٦٦م) التي تحالفت مع مغول فارس وضمت إليها إمارة أنطاكية، دون أن يستطيع المغول الإيلخان أن يقدموا لها شيئاً[٢]، وهو ما ساعد الظاهر على فتح أنطاكية دون تدخل الأرمن مما جعل

=See also, Broadbridge (Anne Falby), Mamluk Ideological and Diplomatic relations with Mongols and Turkic Rulers of the Near East and central Asia (658-807/ 1260-1405), PHD , The faculty of the Division of the Humanities, The University of Chicago, 2001, pp. 29-44.

(١) فؤاد الصياد، الشرق الإسلامي، ص ٤٢.

Bertold, Die Goldene Horde, p.44.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٩-٢٧١؛ شافع بن علي، حسن المناقب، ص ١١٥-١١٦؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٥٥٢.

Cf, Smbat, Smbat Sparapet's Chronicle, pp.246-247; Gerigor of Akanc, History of Nation of the Archers, p.359; see also Grousset, Histiore des Croisades, Tom III, p.634; Der Nersessian, "The Kingdom of Cilician Armenia", p.654; Kurkjian, A History of Armenia, on http:/Penelope.uchicago.edu/Thayer/E/Gazetter/Places/Asia/Armenia/_Texts/KURARM/30*.html , p.248 .

راجع أيضا، فؤاد الصياد، الشرق الإسلامي، ص ٧٤؛ فايد عاشور، الجهاد الإسلامي، ص ٢٣٠.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الخناق المملوكي يتزايد يوما بعد يوم على مملكة عكا، والمغول عاجزون عن تجريد حملة كبيرة يمكن أن تكون ذات تأثير في مجريات الأحداث، وبالتالي لم يتعد رد الفعل المغولي على التحديات المملوكية سوى هجمات محدودة أكبرها هجوم عام ٦٧٠هـ (١٢٧١م) على قلعة ألبيرة في شمال الشام، الذي تصدى له الظاهر بنفسه[١].

نخلص مما سبق إلى أن النشاط الدبلوماسي للظاهر بيبرس قد أفضى إلى تحالف مع بركة خان المغول القفجاق، ونتج عن هذا النشاط تهديد الإيلخان من الشمال بجانب ما يعانونه من تهديد الجغطائين لهم من الشرق؛ مما حال دون قيام حملة عسكرية مغولية إيلخانية تمثل تهديدا كبيراً لدولة الظاهر بيبرس؛ مما منعه من تحقيق كثير من المكاسب على حساب مملكة عكا.

كما حذا المنصور قلاوون حذو الظاهر فاستمرت الصلات الدبلوماسية مع المغول القفجاق وزادت ضغوطهم على الإيلخان، وبالتالي لم يشهد عهده سوى حملة إيلخانية قام بها أبغا عام ٦٨٠هـ (١٢٨١م) على إثر اجتياح بلاد الشام في ظل انشقاق سنقر الأشقر ومحاولته إقامة ملك خاص به في بلاد الشام، ومن ثم اجتاحوا شمال الشام حتى التحموا بالجيش المملوكي بقيادة المنصور قلاوون عند حمص في رجب ٦٨٠هـ (أكتوبر ١٢٨١م) وهناك سحق الجيش المغولي[٢]، وبعدها لم يحدث أن هاجم المغول الإيلخان شمال الشام بقوة ذات تأثير حتى نهاية الوجود الصليبي في الساحل على يد الأشرف خليل[٣].

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٣٩٤-٣٩٦؛ شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٨٧، المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٦٠٧.

(٢) ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ١، ص ٦٢،٦٣ ؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٣، ص ؛ ٦٩١-٦٩٥؛ رشيد الدين، جامع التواريخ، مجلد٢، جـ٢، ص ٨٣،٨٤؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٧، ص ٢١٣-٢١٨؛ انظر أيضا:

De Cancy, Crusader's Letter, pp.7-12; The Templar of Tyre, pp.77-78 .

راجع أيضا: أيضا، أحمد عبد الكريم، المغول والمماليك، ص ١٧.

(٣) فؤاد الصياد، الشرق الإسلامي، ص ١٩٩.

http://www.al-maktabeh.com

أما النوع الثالث من أنواع الدبلوماسية المملوكية فقد تمثل في محاولة تجفيف منابع الحملات الصليبية، وفي هذا الإطار تأتي الصلات الدبلوماسية مع كل من بقايا آل هوهنشتاوفن، والدولة البيزنطية، والمملكة الأنجوية، وكل من قشتالة وأرغونة.

وتعتبر العلاقات المملوكية مع مانفرد هوهنشتاوفن امتداداً للعلاقات الأيوبية مع أبيه الإمبراطور فردريك الثاني[١]، فما أن أعتلى الظاهر سدة الحكم حتى سارع بمد يد الصداقة لمانفرد هوهنشتاوفن، فأرسل المؤرخ الشهير بن واصل برسالة صداقة ومودة عام ٦٥٩هـ (١٢٦٠م)، محملة بالهدايا والطرائف، غير أن تجديد العلاقات الدبلوماسية مع كبير الهوهنشتاوفن، لم تكن لمجرد الصداقة بل طلب فيها بيبرس صراحة تعهدا من مانفرد بعدم التحالف مع المغول، الذين بذلوا جهدا في التفاهم معه فأجابه مانفرد بالقبول[٢]، ولم يكن موقف مانفرد مستغربا ولا ناتجا فقط عن الصداقة القديمة بين مصر وبين والده، ولكن أيضا بسبب التقارب البابوي المغولي وما جرى بينهما من مراسلات. وفي إطار التفاهم المتبادل بين الظاهر بيبرس وبين مانفرد تعهد الأخير بإبلاغ بيبرس بأي تحرك أوربي لدعم الكيانات الصليبية[٣].

وبناء على هذه الصداقة تابع الظاهر بيبرس إرسال أخبار انتصاراته إلى مانفرد، ومن أمثلة ذلك ما كتبه إليه عام ٦٦٣هـ (١٢٦٤م) حول خبر فتح أرسوف[٤]. وفي ظل هذه العلاقة القوية يرجح الباحث سبب قيام مانفرد هوهنشتاوفن بالقبض على رسل أبغا إلى البابا عام ٦٦١هـ (١٢٦٣م) بوصفه وفاء من مانفرد باتفاقه مع بيبرس، ناهيك عن علاقته السيئة مع البابا، وقد ظلت العلاقات قائمة على التوافق مع الهوهنشتاوفن وكانت أخبار أوربا ترد

---

(١) حول العلاقات الدبلوماسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة وبين دولة الأيوبيين انظر: سعيد عاشور، الإمبراطور، الإمبراطور فر ديريك الثاني والشرق العربي، ص ١٩٥-٢١٣.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٤، ص ٢٤٨؛ النويري، نهاية الأرب، جـ٣، ص ٥٦؛ راجع أيضا يوسف غوانمة، معاهدات الصلح والسلام، ص ٨٠.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٤٧٢.

(٤) نفسه، ص ٥٣٤؛ راجع أيضا رنسيمان، الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٥٤٨.

مكتبة المهتدين الإسلامية

على الظاهر تباعاً فعلم بمقتل مانفرد في بنفنتو، ورحب بسفارة كونرادين بن كونراد بن فردريك صاحب الحق الشرعي في مملكة عكا عام ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) وكتب إليه يوصيه خيرا برفاق عمه مانفرد[1] وبالطبع جاء إعدام كونرادين عام ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) على يد شارل أنجو نهاية للعلاقات المصرية مع الهوهنشتاوفن[2].

أما القوة الأوربية الثانية التي توثقت علاقاتها الدبلوماسية مع دولة المماليك فتمثلت في شخص شارل كونت أنجو، وترجع جذور العلاقات الدبلوماسية بين الظاهر بيبرس وبينه إلى عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م)، حين وقع شارل مع أخيه لويس التاسع في الأسر، وأثناء هذا الأسر من الواضح أن شارل كان عهد بحراسته إلى بيبرس فجرت محادثات بينهما أوضح فيها شارل رغبته في عقد صداقة مع مصر مثل صداقة فردريك الثاني[3]، فلما آلت السلطنة إلى الظاهر بيبرس أراد شارل اتخاذ الاتصال القديم أساس لعلاقات دبلوماسية قوية مع سلطنة المماليك، فكتب يطلب توثيق هذه الصلات عام ٦٦٢هـ (١٢٦٣م) فرحب الظاهر بذلك[4].

أما عن سبب هذه الرغبة من قبل شارل، فمما لاشك فيه أن قوة سلطنة المماليك باعتبارها أكبر قوة إسلامية على الساحة بعد عين جالوت، بالإضافة إلى تطلع شارل إلى بناء إمبراطورية بحر متوسطية، وبخاصة على حساب الإمبراطورية البيزنطية، جعل التفاهم مع مصر ضرورة، أما الظاهر بيبرس فربما وجد أن التفاهم الدبلوماسي مع شارل ضرورة تمكن مصر من التعرف على أحوال أوربا، عن طريق جواسيس في صورة سفراء، دون أن يلفتوا النظر، ويبدو أن الظاهر نجح في بث عدد من الجواسيس ربما يكونون من التجار، أو حتى من المقربين من شارل، بدليل أنه في سفارة شارل إلى الظاهر عام ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) كان من أعضائهم مبعوث بابوي متخف على أنه أحد أعضاء الوفد، إلا أن الظاهر عرف اسمه ورسمه

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٣٦-٣٣٧.

(٢) راجع الفصل الأول، ص ٦١.

(٣) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٣٦.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٠١.

http://www.al-maktabeh.com

فحادثة مباشرة وأوضح له أنه لا فائدة من تخفيه، فلم يملك الرسول بداً من الكشف عن شخصه[١]، وفي هذه السفارة طلب شارل قبول وساطته لعقد هدنة بين مملكة عكا وبين سلطنة المماليك، فقبل بيبرس الشفاعة وأوضح له أن المشكلة هي عدم التزام الصليبيين بالهدن المعقودة "فما يعقده كبيرهم ينقضه صغيرهم"[٢].

و توضح هذه العبارة مدى إدراك بيبرس لحال الصليبيين وصراعاتهم الداخلية، ولو صح رأي المؤرخين الذين أكدوا أن شارل أنجو كان هو المسئول عن تحول وجهة حملة لويس التاسع الصليبية إلى تونس عام ٦٦٩هـ (١٢٧٠م)، فمن المرجح حدوث ذلك بناء على حرص شارل على الحفاظ على صلاته الطيبة بمصر، كما لم يكن لبيبرس أن يرفض وساطة شارل أنجو بحكم أنه الملك الأوربي الوحيد القادر في ذلك الوقت على القيام بحملة صليبية، ناهيك عن خبراته السابقة التي أكتسبها من مشاركته في حملتي لويس التاسع على مصر ثم تونس، بالإضافة إلى دوره الكبير في الانتخابات البابوية، وفوق كل ذلك أنه يكره المغول مثل كراهية بيبرس لهم بحكم تحالفهم مع بيزنطة العدو اللدود لشارل[٣].

ومهما يكن من أمر فقد استمر تبادل الرسائل طوال عهد الظاهر بيبرس، لكن من الواضح أن ظروف الغرب الأوربي كانت سبباً في تأخر الرد على رسائل الظاهر، مما كان يوجب اعتذار شارل عن ذلك كما حدث عام ٦٧٠هـ (١٢٧١م)[٤]، ومن الواضح أن هذه السفارة تضمنت توسطا لدى الظاهر بيبرس لعقد هدنة مع مملكة عكا عقب فشل إدوارد بن ملك إنجلترا في إنجاز شيء لصالح الصليبيين، فقبل الظاهر هذه الشفاعة وعقد صلحا مع مملكة عكا لمدة عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام[٥]، ومع نجاح شارل في

---

(١) نفسه، ص ٣٣٦.

(٢) نفسه.

(٣) محمود سعيد عمران، شارل أنجو، ص ١٨٧.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٩٧.

(٥) نفسه ، ص ٣٩٨، وأيضا: L'Estoire d'Eracles, p.461.

راجع أيضا، محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص ١٨٦.

مكتبة المهتدين الإسلامية

صفقة تنازل ماري الأنطاكية له عن حقوقها المزعومة في عرش عكا عام ٦٧٦هـ (١٢٧٧م)، أرسل شارل روجر سان سفرينو نائبا عنه في عكا، وأمره بتوطيد صلته بالظاهر بيبرس، وهو ما رحب به الظاهر مرحليا حيث أمن جانب الغرب الأوربي، فلا تأتي حملات صليبية جديدة، مما يمنحه الفرصة لتكسير عظام الإيلخان دون أن يرتاب من هجوم مباغت من الصليبيين من خلف للجيش المملوكي[١].

ومع اعتلاء المنصور قلاوون لعرش سلطنة المماليك عام ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) استمرت الصلات الدبلوماسية بين شارل أنجو، ممثلا في نائبه في عكا، وقد حقق قلاوون عدة فوائد من هذه الصداقة، أولها أن الفترة ما بين اعتلاء قلاوون للعرش حتى انهيار حكم شارل في صقلية -وانشغاله عن الساحل- لم تشهد أي نشاط صليبي يؤرق دولة المماليك، ثاني الفوائد قيام نائب شارل في عكا بإبلاغ قلاوون بخبر مؤامرة حيكت ضده، من قبل عدد من أمراء المماليك المقربين إليه، فحين أرسل قلاوون يطلب تجديد الهدنة مع مملكة عكا حتى يتفرغ لقتال المغول طلب أحد سفراء قلاوون في السر من روجر نائب شارل، بعدم قبول الهدنة لأن قلاوون لن يستقر في الحكم، فاتخذها روجر قربة من قلاوون وأخبره بما يحاك ضده فاحتاط المنصور قلاوون للأمر وقبض على المتآمرين[٢].

أما الفائدة الثالثة فهي تأمين ظهر قلاوون أثناء قتاله للمغول في حمص عام ٦٨٠هـ (١٢٨١م) فقد أمن بناء على تجديد الهدنة بينه وبين مملكة عكا، ألا يداهمه الصليبيون من الخلف، وحين عاد قلاوون إلى دمشق منتصراً سارع إليه روجر سان سفرينو بتقديم التهنئة على النصر[٣]. وقد استمرت تلك الصلات قائمة حتى انهار ملك شارل أنجو في صقلية عام

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٥٩٢.

(٢) شافع بن علي، كتاب الفضل المأثور، ص ٨٦-٨٧؛ ابن الفرات، تاريخ بن الفرات، جـ٧، ص ٢٠٦-٢٠٧؛ راجع أيضا، أحمد عبد الكريم، المغول والممالك، ص ١٧.

(٣) The Templar of Tyre, pp.77-78.

راجع أيضا، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٦٦٣؛ فايد حماد عاشور، الجهاد الاسلامي، ص ١٨٧.

http://www.al-maktabeh.com

٦٨١هـ (١٢٨٢م)، واستدعى نائبه روجر من عكا، فكان الأمر فرصة كبيرة للمنصور قلاوون، حتى يعاود سياسة تصفية المعاقل الصليبية التي توقفت منذ وصول روجر إلى عكا دون أي حرج دبلوماسي ولا نقض للعهود[١]، بجانب أن قدرة شارل على إرسال حملة صليبية صارت في حكم العدم في ظل المشاكل الكبيرة مع مملكة أراجون[٢].

وفي الإطار نفسه الذي قامت على أساسه الصلات المملوكية الأنجوية تأتي الصلات المملوكية مع مملكتي قشتالة وأراجون، وفيما يخص الصلات الدبلوماسية مع قشتالة فقد بدأت منذ عهد الظاهر بيبرس حين أرسل ألفونسو العاشر Alfonso X [٣] سفارة إلى الظاهر بيبرس عام ٦٥٩هـ (١٢٦١م)[٤] ورد الظاهر على هذه السفارة بسفارة مماثلة تحمل كثير من الهدايا[٥]، واستمرت السفارات المتبادلة بين الطرفين حتى توفي الظاهر بيبرس[٦]، أما عن أثر هذه العلاقات الدبلوماسية في عهد الظاهر على تصفية المعاقل الصليبية فغير واضحة، إلا أننا نتفق مع الدكتور النشار[٧] فيما ذهب إليه من أن اقتصار المساعدة القشتالية لحملة ملك أراجون الصليبية الفاشلة عام٦٦٦هـ (١٢٦٨م) على العون المالي، سببه حرص ملك قشتالة على عدم الإخلال بصداقته لدولة المماليك، فلم يقدم عوناً بشرياً، واكتفى بالعون

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص ؛ وراجع أيضا : رنسيمان، المرجع السابق، جـ٣، ص ٦٦٥.
Hill, A History of Cyprus, vol.II, p.176

(٢) Runciman, Sicilian Vespers, pp.211-255.

(٣) ألفونسو العاشر: تولي حكم قشتالة عام ٦٥٠هـ (١٢٥٢م)، كن عهده عهد ازدهار وتطور في مملكة قشتالة المسيحية، وعلي يدي ارتقت العلوم والفنون، بذل جهوداً مستميته للحصول علي لقب الإمبراطور باعتباره وريث لأسرة الهوهنشتاوفن، غير أن البابوية لم تسمح له بالوصول إلي مرماه، كما ارتبط بعلاقات سياسية ودبلوماسية مع القوي الإسلامية خاصة في شمال أفريقيا كما ارتبط بعلاقات متميزة مع مصر توفي عام ٦٨٣هـ (١٢٨٤م)، عنه انظر، محمد النشار، علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، ص ١٦٦-١٦٧

(٤) محمد النشار، المرجع السابق، ص ١٦٧؛ محمد حمزة الحداد، السلطان المنصور قلاوون، ص ١٠١.

(٥) محمد النشار ، المرجع السابق، ص ١٦٧.

(٦) حول تفاصيل هذه السفارات وتواريخها انظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٣٧؛ المقريزي، جـ١، ق٢، ص ٦٢١؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، مجلد٧، ص ٤٤.

(٧) علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، ص ١٦٧.

مكتبة المهتدين الإسلامية

المالي حرصاً على رضا البابا، ومن ثم فقد اقتصرت فائدة تلك الصلات في أمر تصفية المعاقل الصليبية على ضمان الظاهر بيبرس استمرار تدفق الحديد والأخشاب اللازمة للأعمال الحربية من قشتالة إلى الموانئ المصرية التي تسبب نقصها في إعاقة إتمام كثير من الفتوح[١]، أما المنصور قلاوون فقد واصل سياسة سلفه في التفاهم مع مملكة قشتالة وتوالت السفارات المتبادلة بين الطرفين غير أن فائدتها لم تتعد ما جنته دولة المماليك في عهد الظاهر بيبرس[٢].

أما عن العلاقات المملوكية الأراجونية فقد جاءت في إطار التضييق على الصليبيين في الساحل الشامي والحد من فرص قدوم حملات صليبية من الغرب تعوق إسقاط مملكة عكا، فاتجه المنصور قلاوون إلى عقد صلات دبلوماسية مع مملكة أراجون[٣]، ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن هناك صلات ودية بين مصر وأراجون في عهد الظاهر بيبرس، إذ كانت أراجون مؤيدة للبابوية وللقضية الصليبية حتى خرج ملك أراجون جيمس الأول٦٦٨هـ

---

(١) محمد النشار علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، ص ١٧٣.

(٢) عن هذه السفارات انظر، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والدهور، ص١١٢ – ١١٣؛ راجع أيضا محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون ص ٢٦٢.

هناك عددا من الباحثين المحدثين العرب قد ضخموا من نتائج النشاط الدبلوماسي المصري القشتالي المتبادل وفي مقدمتهم الدكتور محمد جمال الدين سرور الذي ذكر أن هذه العلاقات قد توجت بمعاهدة دفاعية عقدت بين سلطنة المماليك ومملكة قشتالة عام ٦٨١هـ (١٢٨١م)، وكان سنده في ذلك ما دونه موير Muir، وقد تبنى رأيه الدكتور مراد كامل في مقدمته لتحقيق كتاب "تشريف الأيام والدهور بسيرة الملك المنصور" وسلك دربه الدكتور محمد حمزة الحداد، غير أن البحث في المصادر العربية لم يسفر عن أي تفاصيل عن هذه المعاهدة حتى في تشريف الأيام نفسه الذي حمل بن دفتيه كثير من نصوص المعاهدات – التي عقدت بين دولة المماليك والقوى المعاصرة–، لم يذكر شيئا عن ذلك، ولو حدث لما خلا الكتاب من تفاصيل هذه المعاهدة، كما لم تشر الدراسة التي أعدها الدكتور النشار شيئا عن معاهدة مماثلة، وبالرجوع إلي نص ما كتبه Muir وجدنا أنه لم يذكر قيام تحالف دفاعي فعلي بل رجح وجود نوع من التحالف الدفاعي، فقد قال ما نصه:" The Sultan concluded commercial arrangements with Genoa , and even entered into a kind of defensive treaty with Castile and Sicily" كما أن الكتاب في الأصل عمل ثقافي وليس بحث علمي مدقق، وبالتالي لا يصلح كمرجع علمي، وإن لم يخل من فائدة. انظر:

The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt , p.38

راجع أيضا: جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون، ص ٢٦٢؛ مقدمة الدكتور مراد كامل لكتاب تشريف الأيام والدهور، ص ٥٠؛ محمد حمزة الحداد، السلطان المنصور قلاوون، ص ١٠١.

(٣) محمد النشار، علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، ص ٩٩.

http://www.al-maktabeh.com

(١٢٦٩هـ) James I of Aragon في حملة صليبية لم تكتمل ولم يواصل الرحلة سوى عدد قليل من الجنود تحت إمرة ولدين غير شرعيين من أولاد جيمس لم ينجزا شيئا وعادا من حيث أتيا[١]، وقد كانت أراجون هي البادئة بتقديم يد التفاهم الدبلوماسي إلى دولة المماليك كسرا منها لطوق العزلة الذي فرضته عليها البابوية في ظل الصراع الأنجوي الأراجوني على صقلية، ومن ثم كانت وسيلة الملك ألفونسو الثالث Alfonso III [٢] ملك أراجون لكسر هذا الطوق هي التفاهم مع مصر، وتصادف وصول السفارة الأراجونية مع حصار قلاوون لطرابلس ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) تطلب عقد هدنة بين البلدين، وتعبيراً عن حسن النية حمل السفراء معهم سبعين من أسرى المسلمين في بلادهم، وأعربوا عن رغبة ملك أراجون في عقد تحالف دفاعي ضد أعداء الطرفين فلم يمانع المنصور قلاوون[٣].

وقد تضمنت الهدنة كثيراً من البنود المنظمة للعلاقة بين القوتين، وبخاصة في أمور التبادل التجاري، على أن أهم بنودها بالنسبة لتصفية بقايا المغتصبات الصليبية في الساحل، هو ما يتعلق بضرورة قيام ملك أراجون بمنع البابا، أو أي من ملوك أوربا أو مدنها التجارية أو تنظيماتها العسكرية من الخروج في حملة صليبية إلى الشرق، حتى لو أدى ذلك إلى استخدام القوة بحرية كانت أم برية، وركز على القوة البحرية بحكم أن البحر كان وسيلة اتصال الصليبيين في الساحل الشامي بالغرب الأوربي[٤]. كما تضمنت المعاهدة بندا على درجة

---

(١) Templar of Tyre, p.53; L'Estoire d'Eracles, p.458,Chaytor, History Of Aragon and Catalonia, on LIRO, p.9.

(٣) ألفونسو الثالث: اعتلي عرش مملكة أراجون عام ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) خلفا لوالده بطرس الثالث، وبسبب تمسكه بمكاسب والده – المتمثلة في النزاع صقلية من يد آل أنجو حلفاء البابوية المخلصين – فقد تجدد الصراع بينه وبين البابوية معتمدا علي دعم إدوارد الأول ملك انجلترا، غير أنه تراجع عن موقفه المتشدد عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م) بسبب مشاكله الداخلية،وقد نفس العام، عنه انظر

Haytor, A history of Aragon and Catalonia, pp.124-132.

راجع أيضا، سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ١، ص ٥٦٢–٥٦٣.

(٤) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والدهور، ص ١٥٦،

Stevenson, The Crusaders, p.351.

(٥) ابن عبد الظاهر، المرجع السابق، ص ١٥٩.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كبيرة من الأهمية تمثل في عدم الاستجابة لأي من طلبات المغول الإيلخان بشأن تكوين تحالف مضاد لدولة المماليك، وإذا ما حدث وتحالف أي من ملوك أوربا ضد المماليك فإنه يتعين على ملك أراجون تزويد السلطان بأخبار كل تحركات الجيوش الأوربية ومواعيد خروجها لغزو بلاد الشام [١]. كما تضمن عقد الهدنة لضمان تدفق السلع الاستراتيجية المهمة في الأعمال العسكرية، التي تستخدم بالطبع في تصفية المعاقل الصليبية خصوصاً الأخشاب والحديد، وهما السلعتان اللتان أراد البابا منع تصديرهما من الموانئ الأوربية إلى الشرق حتى لا تكون عونا للمماليك على الصليبيين[٢].

وتعبر البنود الثلاثة المذكورة أبلغ تعبير عن وعي المنصور قلاوون بكل دقائق السياسة الأوربية، وما يخططه الغرب لبلاد الإسلام وما يدور من محاولات للتحالف مع المغول، وما تمثله البابوية من ثقل في السياسة الأوربية، وما تسعى إليه من فرض حصار اقتصادي على المماليك وبخاصة على السلع الاستراتيجية اللازمة للأعمال العسكرية. ولم يكن لقلاوون أن يدرك ذلك لولا وجود جهاز مخابرات بارع يخبره بمجريات الأمور عرف القائمين عليه بالقصاد، وقد أغدق عليهم المنصور ومن قبله الظاهر مبالغ طائلة في سبيل توفير قاعدة معلومات عن الأعداء تمكن من الاستعداد للتصدي لهم حتى لا يفاجئوا الدولة المملوكية على غرة[٣].

وبالرغم من أن الوقت لم يطل بعد الاتفاق حتى سقطت آخر معاقل الصليبيين وهي عكا إلا أن هذه المعاهدة كانت بداية لعلاقات دبلوماسية قوية بين القوتين المملوكية والأراجونية، وأساساً لمزيد من المعاهدات المنظمة للعلاقة بينهما[٤]، أما عن أثر هذه المعاهدة في تصفية المعاقل الصليبية فغير واضح وربما كان لهذه المعاهدة دور في عدم ظهور الأراجونيين في

---

(١) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والدهور، ص ١٦٠.

(٢) نفسه، ص ١٦١.

(٣) حول الجاسوسية في عصر سلاطين المماليك انظر: علي السيد علي، الجاسوسية في عصر سلاطين المماليك، مجلة فكر للدراسات والأبحاث، العدد ١٠، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٢٦-١٤٦.

(٤) محمد النشار، علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، ص ١١٠ وما بعدها.

http://www.al-maktabeh.com

النجدة التي أرسلتها البابوية عام ٦٨٩هـ (١٢٩٠م)، لدعم مملكة عكا على إثر استغاثة ملكها بالغرب نتيجة فتح المنصور قلاوون لطرابلس وحلول الدور على بقايا مملكة عكا، وبالرغم من ظهور عدد من الأراجونيين في الحصار الأخير لعكا من قبل الأشرف خليل إلا أن هذا ليس دليلاً على الخرق الرسمي للاتفاق(١).

كما كان التفاهم الدبلوماسي مع الدولة البيزنطية على درجة من الأهمية في تصفية المماليك لمملكة عكا؛ ذلك أن هذا التفاهم الدبلوماسي قد ساعد على عدة أمور، من بينها تزويد الجيش المملوكي بالمماليك الجدد، بعد أن تراجعت حركة تدفق الرقيق إلى مصر نتيجة التوسع المغولي، الذي جعل استمرار هذه الحركة عن طريق البر غير ممكنة، وهو ما هدد البنية البشرية للجيش المملوكي، وكان اهتزاز هذا الجانب يمثل خطورة بالغة على قوة المماليك الناشئة، ويحول دون تنفيذ ما خطط له الظاهر، من تصفية مملكة عكا مع باقي المعاقل الصليبية، وعليه فقد سعى الظاهر للتحالف مع البيزنطيين ليجعل حركة نقل الرقيق عن طريق البحر بدلاً من البر(٢).

أما الأمر الثاني فهو تيسير الاتصال بالمغول القفجاق مما يضمن ضغطهم على المغول الإيلخان، ويقلل من هجماتهم على بلاد الشام، ويفسح المجال لتصفية المعاقل الصليبية، وفي ظل وجود الإيلخان في فارس فإنه لم يعد هناك وسيلة للاتصال بهم إلا عن طريق المضايق البيزنطية والبحر الأسود(٣). وثالث الأمور كان ضرب المحاولات المغولية لتنشيط الطريق التجاري القديم عبر وسط آسيا، وهو ما هدد بفرض حصار اقتصادي على مصر، وهو ما يتوافق مع أهداف البابوية في الغرب لتحجيم قوة المماليك أو القضاء عليها باستخدام هذه

---

(١) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٧٠٦؛ محمد النشار، علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، ص ١١٤.

(٢) الأمين أبو سعدة، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والقوي الإسلامية، ص ٢٢٢؛ ليلى عبد الجواد، " علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية ٦٥٩-٧٨٤هـ ١٢٦١-١٣٨٢م"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ٤٦، ١٩٨٦م، ص ٥٧-١٣١، ص ٥٩.

(٣)الأمين أبو سعدة، المرجع السابق، ص ٢٢٣؛ ليلى عبد الجواد، المرجع السابق،ص٥٩ - ٦٠.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الوسيلة، ومن ثم سلك بيبرس الطريق المضاد من خلال تنشيط تجارة البحر الأحمر ومنح التجار كثير من المميزات التي تجذبهم للعمل في الموانئ المصرية، وتعزل إيلخانات فارس وتقلل من أهمية الطريق التجاري عبر وسط آسيا، بالارتباط التجاري مع موانئ البحر الأسود[١]. وقد التقت الأهداف المملوكية مع الأهداف البيزنطية فقد كانت الدولة البيزنطية تحت حكم أسرة باليولوجوس، التي استطاعت القضاء حديثاً على الإمبراطورية اللاتينية، ولم تستقر الأحوال بها بعد، ووجود تهديد كبير من جانب قوى غرب أوربا التي حاول بلدوين الثاني الإمبراطور اللاتيني المطرود من القسطنطينية إثارتها، لاستعادة عرشه المفقود وبصفة خاصة الطموح الطماع شارل كونت أنجو[٢].

ونظراً لهذه الأسباب سالفة الذكر اتجه بيبرس منذ عام ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) إلى تنشيط علاقاته الدبلوماسية مع الإمبراطورية البيزنطية، وظهر هذا النشاط في عدد من الاتفاقيات، حققت منها كلا القوتين غرضها من الأخرى. أولى الاتفاقيات عام ٦٦٠هـ (١٢٦١-١٢٦٢م) التي ضمن بمقتضاها الظاهر بيبرس تدفق الرقيق إلى مصر عبر مضيقي البسفور والدردنيل الذين يصلان البحر المتوسط بالبحر الأسود، بجانب حرية مرور السفراء عبر الأراضي البيزنطية إلى دولة المغول القفجاق[٣]، وقد أكدت مجريات الأحداث مدى أهمية الأراضي البيزنطية لضمان استمرار الاتصال بالمغول القفجاق، إذ ألف السفراء المصريون المرور بالأراضي البيزنطية للوصول إلى مغول القفجاق، كما حدث في المحرم عام ٦٦١هـ (١٢٦٢م) حين تصادف وجود سفارة من الظاهر بيبرس إلى بركة خان مع سفارة مناظرة من بركة إلى مصر، فاتخذها البيزنطيون دليلاً على التمسك بالاتفاقية المبرمة حين سيروا رسول بركة إلى مصر ومعهم رسول بيزنطي يؤكد مضي السفارة المصرية إلى مبتغاها[٤]. غير

---

(١) الأمين أبو سعدة، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والقوي الإسلامية، ص ٢٢٣.

(٢) ليلى عبد الجواد، " علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية"، ص ٥٨.

(٣) محي الدين بن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٨٨؛ شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٥٠؛ وراجع أيضا: ليلى عبد الجواد، المرجع السابقص ٥٩-٦٣؛ الأمين أبو سعدة، المرجع السابق، ص ٢٣٢-٢٣٩.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٤٠؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٤٧٩-٤٨٠؛ وراجع أيضا ليلى عبد الجواد، " علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية"، ص ٦٦.

http://www.al-maktabeh.com

أن العلاقات لم تسر على وتيرة واحدة، إذ حدث تطور أدى إلى تدهور العلاقــات، هــذا التطور تمثل في الصداقة التي عقدت بين الدولة البيزنطية والمغول الإلخانيين[١]، وهو ما ترتب عليه تعويق الإمبراطور لسفارة أرسلها السلطان بيبرس في رمضان ٦٦١هـ (١٢٦٢م) إلى بركة خان ؛ خوفا من غضب أصدقائه الإلخان ألد أعداء القفجاق[٢]، وقد ترتب على هــذا الأمر غضب الظاهر بيبرس وجمع رجال الدين المسيحيين وحصل منهم على توقيعاتهم بحرمان الإمبراطور بسبب نقض الاتفاق ومصادقة هولاكو، غير أن الظاهر لم يقطع طريق التفاهم بل عرض التدخل لتصفية المشاكل المتفاقمة من جراء اجتياح القفجاق لأراضي الإمبراطوريــة، نتيجة لصداقتها للإلخان[٣]، وبالفعل تمكن رسل الظاهر بيبرس بعد جهود مضنية من عقــد هدنة مع منكوتمر خليفة بركة خان المغول القفجاق، عام ٦٦٧هـ (١٢٦٨م)[٤]، وهو ما أثلج صدر الإمبراطور البيزنطي الذي حرص على تجديد الصلح مع سلطان مصر في ظــل تصاعد خطر شارل أنجو الذي خطط للقضاء على الإمبراطورية البيزنطيــة[٥] واســتمرت الصلات الودية بين البلدين حتى توفي الظاهر بيــبرس ٦٧٦هـــ(١٢٧٧م)[٦]. وهكــذا حققت العلاقات الدبلوماسية المتبادلة بين البلاطين البيزنطي والمملوكي في عهــد الظــاهر بيبرس كثيراً من المصالح المشتركة، التي من أجلها نشط الطرفان للتفاهم، وبالرغم من تقلب الأحوال نتيجة المتغيرات السياسية والاستراتيجية المتتابعة إلا أن الطــرفين حرصــا علــى الإسراع بالتفاهم لإزالة المعوقات التي تعكر صفو العلاقات بين الطرفين.

---

(١) حول العلاقات البيزنطية المغولية، انظر: الأمين أبو سعدة، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والقــوي الإسلامية، الفصلين الأول والثاني.

(٢) راجع أيضا ليلى عبد الجواد، المرجع السابق، ص ٦٨

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٤) نفسه، ص ٣٣٥.

(٥) ليلى عبد الجواد، المرجع السابق، ص ٧٥-٧٨

(٦) ذكرت المصادر العربية وفود سفراء بيزنطة إلي مــصر في عــامي ٦٧١هـــ (١٢٧٢م) و ٦٧٤هـــ (١٢٧٥م) انظر ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٠٤ ؛ ؛ المقريــزي الــسلوك، جـــ١، ق٢، ص ٦٠٧، ٦٢١؛ ابن الفرات، تاريخ بن الفرات، مجلد٧، ص ٤٤.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أما في عهد المنصور قلاوون فقد استمرت الصلات الودية بين الطرفين للأسباب نفسها التي توثقت من أجلها هذه العلاقات في عهد الظاهر بيبرس، فما أن استقر الحال بالمنصور قلاوون في عرش سلطنة المماليك حتى أرسل سفارة عام ٦٧٩هـ (١٢٨٠م) إلى الإمبراطور البيزنطي، يعرب فيها عن رغبته في استمرار العلاقات الودية بين الطرفين، كما كانت في عهد الظاهر بيبرس[١]، وهو ما رحب به الإمبراطور. وعليه فقد عقدت معاهدة جديدة بين الطرفين في رمضان من عام ٦٨٠هـ (١٢٨١م)، تضمنت كثيراً من البنود التي تضمن استمرار السلام بين البلدين وحرية مرور السفراء المصريين عبر الأراضي البيزنطية، وحرية التجارة عبر البلدين وبخاصة تجارة الرقيق، وشرط الإمبراطور أن لا يكونوا من المسيحيين، غير أن السلطان لم يقر هذا الشرط، كما أقر الطرف المملوكي عدم أخذ التجار البيزنطيين بجريرة أعمال القراصنة الخارجين عن سلطان الإمبراطور[٢]، وقد حاول الإمبراطور البيزنطي إقحام المماليك في الصراع المتبادل بينهم وبين شارل كونت أنجو، إذ أراد الإمبراطور عقد تحالف ضد العدو المشترك"[٣] والمقصد به هنا شارل كونت أنجو، غير أن الواضح أن السلطان لم يقر هذا البند، إذ لم يرد شيء عن هذا الأمر في ما ورد لدى القلقشندي عن نص النعاهدة.

وبالرغم من أن شارل كونت أنجو كان في ذلك الوقت من الناحية الشرعية ملكا على مملكة عكا بحكم شرائه حقوق ماري الأنطاكية في عرش المملكة، ووجود نائبه بها – روجر سان سفرينو–[٤]، وبالتالي هو بالفعل عدو للمماليك الذين يريدون تصفية المعاقل الصليبية. لكن شارل لم يرد الدخول في مواجهة عسكرية مع المماليك، بل أمر نائبه بالمحافظة على السلام معهم، وفي نفس الوقت لم يكن قلاوون يريد فتح باب العداء مع الصليبين، في وقت تفاقم فيه خطر المغول، ومن هنا لم يقر هذا الشرط، إذن نحن أمام سلطان ذكي يعلم جيدا

(١) المقريزي، السلوك، جـ١، ق٣، ص ٦٨٠.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشي، جـ١٤، ص ليلى عبد الجواد، المرجع السابق ص ٨١-٩٢.

(٣) ليلى عبد الجواد، " علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية"، ص٨٧.

(٤) راجع الفصل الأول، ص ٧٠.

http://www.al-maktabeh.com

تداخل خيوط اللعبة الدبلوماسية، إلا أنه استطاع بمهارة أن يخرج من اللعبة بأكبر المكاسب، إذ انتقي من رسالة الإمبراطور ما ناسب بلاده، ورفض ما يتعارض مع مصالحه حتى لو كانت هذه المصالح في مصادقة أعداء الإمبراطور.

ومهما يكن من أمر فقد حرص الجانبان -البيزنطي والمملوكي- على استمرار علاقات المودة المتبادلة، يدفع كل منهم مصالح مشتركة لهم كل منهما، والذي نريد أن نؤكده في هذا المقام أن العلاقات الدبلوماسية عادت على هدف المماليك الأساسي، وهو تصفية الوجود الصليبي في الساحل الشامي بالنفع العظيم، إذ ضمنت هذه العلاقات استمرار تدفق المماليك من أسواق القرم، عبر البحر الأسود والمضايق البيزنطية المؤدية إلى البحر المتوسط، كما أمن المماليك من جراء هذه العلاقات عدم مرور الجيوش الغربية عبر الأراضي البيزنطية قاصدة الساحل الشامي، كما يسرت هذه العلاقات الاتصال بالمغول القفجاق، وهو ما مكن المماليك من تشتيت جهود المغول الإلخانيين بفتح جبهة شمالية تهددهم باستمرار فلا تتوالي هجماتهم على مدن بلاد الشام وهو ما أعطي فرصة أكبر لتصفية المعاقل الصليبية في الساحل الشامي، وأخيرا استمرار تدفق التجارة التي جنت منها الخزانة المملوكية أرباح هائلة، استخدمت في إعداد الجيوش لمهاجمة الأعداء وتصفية الخصوم، وعلى رأسهم مملكة عكا بالطبع بجانب استمرار تدفق السلع الاستراتيجية من خشب وحديد وغيرها.

٣- الوسائل العسكرية لتصفية المعاقل الصليبية:

كان أمر تصفية المعاقل الصليبية بالنسبة لدولة المماليك البحرية في مقدمة أولوياتها، إذ إن البلاد التي خضعت لسلطانهم بالرغم من أصولهم الرقية قد قبلتهم باعتبارهم آخر قوة إسلامية كبرى استطاعت الصمود أمام التحدي الصليبي في المنصورة والتحدي المغولي في عين جالوت. ومن هذا المنطلق حصل هؤلاء المماليك على الشرعية بنصال سيوفهم التي صارت بمثابة الدرع الأخير للإسلام، وبالرغم من إحياء الظاهر بيبرس للخلافة العباسية في القاهرة[١]. فإن ذلك لم يكن سوى شرعية شكلية أما الشرعية الحقيقية التي تضمن استمرار

---

(١) حول جهود الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة انظر: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٩٩-١١٢؛ شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص ٣٧-٥٥؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص٤٤٨-٤٥٩؛ العيني، عقد الجمان، جـ١، ص ٢٩٣-٣١٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٧،

مكتبة المهتدين الإسلامية

دولته ودولة خلفائه من بعده فلم تكن سوى في قدرهم على إثبات فعاليتـــهم في التـــصدي للأخطار التي يتعرض لها العالم الإسلامي، وبالطبع كان الصليبيون في مقدمة هذه الأخطـــار، بحكم أنهم يقبعون في منطقة القلب من دولة المماليك في فلسطين والساحل الشامي(١).

وعلى هذا فقد وضع المماليك نصب أعينهم هدفا أساسيا ألا وهو تصفية المعاقل الصليبية الباقية في بلاد الشام وعلى رأسها مملكة عكا، وباستقراء ظروف تصفية مملكة عكا وتحليلها نستطيع الخروج بالعديد من الملاحظات:

أولاً: تركزت جهود المماليك في تصفية مدن مملكة عكا وحصونها في فتـــرتين زمنيـــتين واضحتين، الفترة الأولى امتدت بين عامي ٦٦٣هـــ (١٢٦٥م)-٦٦٩هـــ(١٢٧١م)، استطاع خلالها الظاهر بيبرس تصفية قيسارية وحيفا وأرسوف عام ٦٦٣هـــ (١٢٦٥م)، وصفد عام ٦٦٤هـــ (١٢٦٦م)، ويافا ٦٦٦هـــ (١٢٦٨م)، وحـــصن الـــشقيف ٦٦٦هـــ (١٢٦٨م)، وأخيرا حصن التيوتون المنيع المسمى بحصن القرين عام ٦٦٩هـــ (١٢٧١م)، أما الفترة الثانية فلم تأت إلا بعد عشرين عاما أي عام ٦٩٠هـــ (١٢٩٠م) وكانت هذه المرة على يد الأشرف خليل بن قلاوون الذي كتب بنصل سيفه شهادة وفـــاة مملكة عكا الصليبية بمداد من دماء آلاف الصليبيين، ففي هذا العام تمكن من فتح عكا وتبعه بلا عناء وبسرعة تساقط باقي مدن المملكة المتمثلة في صور وصـــيدا وبـــيروت وحـــصن عثليث. أما باقي الفترة الزمنية فقد توزعت بين تصفية المعاقل الصليبية الخارجة عن سلطات وحدود مملكة عكا(٢)، وبين صد الهجمات المغولية، وبين تقليم أظافر الأرمن.

=ص١٠٩-١١٣. راجع أيضا، سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ٢٠٤-٢٠٩؛ قاسم عبده قاسـم، ص ٨٨-٩٠؛ هولت، عصر الحروب الصليبية، ص ٢٠١-٢٠٣.

(١) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ١٨٢-١٨٣.

(٣)حول هذه الفتوح انظر: ابن عبد الظاهر، الـــروض الزاهـــر، ص ٣٠٧، ٣٠٤، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٩، ٣٨٤؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ١١١، ١٢٧، ١٢٨، ٢٥٢، ٢٦٦-٢٦٩؛ ابن أيبك الدودار، كنز الدرر، جـــ٨، ص١٠٩، ١١٧، ١٢٤، ١٢٥، ٣٠٨، ١٦١وما بعدها ؛ شافع بن علـــي حـــسن المناقـــب، ص ١٢٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـــ١٣، ص٢٨١، ٢٨٩، انظر أيضا:

The Templar of Tyre, p59, 66, 100-101 ; Annales de Terrre Sainte, pp.453, 454, 460 .

http://www.al-maktabeh.com

ثانيا: إتباع المماليك أسلوب واحد في فتح جل هذه الحصون والمدن، هـذا الأسـلوب يتمثل في الحصار وتشديد الضغط على الهدف المطلوب من خلال القذف المتوالي لأسـوار الهدف. حتى يطلب أهل الحصن التسليم، ومن أمثلة ذلك ما حـدث في قيـسارية عـام ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) حين حاصر الظاهر بيبرس المدينة وأقدم جنوده على اقتحام الخنـدق المحيط بها من ناحية السور الشرقي حيث باب المدينة واعتلوا الأسوار، ففتحت المدينة أبوابها أما القلعة فقد استغرق فتحها بعض الوقت فنصب السلطان عليها المجانيق وتـوالي ضـرب القلعة حتى سلمت، كما استخدمت الدبابات(١) لضرب استحكامات المدينة مع رمي مكثف بالنشاب مستفيد من وجود برج كنيسة قريبة من القلعة كما حاول السلطان غزو القلعة من البحر حتى فر من بالقلعة (٢) وتكرر هذا المشهد كثيرا وكانت عكا من أبرز المنـاطق الـتي تكرر فيها هذا المشهد إذ فرض الحصار المشدد على المدينة من جهة البر بينما بقي جانـب البحر دون حصار، مع تشديد الرمي بالمنجنيق(٣) على المدينة بشكل مكثف مـن قاذفـات الأحجار والقدور المليئة بالمواد المتفجرة، و تمكن المسلمون من ردم جزء من الخندق بعـد

=راجع أيضا: فايد حماد عاشور، الجهاد الإسلامي، ص ١٥٥، ١٦١، ١٨٧، ١٨٩.

(١) الدبابات: آلة من ألآلات الحرب يدخل فيها المقاتلون لينقبوا الأسوار، تمهيدا لاقتحام المدينة، وتتكون من أربعة طوابق، من الخشب أو الحديد، يتم تحريكها بواسطة عجلات. عنها انظر:

أسامة السيد علي، الظهير الشامي، ص ٣٢١.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣١؛ بيبرس المنصوري، زبـدة الفكـرة، ص٩٥ ؛ المقريـزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص٥٢٦؛ انظر أيضا:

Annales de Terre Saint, p.451-452; Cf. also, Marshal, Warfare in the Latin East, p.203.

راجع أيضا، رنسيمان، الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٥٤٦؛ حسن عبد الوهاب، قيسارية، ص٢٢٣.

(٣) المنجنيق: جمعه مجانيق، وهو آلة من الخشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر، يجذب حتى ترفع أسفله علي عاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيـه الكفة فيخرج الحجر منه فما اصاب شيئا منه إلا أهلكه، عنه انظر، القلقشندي، صبح العشي، جـ٢، ص ١٣٧. وراجع أيضا، محمد عبد الحليم أبو غزالة، الانتصارات العربية الكبرى في صدر الإسـلام، القـاهرة، ١٩٨١م ، ص٤٠؛ أسامة سيد علي المرجع السابق، ص٣٢٤؛ محمود نديم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملـوكي البحري، القاهرة، ١٩٨٣م ، ص ٤١-٤٢؛ ، توفيق بركات، فن الحرب البحرية في التراث الإسلامي، حلـب، ١٩٩٥م، ص ١٤٢.

مكتبة المهتدين الإسلامية

إنشاء سقف واق من ضربات المنجنيق الصليبي ونقب برج الملك هيو الذي سرعان ما انهار وتبعه البرج الإنجليزي وبرج كونتيسة بلوا وأسوار بواب القديس أنطون وبرج القديس نقولا، وفي ١٤ جماد الأولي (١٥ مايو) انهار برج هيو الثالث ثم النفاذ إلى داخل المدينة[١].

ثالثا: التفوق العددي الواضح للجيش المملوكي الذي قابله بشكل معاكس تدنٍ شديد في عدد المدافعين الصليبيين[٢]، وتنطبق هذه القاعدة على كل مدن المملكة وحصونها بلا استثناء، وخير مثال على ذلك أكبر معاقلهم وهو مدينة عكا العاصمة، التي لم يزد حجم القوة المدافعة عنها عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م) عن ٧٠٠ إلي ٨٠٠ فارس و١٣٠٠٠ راجل[٣] وقيل ١٠٠٠فارس و١٤٠٠٠راجل(٤) علاوة على ما أحضره ملك قبرص معه ٢٠٠فارس و٥٠٠راجل[٥]. أو ٣٠٠٠٠مسلح من الجنود المحليين والحجاج من بينهم ١٢٠٠فارس[٦]. أما القوة المهاجمة فقد بلغت على ما قيل ٧٠٠٠٠ فارس و ١٥٠٠٠٠راجل[٧] وقيل ٤٠٠٠٠فارس و ٢٠٠٠٠٠راجل، أو إجمالي عدد الجيش

---

(١) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ٢٧٠-٢٧٨؛ أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، جـ٤، ص ١٢٤-١٢٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ٣٥٦-٣٦٦؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ١، ص ١٣٧؛ المقريزي، السلوك، جـ٣، ص ٧٦٤-٧٦٥.

Cf. also: Marshal, Warfare in the Latin East, p.224.

وعن المناطق المذكورة انظر الخريطة رقم (٢)، ص ٣٤٨.

راجع أيضا: رنسيمان، الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٦٩٦-٧٠٥.

(٢) Marshal, op. cit, p.247.

(٣) The Templar of Tyre, p.102.

(٤) Runciman, "The Crusaders State", p.595 ; Nicolle, Acre 1291, p39.

(٥) Nicolle, Ibid.

(٦) Marshal, Warfare in the Latin East, p.219.

(٧) The Templar of Tyre, p.103. Cf. also: Marshal, op. cit, p.219.

وأيضاً :رنسيمان، الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٦٩٦.

http://www.al-maktabeh.com

٦٠٠٠٠٠[١]. بالإضافة إلى عدد لا يحصى من المتطوعين من العامة والفقهاء والمدرسين والصلحين[٢]. وبالرغم من عدم دقة الأعداد المذكورة إلا أن الذي لا شك فيه هو التفوق العددي الملحوظ كما ذكرنا.

رابعا: فيما يخص الآلات والأسلحة المستخدمة في تلك العمليات العسكرية فقد تنوعت غير أن أبرزها خلال تلك الفتوح كانت المنجنيقات المتنوعة فمنها ما كان يرمي الأحجار الضخمة، ومنها ما كان يقذف القدور المملوءة بالمواد المتفجرة أو السهام، وقد استخدمت المنجنيقات في جل فتوح الحصون والمدن الصليبية، وكان عدد المنجنيقات المستخدمة يتفاوت من مدينة إلى أخرى حسب اتساع المدينة وما يحميها من أبراج وما تتمتع به أسوارها من ارتفاع ومنعة، فقد استخدم في فتح قيسارية خمسة منجنيقات[٣]، وفي فتح أرسوف استخدم عدة منجنيقات من بينها منجنيق يرمي في كل رمية سبعة أسهم[٤]، وفي فتح الشقيف استخدم ٢٦ منجنيق[٥]، أما في عكا فقد استخدم في حصارها ٩٢ منجنيق، منها منجنيق ضخم يسمي بالغاضبة ، واثنان من المنجنيقات السريعة، ونوع من المنجنيق قاذف اللهب يعرف بالثور الأسود، وكان سريع الحركة وبالغ التأثير[٦] . وكان المعتاد أن

---

(١) Ludolph Von Suchems, Description of the HolyLand,p.56
Cf also:Marshal, op. cit, p.219.

(٢) أبن كثير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص ٣٥٦؛ العيني، عقد الجمان، جـ٣، ص ٩١.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣١، شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٨٨.
انظر أيضا، حسن عبد الوهاب، قيسارية، ص٢٢٢.
See alas: The Templar of Tyre, p.44; Marshal, op. cit., p.244.

(٤) شافع بن علي، المصدر السابق، ص ٩٠.
Cf. also: Amati, " The Conquest of Arsuf", p.72.

(٥) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٩٦.انظر أيضا، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص٥٥٦.
Cf also: King, The Knights Hospitallers, p.263; Marshal, op. cit, p.218.

(٦) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، جـ٤، ص ١٢٤؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٣، ص ٧٦٤. انظر أيضا: The Templar of Tyre, p.106. see also, Nicolle, Acre 1291, p53.
راجع أيضا: رنسيمان، الحروب الصليبية ، جـ٣، ص ٦٩٥.

مكتبة المهتدين الإسلامية

تصنع المنجنيقات في مكان بعيد عن الحصن أو حتى داخل المدن الإسلامية القريبة، ثم تفكك ليسهل جرها، ثم تجر بالثيران والجمال إلى أسوار الحصن أو المدينة الصليبية حيث تجمع وتعد للاستخدام، فحين أراد الظاهر بيبرس فتح القرين جهز المنجنيقات في صفد وجرها حتى القرين[١]، وفي فتح عكا جهزت المجانيق في دمشق وجرت إلى عكا في ظروف بالغة الصعوبة في ظل الأمطار الغزيرة ثم نصبت أمام أسوار المدينة في أربعة أيام[٢].

وبجانب المنجنيقات استخدمت الدبابات التي تساعد على نقب الأسوار[٣]، وقد استخدمت هذه الآلة في جل الفتوح وبخاصة التي يطول حصارها، ومن بين المناطق التي استخدمت فيها قيسارية[٤]. وبالرغم من عدم ذكر المصادر لها في باقي الفتوح إلا أن وجودها لا غناء عنه خصوصاً حين يطول الحصار، مثل حصار عكا الذي استمر ستة أسابيع[٥]، هذا بجانب أدوات نقب الأسوار التي استخدمت على نطاق واسع في المدن والحصون التي يطول حصارها، وهو ما يستلزم هدم أحد الأبراج أو أجزاء من السور حتى يتمكن المهاجمون من اجتياح الهدف، وقد برزت هذه الآلات في فتح أرسوف[٦] وصفد[٧]

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٨٦؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٥٩٣.

(٢) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ٢٧٨-٢٧٠؛ أبو الفدا، المصدر السابق، جـ٤، ص ١٢٤-١٢٥؛ ؛ المقريزي، المصدر السابق، جـ٣، ص ٧٦٤-٧٦٥.

راجع أيضا: رنسيمان، المرجع السابق ، جـ٣، ص ٦٩٥.

(٣) الدبابة: آلة حربية متحركة تصنع من الخشب السميك وتغلف بالجلود المنقوعة في الخل كي لا تشتعل وتركب علي عجل لدفعها إلي جدار الحصن أو سور المدينة، وفي جوفها يقوم الرجال بنقب السوار حتى يستطيع المهاجمون النفاذ إلي اخل المكان المراد اقتحامه. انظر: محمد أبو غزالة ، الانتصارات العربية الكبرى، ص ٤٣؛ أسامة سيد علي، الظهير الشامي، ص ٣٢.

(٤)ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٣٠-٢٣١؛ شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٨٨

انظر أيضا، حسن عبد الوهاب، قيسارية، ص ٢٢٢

(٥) Marshal, Warfare in the Lain East, p.245.

(٦)ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣٨-٢٣٩.

Cf. also: Amitai, "The Conquest of Arsuf", p. 75.

(٧)ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٥٩؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ١٠٤.

http://www.al-maktabeh.com

والقرين[١] وعكا[٢]، بجانب الستائر التي تستخدم في حماية المهاجمين في حالة تجهيزهم آلات الحصار أو استخدامها، وكانت على ضربين منها ما يصنع من الخشب ليحمي آلات الرمي ومواقع المقاتلين من رميات العدو، ومنها ما يصنع من اللباد لحماية المهاجمين حال الهجوم بعد سقوط الأبراج، ليتمكنوا من المرور تحتها إلى داخل المدينة دون أن تمنعهم قذائف المدافعين من النفاذ إلى الداخل وقد استخدم النوعين من الستائر في فتح عكا[٣].

خامسا: لم يكتف السلاطين المماليك باستخدام الوسائل العسكرية فقط للتأثير في الحصون وسرعة إسقاطها، بل اتجهوا إلى النواحي المعنوية لدى المدافعين، فعمدوا إلى وسائل مختلفة للحد منها بل والقضاء عليها وهو ما كان له الأثر الكبير في سقوط عدد من المناطق، منها قلعة الشقيف فقد استولى السلطان الظاهر بيبرس على رسائل بها رد من عكا على استغاثة من بالحصن، وقام بصياغة رسائل جديدة أحدثت انشقاقا داخليا بين المدافعين مما عجل بتسليم الحصن[٤]، كما سلك نفس الأسلوب بشكل آخر في حصار القرين حين أحضر طائر يحمل رسالة زعم السلطان أن سهما أصبها، وهي تحمل خبر حجم القوات

---

(١) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٩٧.

راجع أيضا: حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص ٣١٠.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٣، ص ٧٦٤.

راجع أيضا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٧٠٣.

Cf. also: Marshal, Warfare in the Latin East, p.238.

(٣) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٢٧٩؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٣، ص ٧٦٤، حاشية ٤

وحول الستائر يذكر بيبرس المنصوري، وصف ستارة من البود صنعها في حصار عكا ذكر وصفها كالتالي:" فعمدت إلي اللبود فجمعتها جمعا ولفقت ببعضها مع بعض لفقا فتصور منها سحابة كبيرة طولا وعرضا، ونصبت تجاه البدنة المهدومة من البرج صارمين من كلا الجانبين وجعلت علي رؤوسهما بكرا كبكرات المراكب وحبالا يتمكن بها الجاذب ثم جذبت تلك السحابة المتخذة من اللباد فقامت كأنها سد الأسداد وأيقنت ذلك في جنح الليل وهم غافلون عنه فلما أصبحوا ورأوا ذلك الحجاب قصدوه بالمجانيق والنشاب فصارت الحجارة إذا وقعت فيها يرتخي اللباد تحتها فيبطل زخمها والجروخ إذا رمتها لا ينفذ سهمها فتمكنا من المرور ووجدنا سبيلا إلي العبور"

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٩٧ .وأيضا:

Marshal, Warfare in the Latin East, p.235.

مكتبة المهتدين الإسلامية

المملوكية المهاجمة فسلمها لرسل الحصن الذين أتوا للتفاوض، موضحا لهم أنه يسره أن يعلموا مبلغ ضخامة وعظمة قواته، وهو ما فت في عضد المدافعين بعدما أدركوا ضخامة قوة السلطان وإصراره على فتح الحصن(١).

- سادسا: فيما يتعلق بمدة الحصار للحصون والمدن الصليبية نجد أنها كانت في مجملها مددا محدودة، فقد فتحت قيسارية في نفس يوم الحصار وإن تأخر فتح حصنها أسبوعا، وحيفا في نفس اليوم، و أرسوف خلال ستة أسابيع، ويافا في يوم واحد، والشقيف خلال ١١ يوماً والقرين بعد سبعة أيام، وعكا بعد ستة أسابيع وصيدا بعد يوم واحد(٢).

- سابعا: حرص سلاطين المماليك أشد الحرص على تحقيق عنصر المفاجأة في مهاجمتهم للمعاقل الصليبية، وكثيرا ما تكرر مشهد التمويه بقصد هدف ثم الاستدارة بسرعة لمهاجمة هدف آخر، وقد برز هذا الأمر كثيرا في الفترة الباكرة من العقد السابع من القرن الثالث عشر حين كان يمكن للصليبيين التكتل بشكل يعيق الفتوح المملوكية، ففي فتح قيسارية تظاهر السلطان بيبرس بالتوجه إلى الصيد في غابات أرسوف، ثم استدار فجأة إلى قيسارية بعد أن أمر جيشه بالتجهز ليلا وهاجم قيسارية على حين غرة في الصباح فساء صباح المدافعين(٣)، وكرر نفس الطريقة في حيفا هجوم مباغت أجبر أهل المدينة وحاميتها على الفرار بعد وقوع عدد كبير من القتلى في جزء من يوم(٤).

وتكررت الخطة نفسها مع أرسوف، فعقب هدم قيسارية أمر الجيش بالتحرك معه دون أن يخبر أحد خلا خواصه بوجهته حتى لا يتسرب الخبر، ثم فرض الحصار على أرسوف قبل

---

(١) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٣٨٦.

(٢) Marshal, op. cit, pp.244-245.

(٣) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٣٠، المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٥٢٦. انظر أيضا: حسن عبد الوهاب، قيسارية، ص٢٢٢.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣٤؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٩٦؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص ٥٢٧. وأيضاً:

Marshal, Warfare in the Latin East, p.244.

راجع أيضا: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٥٤٦.

http://www.al-maktabeh.com

أن يحتاط المدافعون بما يكفي لمقاومته[١]. وكان الاحتياط والسرية والمفاجأة أكثر بروزا في فتح صفد، فقد أمر السلطان الأمير علاء الدين أيدكين الشهابي أحد أمراء الشام بالاستعداد لغزو بلاد الصليبيين دون أن يحدد الوجهة، وسير خلفه رسائل أمره ألا يقرأها إلا بعد لبس عدة الحرب وكان فيها أمر غزو صفد، فتحرك إليها دون أن يخبر أحداً بوجهته، أما السلطان فقد هاجم عكا وأمر بإنشاء المجانيق في ظاهرها، وكأنه يستعد لمهاجمتها، وفي نفس الوقت أرسل من هاجم الشقيف، ثم ترك كل ذلك وجمع جنوده على صفد[٢]، ولم يكن تشديد السرية في غزو صفد من فراغ ذلك أن السلطان خشي تجمع الصليبيين لإنقاذ تلك المدينة، التي كفلت لهم السيطرة على الجليل كله، ومن ثم اتبع كل تلك التدابير مما مكنه من الانفراد بصفد التي صمدت أما حصار دام ستة أسابيع[٣].

أما في فتح عكا فقد اختلف الحال فقد أعلن الأشرف خليل هدفه، وكتب بذلك إلى مقدم الداوية[٤]، وهذا لم يحدث من قبل في أمر الفتوح المملوكية للمعاقل الصليبية، ويمكن تفسير ذلك في ضوء الحرب النفسية التي دأب المماليك على إتباعها في التعامل مع الصليبيين كما اشرنا من قبل، إذ الإعلان عن التوجه لفتح مكان ما بخلاف المألوف يثير الرعب ويؤكد للهدف تصميم السلطان المملوكي على الإجهاز عليه، وفوق ذلك توجيه الخطاب إلى مقدم الداوية دون غيره من باقي القوي المدافعة عن عكا، يوحي بالتقارب بين الداوية وبين السلطان وهو ما يزيد الشك في نفوس الصليبيين تجاه هذه الطائفة، ويقضي على فرص التعاون للتصدي للعدو المنتظر، وقد تأكد هذا الترجيح في رواية لودلف فون سواخيم حول فتح الأشرف خليل لعكا، فقد أكد أن السلطان كان على علم بما يدور في عكا، وما تعاني من تمزق داخلي، كما انفرد بذكر خبر خروج مقدم الداوية لمقابلة السلطان والتفاوض معه

---

(١) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٤٢؛ شافع بن علي، حسن المناقب، ص ٩٠؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ق٢، ص٥٢٨.

(٢) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٢٥٤.

(٣) Marshal, op. cit, p.244.

(٤) The Templar of Tyre, p.104. see also, Nicolle, Acre 1291, p52.

مكتبة المهتدين الإسلامية

بناء على الود المتبادل بين الطرفين، فوافق السلطان على الانسحاب شريطة أن يدفع كـــل مواطن في عكا دينار بندقي، ولما عاد المقدم إلى أكابر المملكة الذين اجتمعوا للنظر في الأمر ن فأخبرهم بما اتفق عليه مع السلطان من تبادل المال مقابل تجديد الهدنة اتهمـــوه بالخيانـــة وأوسعوه ضربا حتى كادت روحه أن تزهق ففر منهم(١) .

ثامنا: لم تشهد مدن مملكة عكا بعد اقتحامها مواجهات صعبة، بين القوات الفاتحة وبـــين المدافعين من الصليبيين خلا مدينة عكا، التي لقي المماليك مقاومة شديدة خاصة مـــن قبـــل الداوية والإسبتارية فحين اقتحم المماليك المدينة من جهة بوابة القديس أنطون، حيث قـــام مقدم الداوية بجمع عدداً من فرسانه ومشاته وانضم إليه مقدم الاسبتارية، وعدد من فرسانه واستماتوا في التصدي للمهاجين علهم يصدوهم دون جدوى، نظرا لضخامة عدد المهاجمين وارتفاع معنوياهم(٢).

تاسعا: أن فتح عكا قد يسر فتح ما تبقي من معاقل المملكة الصليبية، فقد فتحت صـــور بالرغم من حصانتها بكل سهولة فور وصول خبر فتح عكا بقوة مملوكيـــة صـــغيرة نظـــرا لانقطاع الأمل في مدد يأتي من الغرب، فغادرها سكانها وتركوها غنيمة باردة للمسلمين في ١٩ جماد الأولى ٦٩٠هـــ (١٩مايو ١٢٩١م)، كما انسحب الداوية المدافعين عن صـــيدا في (١٤ يوليه) بعد أن أدركوا صعوبة الاحتفاظ بها في ظل قلة عددهم، ولنفس الكلام طبق على حيفا التي فتحت بلا مقاومة تذكر وأيضا بيروت التي فتحت في ٢شـــعبان ٦٩٠هـــــ (٣١ يوليو ١٢٩١م) أما عن عثليث قلعة الداوية القوية فقد هرب المدافعون عنها وتركوها للمسلمين ليهدموها ١٦ شعبان ٦٩٠هـــ (١٤أغسطس ١٢٩١م)(٣).

---

(١) Ludolph Von Suchems, Description of the Holy Land, pp. 55-56 .

(٢) The Templar of Tyre, p.111.

(٣) حول فتح تلك المدن انظر: بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٢٨٢-٢٨٣؛ ابن أيبك الدودار، كـــنز الدرر، جـــ٨، ص ٣١٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـــ١٣، ص ٣٥٧؛ المقريزي، السلوك، جـــ١، ق٣، ص ٧٦٥. انظر أيضاً:

The Templar of Tyre, pp.118,119; King, The Knights Hospitallers, pp. 299-300; Marshal, Warfare in the Latin East, p.245; Little, (Donald), The Fall of Akka in 690/1291 the Muslim Version, in Studies in Islamic History and Civilization in Honour of professor David Ayalon, Jeusalem, 1986, p.179, Nicole, Acre 1291 , p.87.

http://www.al-maktabeh.com

هكذا بدا أثر فشل مشروع التحالف الصليبي المغولي وصعود دولة المماليك البحرية في سقوط مملكة عكا، وكما أتضح لنا فقد كان للظروف الداخلية سواء في أوربا أو في دولة المغول الإيلخان الدور الأكبر في فشل هذا المشروع، وهو ما استغلته سلطنة المماليك في ظل ما تمتعت به من مصادر القوة التي أشرنا إلى أهمها، وأجهزت على ما تبقى من مملكة عكا كما فعلت مع إمارتي أنطاكية وطرابلس من قبل.

=وأيضا: رنسيمان، الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٧١٠-٧١٢؛ جروسيه، الحروب الصليبية، ص ٩٤؛ فايد حماد عاشور، الجهاد الإسلامي، ص ٢٠٥؛ هولت، عصر الحروب الصليبية، ص ٢٢٥؛ وفاء محمد علي، جهود المماليك الحربية، ص ٣٨؛ نزيه شحاذة، بيروت، ص ٤٦٣.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الخاتمـــة

بعد هذه الدراسة التفصيلية لمملكة عكا الصليبية في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، حول عوامل انهيارها من الداخل وعوامل إسقاطها من الخارج توصلنا إلي عدد من النتائج يمكن إجمالها علي النحو التالي:

أن مملكة عكا الصليبية قد انهارت من الداخل قبل أن يسقطها المماليك من الخارج. ولم يكن هذا الانهيار الداخلي من فراغ بل تنوعت عوامل النحر الداخلي، التي فعلت مفعولها فيه بمرور الزمن، حتى تركتها كيانا هشا، وجسدا ضعيفا لا يستطيع أن يحمي نفسه.

وكما وضح لنا أن مشكلات توريث عرش المملكة كانت من أهم عوامل النحر الداخلي التي عانت منها المملكة، وأن هذه المشكلات ليست جديدة علي الصليبيين بل هي امتداد لما عانت منه المملكة في الفترة السابقة، ومنشأ هذه المشكلة هو قلة إنجاب الملكات للذكور، وهو ما فتح باب البحث عن أزواج لوريثات العرش من خارج المملكة نظرا لعدم وجود زوج مناسب لهن من بين النبلاء المحليين، فتوجهت أنظار القائمين علي الأمر إلي قبرص وأوربا، وبالتالي جاء زواج الوريثات بملوك غير متفرغين لعرش المملكة، نظرا لجمعهم بين حكم أملاكهم الأصلية –التي كان لها بالطبع الأولوية– وبين عرش المملكة، ومن ثم لم تجد مملكة عكا الاهتمام الكافي، مما أدي إلي تفاقم العديد من المشاكل بها، تلك المشاكل التي عدمت من يهتم بحلها، وبخاصة حين غاب الملك بصورة كلية في ظل جمع ملوك آل هوهنشتاوفن بين أملاكهم في أوربا وبين مملكة عكا، ففضلوا الأولي فمهدوا لضياع الأخيرة.

كما أعطي طول غياب الملوك عن المملكة، الفرصة لتصاعد نفوذ نبلاء المملكة الذين سيطروا علي محكمتها العليا، وما فتئوا يسنون القوانين التي تخدم مصالحهم الفئوية، بصرف النظر عن فائدتها أو ضررها للمملكة، وهو ما سبب صداماً بين نبلاء المملكة، وبين ملوكها الشرعيين وبخاصة حين آل الأمر إلي ملك قبرص هيو الثالث، بعد انقراض سلالة آل هوهنشتاوفن، وهو ما أدي إلي يأس هذا الملك من صلاح حال المملكة فتركها لمصيرها دون

http://www.al-maktabeh.com

الدعم الكافي في ظل عدم تعاون القوى المسيطرة علي المملكة، وبصفة خاصة بعد التصرف الأحمق الذي قام به البابا جريجوري العاشر حين توسط في بيع الحقوق المزعومة في عرش المملكة، من قبل ماري الأنطاكية إلي شارل كونت أنجو، لا لشيء إلا ليشغله عن مساعيه لاسقاط الإمبراطورية البيزنطية من جديد، تلك الصفقة التي لم تستفد منها المملكة كثيرا في ظل العلاقات الدبلوماسية القوية بين شارل والمماليك، وبالتالي لم يحاول نائب شارل بالمملكة استعادة ما فقدته لصالح المماليك، بل أمن وجود نائب شارل بها ظهر الجيوش المملوكية حين كانت تخرج لمواجهة المغول الإلخان في شمال بلاد الشام، وهو ما كسر شوكة هؤلاء الإلخان وأعطي لسلاطين المماليك وبخاصة المنصور قلاوون وولده الأشرف خليل الفرصة للإجهاز علي ما تبقي من المملكة بعد انهيار مملكة شارل أنجو بقليل.

ولم تتوقف الآثار السلبية الناتجة عن غياب السلطة العليا عند هذا الحد، بل أدت إلي إفساح المجال أمام الصراعات البينية بأنواعها، تلك الصراعات التي أدت إلي سيادة حالة من التدهور الأمني داخل مدن المملكة وقراها، في ظل تعدد وتداخل القوي الموجودة بها، وتضارب مصالحها، تلك المصالح التي أدت في النهاية إلي نشوب حرب أهلية، لم تتوقف عند حدود المملكة بل تعدتها إلي شتى معاقل الصليبيين في الساحل الشامي، تلك الحرب المشهورة بحرب القديس سابا، التي تركت المملكة عاجزة ماديا وبشرياً عن التصدي لسلطنة المماليك الفتية.

ولم تتوقف عوامل الانهيار الداخلي للمملكة عند حد مشكلات توريث العرش، بل تعدتها إلي التراجع الاقتصادي، الذي نتج عن دمار قطاعات الاقتصاد المختلفة من الزراعة أو الصناعة أو حتى التجارة، لما ذكرناه من أسباب سلفا، وهذا الدمار الاقتصادي قد أدي إلي عجز المملكة عن الاكتفاء الذاتي، وبالتالي ظلت متعلقة بأمها أوربا، تلك الأم التي لم تعد سخية كالماضي، في ظل ما عانته من مشاكل في فترة الدراسة.

حتى المعونة المحدودة التي قدمتها أوربا لمملكة عكا في أعوامها الأخيرة، لم تأت في صالحها، ذلك أن تلك المعونة خاصة في شقها البشري، كانت ضعيفة كماً من حيث العدد، ونوعا من حيث المشاركين الذين كانوا في معظمهم من نفايات للمجتمع الأوربي، وبالتالي زادت هذه المعونة البشرية من ضعف المملكة، بدلا من دعمها، بل أسهمت في قصم ظهرها بتسببها في نقض الهدنة مع المسلمين، مما أوجد مبررا ظاهرا للإجهاز علي عاصمة المملكة لتتوالي بعدها تساقط مدنها وقراها بلا عناء كحبات العقد المنفرط.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كما أسهمت الصراعات الداخلية بدور عظيم في تدهور أحوال المملكة كافة، تلك الصراعات التي شملت جميع قوي المملكة، سواء كانت من الهيئات الدينية التي تناست السبب الذي أنشئت من أجله، وطفقت تتنازع فيما بينها بسبب وبغير سبب، حتى صارت عبئا علي المملكة بدلا من المشاركة في الدفاع عنها. كما كانت المملكة ميدانا لتصفية الحسابات المعلقة بين المدن الإيطالية، في صورة الصراعات التي اندلعت بين جاليات هذه المدن في شتى أنحاء المملكة علي خلفية الصراعات بين المدن الأم، وفي ظل غياب السلطة العليا التي تقي المملكة شر هذه الجاليات، دفعت شتى قوى المملكة إلي الانخراط في صراعاتها البينية، تلك القوي التي قدمت مصالحها الفئوية علي صالح المملكة ، وطفقت تستغل الأمر لتصفية ما بينها من حسابات، في حرب الصليبيين الأهلية الكبرى الموسومة بحرب سان سابا، تلك الحرب التي أتت علي ما تبقي من قوة المملكة وجعلتها غير قادرة علي الصمود في وجه التحدي المملوكي علي خلفية بخل أوربا بالعون والمدد.

ولم تكن مشكلات المجتمع أقل تأثيراً من العوامل السابقة، بل كانت ذات اثر فعال أيضا، في زيادة التدهور الداخلي، إذ عانى مجتمع المملكة من العديد من المشكلات المزمنة التي هي امتداد لمشكلات مماثلة عاني الصليبيون منها منذ أن وطأت أقدامهم أرض الساحل الشامي، وبصفة خاصة المشكلة السكانية التي ظلت أهم ما يؤرق مضاجع الملوك الصليبيين طوال القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين)، غير أنها صارت أكثر تأثيرا في فترة الدراسة في ظل تراجع الدعم البشري الأوربي كماً ونوعا، وزيادة النزيف البشري للمملكة في ظل نشاط حركة الاسترداد الإسلامي، والتي ركزت في جانب كبير منها علي عنصر التصفية البشرية بشكل مواز للتصفية الرُقعية للمملكة، ناهيك عن العوامل الأخرى ذات التأثير السيئ علي عدد سكان المملكة من تفشي الأمراض وقلة الإنجاب. ولم تقل الطبقية والتحزب تأثيراً عن مشكلة قلة السكان، تلك الطبقية المفرطة التي أدت إلي بحث كل طبقة عن مصالحها الذاتية بعيداً عن مصالح المملكة ككل.

كما أسهم ارتفاع معدلات الجريمة، في تفاقم مشكلات مملكة عكا، تلك المعدلات التي ارتفعت في فترت الدراسة بشكل أنذر بالخطر، وبخاصة الجرائم الأخلاقية، في ظل عدم وجود رادع قانوني أو تشريعي حازم مما يسر الأمر أمام تفشي تلك الجرائم، ومما أسهم في تفشيها فساد الهيئة الكنسية التي غلب عليها حب جمع المال، بصرف النظر عن مصدر هذه

http://www.al-maktabeh.com

الأموال، ما جعلهم لا يتورعون عن تيسير جريمة الدعارة المنظمة، حين أجروا المنازل والنزل التي يمتلكونها لسيئات السمعة نظرا لما يدفعنه من إيجارات مرتفعة.

وبجانب العوامل الداخلية التي أسهمت في انهيار المملكة من الداخل، وجدت العديد من العوامل التي ساعات علي إسقاطها من الخارج، وفي مقدمة هذه العوامل الارتباط الجنيني بين مملكة عكا – وسائر مغتصبات الصليبين– بالغرب الأوربي، وهو أمر لم تستطع المملكة أن تتخلص منه، وتعتمد علي نفسها يوما بشكل كامل في مواجهة الأخطار التي تحيط بها، وهو أمر ليست أوربا ببريئة منه، فقد حرصت علي بقاء هذا الارتباط وبخاصة البابوية، التي اعتبرت هذه الكيانات الصليبية من بنات أفكارها، وبالتالي يجب أن تبقي خاضعة لتوجيهها، غير أن المشاكل التي عانت منها أوربا في القرن الثالث عشر، وشملت كل قطاعاتها الدينية والدنيوية، قد أدت إلي عجز أوربا عن مساندة المملكة في التصدي لمشاكلها الداخلية والخارجية علي حد سواء.

كما تبدى لنا أن من الأسباب الهامة لتراجع الدعم الأوربي للمملكة هو تراجع الأيديولوجية الصليبية في شتي بقاع أوربا، من جراء عوامل عديدة في مقدمتها استخدام البابوية لمصطلح الحروب الصليبية في تصفية خلافاتها السياسية مع أتباعها من الكاثوليك، وهو ما شكك المجتمع الأوربي في دعوات المنادين للخروج في حملة صليبية، وبخاصة في ظل توجيه مبالغ ضخمة جمعت باسم الصليب إلي غير أغراضها، ومن ثم قبضت أوربا يدها ولم تعد سخية كالماضي.

وفي ظل عجز أوربا عن تقديم العون المناسب لمملكة عكا وباقي الصليبيين في الساحل الشامي، سعت إلي إيجاد حل آخر تمثل في التفاهم مع المغول، ذلك التفاهم الذي أرادوا من خلفه تنصير المغول ودفعهم ليكونوا سيوفا صليبية تسلط علي رقاب المسلمين في مصر والشام، كما سلطت عليهم من قبل في سائر المشرق الإسلامي، غير أن ذلك المشروع لم يكتب له النجاح في ظل الصدام الأيديولوجي بين الطرفين خاصة عقدة الاستعلاء التي حالت دون التقاء أهداف الفريقين، وفوق ذلك تصميم البابوية علي تنصير المغول كأساس للتفاهم المشترك بدلا من عقد تحالف أنداد يجمعهم عدو واحد وهو دولة المماليك في مصر والشام، ناهيك عن العوامل اللغوية ونجاح الدعاة المسلمين في اجتذاب قطاعات كبيرة من المجتمع المغولي إلي الإسلام، مما أسهم في فشل مشروع تنصير المغول، وتبدد مع هذا الفشل فكرة التحالف مع الغرب.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وأخيرا تأتي قوة سلطنة المماليك التي جعلت الجهاد شعرها، وتصفية المعاقل الصليبية هدفها، سعيا إلي الحصول علي الشرعية، نظرا لأصولهم الرقية غير الحرة، ولتحقيق هذا الغرض نوعت وسائلها في تصفية معاقل مملكة عكا بين الوسائل الدبلوماسية، التي هدفت إلي تجفيف منابع الحملات الصليبية، في ظل علاقاتها الدبلوماسية بعدد من القوى الأوربية المؤثرة، والضغط علي المغول الإلخانيين لتخفيف ضغوطهم علي شمال بلاد الشام، بل استخدمت الدبلوماسية كوسيلة لاستعادة مساحات واسعة من الأرض من خلال الهدن التي عقدت بين سلطنة المماليك وبين مملكة عكا. وفوق ذلك الوسائل العسكرية التي اعتمدت عليها السلطنة لتصفية المعاقل الصليبية والتي عضدها العديد من العوامل من بينها الثراء البشري للسلطنة في ظل ضخامة أعداد سكانها والذي لا يقارن بحال من الأحوال بسكان مملكة عكا، والثراء الاقتصادي في ظل نمو التجارة وضخامة عائداتها واستقرار الإنتاج الزراعي والنشاط الصناعي، وأيضا الثراء الجغرافي الذي أدي إلي قوة العمق الدفاعي للسلطنة في ظل اتساع رقعتها وتباعد حدودها.

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

خريطة رقم (١)

حدود مملكة عكا عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م).

خريطة رقم (1)
حدود مملكة عكا
عام 648هـ (1250م)

* من إعداد الباحث

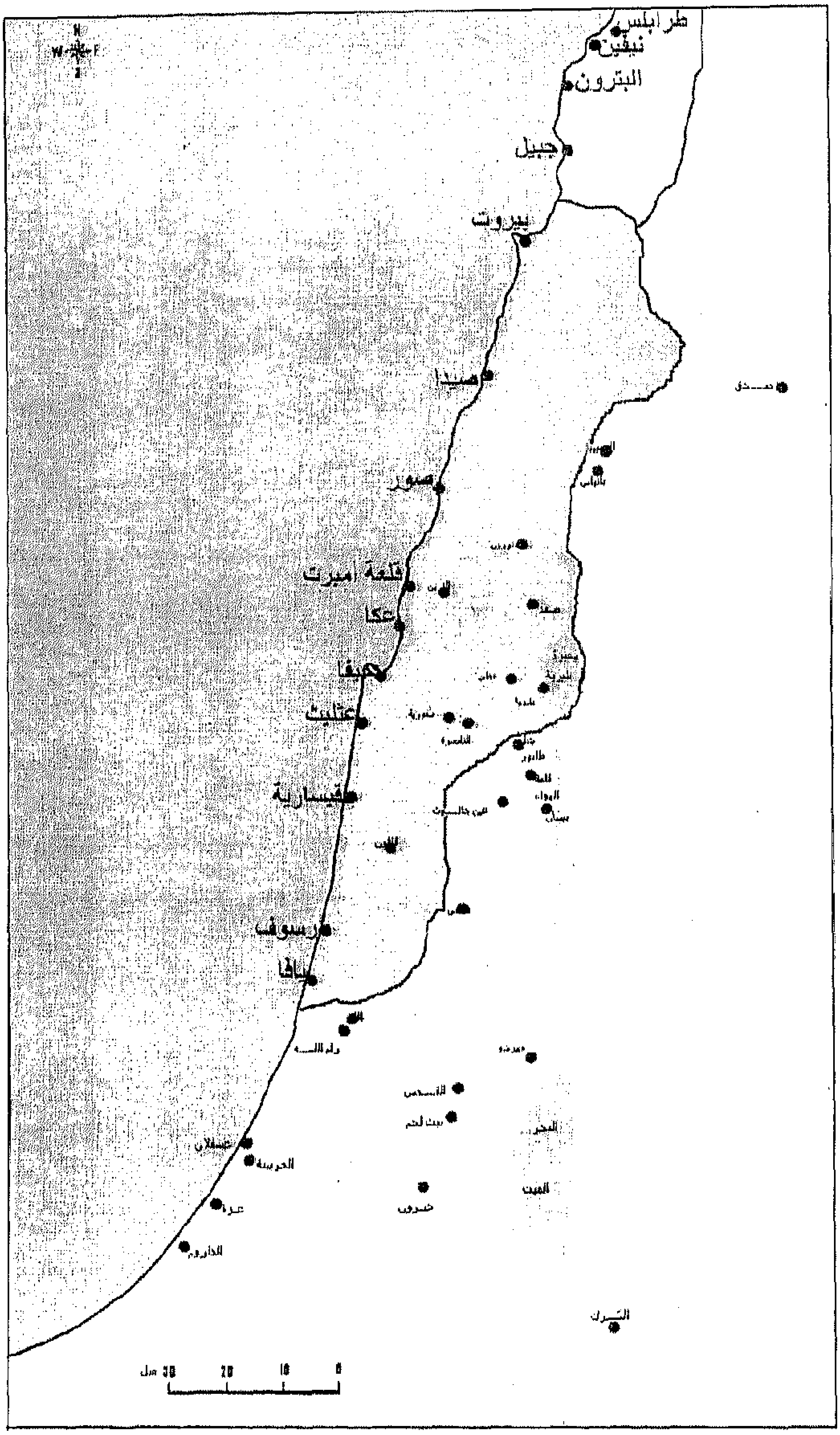

الحدود التقريبية لمملكة عكا الصليبية عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م

http://www.al-maktabeh.com

خريطة رقم (٢)

خريطة عكا والمعركة الأخيرة

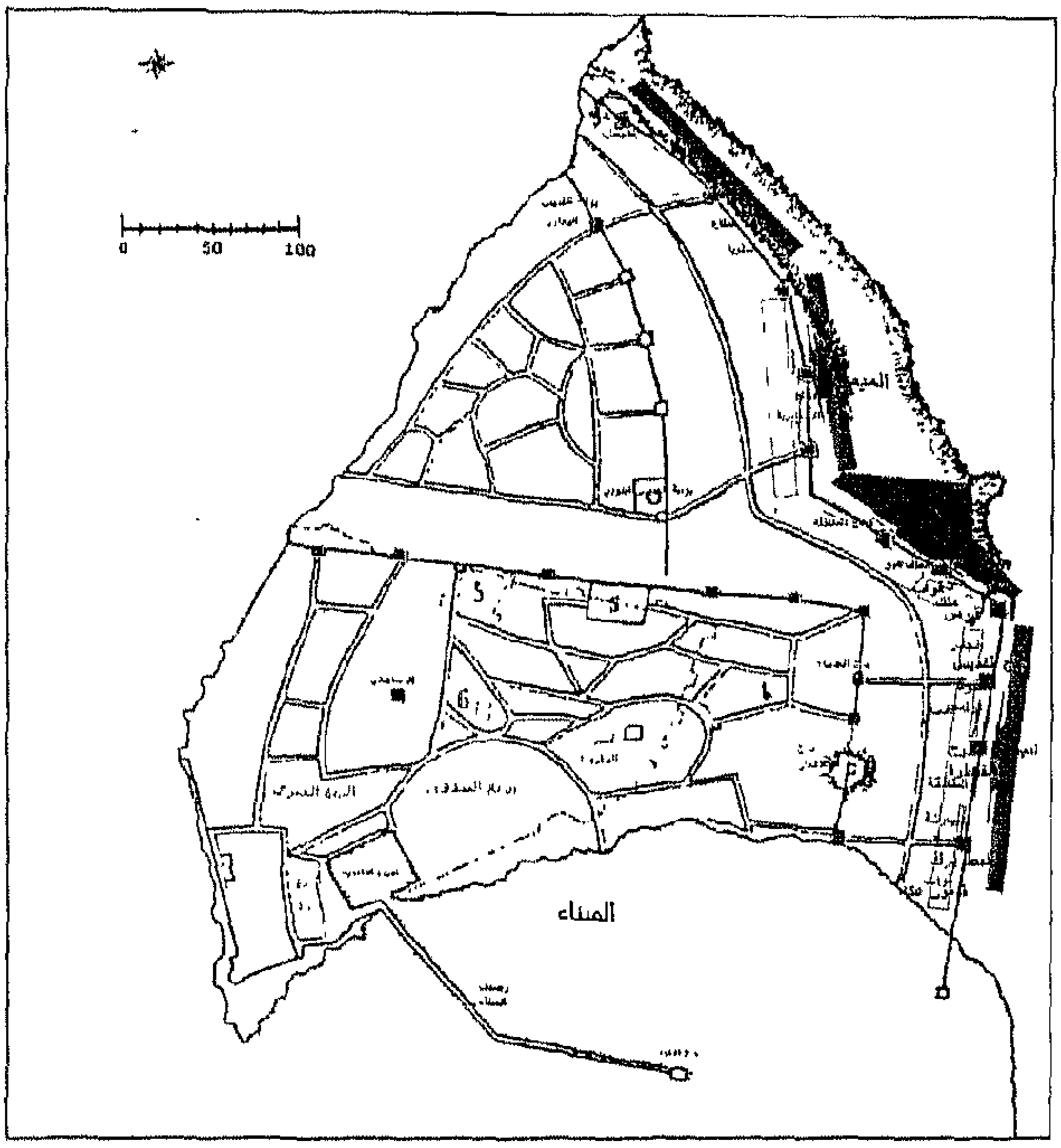

خريطة رقم(٢) حصار الأشرف خليل لعكا عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م)

المهاجمين المسلمين ■ المدافعين الصليبيين □

مكتبة المهتدين الإسلامية

شكل رقم (١)

توريث العرش في مملكة بيت المقدس في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

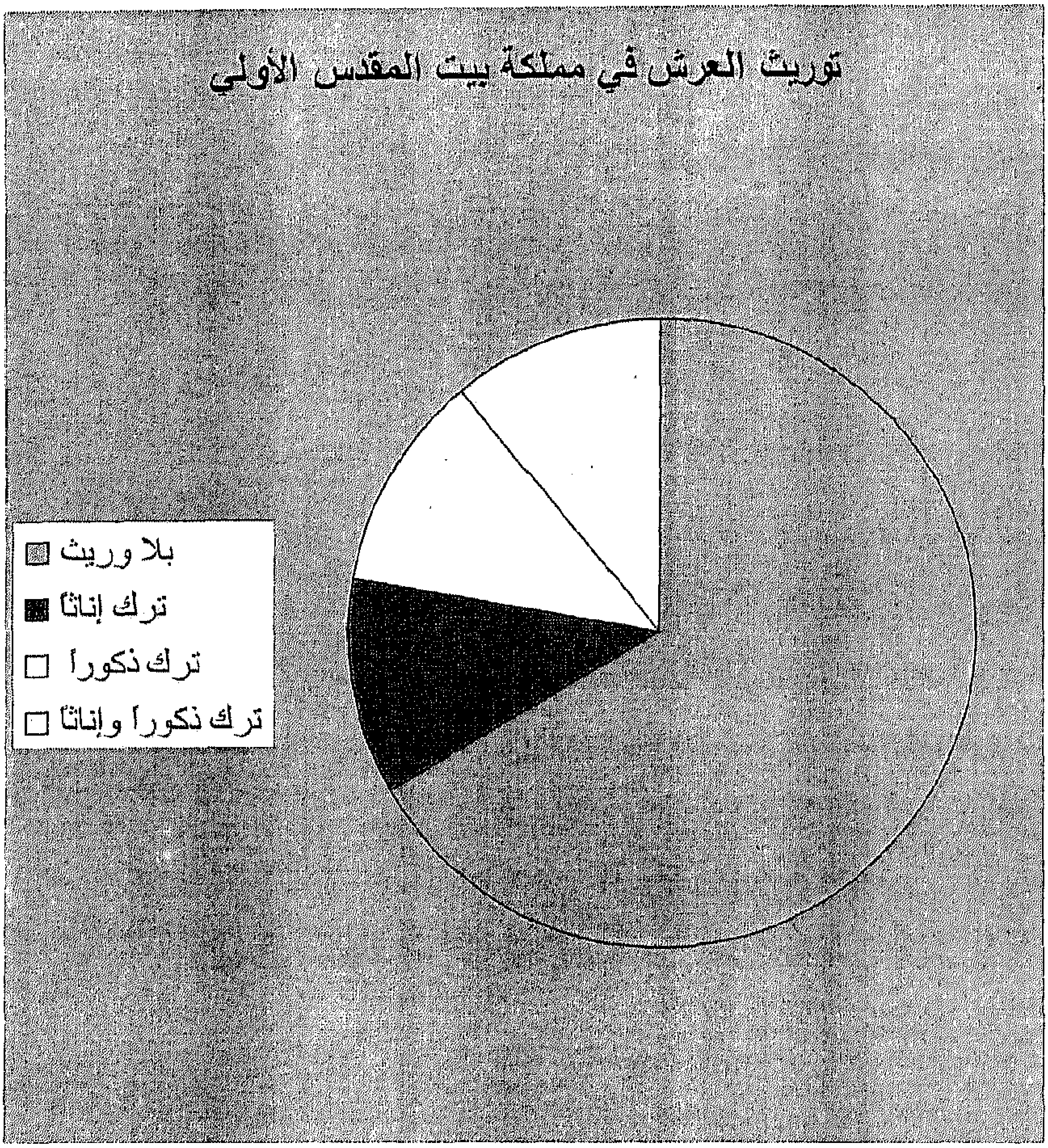

http://www.al-maktabeh.com

شكل رقم(٢)

توريث العرش في مملكة بيت المقدس الاسمية (مملكة عكا) في النصف الأول من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

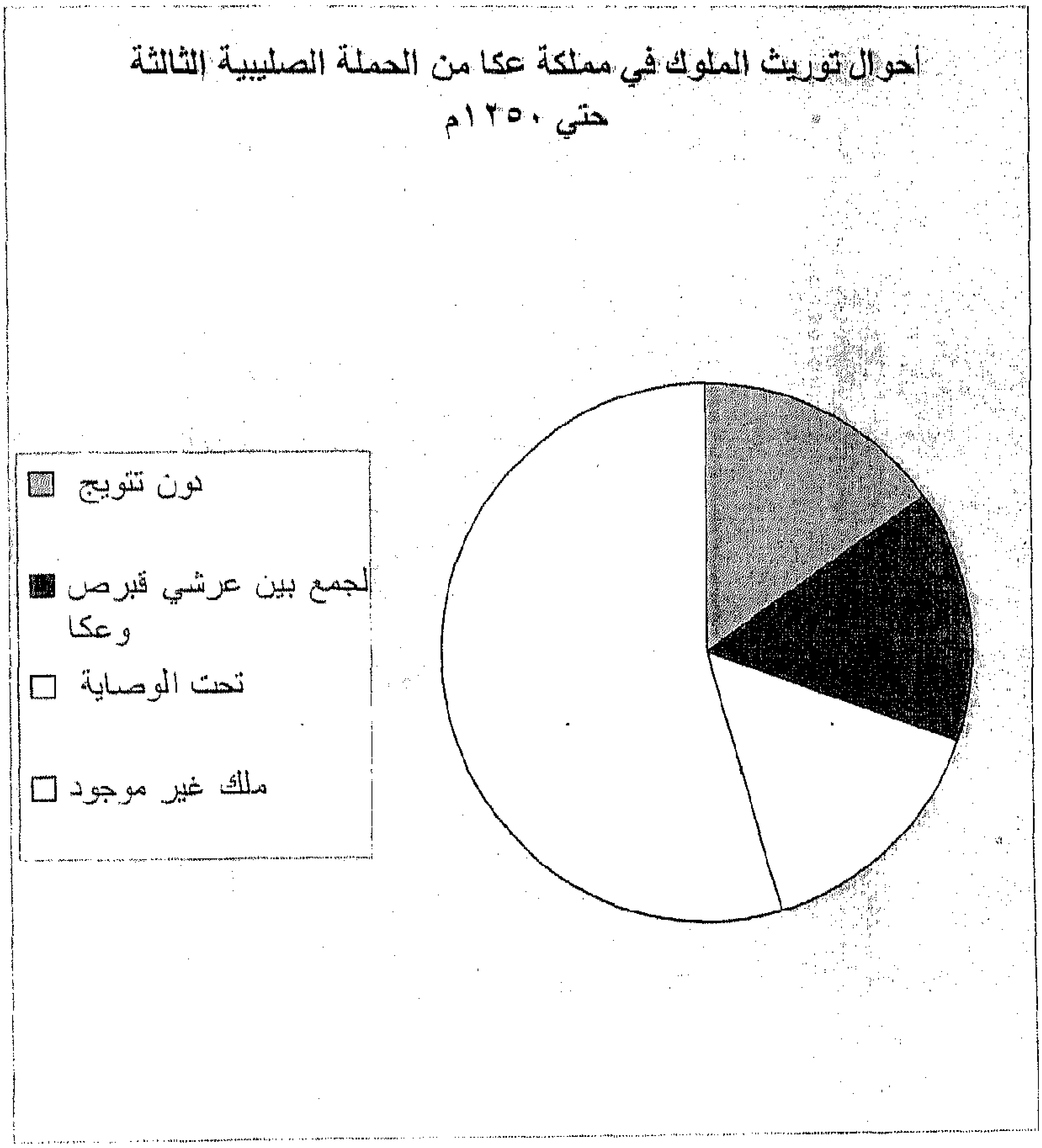

مكتبة المهتدين الإسلامية

شكل رقم (٣)

توريث العرش في مملكة بيت المقدس الاسمية (مملكة عكا) في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

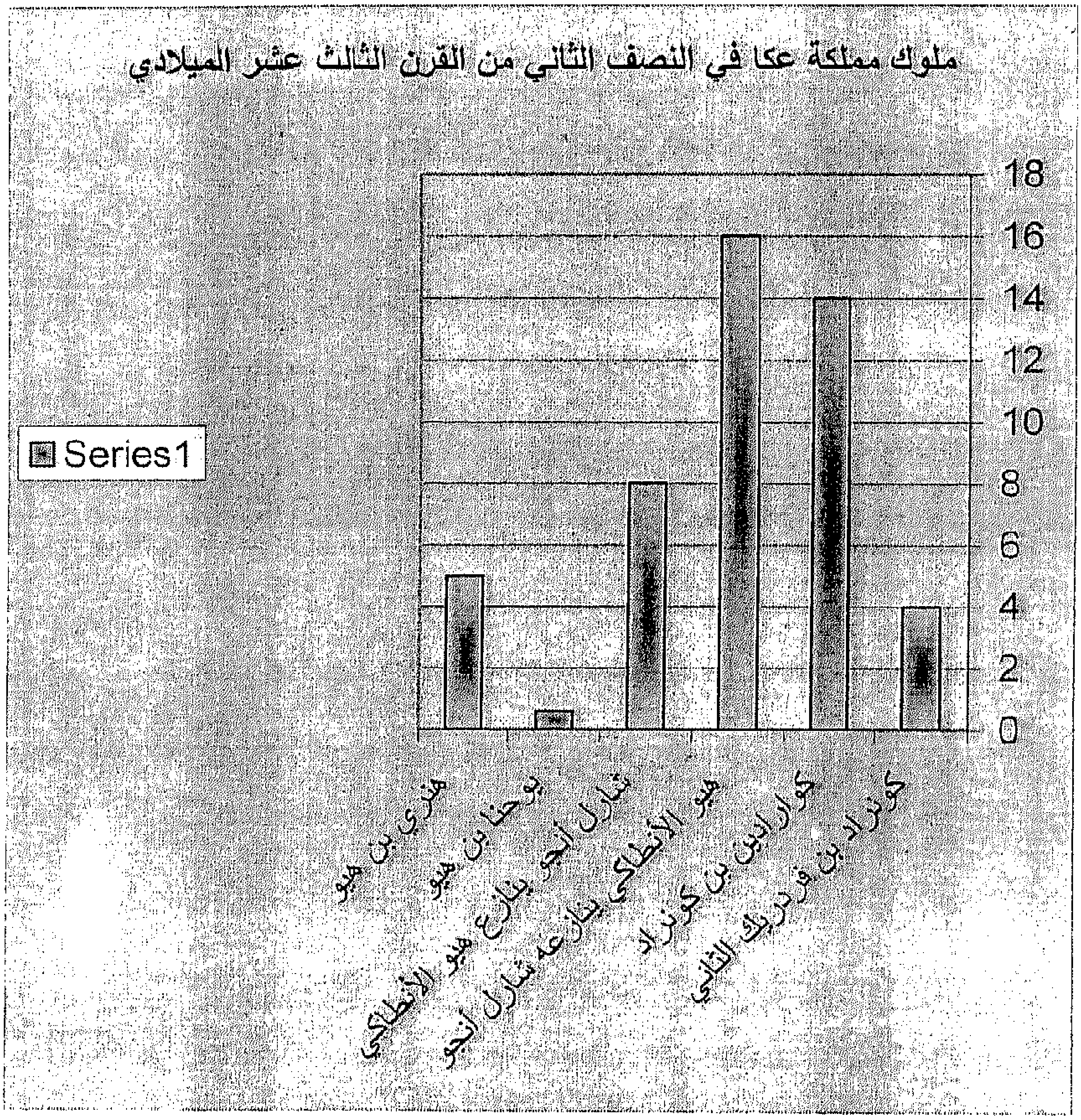

http://www.al-maktabeh.com

شكل رقم (٤)

بابوات روما في النصف الثاني من السابع الهجري (القرن الثالث عشر).

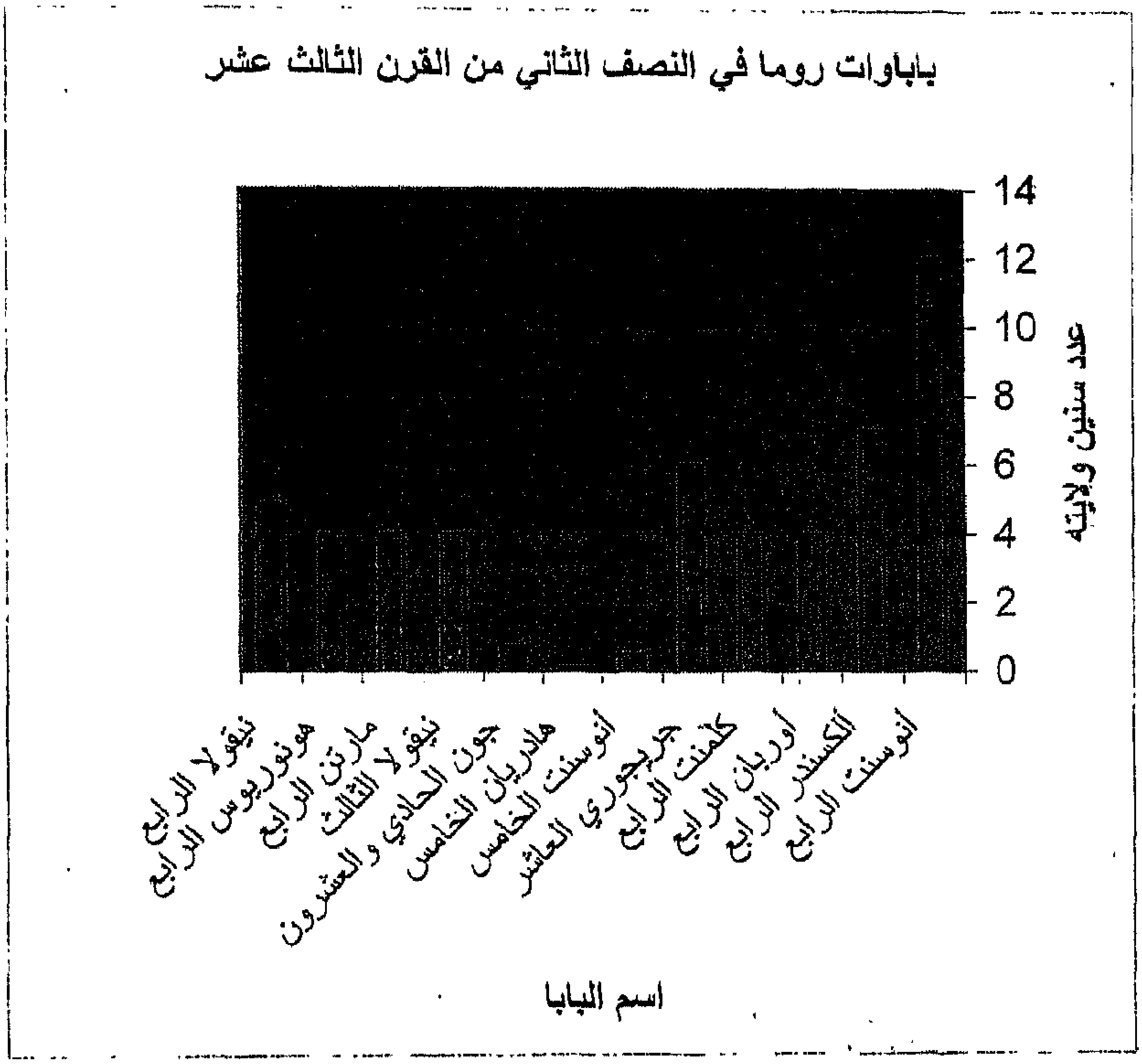

مكتبة المهتدين الإسلامية

قائمة المختصرات

A.J.	: Archaeological Journal.
A.O.L.	: Les Archives de L'Orient Latin.
B.S.O.A.S.	: Bulletin the School of Oriental and African Studies.
C.E.H.	: Cambridge Economic History.
C.P.E.F.	: Committee of the Palestine Exploration Fund.
C.E.	: Catholic Encyclopedia (New Advent).
C.R.	: Chinese Repository.
D.O.	: Dumbarton Oaks.
E.H.R.	: The English Historical Review.
H. T.	: History Today.
H.J.A.S.	: Harvard Journal of Asiatic Studies.
J.M.H.	: Journal of Medieval History.
L.I.R.O.	: Library of Iberian Resources Online.
M.M.J.	: Metropolitan Museum Journal.
M.R.S.	: Medieval and Renaissance Studies.
M.S.R.	: Mamluk Studies Review.
P.P.TS.	: Palestine Pilgrims Text Society.
R.H.C.	: Recueil des Historiens des Croisades
R.H.C- Occ. Occidentaux.	: Recueil des Historiens des Croisades - Historens
RIBH	: Regni Iherosolymitani Brevis Historia.
R.O.L.	: Revue de L'Orient Latin.
R.S.	: Rolls Series.
R.R.S.V.R.	: Rome Rivista di Studi e ai Vita Romana.
Speculum	: Speculum.

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية والمعربة

- ابن أبي الفضائل (مفضل بن أبي الفضائل، ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م): النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ بن العميد، تحقيق بوشيه، باريس، ١٩٣٢م.
- أتو أسقف فريزنج: ماورد لدي أتو أسقف فريزنج عن الحروب الصليبية، ترجمة د.سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٢٨، دمشق، ١٩٩٧، ص ص ٣٤٥-٣٦١.
- ابن الأثير(أبو الحسن علي بن أبي الكرم، ت ٦٣٠هـ /١٢٣٤): الكامل في التاريخ، ج٩ ، ١٠، بيروت، ١٩٧٩م.
- أرنول: الرحالة أرنول، ترجمة سهيل ذكار، ضمن الموسوعة الشامية ، مجـ ٣٩، دمشق، ١٩٩٩م.
- أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، تحرير فليب حتي، بيروت، ١٩٩٩م.
- الأصفهاني (العماد الكاتب، ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م): الفتح القسي في الفتح القدسي تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- امبرويز: صليبية ريتشارد قلب الأسد، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٣٢، ترجمة د.سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٩م.
- ابن إياس(أبو البركات محمد بن أحمد، ت ٧٣٢هـ / ١٥٤٢م): بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ٢، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ابن أيبك الدوداري (أبي بكر عبد الله ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م): كنز الدرر وجامع الغرز، جـ ٧ ، تحقيق د. سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م، جـ ٨، تحقيق أولرخ هرمان، القاهرة، ١٩٧١م.
- بطرس توديبود : تاريخ الرحلة إلي بيت المقدس ، ترجمة د.حسين عطية، الإسكندرية ، ١٩٩٨م
- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م): رحلة ابن بطوطة، جـ١ ، تهذيب أحمد العوامري ومحمد جاد المولي، القاهرة، ١٩٣٤م.

http://www.al-maktabeh.com

- ابن تغري بردي (جمال الدين يوسف، ت ٨٧١هـ / ١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ٦-٩، القاهرة، ١٩٦٣م.
- تواريخ آل بلانتجنت، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٣٠، ترجمة د.سهيل زكار، دمشق ،١٩٨٩م.
- جاك دي فيتري: رسائل جاك دي فيتري، ترجمة عبد اللطيف عبد الهادي، الإسكندرية، ٢٠٠٥م.
- ابن جبير (محمد بن أحمد الكناني، ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م): رحلة ابن جبير، القاهرة، ١٩٩٨م.
- جوانفيل: القديس لويس وحملاته علي مصر والشام، ترجمة د.حسن حبشي، القاهرة، ١٩٥٨م.
- ابن الجوزي(أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، ت ٥٧٩هـ /١٢٠٠م): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، جـ٩، حيدر أباد، الدكن، ١٣٥٩هـ.
- ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب، ت٧٧٩هـ /١٣٧٧م): تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، جـ١، تحقيق د.محمد محمد أمين، مراجعة د.سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٦م.
- الحريري (أحمد بن علي): الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٢٣، تحقيق د.سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٥م، ص ص ٣١٨-٣٣١.
- ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيات الأعيان، جـ٥، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ١٩٦٨م.
- رسائل صليبية من الأرض المقدسة، ضمن الموسوعة الشامية ، جـ٣٥، ترجمة د.سهيل ذكار، دمشق، ١٩٩٩م، ص ص ٣٦٤-٣٧١.
- ريموندا جيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ترجمة د.حسين عطية ،دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٩٨٩م.

مكتبة المهتدين الإسلامية

- الزركشي: (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللولوي ، ت ٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس، ١٩٦٦م.
- سانوتو: كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها، ترجمة الأب سليم رزق الله، مراجعة البروفسور بللغرينور ونكاليا والدكتور سمير الخادم، بيروت، ١٩٩١م.
- سايولف : وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس والأراضي المقدسة ١١٠٢-١١٠٣م، ترجمة وتعليق: سعيد البيشاوي، دار الشروق، رام الله، ١٩٩٧م.
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م): تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، د.ت.
- شافع بن علي الكاتب (شافع بن علي بن عباس بن إسماعيل، ت ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م): كتاب حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.
- ــــــــــــ: كتاب الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي، ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م):

الذيل علي الروضتين، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢٠، تحقيق د.سهيل ذكار، دمشق، ١٩٩٥م.

- ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله، ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م): سيرة صلاح الدين، دار بن خلدون الإسكندرية، د. ت.
- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك، ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م): الوافي بالوافيات، جـ٩، شتوتجارت، ١٩٩١م.
- ابن طباطبا (محمد بن علي بن طباطبا، ت ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت، د.ت.
- ابن عبد الظاهر (محي الدين، ت ٦٩٣هـ، ت٦٩٢هـ /١٢٩٣م): تشريف الأيام والدهور في سيرة الملك المنصور، تحقيق د.مراد كامل، راجعه محمد علي النجار، القاهرة، ١٩٦١م.

http://www.al-maktabeh.com

- ـــــــــــ : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ، ١٩٧٦.
- ابن العديم(كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد، ت ٦٦٠هـ/١٢٨٦م): زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق د.سامي الدهان، دمشق، د.ت.
- ـــــــــــ : بغية الطلب، جـ٧، تحقيق د.سهيل ذكار، دمشق، ١٩٨٧م.
- العماد الأصفهاني (أبو عبد الله محمد بن صفي الدين ابي الفرج محمد بن نفيس الدين، ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م): الفتح القسي في الفتح القدسي تحقيق محمد محمود صبيح، القاهرة ، ٢٠٠٣
- العيني (بدر الدين محمود العيني ت ٨٥٥هـ (١٤١٥هـ): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المماليك، الأجزاء ١-٣، تحقيق د. محمد محمد أمين، القاهرة، ١٤٠هـ - ١٩٩٠م.
- ـــــــــــ : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، تحقيق فهيم محمد شلتوت ومراجعة د.محمد مصطفي زيادة، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل، ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م): المختصر في أخبار البشر، جـ١، القاهرة، ١٩٤٧م.
- فليب دي نوفارا: حروب فردريك ضد الأبلينيين في سورية وقبرص، ترجمة د.سهيل ذكار، ضمن:الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣٤، دمشق، ١٩٩٨م
- فيلكس فابري: ورحلاته، ترجمة د.سهيل ذكار، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٣٨، ق٤ ، دمشق، ٢٠٠٠م،
- فوشيه الشارتري : الاستيطان الصليبي في فلسطين ، ترجمة وتعليق د.قاسم عبده قاسم، القاهرة ، ٢٠٠١م.
- ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة، ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م): ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨م.
- القلشندي (أحمد بن علي القلقشندي، ت ٨٣١هـ / ١٤١٨م): صبح الأعشي في صناعة الإنشا، جـ١، ١٤، القاهرة، ٢٠٠٤م.

مكتبة المهتدين الإسلامية

- الكتاب المقدس، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- ابن كثير (أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن كثير، ت ٧٧٤هـ /١٣٧٢م): البداية والنهاية، جـ١٣ ، تحقيق أحمد فتيح، القاهرة،١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ترجمة عبد العزيز جاويد، ثلاثة أجزاء، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- متي الباريسي: التاريخ الكبير، ترجمة د.سهيل ذكار، ضمن الموسوعة الشامية ، جـ٤٠ ، خمسة أقسام، دمشق، ٢٠٠١م.
- مجهول : أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس ، ترجمة د.حسن حبشي ، دار الفكر العربي ،القاهرة ،١٩٥٨م.
- مجهول: تتمة كتاب وليم الصوري المنسوب خطأ إلي روتلان، ترجمة د.أسامة زكي زيد، الإسكندرية، ١٩٨٩م.
- مجهول: ذيل وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- مجهول: ذيل تاريخ وليم الصوري، ترجمة د.سهيل ذكار، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٨، دمشق، ١٩٩٨م.
- مجهول: الحرب الصليبية الثالثة، جـ١ ، ٢، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- المدائني (ابن أبي الحديد): حملات الغزو المغولي للشرق كما عاشها ابن أبي الحديد المدائني، النص العربي مرفق به ترجمة فرنسية ، ترجمه إلي الفرنسية د.مختار جبلي، باريس ،١٩٩٥م.
- المقريزي (أحمد بن علي المقريزي، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م): كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١ ، ق٢، تحقيق د. محمد مصطفي زيادة، القاهرة، ١٩٣٩م.
- ـــــــــــــ : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، جـ١ ، القاهرة، ١٩٩٩م.
- ملحمة ريتشارد قلب الأسد، ترجمة د.سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٩،دمشق، ١٩٩٣م.

http://www.al-maktabeh.com

- ناصر خسرو: سفرنامة، ترجمة د.يحي الخشاب القاهرة، ١٩٩٦م.
- ابن نظيف الحموي (محمد بن علي بن نظيف، ت ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م):من التاريخ المنصوري، تحقيق د.سهيل ذكار، ضمن الموسوعة الشامية، جـ٢١، دمشق، ١٩٩٥م.
- النويري (شهاب الدين النويري، ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م): نهاية الآرب في فنون الأدب، جـ ٢٩، ٣٠، القاهرة، ١٩٣١م.
- ابن واصل (جمال الدين أبو عبد الله محمد، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) :مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ٥، تحقيق د.حسنين ربيع، القاهرة، ١٩٧٧م.
- وليم الصوري : الحروب الصليبية ، أربعة أجزاء، ترجمة د.حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩١م.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، تحقيق: فريد عبد العزيز، بيروت، ١٩٩٠م.

ثانيًا:المصادر الأجنبية:

- Abaga (Ilkhan de Perse), Une letter de l'Iljahn de Perse Abaga addressee en 1268 au Pape Clement Iv, dans Museon, vol.59 , 1946, pp.547-556.

وقد اعتمدنا علي الترجمة العربية للخطاب لدي: الأمين عبد الحميد أبو سعدة، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والقوي الإسلامية، ص ص ٣٨٥-٣٨٦؛

- Aboul-Ghazi Behadour Khan: Histoire des Mongols et des Tartars , Publie Petr Desmaisons , Amsterdam, 1970.
- Albert de Aix : Historia Hierosolymitana ,in RHC. Occ , Vol II. , Paris, 1879.
- Amadi: Chroniques d'Amadi et de Strambaldi, Partie I, Publiees par M. Rene de Mas Latrie, Paris, 1891
- Annales des Terre Sainte, in A.O.L., Tome II, Paris, 1884, pp.429-461.
- Anonymous pilgrim , trans. by, Aubrey Stewart , London , 1894.
- Asssises de Jerusalem ,tome II ,Par Benugnot, Paris, 1843.

مكتبة المهتدين الإسلامية

- Benjamin of Tudela : The Itinerary of Benjamin OF Tudela, trans. By Marcus Nathan , (London , 1907).
- Borghezio G. (ed): " Un Episodio Delle Relazioni tra la Santa Sede ei Mangoli, 1274", in R.R.A.V.R., XIV (Nov.,1936), PP.361-372.
- Burchard of Mount Sion, trans. by Aubry Srewart, in P.P.T.S., vol.XII, London, 1896.
- Caffaro : Annali Genovesidi di Caffaro , Roma, 1890.
- Cartulaire general de l'Ordre des Hospitalleres de Saint Jean de Jerusalem, ed. Le Roulx (J.D.), tome III, Paris 1899.
- Chaeteauroux, Sermon I, in: Maier. Crusade Propaganda, pp.128-141.
- The Chronicle of Bury St. Edmonds , trans. by Antonia Gransden , London , 1964.
- The Chronicle of James the First of Aragon, Translated by John Forster, Introduction by Pascual de Gavangos, on L.I.R.O., http://libro.uca.edu/chronicleofjames/chronicle.htm
- Chronicles of Reigns of Edward I and Edward II , vol. I , in Annales Londonienses , ed. By William Stubbs , in R. S. ,London , 1882.
- Daniel : The Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy Land 1106-1107 AD. Annotated by Wilson, P.P.T.S., vol. XII, (London, 1895).
- The Decrees of Second Council of Lyons on the Crusade 1274, in: Documents on the Later Crusades, 1274-1580, ed. Norman Houeley, New york, 1996, pp.16-21.
- Estoire d'Eracles, Empereur et la Conqueste de la Terre d'Outremer, in R.H.C- Occ., vol. II., Paris, 1876.
- Gervas (The Monk of Canterbury): The Gesta Regum with its Continuation, ed. William Stubbs, R.S., vol. 73., pt.2, London, 1965.
- Grigor of Akanc: History of Nation of Archers , the Armenian text edited with English translation and notes by Robert P. Blake and Richard N. Frye , in H.J.A.S. (vol. 12, no.3/4 dec., 1949), pp.269-399
- Guillaume de Nangis: Chronique , introduction et des notes par M. Guizot , in , Collection des Memoires relatifs A l'Histoire de France , Paris , 1825

http://www.al-maktabeh.com

- Guillaume de Saint-Pathus: Vie de Sainte Louis, par H. Francois Delaboroe , Paris, 1899
- Guyk Khan's Letter to Pope Innocent IV (1246) , in Mission to Asia, ed. Christopher Dawson, London, 1980, pp.85-86.
- Itinerium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi, ed. william Stubbs ,R. S. , vol. VI, Longman , London , 1864.
- Jacques de Vitry: Letters de Jacques de Vitry, ed.R.B.C., Leiden, 1960.
- John Of Plano Carpini: History of the Mongols; in: Dawson, Mission to Asia, Toronto, 1980.
- John of Ibelin: Le Livre des Assises, ed. Peter Edbury, Leiden, 2003.
- Letter From The Archbishop of York to Pope Nicolas III, in R.S, vol. 61, pp.63-64.
- Letter From Archbishop Rumanus to John de Craumbe his Vicar-General, in R.O., Vol.61, pp.96-97.
- Letter of Joseph of Chancy and king Edward Reply, ed. Sanders, in P.P.T.S., Vol. V, pp.7-14.
- Letter of John de Villiers, Master of the Hospital , Describing the Fall of Acre, in King E.J., The Knights Hospitallers, London, 1931, pp.301-302.
- Ludolph Von Suchems : Description of the Holy Land, Trans. By Aubrey Stewart, London, 1895.
- Mansi (I.C), Sacrorum Conciliorum nova et amplissima Collectio , Vol. 21, Graz , 1961.

وقد اعتمدنا علي الترجمة العربية التي قام بها الأب منصور مستريح ونشرت في: صفاء عثمان:مملكة بيت المقدس في عهد الملك بلدوين الثاني في الفترة ٥١٢-٥٢٥هـ (١١١٨-١١٣١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٥م، ملحق رقم ١.

- Matthew Paris's: English History, 3 vols., Trans from Latin by Giles, London, 1853
- Meadows (ed): "Translation and Notice of Two Mongolian Letters to Philip the faire, King of France", in C.R.19 (1850), pp.526-535
- Philip of Novara: The Crusade of Frederick II, in Christian society and the Crusades 1198-1229, tr. Gavigan, ed. Peters, Philadelphia, 1971.

مكتبة المهتدين الإسلامية

- Phocas (Joannes) :The pilgrimage of Joannes Phocas in the Holy Land, trans. By Aubrey Stewart, P.P.T.S. Vol. V, London, 1896.
- Pope Martin IV Proclaims a Crusade Against Peter II of Aragon and the Sicilians, 5 April 1284, in: Documents on the Later Crusades, 1274-1580, ed. Norman Houeley, New york, 1996, pp.25-27.
- Richard of Devizes: Chronicle , trans. By J.A. Giles , Cambridge , 2000.
- Richard of Holy Trinity: Itinerary of Richard I and others to the Holy Land ,trans. by Well-Read, Cambridge, 2001.
- Robertson, James C. (ed.).:Materials for the History of Thomas Becket. Ed. by J. C. Robertson and J. B. Sheppard. 7 vols. , in (R.S., vol.67), London, 1875-1885.
- Rogger of Wendover : The Crusade of Frederick II : from the Chronicle of roger of Wandover the Chronicle , in :Christian Society and the Crusades 1198-1229, tr. Johan paderborn , edited by Edward Peters ,Philadelphia , 1971.
- Second Council of Lyons 1274, introduction and translation taken from decrees of Ecumenical councils, ed. Norman P. Tanner, at: http://www.ewtn.comm/library/councils/Lyons2.htm
- Theoderich: Theodrich's Description of the Holy Places, Trans. By Aubrey Stewart , P.P.T.S. Vol. V , London , 1896.
- The Templar of Tyre, Part III of the Deeds of Cypriots, Translated by, Paul Crawford, England, 2003.
- Thomas a Becket: Thomas Saga Erkibyskups. A life of Archbishop Thomas Becket, in Icelandic, with English translation, Notes and Glossary. Ed. by Eirikr Magnusson. 2 vols. In R.S. , vol. 65, London, 1875-1883.
- Traite Entere la Republiquw de Vinice et le Sultan d'Egypte Malec-Moezz Iibek , in Traites de Paix et de Commerce et Documents Divers, Par De Mas Latrie, Paris, 1872
- Two Bullas of Pope Innocent IV Addressed to Emperor of Tatars, in Mission to Asia, ed. Christopher Dawson, London, 1980, pp.73-76.
- Wiegler (Paul): The Infidel Emperor and his Struggles Against the Pope, London, 1931.
- William of Rubruck: The Journey of William of Rubruck, in: Dawson, Mission to Asia, London, 1980.
- Wurzburg (John):Description of the Holy Land, trans. By Aubrey Stewart, in P.P.T.S., vol. V, London, 1896.
- Xorduim Hospitalairiorum, in R.H.C-O.cc., vol. V, pp.401-435

http://www.al-maktabeh.com

ثالثاً: :المراجع العربية والمعربة :

- إبراهيم خميس (دكتور): جماعة الفرسان الداوية، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.
- أحمد رمضان أحمد(دكتور): المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، في عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٧٧م.
- ــــــــــ: تطور علم التاريخ الإسلامي، حتى نهاية العصور الوسطي، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- أحمد زايد، سيكلوجية العلاقات بين الجماعات، الكويت، ٢٠٠٦م.
- أحمد عبد الكريم سليمان (دكتور): المغول والمماليك في عهد بني قلاوون، القاهرة، ١٩٨٤م.
- إداور بري: القرون الوسطي، ضمن كتاب: تاريخ حضارات العالم، إشراف موريس كروازيه، جـ٣، ٢٠٠٣.
- براور (يوشع): عالم الصليبيين، ترجمة د.قاسم عبده قاسم ود.محمد خليفة حسن، القاهرة، ١٩٨١م.
- ــــــــــ: الاستيطاني الصليبي في فلسطين (مملكة بيت المقدس)، ترجمة عبد الحافظ البنا، القاهرة، ٢٠٠١م.
- توفيق بركات: فن الحرب البحرية في التاريخ الإسلامي، حلب، ١٩٩٦م.
- جمعة الجندي (دكتور): الاستيطان الصليبي في فلسطين، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- جوزيف نسيم (دكتور): لويس التاسع في الشرق الأوسط ١٢٥٠-١٢٥٤م، القاهرة، ١٩٥٩م.
- ــــــــــ: العدوان الصليبي علي مصر هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور، الإسكندرية، ١٩٦٩م
- ــــــــــ : العدوان الصليبي على بلاد الشام هزيمة لويس التاسع في الأرض المقدسة، الإسكندرية، ١٩٧١م.
- حاتم الطحاوي (دكتور): الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، دار عين، القاهرة، ١٩٩٩م.

مكتبة المهتدين الإسلامية

- حسين عطية (دكتور): إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ١١٧١-١٢٨٦م/ ٥٦٧-٦٦٦هـ، الإسكندرية، ١٩٨٩م.
- حسن حبشي (دكتور): نور الدين والصليبيون، القاهرة، ١٩٤٨م.
- حسن عبد الوهاب (دكتور): تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة، الإسكندرية، ١٩٨٩م.
- ـــــــــ: المحاولات التبشيرية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.
- ـــــــــ: تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٩٠م.
- رايلي سميث: ما الحروب الصليبية، ترجمة د.محمد فتحي الشاعر، دار الأمين، القاهرة، ١٩٩٩م.
- رأفت النبراوي (دكتور): العملة الصليبية في مصر والشام، دار نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ١٩٩٦م.
- رأفت عبد الحميد (دكتور): الفكر السياسي في العصور الوسطي، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- رنسيمان (ستيفن): تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ترجمة د.السيد الباز العريني، ط٣، بيروت، ١٩٩٣م.
- زابوروف: الصليبيون في الشرق ، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم ، موسكو، ١٩٨٦م.
- زينب عبد المجيد (دكتورة): الإنجليز في فترة الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٩٦م.
- عادل زيتون (دكتور): العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطي، دمشق، ١٩٨١م.
- عادل هلال (دكتور): العلاقات بين المغول وأوربا أثرها علي العالم الإسلامي، دار عين، القاهرة، ١٩٩٧م.
- عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، (٢٠٥هـ/ ٨٢٠م- ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م)، ترجمة وتعليق د.محمد علاء الدين منصور، مراجعة د.السباعي محمد السباعي، القاهرة، ١٩٨٩م.

http://www.al-maktabeh.com

- عبد الحفيظ محمد علي(دكتور) :مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها علي تاريخ الحركة الصليبية ١١٣١-١١٨٧م، القاهرة، ١٩٨٤م.
- عصام الدين عبد الرءوف (دكتور): الدول الإسلامية المستقلة في المشرق، القاهرة، ١٩٨٧م.
- عفاف صبره (دكتورة): العلاقات بين الشرق والغرب، علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من ١١٠٠- ١٤٠٠ م، القاهرة، ١٩٨٣م.
- علية الجنزوري (دكتورة): الحروب الصليبية ، المقدمات السياسية ، القاهرة، ١٩٩٩م.
- ________: إمارة الرها الصليبية ، القاهرة ، ٢٠٠١م.
- عماد الدين خليل (دكتور): عماد الدين زنكي، بيروت، ١٩٧١م.
- سامية عامر(دكتورة): الصليبيون في فلسطين، جبيل لبنان، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- ستانلي لين بول: سيرة القاهرة، ترجمة د.حسن إبراهيم حسن ود.هلي إبراهيم حسن وإدوارد حليم، ١٩٩٧م.
- سعيد عاشور(دكتور): الحركة الصليبية، جزءان، القاهرة، ١٩٧١م.
- ________: أوربا العصور الوسطى، جزءان، القاهرة، ١٩٩١م.
- ________:الأيوبيون والمماليك، القاهرة، ١٩٩٦م.
- ________: قبرس والحروب الصليبية، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- سيد علي الحريري: كتاب الأخبار السنية في الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩١١م.
- فؤاد عبد المعطي الصياد (دكتور): المغول في التاريخ من جنكيز خان إلي هولاكو خان، القاهرة ، ١٩٦٠م.
- فيشر(هـ أ ل): تاريخ أوربا العصور الوسطي، ترجمة محمد مصطفي زيادة، السيد الباز العريني، إبراهيم العدوى، القاهرة، ١٩٥٧م.
- قاسم عبده قاسم (دكتور): الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين، القاهرة، ١٩٨٢م.

مكتبة المهتدين الإسلامية

- ـــــــــــــ: الخلفية الأيدولوجية للحروب الصليبية، دراسة عن الحملة الصليبية الأولي ١٠٩٥-١٠٩٩م، القاهرة، ١٩٨٣م.
- ـــــــــــــ: ماهية الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٩٣م.
- ـــــــــــــ: عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الدين غانم، طرابلس – ليبيا، ١٩٩٠م .
- محمد خميس الزوكة (دكتور): جغرافية العالم العربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٦م.
- محمد فتحي الشاعر(دكتور): أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، القاهرة، ١٩٩٠م.
- ـــــــــــــ: مصر قاهرة المغول في عين جالوت، القاهرة، د.ت.
- محمد سيد كيلاني: الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، القاهرة، ١٩٨٤م.
- محمد مصطفي زيادة (دكتور): حملة لويس التاسع علي مصر وهزيمته في المنصورة، القاهرة، ١٩٦١م.
- محمد مؤنس عوض (دكتور): الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، القاهرة، ١٩٩٢م.
- ـــــــــــــ: السياسة الخارجية للدولة النورية، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ـــــــــــــ: العلاقات بين الشرق والغرب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- ـــــــــــــ: الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- ـــــــــــــ: الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- محمود الحويري (دكتور): الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، القاهرة، ١٩٧٩م.
- محمود سعيد عمران (دكتور): تاريخ الحروب الصليبية ١٠٥٩-١٢٩١م، الإسكندرية، ١٩٩٨م.

http://www.al-maktabeh.com

- ـــــــــــ: الحملة الصليبية الخامسة، الإسكندرية، ١٩٨٥.
- محمود نديم (اللواء): الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، القاهرة، ١٩٨٣م.
- مصطفي الكناني (دكتور): العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي ١١٧١-١٢٩١م/٥٦٧-٦٩٠هـ، الإسكندرية، ١٩٨١م.
- ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- ممدوح حسين (دكتور): الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضارى، عمان، ١٩٩٨م.
- موريس كين: حضارة أوربا العصور الوسطي، ترجمة د.قاسم عبده قاسم، القاهرة،١٩٩٦م.
- مولر ، و فيز: القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمد وليد الجلاد وسعيد طيان، دمشق، ١٩٨٤م.
- نورمان كانتور: قصة حضارة بداية ونهاية، جـ ٢، ترجمة قاسم عبده قاسم، دار المعارف، ١٩٨٢م.
- هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطي، جـ١، ترجمة أحمد محمد رضا، مراجعة د. عز الدين فودة، القاهرة، ١٩٨٥م.
- هسي: العالم البيزنطي، ترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد، القاهرة، ١٩٨٢م.
- ول ديورانت: قصة الحضارة (عصر الإيمان)، ترجمة محمد بدران، مجـ ٨، جـ ١٥، القاهرة، ٢٠٠١م.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

- Addison (Charles): The History of The Templar, on www.templarhistory.com.
- Amari (Michele): History of the war of the Sicilian Vespers, London.
- Archer (Thomas Andrew): The Crusades, The Story of the Latin kingdom of the Jerusalem, ,London, 1919).

مكتبة المهتدين الإسلامية

- Armstrong (Karen): Holy war , the Crusades and their impacts on today's world , London , 1995.
- Attwater (donald): The Penguin Dictionary of Saints, 3rd , London, 1983.
- Benvenisti (Meron): The Crusaders in the Holy Land, Jerusalem, 1970
- CHaytor (Henry John): A History Of Aragon and Catalonia, on LIRO. http://libro.uca.edu/chaytor/achistory.htm
- Cheyney (Edward): The New Era, New York, 1936.
- Christiansen (Eric): The Northern Crusades, 2nd Edition, England, 1997.
- Conder (Clauder): The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1897.
- The Crusades An, Encyclopedia, ed. Alan V. Murray, 4 vols., Oxford, 2006.
- Curry (Anne): The hundred years war , London, 1993.
- Curzon: The secret history of the Mongols, trans. By Urgungr Onon, London, 2001.
- De Rachewiltz (Agor) : Papal envoys to the great khans , London , 1941.
- Edbury (Peter): The Kingdom of Cyprus and the Crusades 1191-1374.
- ________ : John of Iblin and the Latin king Dom of Jerusalem, New York, 1997, p.58.
- Esq (Addison): The Knights Templars, London, 1852.
- Feiling (Keith): A History of England, London, 1948.
- Fowler (Kenneth): The hundred years war, London, 1971.
- Franzius (Enno) : History of Byzantine Empire Mother of the Nation, New York, 1967.
- Grousset (R): Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem , vol 3 , Paris, 1946.
- Hamilton (Bernard): The Latin Church in the Crusader States, London, 1980.
- Hauck (Albert):

  Friedrich Barbarossa als Kirchenpolitiker ,Leipzig, 1898.
- Hemphery (Stephen):From Saladin to Mongols the Ayybids of Dames, 1193-1250 University of Micigan library , 2004.

http://www.al-maktabeh.com

- Hindley (Geoffrey):The Crusades, A History of Armed Pilgrimage and Holy war , London , 2003.
- Hously (Norman) : Later Crusades 1274-1580, Oxford 1992.
- Howorth (Henry): History of the Mongols, part III, London, 1876.
- Hutton (William): Philip Augustus, London, 1896.
- Kantorowicz (Ernst): Fredrick the Second 1194-1250, translated by E. O. Lorimer, New York, 1957.
- Jones (J. Sydney): The Crusades Biographies, ed. By Marica Merryaman and neil Schlager, London, 2005
- King (E. j.) : The Knights Hospitallers in the Holy Land , London, 1930.
- Kington (Thomas Lawrence): History of Frederick the Second, emperor of the Romans : from chronicles and documents, 2 vols., London, 1862.
- Knowles: Thomas Becket, California, 1970.
- Kurkjian (Vahan):A History of Armenia, on http:/Penelope.uchicago.edu/Thayer/E/Gazetter/Places/Asia/Armenia/_Texts/KURARM/30*.html.
- La Monte (John): Feudal Monarchy in the Latin king of Jerusalem 1100-1291, New York , 1970.
- Lane (frederic C.):Vince A Maritime Republic, London, 1973.
- Lloyd (Simon):The English Society and the Crusade, 1216-1307, Oxford, 1988.
- Maier (Christoph): Crusade Propaganda & Ideology : Model Sermons for the Preaching of the Cross, Cambridge , 2000.
- Marshall (Christopher):Warfare in the Latin East, 1192-1291, London, 1994
- Marin (Sean),: Knights Templar, Wales, 1988
- Mas Latrie: Histoire de l'ile de Chypre Sous le regne des princes de la maison de Lusignan ,III tome , (Paris, 1861)
- ———————:Mas Latrie, Genealogie des rois de Chypre de la famille de Lusignan, Venise, 1888
- Meade (Marion): Eleanor of Aquitaine: A biography, London , 1977.
- Medieval Germany An Encyclopedia, ed. John Jeep, London, 2001
- Michaud, M: Histoire des Croisades, 5 tomes, Paris, 1825.

مكتبة المهتدين الإسلامية

- Muir (William):The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, London, 1896.
- Neillands (Robin): The hundred years war, London , 1991
- Nicolle (David): Knight Hospitaller, Uxbridge, 2001.
- ————: Hattin 1187 Saladin Greatest Victory, Oxford, 2005.
- ———— : Acre 1291 Bloody Sunset of the Crusader States, Oxford, 2005.
- ———— : The Third Crusades 1191:Ricahrd the Lion heart,
- ————: Saladin and the Straggle for Jerusalem , Oxford, 2006.
- Nicol (Donald):
  - Byzantium and Venice, (Cambridge, 1995),
- Painter : A history of the Middle ages 284-1500; New York, 1954
- Prawer (Joshua):Crusader Institutions, Oxford, 1980.
- Prestwich (Michael): Edward I , London, 1997.
- Read (Pier paul) : The Templars , Phoenix Press , London , 2000
- Richard (Jean): The Crusades 1071-1291, trans by Jean Birrell, Cambridge, 1999
- Runciman (Steven): The Sicilian Vespers, Cambridge, 1992.
- Saunders (John Joseph): The history of the Mongol conquests , London , 1971.
- Saulcy (Felicien de): Numismatiqe des Croisades, Paris, 1847.
- Schregle (Gotz): Die Sultanin von Egypten Sagarat Ad-Dur, Wiesbaden, 1961.
- Schlumberger (G.): Numismatique de L'Orient Latin, (Paris , 1878.
- Setton (Kenneth): The Papacy and the Levant (1204-1571) , Philadelphia , 1976
- Sismondi (J.C.L.): History of the Crusades against the Albigenses in the Thirteen Century, Boston, 1833
- Spuler (Bertold): Die Golden Hord die Nongolen in Eubland, Wiesbaen, 1965.
- Stephenson: Medieval history, Washington, 1944

http://www.al-maktabeh.com

- Stevenson (William): The Crusaders in the East, Beirut 1968
- Throop (Palmer): Criticism of the Crusade: a study of pubic Opinion and Crusade propaganda, Philadelphia, 1975.
- Truman (Christopher): England and the Crusades 1095-1588, Chicago, 1988.
- Walker (Williston): On the increase of royal power in France under Philip Augustus (1888).
- Weir (Alison):Eleanor of Aquitaine, 1st. edition, London, 2000

خامساً: الرسائل العلمية العربية

- إبراهيم سعيد (دكتور): يافا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.، ١٩٩١م.
- أحمد عبد الله: التجارة في الساحل الشامي في القرنين ١٣،١٢م/٦، ٧ هـ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٦م.
- أسامة سيد على أحمد (دكتور): الساحل الشامي ودوره في الصراع الإسلامي الصليبي، في القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٩٩٢م.
- ــــــــــــ : الظهير الشامي ودوره في الصراع الإسلامي الصليبي في القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس ١٩٩٦م.
- أمل البيلي: مجمع ليون الثاني ١٢٧٤م دراسة في مشروع الوحدة بين كنيستي القسطنطينية ورما في القرن الثالث عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ١٩٩٧م.
- الأمين أبو سعدة (دكتور): العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والقوي الإسلامية في المشرق في عهد الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوج، ١٢٥٩-١٢٨٢م (٦٥٧-٦٨١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- بلال محمود (دكتور): الزراعة في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٩٧م.

مكتبة المهتدين الإسلامية

- جرجس فام (دكتور): الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس الصليبية وعلاقاتها الخارجية (١١٩١-١٢٩١ م/٥٧٨ -٦٩٠ هـ) رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب ببنها، جامعة الزقازيق، ١٤١٠هـ/١٩٨٩ م.
- حجازي عبد المنعم (دكتور): السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد عموري الأول، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنوفية، ٢٠٠٦م.
- حسن البطاوي (دكتور): التباين الاجتماعي والخلافات المذهبية في المجتمع الصليبي في بلاد الشام ١٠٩٧-١١٨٧م، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٧م.
- سرور عبد المنعم (دكتور): ا لسياسة الداخلية والخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد فوللك الأنجوي، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية البنات، جامعة عين شمس؛ ٢٠٠٠م.
- سعيد محمد الغمري (دكتور): الطب في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ١٠٩٩-١٢٩١م / ٤٩٥-٦٨٧هـ ، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ٢٠٠٣م.
- سند احمد (دكتور): البريد في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠١م.
- سهير محمد مليجي (دكتورة): المرأة الصليبية في بلاد الشام (١٠٩٨-١٢٦٠) رسالة دكتوراه، كلية البنات، جامعة عين شمس غير منشورة،٢٠٠٢م.
- صبري أبو الخير سليم (دكتور): قيام دولة المغول القفجاق في روسيا وسياستها الخارجية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- صفاء عثمان: مملكة بيت المقدس في عهد الملك بلدوين الثاني في الفترة ٥١٢-٥٢٥هـ (١١١٨-١١٣١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٥م.
- صلاح ضبيع (دكتور): دور الألمان في الحروب الصليبية، ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م - ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنيا، ١٩٩٣م / ١٤١٣هـ.

http://www.al-maktabeh.com

- عاطف مرقص (دكتور): قبرص والقوي الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٩١م.
- عبد الحافظ عبد الخالق يوسف(دكتور): الأسواق في المناطق الصليبية في بلاد الشام في الفترة من ١٠٩٩-١٢٩١م (٤٩٠-٦٨٧هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٩.
- عبد اللطيف عبد الهادي السيد(دكتور): السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الثالث (١١٤٦- ١١٦٣م) رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٩٠م.
- علي السيد علي(دكتور): المجتمع المسيحي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
- لطيفة البوعنين (دكتورة): الحياة الاقتصادية في عكا زمن الحروب الصليبية، ٤٩١-٦٩٠هـ (١٠٩٧-١٣٩١م)، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب بالدمام، ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م).
- محمد عبد الله المقدم : الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة زمن الحروب الصليبية غير منشورة ، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ٢٠٠٥م.
- محمد فوزي رحيل: إمارة بني مزيد أمراء الحلة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٣م.
- محمد محمد أمين (دكتور): الصالح نجم الدين أيوب، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦٨
- مهجه السيد (دكتور): العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام من خلال كتب الرحالة والجغرافيين العرب والأجانب المعاصرين للحركة الصليبية (٤٨٧-٦٩٠هـ/١٠٩٥-١٣٩١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٧م.
- نهي فتحي الجوهري: إمارة طرابلس في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٤م.

مكتبة المهتدين الإسلامية

- هنادي السيد: مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد بلدوين الأول ١١٠٠-١١١٨ م، رسالة ماجستير غير منشورة ، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٦م.

سادساً: الرسائل العلمية الأجنبية:

- Andrew(Alfred John), pope Innocent III as Crusader and Canonist : his relation with the Greeks of Constantinople , 1198-1216, Ph. D. thesis , Cornell University, 1969
- Broadbridge (Anne Falby): Mamluk Ideological and Diplomatic relations with Mongols and Turkic Rulers of the Near East and central Asia (658-807/ 1260-1405), PHD , The faculty of the Division of the Humanities, The University of Chicago, 2001.
- Hilal , Adel: Sultan Al-Mansour Qalawun's Policy with the Latin States of Syria 1279-90 and the Fall of Acre" , M.A. thesis, The American university in Cairo, 1983.
- McDaniel (Ryan James): The Mongols Invasion of the Near east, Master of arts, The faculty of History, San Jose State University, 2005.
- Ryan, James Daniel: The Interrelation of the Oriental Mission and Crusades Activities of the Papacy Under Nicholas IV (1288-1292)", Ph. D. thesis, New York university , 1972.

سابعاً: الأبحاث العربية:

- جان ريشار: "تكوين مملكة بيت المقدس وبنيتها"، ضمن ندوة الصراع الإسلامي – الفرنجي علي فلسطين في القرون الوسطي، تحرير هادية دجاني و شكيل برهان دجاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٤م، ص ١٤٧-١٧٩.
- حاتم الطحاوي (دكتور): القانون البحري لمملكة بيت المقدس الصليبية، قراءة في مجموعة قوانين مملكة بيت المقدس"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجـ(٥٨)، عدد (٤)، أكتوبر ١٩٩٨، ص ٤٧٧-٥٢٩.
- حسن عبد الوهاب(دكتور): "وثيقتا اتفاق السلام بين الجماعات الرهبانية العسكرية ٩ أكتوبر ١٢٥٨م ، ١٣ مارس ١٢٧٥م دراسة وتحليل"، ضمن كتاب دراسات في

http://www.al-maktabeh.com

تاريخ الحضارة الأوربية في العصور الوسطي (المجتمع الصليبي في بلاد الشام)، الإسكندرية، ٢٠٠٠م، ١٨٠-٢١٢.

- حسين محمد عطية (دكتور): مجلس نابلس ٢٣يناير ١١٢٠م وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ص ٣٩-٦٦.
- خير المر (دكتور): "الفرنجة بين المغول والمماليك ، مواقف عشية عين جالوت"، ضمن أبحاث مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ، إربد- الأردن ، ٢٠٠٠م، ص ٧٥١-٧٧٦.
- سعيد عاشور (دكتور): الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي، المجلة التاريخية المصرية، مجلد١١، ١٩٦٣، ص١٩٥-٢١٣.
- السيد الباز العريني: نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين بمملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٣٨-١١٧.
- علي السيد علي(دكتور): الجاسوسية في عصر سلاطين المماليك، مجلة فكر للدراسات والأبحاث، العدد ١٠، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٢٦-١٤٦.
- قاسم عبده قاسم (دكتور): بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية"، مجلة عالم الفكر، الكويت، ١٩٩١م، ص ٣٦٠-٤٠٢.
- ليلى عبد الجواد(دكتورة): علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية ٦٥٩-٧٨٤هـ ١٢٦١-١٣٨٢م"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ٤٦، ١٩٨٦م، ص ٥٧-١٣١.
- محمد مخزوم:تبنين منارة جبل عامل، علي موقع تبنين على الإنترنت:

//www.tibneen.com/jabalAmell.aspx،http

- محمد مؤنس عوض (دكتور): محمد مؤنس، "من عوامل إخفاق المشروع الصليبي"، ضمن كتاب الحروب الصليبية ، قضايا السياسة والعقيدة والمياه ، القاهرة ، ٢٠٠١م، .

مكتبة المهتدين الإسلامية

- ـــــــــــــــ: فكرة الجهاد الإسلامي ودورها في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية"، ضمن كتاب، عصر الحروب الصليبية، بحوث ومقالات، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٩-٧٤.
- ـــــــــــــــ: أضواء علي الطب في المناطق الصليبية، ضمن كتاب، عصر الحروب الصليبية، بحوث ومقالات، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ١١٥-١٥٤.
- ـــــــــــــــ: أضواء علي مستوطنة البيرة الصليبية"، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات، دار عين، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٥٣-٩٤.
- محمود سعيد عمران (دكتور): شارل كونت أنجو بين القسطنطينية وتونس والقدس، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٦، مجلد ١، مارس ١٩٩٨م، ص ١٦٩-١٩٦.

ثامناً: الأبحاث الأجنبية:

- Abulfia (David): Asia , Africa and the Trade of medieval Europe, in C.E.H., VOL. II, ed. Postman & Miller, Cambridge , 2nd edition, 1987, pp.458, 463.
- Amaiti (Reuven) : Edward of England and Abagha Ilkahn , in , TOLERANCE AND INTL1ORANCE, edited By Michael Gervers ,and James M. Powell , New York , 2001, pp.75-82.
- ـــــــــــــــ :“The Conquest of Arsuf by Baybars، Political and Military Aspects”, M.S.R., vol. IX (2005), pp.62-83.
- Baldwin (Marshal): Mission in the Thirteen Century, in: Setton, A History of the Crusades, vol. V, Wisconsin, 1985 pp. 452-518.
- Barber (Malcolm),:The Albigensian Crusades: Wars Like Any Other, from: Dei gesta per Francos, (2001), on: http://www.deremilitari.org/RESOURCES/ARTICLES/barber2.htm
- Boyle (J.A.): The Il-Khans of Persia and the Christian west", in H. T., XXIII, 8 , 1973, pp. 554-563.
- Brundage (James) : Prostitution , Miscegenation and Sexual Purity in the first Crusade , in Crusades and Settlement , the first conference of the society for the Latin east , college Cardiff Press , United Kingdom , 1985, pp.57-65.

http://www.al-maktabeh.com

- Cahen (Claud): - The Mongols and the Near East, in Setton, vol. II., Wisconsin, 1969, pp. 715-733.
- Dotson (John E),- Fleet operational in the first genoese-Venetian war, 1264- 1266, in Viator: Medieval and Renaissance Studies, V. 30, university of California, Los Angeles (1999), on www.deremilitari.org
- Forey: - The Military Order of St. Thomas of Acre, in E.H.R., Vol. 92, No. 364 (Jul. 1977), pp. 481-503.
- Guzman (Gregory): - Simon of Saint-Quentin and the Dominican mission to the Mongol Baiju: A Reappraisal, in: Speculum, vol.46 (April, 1971), pp. 232-249
- Holmes: Life among the European in Palestine and Syria in the Twelfth and Thirteenth Centuries, in Setton, A History of The Crusades, vol. IV , London, 1977. Pp. 3-35.
- Holt (p. m) : Qulawun treaty with Acre in 1283, in E.H.R. , vol. 91. (Oct., 1976), pp. 802-812.
- ——————: Bybirs's treaty with Lady of Buirt in 1269, in, Crusades and Settlement , the first conference of the society for the Latin east , college Cardiff Press , United Kingdom , 1985, pp.243-245.
- The Treaties of the Early Mamluk Sultans with the Frankish States, in BSOAS , vol. 43, no.1 (1980), pp. 67-76.
- Jackson (Peter): - The Crisis in the Holy Land in 1260, in E.H.R. vol. 95, no.376 (jul., 1980) , P. 481-513.
- Jacoby: -The Venetian Privileges in the Kingdom of Jerusalem, in Montjoie ,Studies in Crusade History in Honour of Hans Eberhard Mayer, ed. B.Z. Kedar, J. Riley-Smith and R. Hiestand. Aldershot: Ashgate, 1997, pp.155-176.
- Kedar (Bengamin): Ecclesiastical Legislation in Kingdom of Jerusalem, the Statutes of Jaffa 1253 and Acre 1245" ,in Crusades and Settlement , the first conference of the society for the Latin east , college Cardiff Press , United Kingdom , 1985, pp.225-230.
- ——————: The General Tax of 1183 in the Crusading Kingdom of Jerusalem, Innovation or Adaptation?, in E.H.R., 1974 , pp.339-345.

مكتبة المهتدين الإسلامية

- La Mont : John D'Ibelin the Lord of Beirut, 117-1236 ,in B. (T. XII , 1937)
- ——————————: Lords of Caesaria in the period of the Crusades, in Speculum. Vol.22, no.2 (Apr., 1947), pp. 145-161.
- Larsgatter, Women of Peace And Ware , The roles of European Women at the Siege of Acre. See, http://Moas.athlantia.sca.org/oak/13/acre.htm.
- Le Roulx (J. Delaville) :L'Ordere de Montjoye, in R.O.L. , Tome I, Paris, 1893, pp.42-57.
- Little, (Donald), The Fall of Akka in 690/1291 the Muslim Version, in Studies in Islamic History and Civilization in Honour of professor David Ayalon, Jerusalem, 1986, pp.159-181.
- Maier: The Roles of women in the crusade movement: a survey, in J.M.H., vol.30, 2004, pp. 61-82.
- Mayer : Studies in the history of queen Melisand of Jerusalem, in D. O., vol. XXVI , 1972 , pp. 93-182.
- The Succession to Baldwin II of Jerusalem: English Impact on the East, in D.O. no.93, 1985, pp.139-147.
- McLean: An Eastern Embassy to Europe in the Years 1287-8", in E.H.R, vol.14, no. 54 (Arr., 1899), pp. 299-318.
- Meyvaert:- An unknown letter of Hulagu, Il-Khan of Persia to king Louis IX of France", in Viator, (Vol.11, 1980), pp.245-261 .
- Nickel (Helmut): Some Heraldic Fragment Found at Castel Montfort/ Starkenberg in 1926, and the Arms of Grand Master of the Teutonic Knights, in M.M.J, vol. 24, (1989), pp.35-46.
- Nickerson: The Crusader States 1192-1243, in Setton, A History Of Crusades, Vol. II, Wisconsin, 1969, pp.519-555.
- Nowll: "The historical Prester John", in: Speculum, vol. 28, no. 3 (jul., 1953).pp.435-455.
- Painter (Sidney): "The Crusade of Theobald of Champagne and Richard of Cornwall, 1239-1241" , in Setton , A history of the Crusades, vol. II, Wisconsin:, 1969, pp.463-486.
- Prawer (J):- Social Classes in the Latin kingdom the Franks", in Setton , A history of The Crusades, vol. V, Wisconsin, 1985, pp. 116-192.

http://www.al-maktabeh.com

- ——————: The settlement of the Latin in Jerusalem, in Speculum . Vol. 27, no. 4 , (Oct. 1952), Pp. 490-503.
- Richard (Jean): Agricultural condition in crusade state" in Setton, A History of The Crusades, vol. v, Wisconsin, 1985, pp.251-294.

Riley-Smith (Jonathan): Some Lesser Officials in Latin Syria, in E.H.R., vol.87, no.342, (Jan. 1972). Pp. 2-26.

- Rohricht: La Croisade du prince Edward, de Angleterre", in A.O.L., tome II, Paris, 1884, p.617-629
- Round (J. H): "Some English Crusaders of Richard I", in E.H.R., vol. 18, no.71 (Jul., 1903), pp. 475-781.
- Smith J. M.: Ayn Jalut: Mamluk Success or Mongol Failure?, in H.J.A.S., Vol. 44, No.2 (Dec., 1984), pp. 307-345.
- Strayer (J.R.): The Crusade Against Aragon, in Speculum , vol28. no.1, (Jan. 1953), pp.102-113.
- ——————: The crusades of Louis IX", in: Setton , The History of the Crusades , vol. II, Wisconsin , 1969, pp. 486-518.
- Turner (Hudson): Unpublished Notices of the Edward I , especially of his Relation with the Mongol sovereigns of Persia" , in A.J. , vol. V VIII , London ,1851, pp.45-51.
- Van clev (Thomas): The Crusade of Frederick II, in Setton, The history of The crusades, vol. II. , Wisconsin, 1969, Pp. 86-122.
- Ziada (M. M.): The Mamluk Sultanas to 1293, in Setton, The History of Crusades, vol. II. , Wisconsin, 1969, Pp.734-758.

تاسعاً: مواقع الانترنت:

- موقع دائرة المعارف الحرة: http://enwikipedia.org
- موقع دائرة المعارف الكاثوليكية : http://www.newadvent.org
- موقع دمشق: http://www.syriancastles.com/marquab.htm
- موقع مركز المعلومات الوطني الفلسطيني، علي الانترنت: http://www.pnic.gov.ps/arabic/palestine/town40.html

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفهـــرس

- تقديم ٥
- مقدمة ٧
- تمهيد ١٧
- الفصل الأول
مشاكل توريث عرش المملكة ٣٩
- الفصل الثاني
التراجع الاقتصادي ودوره في انهيار المملكة ٨٣
- الفصل الثالث
الصراعات الداخلية وآثرها علي انهيار المملكة ١٣١
- الفصل الرابع
مشكلات المجتمع في مملكة عكا الصليبية ١٧٥
- الفصل الخامس
اعتماد مملكة عكا علي أوربا ٢٢٥
- الفصل السادس
فشل مشروع التحالف الصليبي المغولي وصعود دولة المماليك البحرية ٢٨٥
- خاتمة ٣٤١
- الخرائط والأشكال ٣٤٧
- قائمة المختصرات ٣٥٣
- قائمة المصادر والمراجع ٣٥٥

http://www.al-maktabeh.com

رقم الإيداع ١١٢٩٧ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولى L.S.B.N. 977 - 322 - 260 -8

مطبعة صحوة

تليفون وفاكس/ ٣٣٨٧١٦٩٣ - ٠١٠١٠٠٩٦٧٨

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

مكتبة المهتدين الإسلامية

al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com